



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
معهد العلوم الإسلامية - قسم أصول الدين

جهود علماء الجزائر في الدعوة و الإصلاح الاجتماعي من سنة 1830 إلى 1954م

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية
تخصص الإمامة والخطابة

إعداد الطالب: علي بن زينب

إشراف: أ.د/ عبد الكريم بوغزالة

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
يوسف عبد اللاوي	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
عبد الكريم بوغزالة	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
الجباري عثمانى	أستاذ محاضر أ	عضوا	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
عيسى بو عافية	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة
محمد البشير بن طبة	أستاذ التعليم العالي	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة
التركي باهي	أستاذ محاضر أ	عضوا	جامعة العربي التبسي - تبسة

السنة الدراسية: 2020 - 2021م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء



أهدي هذا الجهد المتواضع إلى عام وخاص؛

فأما العام:

فإلى كل من سار على درب علماء الإصلاح واقتفى أثرهم لمواصلة

مشوار الإصلاح في الجزائر.

وأما الخاص:

فإلى صديق العمر ورفيق الدرب وأخي الذي لم تلده أُمِّي؛ الذي كان

سببا في مواصلي مرحلة الدكتوراه، الأخ المفضل: إبراهيم ريف، والذي

أسأل الله أن يلحقه أجر كل من استفاد من هذا البحث.

مَشْكُورٌ وَتَقْدِيرٌ



إن من الواجب المتحتم على العبد شكر نعم الله عز وجل الظاهرة والباطنة، ومن ذلك هذا البحث الذي وفقني إليه ربي أولاً وأعاني عليه ثانياً؛ فاللهم لك الحمد والشكر أولاً وآخراً.

وإذا كان شكر الناس من شكر الله تعالى فإنني أثني بمن لهم أكبر الفضل عليّ في هذه الحياة الدنيا -بعد الله عز وجل- ألا وهما الوالدان الكريمان اللذان تعبا على تربيتي صغيراً، وصبراً على فراقني كبيراً فاللهم ارحمهما واحفظهما وبارك فيهما.

وأنتوه أيضاً بدور زوجتي الوفيّة التي تحمّلت عبئاً كبيراً من مسؤولية البيت والأولاد والغربة من أجل أن أتفرغ لإتمام البحث فاللهم هب لي منها قرة عين وجازها عني خير الجزاء.

كما أشكر المشرف الفاضل أ.د عبد الكريم بوغزالة الذي قبل الإشراف على هذه الرسالة رغم ضيق وقته وظروف صحته، وأشكر أيضاً مدير معهدنا أ.د إبراهيم رحمان الذي أفادني نصائحه وتوجيهاته.

وإذ عاهدت نفسي وأنا أكتب البحث أن أذكر أشخاصاً كان لهم علي فضل كبير لإنجاز هذا البحث؛ فأذكر على رأسهم لجنة "مسجد سيدي عبد الله" ممثلة في شيخنا أ.د يوسف عبد اللاوي، والسيد السعيد قينوعة، والسيد البشير زلاسي.

وأيضاً أ.د علي غنايزية الذي أعاني بكتبه وتوجيهاته.

وأيضاً الشيخ عمار بوزير الذي انتفعت بكتبه كثيراً .

وإلى كل مشايخي الذين تعلمت منهم واستفدت منهم.

ولا أنسى كل من أعاني من قريب أو بعيد أو اهتم معي لإنجاز هذا البحث -ممن لا يمكن لهذه الأسطر تعداد أسمائهم وهم كثر-

فإلى هؤلاء جميعاً أقول جزاكم الله خيراً

المقدمة

إشكالية البحث:

أهداف الدراسة:

أسباب اختيار الموضوع:

الدراسات السابقة:

منهج البحث:

صعوبات البحث:

خطة البحث:

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِيهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: 1)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: 70-71)

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فأعظم الناس نفلا من معين الكتاب والسنة هم خير البشر بعد الأنبياء من اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، صحابته رضوان الله عليهم الذين كانوا على الهدي المستقيم، وجاهدوا لإعلاء منارة الإسلام وصنعوا تاريخه المجيد، فأدوا الأمانة ناصحين محسنين حتى ثبتت بهم حجة الله على عباده المسلمين، فاستحقوا أن يكونوا خير القرون.

ثم توالى بعدهم المصلحون سائرین على طريق الدعوة إلى الله على بصيرة، امتثالا لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125)، فحملوا شعلة الإسلام بيضاء نقية، واتبعوا من قبلهم بإحسان ولم يغيروا ولم يبدلوا، ونافحوا عن حياض هذا الدين، وجاهدوا باللسان واللسان، حتى وصلت كتائبهم إلى عصرنا الحاضر.

وإن الناظر في السيرة الدعوية الإصلاحية الناجحة يجد أنها قامت على أسس وقواعد منهجية، مستنيرة بنور القرآن والسنة النبوية.

وعليه كان على كل خلف أن يحصوا طريق من سلفهم من المصلحين والدعاة، فينتقوا المنهج السديد، الذي يصبرهم بمعالم الطريق، وينفوا عنه المنهج السقيم، الذي يضع أمامهم العوائق

والعراقيل، فيرسموا بذلك المنطلق الصحيح لمسيرة الدعوة والإصلاح والتجديد، ويسهموا في تقديم العلاج الملائم لعصرهم المعيش، مع ما فيه من توفير لتراث زاخر للأجيال الصاعدة.

ومن ذلك بلدي الجزائر الذي يزخر بعلماء ودعاة ضربوا أروع الأمثلة في الدعوة والتضحية، وبذلوا النفس والنفيس، تاركين للأجيال بعدهم آثارا زكية وثروة علمية وعملية وفكرية، فألّفوا ودوّنوا وكرّسوا جهودهم ووقتهم لخدمة العقيدة والدين والوطن، ولأجل الحفاظ على هوية الأرض الجزائرية المسلمة، وبرزوا في ميادين وفنون مختلفة كالفقه والتفسير والأدب والتاريخ وما إلى ذلك من المعارف؛ وإذا كان الأمر كذلك فإنه من الواجب علينا - نحن الخلف - أن نبرز شيئا من تراث سلفنا في العصر القريب، ألا وهو عصر الاحتلال الفرنسي، ذلك العهد العصيب الذي لم تشهد الجزائر منذ دخلها نور الإسلام عهدا مظلما مثلما شهدته هذه الفترة؛ فترة شهدت ظلاما حالكا من طرف الاستعمار البغيض، لكنها شهدت في المقابل نورا ساطعا من طرف أبنائها المخلصين، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتبرز هذا المشهد في صورة مختصرة، وفي نفس الوقت كاشفة عن بعض أعمال علمائنا ومواقفهم وإنجازاتهم، من خلال جهودهم في مجالات مختلفة وميادين متعددة، علما أن هذه الدراسة ما هي إلا قطرة من بحر وذرة من تراب في وسط الميادين التي ولجوها والمعارك التي خاضوها والغنائم التي جمعوها.

كما أن هذه الدراسة جاءت لتصل بالقارئ المنصف إلى قناعة أن جهود علمائنا توجب كل إكبار وتقدير بعد أن يقف متعجبا أحيانا، وحيران أحيانا أخرى أمام كل المعوقات والتحديات.

وإذا كان تاريخ الجزائر فترة الاحتلال الفرنسي حافلا بالمواضيع في مختلف الجوانب السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية التي لاتزال في حاجة إلى المزيد من التنقيب والدراسة، فإن البحث جاء ليخصص جانبا مهما وهو الدعوة والإصلاح الاجتماعي، وإذا كان ميدان الدعوة والإصلاح الاجتماعي لوحده ميدانا فسيحا فإن البحث اقتصر على أهم جوانبه بذكر بعض النماذج تعريضا للبعض عن الكل.

ولما كانت مرحلة التاريخ الحقيقي للاستعمار الفرنسي تبدأ من 1830 إلى 1954، والتي تمثل اكتمال نهاية المرحلة الاستعمارية الاستخراجية، ومرحلة الثورة 1954 - 1962 تمثل مرحلة انتقالية أو مخضومة لم تشمل الدراسة المرحلة الأخيرة، وعليه كان العنوان المقترح هو:

"جهود علماء الجزائر في الدعوة والإصلاح الاجتماعي :

من سنة 1830 إلى 1954م"

إشكالية البحث:

لقد جاء البحث ليرز جهود علمائنا الجزائريين في فترة عصيبة، هي فترة الاحتلال الفرنسي: 1830 - 1954، وفي ميادين محدودة، ومن هذا المنطلق نطرح إشكالية محورية وهي:

- ما هي أهم الجهود الدعوية والإصلاحية لعلمائنا الجزائريين في هذه الفترة؟
- ويتفرع الجواب عن هذه الإشكالية العامة، الجواب عن إشكاليات فرعية نحملها فيما يلي:
- ما هي أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية لهذه الفترة الزمنية المدروسة التي ستكون محلا للدعوة والإصلاح؟
- ما هي أبرز الجهود الدعوية، وماهي أبرز الجهود الإصلاحية لعلمائنا في هذه الفترة؟
- هل كان لهذه الجهود تطور تاريخي ونوعي فترة الاحتلال؟
- من خلال هذه الجهود ما هي أبرز التحديات التي صادفتهم في مواجهة تعسفات الإدارة الفرنسية؟
- هل اقتصرت هذه الجهود على مناطق معينة، وهل اقتصرت على علماء ذوي توجهات معينة؟
- ما هي أهم الوسائل التي اتخذها علمائنا في نشاطهم الدعوي والإصلاحي؟
- ماهي مآخذ العلماء من خلال هذه الجهود، وما هي آفاقها في واقعنا المعاصر؟

أهداف الدراسة:

- ترجع أهداف هذا الموضوع إلى جوانب متعددة، يمكن إجمالها في النقاط التالية:
- إظهار طرف يسير من المكانة الدعوية والإصلاحية لعلمائنا الجزائريين المستمدة من مسيرتهم العلمية والفكرية والواقعية.
- كيفية الاستفادة من المنهج الدعوي والإصلاحي للعلماء والدعاة، وكيفية التعامل مع الظروف المختلفة؛ من خلال الاستفادة منها عمليا و تنزيلها على واقعنا المعاصر.
- توعية الشباب الطموح، والعاملين في مجال الدعوة بجهود علمائهم ومناهجهم وأساليبهم في الدعوة والتغيير، حتى يستفيدوا منها ويتفألوا بمطلع جيل جديد.
- التعريف بثروة الجزائر الفكرية التي يجهلها الكثير، وإخراج مكانة علمائها من طي

- النسيان إلى حيز الذاكرة، والاحتفاء بهم .
- تقييم هذه الجهود بالمقارنة مع التعسفات الفرنسية.
 - الحفاظ على هوية المجتمع الجزائري بربط حاضره بماضيه الذي صمد أمام كل التحديات من خلال جهود علمائنا الأجلاء.
 - بيان أهمية الدعوة الصادقة في المجتمعات المستضعفة، رغم صعوبة الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية، وعدم تكافؤ وسائل المواجهة، وغرس فكرة أن الله ينصر من ينصره.
 - الرد على الذين يدعون أن الجزائر لا ثقافة في تاريخها الطويل، وأولهم فرنسا.
- وإذا كان لهذا الموضوع أهمية معتبرة في جوانب متعددة ومتنوعة، فلعله يكفيه ارتباطه بعلم شريف وهو الدعوة إلى الله تعالى، والذي تزداد الحاجة إليه في هذا العصر في ظل التحديات الداخلية والخارجية، وفي ظل التغيرات السياسية والاجتماعية، ولازم ذلك أن اقتفاء آثار من قبلنا الذين ساروا على المنهج السليم له أثره البالغ في سلوك سبيل النصر والنجاح.

أسباب اختيار الموضوع:

- هناك أسباب عدة وجهت لاختيار هذا الموضوع، منها:
- كوني من الجزائر ومحبا لعلماء بلدي ، فأحببت أن يُضم سهمي إلى سهام الجزائريين الذين أثروا هذا المجال المعرفي.
 - يعتبر البحث تحقيقا لميول شخصية، يتمثل في الجمع بين شيئين مرغوبين هما التطرق إلى علم الدعوة، و خدمة التراث الجزائري.
 - الرغبة في كون البحث من المواضيع التي لها أثر في حياتنا المعاصرة، فهو لا يتعلق بمنهج نظري، ولا بمنهج دعوي لعالم واحد، بل هو بحث يتعلق بجهود دعوية وإصلاحية مبذولة من علماء أجلاء خلال حقبة زمنية مرت بأحداث وظروف متباينة يمكن الاستفادة منها.
 - النتيجة المرجوة من إبراز الجهود الدعوية لعلماء الجزائر خلال هذه الفترة، والتي هي دعوة صريحة لاقتفاء آثارهم في طريقة الدعوة والإصلاح، ودعوة ضمنية لتصحيح فكرة أن الجزائر لم تكن تملك تراثا فكريا وزادا علميا كبيرا.
 - حتى يقف الباحث بنفسه على الجهود الجبارة -التي بذلها العلماء الجزائريون- المبنية على دراسة موضوعية منصفة، بعيدا عن الإطراء المبالغ والمدح غير المستحق ، وبعيدا عن

الحقائق المزورة والاتهامات الفاسدة.

- ومن أسباب اختيار الموضوع أيضا كونه من المواضيع التي لم يُتطرق إليها بهذه الصورة، وهو إبراز الجهود الدعوية والإصلاحية لعلمائنا الجزائريين في هذه الفترة وإن كانت مبثوثة ومتفرقة في بطون التراث الجزائري.

الدراسات السابقة:

إن المتأمل في العنوان يجده يجمع عدة عناصر مميزة وهي: العلماء الجزائريين، والجهود الدعوية والإصلاحية، وعنصر آخر هو تعلقه بحقبة زمنية محددة بالاحتلال الفرنسي من 1830 إلى 1954. ولذا فإن البحث عن الدراسات السابقة المطابقة يُنظر فيه اجتماع هذه العناصر الثلاث، وبالإطلاع والبحث عما كتب في هذا الشأن لم أجد من تطرق لهذا الموضوع بهذه الصورة لكن يحسن التنبيه أن الدراسات المتعلقة بجهود العلماء الجزائريين قسمان:

قسم يتعلق بالجهود المفردة المتنوعة مثل خدمة القرآن الكريم، وخدمة السنة النبوية، وخدمة المذهب المالكي، وغير ذلك مما يستفاد منه في بعض الجوانب، وغالب هذه الدراسات تكون الفترة الزمنية المدروسة من عصر الفتح الإسلامي وتتوقف عند آخر العهد العثماني. وقسم يتعلق بالجانب الدعوي والإصلاحي الممتد طيلة فترة الاحتلال، لكنه مرتبط بجهود محددة، وهي قليلة بالنسبة للجهود المذكورة في الدراسة مثل:

- رسالة ماجستير: جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962م، عبد الرؤوف قرنا ب.

- أطروحة دكتوراه: الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي 1830-1962، ملاح الهواري.

وهاتان الدراستان وإن استفدت منهما في كثير من المعلومات والمراجع في الجزئية المدروسة إلا أن الخلاف يبقى في طريقة عرض المعلومات، إضافة إلى التنوع في إضافة بعض النماذج. أما الجهود التي لا تمتد طيلة فترة الاحتلال فهي جهود متعلقة ببعض الشخصيات أو بعض المناطق أو بعض الهيئات خاصة جمعية العلماء المسلمين -والتي فيها كتب لا بأس بها-، يستفاد منها في استخراج معلومات ونماذج في أبواب محدودة، ومن أمثلة هذا الأخير:

- جهود أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقرير توحيد العبادة والرد على

المخالفين فيه، سليم مجوبي، رسالة ماجستير.

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية: 1931-1945، بو الصفصاف عبد الكريم.

- ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، يوسف بوغابة.

- الشيخ عبد الحميد بن باديس: رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، تركي رابح.

- التعليم القومي والشخصية الوطنية: 1931-1956، تركي رابح.

- الشيخ عبد القادر المجاوي، أعمال الملتقى الوطني بتلمسان.

- رسالة دكتوراه: أعلام الحركة الإصلاحية بالغرب الجزائري: دراسة في السير والمواقف، بلعربي عمر.

- رسالة ماجستير: الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيان وميزاب بين سنتي 1920 و1954، عبد القادر قوبع.

ولا ننسى الكتاب المهم، وهو موسوعة الدكتور أبي القاسم سعد الله: كتاب " تاريخ الجزائر الثقافي " - عشر مجلدات - الذي استفدت منه كثيرا، إلا أن طريقة عرضه للمعلومات كثيرا ما تحتاج إلى بحث وتنقيب وإعادة ترتيب يناسب الخطة المتبعة في البحث، ومهما عظم هذا الكتاب فإنه لا يمكنه الإحاطة بأغلب الجهود والنماذج ، مما جعلني أستقي كثيرا من المعلومات والنماذج من مصادر ومراجع أخرى.

ويمكن أن نجمل طبيعة الدراسات المعتمدة في البحث، وهو تعلقها بمجالات مكونات العنوان:

فجغرافية الجزائر تشمل الشمال والجنوب والشرق والغرب، وتشمل المدن والقرى، والقبائل والصحراء.

والجانب التاريخي يشمل فترة دخول المحتل الفرنسي، ومرحلة المقاومات الشعبية، ومرحلة ظهور الحركة الإصلاحية، ومرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وجانب العلماء من حيث الأفكار يشمل الإصلاحيين والصوفية والإباضية وموظفي الإدارة الفرنسية.

وأما جانب الجهود فتشمل كل ما اندرج تحت مفهوم الدعوة ، والإصلاح الاجتماعي،

وهي كثيرة جدا.

وبهذه الإطالة العابرة يظهر جليا أن البحث في هذا الموضوع يلزم منه تقصيا وجهدا في جمع المعلومات وانتقاء الشخصيات ودراسة الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعية والدينية، فضلا عن الترتيب والتنسيق والانتقاء، وبعد ذلك استنتاج الأحكام المتعلقة بالموضوع وجمعها في إطار دعوي مناسب، فهو لا يتعلق بشخص معين ولا هيئة معينة ولا جهة معينة ولا عقد معين، وكل ما كتب حول هذا الموضوع يقصر عن الإلمام بهذه العناصر، ويخرج البحث عن سابقه من الدراسات.

منهج البحث:

تختلف مناهج البحوث باختلاف طبيعة البحث المراد دراسته، ومن ذلك هذا البحث الذي استدعى لدراسته سلوك:

المنهج الاستقرائي: وذلك باستقراء معلومات الموضوع الواحد خلال الفترة الزمنية المدروسة.

المنهج الوصفي التحليلي: الذي اعتمد على جمع المواقف وكثير من الإنجازات في قضايا متعددة تدخل في جوانب تاريخية اجتماعية ودينية وسياسية ومن تم توصيف وتحليل الظاهرة الاجتماعية المتمثلة في الدعوة والإصلاح.

أما عن منهجية البحث: فالطريقة التي سرت عليها كانت كما يلي:

- اعتمدت في كتابة الآيات القرآنية على رواية حفص عن عاصم بالرسم العثماني.
- خرّجت الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية تخريجا غير موسع، مع الحكم عليها.
- اعتنيت بعلامات الترقيم.
- لما كان الأعلام كُثُرًا في هذا البحث قمت بترجمة الأعلام الجزائريين الذين كانت لهم جهود دعوية، واستثنت ترجمة مؤلفي الكتب، وقد أترجم لغير من ذكرت إذا جاءت مناسبة.
- حاولت توثيق المعلومات من المصادر الأصلية، وإلا فالفرعية، مقدما اسم الكتاب ثم اسم الكاتب، ثم الجزء والصفحة، وأخّرت معلومات الكتاب إلى قائمة المصادر والمراجع؛ حتى لا تثقل الهوامش بشيء يتكرر في فهرس المصادر والمراجع.
- وضعت فهرس آخر البحث على النحو التالي:

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

صعوبات البحث:

لقد صادف إنجاز هذا البحث صعوبات وعراقيل متعددة أهمها:

- صعوبة هذا الموضوع لكونه متشعب الأطراف، ولا يمكن لأطروحة دكتوراه أن تعطيه حقه إلا أن يُعدل إلى طريقة ذكر النماذج لكل عنصر؛ حيث شملت فترة كبيرة امتدت قرابة قرن وثلث قرن، وشملت فترات متباعدة أثرت على المناهج الدعوية وأساليبهم وآثارهم، فشملت فترة دخول المحتل وفترة الثورات الشعبية وفترة ظهور الحركة الإصلاحية، وفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما أنها لم تقتصر على صنف معين من العلماء بل شملت جميع علماء الجزائر بما فيهم الإصلاحيون والصوفيون والإباضية وموظفو الإدارة الفرنسية.

- صعوبة الانتقاء بين مواضيع الدعوة والإصلاح بالنظر إلى طول فترة الدراسة.

- الإشكال في السير على منهج واحد في اختيار نماذج العلماء، لذا حاولت التنوع بين ذكر المشهورين أحيانا وبين إبراز المغمورين أحيانا أخرى، مع التنوع في ذكر مناطق مختلفة، وتوجهات متباينة.

- شح المعلومات التفصيلية في عدد من جوانب الموضوع، خاصة القرن التاسع عشر فترة الاحتلال.

- الظرف الخاص الذي أُنجز فيه البحث ، وهو فترة وباء كورونا الذي ضرب العالم ، وأُغلق فيه كل شيء ؛ شملت المكتبات والجامعات، وفُرض فيه الحجر ومُنع معه التنقل.

- هذا الظرف مع أنه وقّر نوعا من التفرغ إلا أن صعوبة الحصول على كثير من المصادر والمراجع صعب في مهمة البحث، وهذا ما جعلني أرجع في كثير من الأحيان إلى مراجع فرعية.

- يلاحظ على الشبكة الالكترونية افتقارها إلى كثير من الكتب الجزائرية المهمة التي لم أتمكن من الحصول عليها إلا بعد إنجاز البحث أو قريبا من ذلك، فضلا عن المكتوب باللغة الأجنبية.

- صعوبة التعامل مع الصحف الجزائرية المتعلقة بالبحث، سواء من حيث كثرتها أو تحميلها أو القراءة منها أو استخراج المعلومات منها، علما أني جردت جرائد جمعية العلماء المسلمين ورتبت مواضيعها أول الأمر لأجد أنها لا تسد إلا جزءا صغيرا من هذا البحث، ولا يمكن إلا ذكر نماذج منها.

خطة البحث:

تم تقسيم البحث إلى مقدمة، وفصل تمهيدي، وثلاثة فصول، وخاتمة، وفهارس علمية، وهذا أوان بيانها تفصيلا:

مقدمة: واشتملت على إشكالية البحث، وأهداف البحث، وأسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وصعوبات البحث، وخطة البحث.

الفصل التمهيدي:

المبحث الأول: مفاهيم الدعوة والإصلاح والعلاقة بينهما.

المطلب الأول: الدعوة لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: الإصلاح الاجتماعي لغة واصطلاحا.

المطلب الثالث: العلاقة بين الدعوة والإصلاح الاجتماعي في المفهوم والتطبيق العملي.

المبحث الثاني: أركان الدعوة والإصلاح الاجتماعي.

المطلب الأول: الداعي والمصلح الاجتماعي.

المطلب الثاني: المدعو والمجتمع محل الإصلاح.

المطلب الثالث: موضوع الدعوة والإصلاح

المطلب الرابع: الوسائل والأساليب في الدعوة والإصلاح.

المبحث الثالث: أوضاع الجزائر فترة الاحتلال 1830 - 1954

تمهيد

المطلب الأول: الأوضاع السياسية

المطلب الثاني: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

المطلب الثالث: الأوضاع الدينية والثقافية

الفصل الأول: الجهود الدعوية لعلماء الجزائر من 1830 إلى 1954

المبحث الأول: تصحيح العقيدة وتقوية الإيمان.

المطلب الأول : تقرير التوحيد وإبطال الشرك ومحاربة البدع والخرافات

المطلب الثاني: الرد على الطرق الصوفية المنحرفة

المبحث الثاني: غرس القيم وتهذيب الأخلاق.

المطلب الأول: ماهية الأخلاق وأهميتها

المطلب الثاني: واقع الأمة الجزائرية الأخلاقي

المبحث الثالث: تعليم الفقه و تصحيحه والتصدي للفتاوى.

المطلب الأول: خدمة الفقه وتصحيحه

المطلب الثاني: خدمة الفتوى

المبحث الرابع: محاربة التنصير

المطلب الأول: ماهية التنصير

المطلب الثاني: السياسة الفرنسية نحو التنصير

المطلب الثالث: جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير

الفصل الثاني: الجهود الإصلاحية لعلماء الجزائر من 1830 إلى 1954

المبحث الأول: الحفاظ على الهوية الوطنية.

تمهيد:

المطلب الأول: الهوية الوطنية والسياسة الفرنسية

المطلب الثاني: الحفاظ على الهوية من خلال الرد على الاندماج والتجنيس والمحافظة على

التاريخ

المبحث الثاني: الاهتمام بالتعليم والحفاظ على اللغة العربية

المطلب الأول: الاهتمام بالتعليم

المطلب الثاني: الحفاظ على اللغة العربية

المبحث الثالث: معالجة الانحرافات والمشاكل الاجتماعية

المطلب الأول: الاهتمام بالمرأة

المطلب الثاني: الآفات الاجتماعية

الفصل الثالث: وسائل الدعوة والإصلاح وآفاقها وتحدياتها

المبحث الأول: وسائل الدعوة والإصلاح الاجتماعي

المطلب الأول: الوسائل التقليدية

الفرع الأول: التعليم والتثقيف العام.

الفرع الثاني: الكتابة والتأليف.

الفرع الثالث: الرحلات والزيارات

المطلب الثاني: الوسائل المعاصرة

الفرع الأول: الصحافة.

الفرع الثاني: الجمعيات والنوادي.

المبحث الثاني: مآخذ الحركة الدعوية والإصلاحية فترة الاحتلال الفرنسي

المطلب الأول: التنافس والعداوات

المطلب الثاني: الوظيف الفرنسي

المطلب الثالث: الوسائل التقليدية

المطلب الرابع: الصوفية

المطلب الخامس: الدعوة والأفكار الفردية

المبحث الثالث: استثمار آثار الدعوة والإصلاح في واقعنا المعاصر

المطلب الأول: الاهتمام بالثوابت الدينية والوطنية

المطلب الثاني: محاربة الأحزاب الداخلية الموالية لأعداء الجزائر

المطلب الثالث: تحقيق التوافق بين الانتماء الشرعي ومواكبة الحضارة

المطلب الرابع: استغلال الوسائل الدعوية المستجدة

المطلب الخامس: الزهد في المناصب السياسية

المطلب السادس: الاهتمام بالعامل الاقتصادي في سير المشاريع الدعوية

المطلب السابع: تفعيل دور العلماء في حلّ مشاكل الأمة

الخاتمة: وأذكر فيها أهم نتائج البحث، مع ذكر بعض التوصيات في هذا المجال.

الفصل التمهيدي

المبحث الأول: مفاهيم الدعوة والإصلاح والعلاقة بينهما.

المبحث الثاني: أركان الدعوة والإصلاح الاجتماعي.

المبحث الثالث: أوضاع الجزائر من: 1830

إلى 1954م



المبحث الأول:

مفاهيم الدعوة والإصلاح والعلاقة بينهما.

المطلب الأول: الدعوة لغة واصطلاحاً.

1- الدعوة لغة:

الدعوة من دعا يدعو دعاء ودعوة، اسم مَرَّة من دعاه ودعا إليه، ودعا عليه، ودعا له⁽¹⁾. تقول: دعوت الله له بخير وعليه بشر. والدعوة: المرة الواحدة من الدعاء⁽²⁾. قال ابن فارس: " الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول: دعوت أدعو دعاء. والدَّعوة إلى الطعام بالفتح، والدَّعوة في النسب بالكسر. قال أبو عبيدة: يقال في النسب دَعوة، وفي الطعام دَعوة. هذا أكثر كلام العرب"⁽³⁾.

والدعوة الحلف، يقال: دعوة فلان في بني فلان. وبعض العرب يؤنث الدعوة بالألف فيقول الدعوى⁽⁴⁾.

دلت هذه المعاني على أن "دعا" وما يشتق منه يدور على معنى إمالة المدعو نحو الداعي، في الخير أو الشر.

2- اصطلاحاً:

اختلفت تعريفات الدعوة تبعاً لاختلاف وجهات نظرهم لها وتحديد معناها؛ هل هي تبليغ وبيان، أم علم وتعليم، أم تعريف عام يشمل الدين؟ ومن هذه التعريفات ما يلي:

التعريف الأول: "حَثَّ الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار، 749/1.

(2) لسان العرب، أبو الفضل محمد ابن منظور الأنصاري، 259/14.

(3) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، 279/2.

(4) تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي، 49، 46/38.

لَيَفُوزُوا بِسَعَادَةِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ"¹.

التعريف الثاني: "قيام العلماء المستنيرين في الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يُبَصِّرُهُمْ بأمور دينهم ودُنياهم، على قدر الطاقة"².

التعريف الثالث: "العلم الذي تعرف به كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام مما حوى عقيدة وشريعة وأخلاقاً"³.

ولعل أجمع التعاريف ما ذكره أبو الفتح البيانوني في كتابه "المدخل إلى علم الدعوة" بأنه: "تبليغ الإسلام للناس، وتعليمهم إياه، وتطبيقه في واقع الحياة"⁽⁴⁾.

وهذا التعريف يظهر جلياً من خلال بيان مهمة الرسول صَلَّى الله عليه وسلم في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَئِي ضَلَّلِ مُبِينَ﴾ (الجمعة: 2). فقوله تعالى: "يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ" تبليغ لهم ما يوحى إليه من ربه. وقوله: "وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ" تعليم لهم وتربية على المبادئ الصحيحة التي جاء بها الوحي. وقوله تعالى: "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَئِي ضَلَّلِ مُبِينَ" تربية وتطبيق لتعاليم الدين فيما بينهم. والكتاب هنا القرآن الكريم، والحكمة هنا السنة النبوية - كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء-⁽⁵⁾

فالدعوة على هذا حركة إحياء للنظام الإلهي الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الكريم. ولمصطلح الدعوة إلى الله تعالى بناء على هذه التعاريف علاقة مباشرة بمصطلحات أخرى: كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، والوعظ، والتذكير، والاحتساب، والإصلاح، والتجديد، فمفهوم الدعوة إلى الله تعالى يضمها جميعاً⁽⁶⁾.

¹ أصول الدعوة وطرقها 1، مناهج جامعة المدينة العالمية، ص 10.

² المرجع نفسه.

³ الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، عبد الرحيم المغذوي ، ص45.

(4) ص17

(5) ينظر المصدر نفسه/ أصول الدعوة ومناهجها، د. رمضان محمد مطاير، ص14.

(6) الدعوة الإصلاحية في بلاد نجد على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب وأعلامها من بعده، عبد الله بن محمد المطوع، ص21.

المطلب الثاني: الإصلاح الاجتماعي

1- الإصلاح لغة:

الإصلاح مصدر أصلح. من صلح الشيء: إذا زال عنه الفساد، صلح له الأمر: ناسبه ولاءمه ووافقه، صلح الشخص: استقام وأدى واجباته، أصلح بين الناس: أزال ما بينهم من عداوة وشقاق، أصلح الشيء: أزال فسادَه، ورثه ونظمه⁽¹⁾.

2- اصطلاحاً:

الإصلاح: "هو الرجوع إلى الإسلام"⁽²⁾. وهذا تعريف عام يشمل جميع مناحي الحياة. وقيل: "هو تصويب ما اعوج في ممارسة أمور الدين والدنيا عند المسلمين، والعودة بها إلى الأصل الذي لم يلحقه زوائد ومحدثات"⁽³⁾. وقيل: "عمليات ومشروعات دائمة ومستمرة في التطوير والتغيير الإيجابي، تستغرق جهود كل المخلصين من أجل إنقاذ الأجيال وحماية الأوطان"⁽⁴⁾. فيكون من معنى الإصلاح التغيير إلى الأحسن، بالاستقامة على الدين وتحقيق التقدم وتحديث المجتمع.

والإصلاح قبل ذلك كله مهمة الرسل والأنبياء وأتباعهم على مدار التاريخ والزمان، وشعارهم الدائم المعبر عن جوهر رسالتهم: ﴿إِن أَرِيدُ إِلَّا الْأَصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: 88).

ويرى الطاهر ابن عاشور أن جماع الصلاح هو صلاح الاعتقاد، وصلاح العمل، وقد جمع ذلك قوله ﷺ في حديث مسلم عن أبي عمرة الثقفي، قال: قلت يا رسول الله قل لي في

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة، 1311/2-1312، وينظر لسان العرب، 517/2.

(2) فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم، محمود علي عبد الحليم، ص15.

(3) الخطاب الإصلاحية في المغرب، عبد الله، بلقزيز، ص15.

(4) منهج الإسلام في الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، أحمد حلمي سيف النصر

الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم»⁽¹⁾.
 "ولإمكان اعتبار أي تغييرات في وضع ما إصلاحاً لأبد من توافر الشروط أو الظروف
 التالية:

- 1- أن يكون هناك وضع شاذ يحتاج إلى إصلاح أو علة تحتاج إلى دواء. إذ أنه في ظل غياب الوضع الشاذ فإنه لا مبرر للإصلاح، لأنه يصبح أقرب إلى الترف. فالعلة قد تكون غياب العدالة أو الحرية أو انتشار الفقر أو المرض وعدم الاستقرار، فالعلة تساعد في تحديد موطن الخلل لكي يتم اختيار العلاج الشافي.
 - 2- أن يكون التغيير نحو الأفضل، فتسود الحرية محل الاستبداد، أو العدالة محل الظلم، أو الأمن محل الخوف والتعليم محل الأمية، أو الاستقرار محل الفوضى.
 - 3- أن يكون التغيير له صفة الاستمرارية ولا يتم التراجع عنه، فالتغييرات المؤقتة التي يمكن التراجع عنها لا يمكن اعتبارها إصلاحاً بالمعنى الحقيقي للكلمة"⁽²⁾.
- 3- معنى (الاجتماعي):**

نسبة للاجتماع، وهو مصدر اجتماع. تقول: اجتمع ويجتمع به، اجتماعاً، فهو مُجْتَمِع، والمفعول مُجْتَمَعٌ به؛ واجتمع القومُ: انضمَّ بعضهم إلى بعض، اتَّحدوا واتفقوا؛ واجتمع به، اجتمع معه: التقى به أو قابله⁽³⁾.

والعلوم الاجتماعية: العلوم التي تُعنى بالجوانب الثقافية والاقتصادية والسياسية للمجتمع كعلم الاجتماع وعلم السياسة، في مقابل العلوم الإنسانية والطبيعية؛ والتنافس الاجتماعي: تنافس بين الطوائف والطبقات في المجتمع الواحد؛ وما يتصل بالوضع الاجتماعي عامة يسمى حياة اجتماعية⁽⁴⁾.

(1) صحيح مسلم، جامع الإيمان، 65/1، رقم 38، لكن بلفظ: "قل: آمنت بالله، فاستقم".

وينظر هذا الرأي: جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، محمد الطاهر الميساوي، 727/2.

(2) الإصلاح السياسي والحركات الإصلاحية في المنطقة العربية، د. محمد تركي، <https://www.politics-dz.com/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%>

(3) معجم اللغة العربية المعاصرة، 392/1

(4) المرجع نفسه، 1/ 393-394

4- الإصلاح الاجتماعي:

يتنوع الإصلاح في الاصطلاح حسب الاتجاه المضاف إليه، فقد يكون سياسيا، أو اقتصاديا، أو تربويا، أو اجتماعيا، أو...، ومما قيل في تعريف هذا الأخير أي-الإصلاح الاجتماعي- أنه "مجموعة الأنشطة التي تهدف إلى إعادة التنظيم للمؤسسات الاجتماعية للوصول إلى مستوى أفضل من العدالة الاجتماعية، كما يقصد به القضاء على الفساد في الأجهزة الحكومية والمتناقضات في أهداف المؤسسات المختلفة ونظمها"⁽¹⁾.

وعلى هذا فإن الإصلاح الاجتماعي قائم على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد يتداخل حينئذ مع الإصلاح السياسي والاقتصادي والسلوكي.

وهذا المعنى العام للإصلاح نجده حاضرا بكثرة في الأوساط المتخلفة حضاريا، إضافة إلى المجتمعات المحتلة، والأوساط المظلومة كالأقليات المسلمة في البلدان ذات التوجه العنصري.

ويرى البعض أن الإصلاح الاجتماعي يتركز على إصلاح الأسرة، باعتباره أساس الإصلاح الذي يهتدي به المصلح؛ ليشيع الإصلاح في كل جانب. ولأن الأسرة هي نواة المجتمع⁽²⁾.

وبعض آخر يرى أن المضامين التي يلتقي عليها الإصلاح في المغرب تنطلق من الوعي بالتخلف. فالواقع المتردي للمسلمين عموما وبالمغرب على وجه الخصوص هو تفریطهم في دينهم، و أنه ليس هناك من حل إلا تثبيت أسس الإيمان القوي من أجل التصدي إلى حملات الغزو والاستعمار والاستلاب الثقافي. بذلك يكون العنوان العريض للفكر الإصلاحية هو: العودة إلى الإسلام⁽³⁾.

وسبب الاهتمام بالإصلاح الاجتماعي لأنه مقدم على غيره، ولأنه يشكل حجر الزاوية في عملية الإصلاح، فالسياسي يخرج من المجتمع الصالح، والاقتصادي يخرج من المجتمع الصالح، والمعلم الذي يصلح أحوال التعليم ويصوب الأفكار يخرج من المجتمع الصالح، فإذا

(1) المرجع السابق، 2/ 1312

(2) معالم الإصلاح الاجتماعي عند علال الفاسي، د. عثمان كضوار،

<http://maqassed.ma/article/detail/493>

(3) المرجع نفسه.

فسد الذوق الاجتماعي، فسد ما يحيط به⁽¹⁾.

وقد فرّق بعض العلماء بين الثورة والإصلاح؛ فالثورة معنى واسع يُغطي أشكالاً عديدة لاستخدام القوة، سواء كانت قانونية أو شرعية أو لم تكن كذلك؛ ولكنها تهدف في النهاية إلى إحداث التغيير الفجائي؛ ومن ثمّ فالثورة تشير إلى مجموعة من الأحداث تُستخدم فيها القوة بنجاح للإطاحة بحكومة أو نظام سياسي معين، وإذا لم تنجح الثورة أُطلق عليها تمرداً أو عصياناً مسلحاً أو انتفاضة. أما الإصلاح الاجتماعي، فهو تعديل غير جذري في النظام السياسي والاجتماعي القائم، من دون مساس بالقواعد والأسس. ويهدف إلى إحداث تغيير في الشكل وتعديل في التفاصيل، وإزالة خطأ من الأخطاء. ولا يعدو أن يكون محاولة تحسين، أو رتق الشيء وسند ما هو موجود بالفعل؛ فالإصلاح أشبه بالدعائم التي تحول دون انهيار المبنى⁽²⁾.

(1) الإصلاح الاجتماعي وأثره في تحقيق الأمن الاجتماعي، د. بكر مصطفى بني ارشيد، مقال مقدم للمؤتمر الثاني لكلية الشريعة بعنوان الأمن الاجتماعي في التصور الاسلامي، ص5. بتصرف

(2) موقع: مقاتل من الصحراء، الإصلاح الاجتماعي،

المطلب الثالث:

العلاقة بين الدعوة والإصلاح الاجتماعي في المفهوم والتطبيق العملي.

من خلال ما تقدم من تعريف الدعوة والإصلاح الاجتماعي لغة واصطلاحاً نلاحظ تداخلاً بين هذين المصطلحين، وهذا يستلزم استخراج العلاقة بينهما مفهوماً وتطبيقاً. والاختلاف في تعريف الدعوة له أثره في إظهار العلاقة حيث أن الدعوة تطلق على المفهوم العام للإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (آل عمران: 104) وهذا يشمل كل خير، كما تطلق على نشر هذه التعاليم وتبليغها، أو على العلم الخاص بطريق التبليغ، أما الإصلاح فهو يدل على معنى واحد وهو إزالة الشر كما تقدم، ومن حيث التطبيق يؤيده ما جاء على لسان شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْأُصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: 88)، وكما في حديث الترمذي عن كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جده، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»⁽¹⁾.

وكلا الاصطلاحين شرعاً يلتقيان في معنى مشترك، إلا أن الدعوة أعم، وعليه فكل إصلاح دعوة وليس كل دعوة إصلاح، ويتميز الخصوص إذا اجتمع المفهومان في مصطلح واحد فإن الدعوة تختص بالأمور الشرعية، أما الإصلاح الاجتماعي فيختص بتغيير الأحوال الاجتماعية التي تندرج تحتها الجوانب التربوية والأخلاقية والحضارية وما شابه ذلك.

والخلاصة أن بين مصطلح الدعوة ومصطلح الإصلاح؛ "علاقة وثيقة من حيث المفهوم - والتطبيق - والتي تتمثل في العموم والخصوص؛ إذ الدعوة عامة في كل وقت وحين، أما الإصلاح ففيه خصوصٌ مرتبطٌ بوجود فساد؛ لكنه بكل حال يقع ضمن دائرة الدعوة، وفي محيطها من حيث المفهوم والعمل"⁽²⁾.

(1) سنن الترمذي، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، 314/4، برقم 2630، قال الترمذي عنه: هذا حديث حسن.

(2) أهمية الدعوة إلى الله تعالى، ناصر بن سعيد السيف <http://saaid.net/Doat/naseralsaif/69.htm>

ويتميز الاصطلاحان عند الاجتماع في سياق واحد.

كما نجد مصطلحا يدمج المصطلحين السابقين وهو الدعوة الإصلاحية، والذي يقول عنه الشيخ العربي التبسي⁽¹⁾: (فإن الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة وتقوم بها جمعية العلماء في القطر الجزائري خاصة، تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم، والسير على منهاج سلفهم الصالح في أخلاقهم وعبادتهم القولية والاعتقادية والعملية، وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائد وأعمال وآداب، على ما كان في عهد السلف الصالح؛ فما وافقه؛ عددناه من دين الله، فعملنا به...) ⁽²⁾.

(1) (1312 - 1376هـ / 1895 - 1957م): العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات التبسي، أبو القاسم، أحد رجال الفكر الإصلاحي، ومن أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين، ولد بتبسة، وتعلم بزاوية نفطة وجامع الزيتونة بتونس ثم بالأزهر بمصر، وعاد إلى الجزائر عام 1927 فاشتغل بالتعليم، وشارك في الحركة الإصلاحية بقلمه، اختير كاتباً عاماً للجمعية، ثم نائباً لرئيسها الإبراهيمي (1940)، وتحمل مسؤولية رئاسة الجمعية لما رحل الإبراهيمي إلى المشرق، سجن عدة مرات لمواقفه الوطنية، وفي 17 أبريل 1957 خطفه الفرنسيون واغتالوه. معجم أعلام الجزائر، ص 61.

(2) الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، ص 27.

المبحث الثاني: أركان الدعوة والإصلاح الاجتماعي⁽¹⁾.

المطلب الأول: الداعي والمصلح الاجتماعي

1- مفهوم الداعي:

أ- الداعي لغة: تقدم أن أصل الكلمة تدل على إمالة الشيء، وجمع داع دعاء: وهم قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، ورَجُلٌ داعِيَّةٌ، إذا كان يدعو الناس إلى دين أو بدعة، وأُدْخِلَتِ الهاء فيه للمبالغة⁽²⁾.

والنبي داعي الله، ويطلق على المؤذن، كما يطلق الداعية على صريخ الخيل في الحروب⁽³⁾.

ب- اصطلاحاً:

عرفه العلماء بتعريفات عدة⁽⁴⁾، المختار منها أن الداعي هو:

" المبلغ للإسلام ، والمعلم له. والساعي إلى تطبيقه"⁽⁵⁾.

والداعي هو الركن المهم والمحور الأساس في الدعوة إلى الله تعالى. فهو المبلغ عن الله ورسوله.

2- المصلح الاجتماعي:

من خلال ما تقدم من تعريف الإصلاح الاجتماعي يمكن استخلاص تعريف عام للمصلح الاجتماعي بأنه: الشخص الذي يهدف إلى تغيير حالة الفرد أو المجتمع إلى الأحسن من خلال إزالة الخلل والفساد الواقع في الجانب العقلي والروحي والسلوك الاجتماعي والبناء الحضاري. وسواء كان هذا الشخص حقيقياً أم اعتبارياً كالمؤسسات والهيئات الرسمية.

3- شروط وآداب الداعي والمصلح الاجتماعي:

سواء قلنا بتمايز مصطلح الداعي والمصلح الاجتماعي أم بتداخلهما فإن لكليهما شروطاً

(1) لما كانت العلاقة بين المصطلحين دقيقة ومتداخلة جاءت المطالب المدرجة تحت هذا المبحث شاملة للنوعين، إلا إذا اقتضت الحاجة للتفصيل.

(2) ينظر: لسان العرب، 14/259.

(3) ينظر: القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ص1283.

(4) ينظر مثلاً: الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، أ.د. عبد الرحيم المغذوي، ص502-503.

(5) المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص153.

وآداباً يشتركان فيها نذكرها إجمالاً على شكل نقاط:

شروط الداعية أو المصلح: ذكر العلماء شروطاً عديدة أهمها ما يلي:

أ- التكليف: يشترط في الداعية أن يكون مكلفاً (أي مسلماً عاقلاً بالغاً): فمادام أن الموضوع داخل في دائرة الإسلام، والدعوة من أعظم العبادات فإنها لا تتحقق إلا بالتكليف.

وهذا الإطلاق دون التقييد بالذكرى يدخل فيه المرأة؛ لكن بضوابط وحدود شرعية تناسب طبيعة المرأة⁽¹⁾.

ب- الإخلاص لله - جلّ وعلا-: الدعوة والإصلاح من أجل العبادات فوجب أن تكون لله خالصة؛ بأن يكون القصد وجه الله والدار الآخرة، حيث يريد تبصير العباد وإخراجهم من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور العلم والهدى، ومن طريق الشقاوة إلى طريق السعادة فلا يدعو إلى نفسه ولا إلى حزبه، وإنما يدعو إلى الله، وإلى كتابه، وسنة نبيه. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة:5)⁽²⁾.

ج- العلم والبصيرة: من كان يدعو على جهل فإنه يفسد أكثر مما يُصلح، فلا بد أن يكون الداعي والمصلح ذو علم بحقيقة ما يدعو إليه، وما يأمر به، وما ينهى عنه، حتى تنجح دعوته. فمثله مثل الطبيب لا يمكن أن يداوي حتى يعلم المرض والدواء جميعاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف:108)، والبصيرة الحجة والبرهان؛ ومن البصيرة معرفة حال المدعوين، والأسلوب الذي يناسبهم، ومعرفة الوقت المناسب لاختلاف أحوال الناس وتفاوت مشاكلهم؛ فيعرف كيف يدعو؟ وكيف يعامل؟ وماذا يقدم؟، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:125)، فالحكمة: لمن قُصُر علمه حتى يهدى إلى الطريق المستقيم، والموعظة الحسنة: لمن عنده علمٌ لكن عنده قصور في العمل، والجدال لمن عنده علم وعناد.

(1) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، (20/330) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، خالد السبت، 170.

(2) ينظر: الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 526-528، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، مرجع سابق، ص 171-172.

ومن البصيرة أيضا تشخيص واقع الناس، ومعرفة أمراضهم الاجتماعية⁽¹⁾.

د- الشيء الذي يدعى إليه: الغرض من الدعوة والإصلاح إيجاد الخير وإزالة المنكر والفساد، فعلى الداعي أو المصلح أن يجعل نصب عينيه أن الشيء الذي يدعو إليه يجب أن يكون حقا أو فيه مصلحة راجحة؛ حتى يكون مقبولا عند الله تعالى. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن الإصلاح أن يأتي بالأمر والنهي على الصراط المستقيم، والصراط المستقيم أقرب الطرق، وهو الموصل إلى حصول القصد"⁽²⁾.

ومن أهم الأخلاق والآداب التي ينبغي للداعية أو المصلح الالتزام بها:

أ- الإيمان الراسخ بما يدعو إليه: فكلما قوي إيمان الداعي والمصلح بما يدعو إليه زاد توكله وإصراره ومثابرته، لا يثنيه شيء فإن وجد فرصة سعى وإن تعثر قام، وهذا ما جعل التاريخ يخرج لنا رجالا أمثال الجبال إيمانا وثباتا؛ وعلى رأسهم الأنبياء، ﴿يَلِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ (مريم: 12)، ففرق بين هؤلاء النجوم وبين من يرى مهمته ثانوية، أو مهمة تُقضى أوقات الفراغ⁽³⁾.

ب- الصدق: وهو الخلق الذي يوصف بأنه عنوان الأخلاق الفاضلة، فالصدق ركيزة في تثبيت هم الدعوة والإصلاح، وإيصالهما إلى الناس، والنصح لهم وعدم التلبيس. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَقْوَى اللَّهِ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: 119)⁽⁴⁾.

ج- الصبر: من المقرر شرعا أن مهمة الدعوة والإصلاح تتطلب كثيرا من المجاهدة، ويتسبب عنها لحوق الأذى؛ وهذا لا يثبت إلا لمن كان متحليا بالصبر. ومن لم يصبر انقطع أول الطريق أو قريبا منه؛ ولهذا كان أهل الدعوة حقا هم أهل الصبر حقا⁽⁵⁾.

فعن سعد بن أبي وقاص قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ،

(1) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 158/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، مرجع سابق، ص 174-176.

(2) ينظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص 22-28.

(3) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة، 155-156.

(4) ينظر: الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية ص 529-531.

(5) المرجع نفسه، ص 532-535.

ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاءُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةً، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرَكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»⁽¹⁾.

د- الرفق: وهي من الصفات التي يحبها الخالق، لقوله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ " ⁽²⁾.

وعن جرير رضي الله عنه مرفوعا: «مَنْ يُحَرِّمَ الرَّفْقَ، يُحَرِّمَ الْخَيْرَ»⁽³⁾.

بل هي من الصفات المحبة للخلق، وعكسها منقّر لهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ بَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: 159)⁽⁴⁾.

هـ- القدوة: لا خير في داع أو مصلح لا يوافق علمه عمله أو قوله فعله، أو منهجه دعوته قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الصف: 2-3)، وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا ءُرِيدُ أَنْ أَخَالِقَكُمْ إِلَى مَا أَنهِيكُمْ عَنْهُ إِنْ ءُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ ءَنِيبٌ﴾ (هود: 88)، بل قد تكون القدوة أشد تأثيرا⁽⁵⁾.

والآداب في هذا الباب كثيرة كالعفو، والتواضع، والشجاعة، والذكاء، والأمانة، والكرم، والتقوى، والهمة العالية، والتفاؤل، والاعتزاز بالإسلام، وغيرها؛ ولكن المقصود ذكر أهمها. ومما يجب أن يعلم "أن الداعي يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله، وإنما عليه البلاغ. وأنه يصبر على ما يلقي من إغراض وعناد وكيد وأذى، دون أن يجازي بالمثل، أو يفتر في دعوته من أذاه؛ لعلمه بأن الذي يجازي إنما هو الله"⁽⁶⁾.

(1) أخرجه: أحمد في المسند (159/3) رقم 1607، وإسناده صحيح ينظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 143.

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، (2003/4) رقم 2593.

(3) المصدر نفسه، رقم 2592.

(4) ينظر: الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية ص 536-538 / الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، ص 193-195.

(5) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة، ص 158-159.

(6) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، ص 327.

المطلب الثاني: المدعو والمجتمع محل الإصلاح.

1- تعريف المدعو والمجتمع محل الإصلاح:

يُعرّف المدعو بأنه المقصود بالدعوة، وهو الإنسان مطلقاً؛ فيشمل جميع الناس باختلاف أجناسهم وألوانهم وأنواعهم وأديانهم. قال تعالى أمراً نبيه الكريم: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف: 158)⁽¹⁾.

وأما المجتمع محل الإصلاح فيدخل فيه كل مجتمع سواء كان مسلماً أو غير مسلم، متحضراً أو متخلفاً، مدنياً أو بدوياً، ظالماً أو مظلوماً.

ومن أولويات حق المدعو أن يأتيه الداعي ليرشده ويبين له ما يصلح دينه ودينه. اقتداء بنبينا الكريم ﷺ؛ حين خاطبه ربه فقال: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: 67)، وأن يحرص على دعوته وينظر إليه بعين الرحمة، ولا يستهين بأي واحد منهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 128). كما أن من أولويات الواجبات على المدعو الاستجابة للحق الذي دعي إليه⁽²⁾.

2- أصناف المدعويين:

ما شرعت الدعوة إلا لأجل المدعويين، وما أرسلت الرسل إلا لهدايتهم، واهتماماً بهم وجب مراعاة أحوالهم الدينية والنفسية والجنسية والعلمية وغيرها؛ فهم ليسوا على درجة واحدة. ومن أهمل هذا الجانب ولم يراع أحوالهم ومراتبهم أوشك أن يضر بهم من حيث لا يدري. ولأجل ذلك يختلف العلماء في تقسيم المدعويين حسب الأحوال المحيطة بهم؛ وهي تقسيمات اعتبارية؛ ومن هذه التقسيمات:

باعتبار الإيمان إلى مسلمين وغير مسلمين:

1- المسلمون: ويدخل فيهم:

أ- الطائعون: ويقصد بهم العباد الذين يمثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه في الجملة، إذ لا

(1) ينظر: الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، ص 574

(2) ينظر: حقوق وواجبات المدعو: المرجع نفسه، ص 585، 594/ أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان: ص 374-376.

يخلو العباد من النقص. وطريقة دعوة هؤلاء دعوتهم إلى الثبات على الطاعة، والحرص على زيادة العلم والعمل، والحذر من العجب، ودعوة من هو أهل لدعوة غيره.

ب- العصاة: وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي، وارتكاب الكبائر. والغالب على هؤلاء اعترافهم بالخطيئة، فدعوتهم بترك ما هم عليه من المعاصي والموبقات بالحكمة والموعظة الحسنة.

ج- المبتدعة: وهو كل من تعبد لله سبحانه وتعالى بغير ما شرع من اعتقاد أو قول أو فعل⁽¹⁾، سواء كان في الأصول أو الفروع، مع الموالاة والمعاداة على ما هم عليه. مثال الأول الخوارج وغلاة الصوفية وغيرهم. ومثال الثاني البدع في العبادات كالأوراد المبتدعة. والأصل في هؤلاء تقربهم إلى الله بهذه البدع عكس العصاة، فتختلف طريقة دعوتهم عن الصنف قبلهم، فمبدأ الإقناع وذكر الحجة ضروري.

2- غير المسلمين: (الكفار)

أ- أهل الكتاب: المؤمنون بديانة سماوية؛ وسموا بذلك لانتسابهم إلى كتابهم، وهم اليهود والنصارى اتفاقاً؛ فاليهود يؤمنون بموسى -عليه السلام- وكتابهم التوراة، والنصارى يؤمنون بوعيسى -عليه السلام- وكتابهم الإنجيل.

ب- المشركون: كل من جعل لله شريكاً فيما يختص به سبحانه سواء كان ذلك في الربوبية، أو في الألوهية، كعبادة الأصنام والقبور والنجوم وغيرها⁽²⁾.

ج- الملحدون⁽³⁾: وهم الذين ينكرون وجود الخالق، ويكفرون بالأديان.

د- المنافقون: من أظهر الإسلام وأبطن الكفر. وهذا هو النفاق الأكبر. وهو أخطر الأصناف حتى من الكافر الأصلي الذي يظهر كفره، بخلاف المنافق المحسوب على الإسلام وهو من غير أهله؛ فهو كالورم الخبيث داخل الجسد الواحد. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (النساء: 145)، ومع هذا التقرير إلا

(1) ينظر مثلاً: شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين، 328/2.

(2) تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح العثيمين، 76/3.

(3) ولا يستهان بهذه الفئة في العالم العربي والإسلامي حيث أصبحت ظاهرة تتوسع مساحتها وتقوى شوكتها يوماً بعد يوم، بسبب الشبه والأفكار الوافدة.

أنهم محتاجون إلى الدعوة، ولهذا عقب الباري بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء: 146)

وهاته الأصناف وإن كانت تدخل تحت مصطلح الكفار غير المسلمين إلا أن كل صنف منهم تتنوع معه أساليب الدعوة وطريقتها.

وباعتبار الجنس إلى ذكر وأنثى.

وباعتبار العلم إلى متعلم أو مثقف وجاهل.

وباعتبار المكانة إلى حاكم ومحكوم، أو أولي الأمر وعامة الناس؛ وإلى غني وفقير.

إضافة إلى اعتبارات أخرى كالقوي والضعيف، والصغير والكبير، و...⁽¹⁾.

هذا كله باعتبار الأفراد، أما باعتبار المجتمعات فهو لا يختلف كثيرا عن سابقه، إلا في

الفرق بين خصوصية دعوة الفرد ودعوة الجماعة، فيقسم إلى مجتمع مؤمن وكافر، ومجتمع

متحضر ومتخلف، وآخر مستقل ومحتل، وإلى مدني وبدوي، وغني وفقير و... .

(1) للتوسع في أصناف المدعوين ينظر: الأسس العلمية (612-673)، أصول الدعوة (379)، أصول الدعوة (1) ومنهاجها (49-62)، المدخل إلى علم الدعوة (172-181).

المطلب الثالث: موضوع الدعوة والإصلاح

لا شك أن أول ما يدخل في موضوع الدعوة والإصلاح هو الإسلام بجميع تعاليمه وأحكامه، المُضمّن في الكتاب والسنة؛ الذي يخضع له المسلم اختياراً لله رب العالمين، لأنه القانون الشامل لأمر الحياة ومناهج السلوك، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: 3)

وقد امتاز بخصائص⁽¹⁾ منها: أنه رباني، شامل، واضح، كامل، عملي، صالح لكل زمان ومكان، وأحكامه مرنة، يسير والخرج فيه مرفوع، عباداته توقيفية.

ويشتمل الإسلام على جوانب ثلاثة أساسية: العقيدة، والشرعية، وجانب الأخلاق.

أ- العقيدة:

وهي لب الإسلام وأساسه ومنها تنبثق سائر النظم والأحكام والمناهج، وأما العبادات والأحكام فهي ترسخها وتثبتها في قلوب المؤمنين؛ والعقيدة تشمل أركان الإيمان المذكورة في حديث جبريل المشهور، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كما تشمل باقي المسائل العلمية الاعتقادية⁽²⁾.

ومن المهم الإشارة إلى أن أساس النظام الاجتماعي هو العقيدة الإسلامية، لأن المطلوب أن يعرف هذا الفرد مركزه في الحياة وعلاقته بالكون وسبب وجوده، وكما يعمل الأفراد في ضوء عقيدتهم كأعضاء في مجتمعهم يعمل المجتمع في ضوء هذه العقيدة التي يحملها أفرادها. فمن التزم بهذه العقيدة كان أهلاً للانتماء لهذا المجتمع المسلم؛ فيساهم في بنائه بتحقيق أغراضه وتحمل تبعاته مهما كانت طبيعة هذا الفرد. وإذا تنكر المجتمع لهذا المبدأ فالنتيجة حتمية في تفكك الأواصر الإيمانية وظهور النزعة العصبية والتفاضل على أسس ما أنزل الله بها من سلطان⁽³⁾.

ب- الشرعية:

وتشمل جميع الأحكام الشرعية سواء كان ذلك على المستوى الشخصي أو الأسري أو

(1) ينظر هذه الخصائص: الدعوة ومناهجها، ص: 64-65، أصول الدعوة، ص 45 وما بعدها.

(2) ينظر: أصول الدعوة، ص 24/ الدعوة ومناهجها، ص 65/ المدخل إلى علم الدعوة، ص 183

(3) ينظر: أصول الدعوة، ص 104

المستوى العام، ومظاهرها كتب الفقه والأحكام، التي ذكرت العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والاقتصاد، ونظام الحكم والسياسة، ونظام الاجتماع، وما إلى ذلك⁽¹⁾.

ج- الأخلاق: (نظام السلوك):

وتشمل جميع الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة والمبادئ والقيم الإنسانية التي جاء بها الإسلام، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"⁽²⁾.

ومن تتبع نصوص الكتاب والسنة، ظهر له جليا المكانة العظيمة للأخلاق في الإسلام⁽³⁾. ومبادئ الأخلاق ثلاثة أقسام: جانب الصلة بالله تعالى، وجانب الصلة بالنفس، وجانب الصلة بالآخرين. وقد جمعت هذه الثلاث في حديث معاذ رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"⁽⁴⁾.

أما العلاقة بين هذه الجوانب الثلاث العقيدة والشرعية والأخلاق فهي ترتبط بينها ارتباطا وثيقا بحيث لا تنفك إحداها عن الأخرى، "فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة أو أخذ بالشريعة وألغى العقيدة لا يكون مسلما في نظر الشرع، ولا سالكا طريق النجاة. كما أنه لا بد للعقيدة والشرعية من أخلاق تُبرزهما في صورتيهما الحسنة الجميلة وذلك من خلال السلوك اليومي للمسلم في تعامله مع الكون والمجتمع الذي يعيش فيه؛ تحقيقا للسعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة"⁽⁵⁾.

فالعقيدة كالشجرة التي تضرب بجذورها في الأرض لترسخ وتشتد، والشرعية والعبادة هي جذوع هذه الشجرة وأغصانها، والأخلاق والسلوك هما الثمرة التي تحملها هذه الشجرة⁽⁶⁾.

(1) ينظر: الدعوة ومناهجها، ص 65

(2) رواه مالك في "الموطأ" بلاغا. (1330/5) رقم 3357، و ينظر السلسلة الصحيحة (112/1) رقم 45.

(3) ينظر: أصول الدعوة، ص 79 وما بعدها/ المدخل إلى علم الدعوة، ص 184.

(4) سنن الترمذي، (423/3) رقم 1987، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (362/3) رقم 1373.

وينظر هذه الأقسام: المدخل إلى علم الدعوة، ص 185 - 186.

(5) أصول الدعوة ومناهجها، ص 65 مع بعض التصرف.

(6) ينظر: موضوع وخصائص الدعوة الإسلامية، د. هند بنت مصطفى شريف:

<https://www.alukah.net/sharia/0/68785/#ixzz5jSJT6biQ>

المطلب الرابع: الوسائل والأساليب في الدعوة والإصلاح.

1- أهمية معرفة الداعي ووسائل الدعوة إلى الله تعالى وأساليبها:

معرفة الوسائل والأساليب من أهم مقومات نجاح الدعوة إلى الله، فكثرة المعلومات والمحفوظات لا تغني عن معرفة الوسائل الفعالة والأساليب المؤثرة لتبليغ هذه العلوم ومعرفة ممارساته في ميدان الدعوة، فكم من دعوة باطلة كانت الوسائل والأساليب سبباً في انتشارها وذيوعها مع بطلانها وفسادها، وكم من دعوة صالحة لم تتعد أهلها لعدم معرفتهم بالوسائل والأساليب الناجحة، ومن هنا يكمن فضل هذا العلم بالنسبة للداعية، ولا يكون ذلك إلا بالتأمل والتدبر لنصوص القرآن كيف تعامل مع الأفراد والمجتمعات بجميع أطيافها، إضافة إلى السنة وخصوصاً السيرة النبوية، والاستفادة من سيرة السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا⁽¹⁾.

2- تعريف الوسائل والأساليب:

أولاً: أساليب الدعوة:

أ- الأسلوب لغة: ويطلق على معان؛ فالأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب؛ يقال: أنتم في أسلوب سوء؛ أي على مذهب سوء أو في طريق سوء، ويجمع على أساليب. والأسلوب الفن؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه⁽²⁾.

ب- اصطلاحاً: "هو الكيفيات التي يتم بها أداء الدعوة وتبليغها من الأمور المعنوية الفنية.

وقيل هي: القوالب والأشكال والكيفيات التي تعرض فيها الدعوة. وأنواع المسالك التأثيرية في الغالب غير حسية"⁽³⁾.

"وتقوم أساليب الدعوة الحكيمة الناجحة المؤثرة على أساليب متعددة منها:

1 - تشخيص وتحديد الداء في المدعويين، ومعرفة الدواء: فإذا كان طيب الأبدان لا يصف ويُعيّن العلاج حتى يشخص ويعرف الداء أولاً. فعلى الداعية إلى الله وهو طيب

(1) ينظر: دعوة العاملات المنزليات إلى الله تعالى، عبيد بنت خالد الشلهوب، ص75

(2) ينظر لسان العرب (473/1).

(3) دعوة العاملات المنزليات إلى الله تعالى، مرجع سابق، ص74 مع تصرف يسير.

القلوب أن يسلك هذا الأسلوب في معالجة الأرواح. والداء عند الناس قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون بدعة. فعلى الداعية أن يعطي الدواء على حسب الداء؛ فإن دواء الكفر الإيمان بالله، وبما جاء عنه وعن رسوله ﷺ. ودواء المعاصي التوبة إلى الله - تعالى - بالإقبال إليه، والخشية منه. ودواء البدعة التمسك بالسنة. وهكذا لكل داء دواء.

2 - إزالة الشبهات التي تحول بين المدعويين ورؤية الداء والإحساس به: ولاشك أن الشبهات سبب أساس في زرع الشك والارتياب في صدق الداعية وحقيقة ما يدعو إليه، الذي يمنع من رؤية الحق والاستجابة له، أو تأخير هذه الاستجابة.

3 - ترغيب المدعويين وتشويقهم: إلى اتباع الحق، والاستجابة له، والثبات عليه. وترهيبهم من ترك الحق واتباع الباطل، أو عدم الثبات على الحق بعد قبوله.

4 - تعهد المستجيبين من المدعويين: بالتربية والتعليم، والتوجيه؛ لتحصل لهم المناعة ضد داءهم القديم. ومن أعظم هذه الوسائل ربط المدعويين بكتاب الله - تعالى - تلاوةً، وتدبراً، وفهماً، والاتصال الدائم بالسنة النبوية، وسيرة السلف الصالح - رضي الله عنهم -.

5 - ولعل أهم الأساليب التي يذكرها أهل الاختصاص في هذا المجال: أسلوب الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ثم جهاد المعاندين الظالمين⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: 125) وقال تعالى: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ قَبْلَ إِنْتِهَائِهَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 193).

ثانياً: وسائل الدعوة إلى الله تعالى:

1- الوسيلة لغة: المنزلة عند الملك. والدرجة. والقربة. ووصل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرب به إليه⁽²⁾.

وتطلق على كل ما يتوصل به إلى الشيء، وجمعها وسائل. ومنها وسائل النقل، ووسائل

(1) مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي القحطاني، ص 123- 125 مع بعض التصرف.

(2) ينظر لسان العرب، (724/11).

الاتصال، وسائل الراحة⁽¹⁾.

2- اصطلاحاً: "ما يستعين به الداعية على تبليغ الدعوة".

وقيل: "ما يتوصل به إلى دعوة الناس وفق منهج الدعوة القويم"⁽²⁾.

"وغالباً ما تكون حسية؛ فتكون: بالقول والكتابة، والعمل، وبسيرة الداعية التي تجعله قدوة حسنة لغيره، ومجمل هذه الوسائل:

أ- التبليغ بالقول والكتابة: وهو أنواع متعددة منها: الخطبة، والدرس، والمحاضرة، والندوة، والمناقشة والجدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلمة الوعظية، والدعوة الفردية، والفتوى الشرعية، ومن الكتابة الرسالة، والمقال، والكتاب، والنشرة، والجريدة، إضافة إلى وسائل الإعلام الحديثة: المسموعة، والمرئية، والمقروءة، والشخصية. وسواء كانت هذه الوسائل في لقاءات خاصة أو عامة، في المسجد أو في البيت، في العمل أو في الشارع، أو في مناسبات أو غيرها.

والداعية يستعين في تبليغ دعوته بجميع الوسائل المشروعة، الممكنة، فقد تكون بعض الوسائل نافعة في زمن دون زمن، وفي مكان دون آخر، والداعية الحكيم هو الذي يختار الوسائل المناسبة لكل عصر ومصر.

ب- التبليغ بالعمل: وهو كل فعل يؤدي إلى إزالة المنكر ونصرة الحق وإظهاره، والأصل في ذلك قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»⁽³⁾، والتبليغ بالعمل كما يكون بإزالة المنكر يكون بإقامة المعروف: كبناء المساجد، وبناء الجامعات والمعاهد والمدارس، وإقامة المكتبات، وبناء المستشفيات، ودور الرعاية الاجتماعية، وطبع الكتب الإسلامية وتوزيعها.

ج- التبليغ بالسيرة الحسنة:

من وسائل الدعوة والإصلاح المهمة في تبليغ الدعوة إلى الله وجذب الناس إلى الخير التبليغ بالسيرة الطيبة، والأفعال الحميدة، والأخلاق الكريمة، والالتزام بالإسلام ظاهراً وباطناً،

(1) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، (3/2441).

(2) الأسس العلمية، ص 680

(3) صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، (1/69) رقم 49

مما يجعله قدوةً طيبةً وأُسوةً حسنةً لغيره؛ لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ من التأثير بالكلام وحده⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ (الأحزاب: 21).

ومن أمثلة الوسائل غير الحسية التي يذكرها بعض أهل العلم جميع ما يعين الداعية من أمور قلبية أو فكرية، أو وسائل خارجية متعلقة باتخاذ الأسباب، كالتوكل على الله، والاستعانة بالأكفاء، والمحافظة على النظام المسطر غير المخالف للشرع، وغيرها⁽²⁾.

(1) مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، (126-129) مع بعض التصرف/ وينظر: دعوة

العاملات المنزليات إلى الله تعالى، (76-112)

(2) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة، ص 283/ مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة،

(125-126)

المبحث الثالث:

أوضاع الجزائر من: 1830 إلى 1954

تمهيد:

ارتبطت الجزائر بالدولة العثمانية منذ عام 1518م، وتمتعت بقوة عسكرية ومكانة معتبرة لأكثر من قرنين، وانتعشت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية مدة قرن ونصف تقريبا، ثم انقلبت بعدها صفحة المجد والازدهار النسبيين، وألقت الجزائر نفسها في وضع حرج تجاه الدول الأوروبية المناهضة.

وظلت المؤامرات تتوالى على الجزائر حتى كان آخرها تذبذب العلاقات الجزائرية الفرنسية، لسوء نوايا فرنسا ونزعتها التسلطية، إلى أن جاءت حادثة المروحة المفتعلة بين "الداي حسين" وقنصل فرنسا "دوفال"، واتخذتها فرنسا سببا لاحتلال الجزائر؛ حيث نزلت قواتها بسيدي فرج يوم 14 جوان 1830م، وتم الاستسلام يوم 5 جويلية 1830م، في وقت ساءت علاقة الجزائر بأكثر الدول، وفقدت أسطولها في "معركة نفارين"⁽¹⁾.

ولا شك أن هذا الغزو له أطر سياسية ودينية واقتصادية؛ فأما السياسية فتمثلت في اختلال موازين القوى بين أوروبا والعالم الإسلامي لصالح الأولى، وسعي الدول الأوروبية إلى تحقيق المكاسب على حساب الأمة الإسلامية، وتحرير بعض الشعوب النصرانية من الحكم العثماني، ما أثار المسألة الشرقية؛ وهي تنافس الدول الأوروبية واختلافها حول اقتسام أملاك الدولة العثمانية.

وأما الدينية فقد كان الغزو الفرنسي حلقة من حلقات الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على العالم الإسلامي؛ بسبب الخلافات العقائدية العميقة.

وأما الاقتصادية فيتمثل في النمو الاقتصادي التي تحقق في أوروبا الغربية إثر حركة الكشف الجغرافية، وظهور الرأسمالية التجارية وقيام الثورة الصناعية، ما ضاعف من قوة دولها، وزاد من طلبها للمواد الأولية والأسواق التجارية، فزودها بأدوات إخضاع الشعوب الإسلامية

1 ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989، بشير بلاح، ص15، ص47، ص54.

وشجعها على الغزو والاحتلال.⁽¹⁾ وبدخول فرنسا أرض الجزائر انتهى عهد السيادة العثمانية، وبدأ عهد الاحتلال الفرنسي، وتعرّض الجزائريون إلى استعمار⁽²⁾ استيطاني شرسٍ فكريا وعسكرياً، عمل بكل ما أوتي من وسائل طيلة قرن وثلث قرن على محو خصائص الشعب الجزائري الروحية والوطنية، حتى يجعل من أرض الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا وإلى الأبد. تمكنت فرنسا من دخول أرض الجزائر بعد مقاومة ليست بالمتكافئة ، وكانت نتيجة حتمية فرضت على الداوي حسين عقد وثيقة الاستسلام يوم 5 جويلية 1830⁽³⁾. وبمجرد أن وطئت الجيوش الفرنسية أرض الوطن، تغير منحى كتابة التاريخ الجزائري رأساً على عقب. وتبدلت جميع الأوضاع الجزائرية؛ هذا أوان الحديث عن بعضها في هذا المبحث.

1: المرجع نفسه، ص48 بتصرف.

2 الاستعمار مشتق من التعمير ولا شك أن الاحتلال تخريب وتدمير لا تعمير، فكان الأليق به لفظ الاستعمار بدل الاستعمار. نعم قد يكون استعماراً واستثماراً لكن لمصلحة الغاصب لا المغصوب، والمغصوبة هنا هي الجزائر الحبيبة. لكنه لما أصبح مصطلحاً متعارفاً عليه سرنا على المعهود عليه؛ وفي هذا يقول البشير الإبراهيمي: " مادة هذه الكلمة هي "العمارة" ومن مشتقاتها التعمير، والعمران، وفي القرآن: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، فأصل هذه الكلمة في لغتنا طيب...ولكن إخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث، ظلم لها...فالذي صيّر هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس، ثقيلة على الأسماع، مستوخمة في الأذواق، هو معناها الخارجي... وهو معنى مرادف للإثم، والبغي، والخراب، والظلم، والتعدي، والفساد، والنهب، والسرقه، والشره، والقسوة، والانتهاك، والقتل، والحيوانية... إلى عشرات من مئات من هذه الرذائل تفسرها آثاره وتنجلي عنها وقائعه". آثار الإبراهيمي، 506/3. 3 ينظر تفصيل ذلك: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، د. سعد الله، ص 35-45؛ التاريخ السياسي من البداية ولغاية 1962، عمار بوحوش، ص90-96.

المطلب الأول: الأوضاع السياسية

1- دخول المحتل الفرنسي أرض الجزائر

ما إن اتخذت فرنسا حادثة المروحة ذريعة لإعلان الحرب على الجزائر، حتى جهزت أسطولاً بحرياً ضخماً؛ مكوناً من 37000 جندي و 27000 بحار و 103 سفينة حربية و 572 سفينة تجارية، منطلقاً من ميناء طولون بمرسيليا يوم 25 ماي 1830، ونزل على شبه جزيرة سيدي فرج يوم 14 جوان⁽¹⁾، وبسبب عدم الاستعداد الجيد وعدم اتخاذ الإجراءات المناسبة وضعف قيادة الآغا إبراهيم كانت نتيجة حتمية لانحزام الجيش العثماني أمام الجيش الفرنسي وذلك يوم 5 جويلية 1830⁽²⁾، إضافة إلى المنشورات الذي أرسلتها القوات الفرنسية قبل نزولها، ليكون بمثابة خطة لخلق البلبلة في صفوف الجزائريين، معبرين فيه أن الغرض من هذه الحملة هو تخليص الجزائريين من السيطرة التركية، ومن بين ما وُزِعَ على السكان: «نحن الفرنسيون أصدقاءكم نتوجه إلى الجزائر لنطرد الأتراك منها، إننا لا نغزو المدينة لنصبح سادة عليها، إننا نقسم لكم على ذلك بدمائنا فانضموا إلينا وكونوا أهلاً لحمايتنا، ستحكمون بلادكم كما كنتم في السابق سادة مستقلين في وطنكم، وإن الفرنسيين سيتصرفون معكم كما تصرفوا قبل ثلاثين سنة مع أشقائكم المصريين الأعزاء. إننا نتعهد باحترام كنوزكم وأملاككم وديانتكم المقدسة إننا أصدقاء صادقون لكم وسنبقى كذلك إلى الأبد فاهلموا إلينا، إنكم ستسعدون وستفيدكم صداقتنا إننا سنعيش في السلم من أجل سعادتكم وسعادتنا»، وجاء في بيان آخر ما يلي: «إنني ملك فرنسا أضمن لكم بشرفه أنه سينجز وعوده جميعها ويتعهد أمامكم وأمام الملا بأن مساجدكم وجوامعكم ستحترم، وأن ديانتكم ستمارس بحرية كما كانت في السابق، فابعثوا إلينا نوابكم فإننا سنتفاهم معهم، ونسأل الله العيش في وئام»⁽³⁾. فكان منشورا ظاهره فيه الرحمة وباطنه العذاب.

1 ينظر: الموجز في تاريخ الجزائر، يحي بوعزيز، 2/ 144؛ تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن 19، العربي منور، ص 19-20

2 للتوسع ينظر: المرأة، حمدان خوجة، ص 150-154؛ التاريخ السياسي من البداية ولغاية 1962، مرجع سابق، ص 92 وما بعدها.

3 مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، تعريب محمد العربي الزيري، ص 130

وعلى إثر ذلك اضطر الداي حسين توقيع معاهدة الاستسلام، وتسليم مدينة الجزائر يوم 5 جويلية 1830، حيث تمت المعاهدة على النصوص التالية:"

1 - تسلم قلعة القصبة وكل القلاع الأخرى المتصلة بالمدينة وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي هذا الصباح على الساعة العاشرة.

2 - يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي أمام سعادة باشا الجزائر أن يترك له الحرية وكل ثرواته الشخصية.

3 - سيكون الباشا حرا في أن يذهب هو وأسرته وثرواته الخاصة إلى المكان الذي يقع عليه اختياره. فإذا فضل البقاء في الجزائر فله ذلك هو وأسرته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنسي وسيعين له حرس لضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.

4 - يتعهد القائد العام لكل الجنود الانكشاريين بنفس المعاملة ونفس الحماية.

5 - سيظل العمل بالدين الإسلامي حرا، كما أن حرية السكان مهما كانت طبقتهم، ودينهم، وأملأهم، وتجارتهم. وصناعتهم لن يلحقها أي ضرر. وستكون نساؤهم محل احترام. وقد التزم القائد العام على ذلك بشرفه.

وسيتم تبادل وثائق هذا الاتفاق قبل الساعة العاشرة هذا الصباح، وسيدخل الجيش الفرنسي حالا بعد ذلك إلى القصبة ثم يدخل كل القلاع التي حول المدينة كما يدخل الميناء⁽¹⁾.

وانطلاقا من هذا التاريخ يبدأ تاريخ جديد للجزائر إلا أنه تاريخ مرير عانى منه الجزائريون ما لا يتحمله عقل ولا يصفه لسان.

وأول ما قامت به القوات الفرنسية هو نقضها للعهود والمواثيق التي نشرتها، وقدمت الأيمان بشرفها عليها، حيث استولت على أموال الخزينة والأوقاف، وهدمت كثيرا من البيوت والمساجد كما حولت بعضها إلى مخازن وإسطبلات، ونهبت كثيرا من الممتلكات الخاصة، وطردت العثمانيين، كما قضت على كثير من الأرواح البريئة رجالا ونساء وأطفالا⁽²⁾، بل

1 المرأة، حمدان خوجة، ص 171-172.

2 ينظر بعضا من هذه التجاوزات: المصدر نفسه: المرأة، ص 43-44/66/98/125/181/184/202/207/

243-249؛ الحركة الوطنية، د. سعد الله ج1، ص 23-27؛ وينظر التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية

1962، ص 100-104.

صرحوا مفتخرين ببعض جرائمهم، فقد جاء في تقرير لجنة البحث الرسمية التي بعث بها ملك فرنسا للبرلمان من أجل اطلاعه على حقيقة ما وقع في الجزائر ما يلي: "إننا قد ضممنا إلى ممتلكات الدولة سائر عقارات الأوقاف الإسلامية، ووضعنا تحت الحجز ممتلكات طائفة من السكان تعهدنا لها باحترام أشخاصها وممتلكاتها، وبدأنا أعمالنا في ميدان السلطة بمظلمة، ألا وهي إرغام الناس على المشاركة في قرض إجباري (100000 فرنك)، واستولينا على ممتلكات خاصة دون أن ندفع مقابلها أي تعويض، بل قد أجبرنا في كثير من الأحيان أصحاب الديار على دفع نفقات تدميرها، كما أجبرناهم على دفع نفقات تدمير مسجد. ولقد اعتدينا من دون أي مراعاة على حرمة الأضرحة والزوايا والمساجد، وعلى المنازل الخاصة التي تعتبر مقدسة عند المسلمين.

لقد ذبحنا جماعة من الناس كانت تحمل جوازات مرور ممهرة بختمنا، وقد أبدنا في مذابح عامة، لمجرد شك، طوائف عديدة من السكان تبين فيما بعد أنها كانت بريئة مما اتهمناها به، ولقد حاكمنا جماعة من وجوه القوم وأشرف الأمة ورجال الصلاح فيها، ما كان لهم من ذنب إلا أنهم تقدموا أمام بطشنا، يسألوننا الشفقة والرحمة بأبناء البلاد المساكين؛ فلقد وجدنا حكاما منا يصدرن أحكاما بإعدامهم، ووجدنا جلادين منا يقومون بتنفيذ تلك الأحكام. إننا قد فقمنا في أعمال الوحشية هؤلاء الوحشيين الذين جئنا لتمدينهم"⁽¹⁾.

وقال أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير: "إننا قد ارتكبنا في ثلاثة أشهر، من الفظائع وأعمال التنكيل، أكثر مما نسب للأتراك خلال ثلاثمائة سنة"⁽²⁾.

ويقول الجنرال شانقاريني: "لقد كانت التسلية الوحيدة التي أستطيع أن أسمح بها للجنود أثناء فصل الشتاء، هي السماح لهم بغزو القبائل المعادية التي تسكن فيما بين وادي الحراش وبورقيقه". ويقول المؤرخ دبوزايد عن ذلك ما نصه: "أما الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الدانمارك، وأما بقية الغنائم الصامته فقد عُرضت للبيع في سوق باب عزون، وكان من بين الغنائم أساور نساء وهي لا تزال في أيديهن المقطوعة، وأقراط نساء لا تزال تلتصق بها قطع من آذانهن، ثم وزع ثمن كل ذلك على السفاكين من رجال الطابور الفرنسي. وفي ذلك

¹ هذه هي الجزائر، أحمد توفيق المدني، ص 92-93.

² المصدر نفسه، ص 93.

اليوم أصدرت السلطة أمرها لسكان الجزائر المسلمين بأن يضيئوا ليلاً حوانيتهم؛ إظهاراً لسرورهم بذلك الانتصار"⁽¹⁾.

ويقول المؤرخ "كريستيان" في كتابه "إفريقيا الفرنسية": "تلقى الجند أمراً من القائد العام الجنرال "روفيقو"، بالخروج من مدينة الجزائر ليلة 16 إبريل سنة 1832م؛ ففاجأ قبيلة العوفية عند الفجر وهي نائمة تحت خيامها، وأمعن في ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أي واحد منهم الدفاع عن نفسه، وهكذا وقع قتل كل نفس حية في القبيلة، دون أي تمييز بين جنس و سن، وعند الرجوع من هذه الحملة المخجلة كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم"⁽²⁾.

وفي ظل هذا الوضع المأساوي، ومن أول يوم تعرض له الجزائريون للاضطهاد، قام بعض الشرفاء بالمطالبة بحقوق الجزائريين ودفع الظلم عنهم⁽³⁾، أمثال حمدان بن عثمان خوجة⁽⁴⁾. طانين أنهم يخاطبون الدولة العصرية المتحضرة التي كانت مرسومة في أذهانهم - في مقابل حزب آخر ارتقى في أحضان فرنسا وقدم مصلحته الشخصية وتمنى بقاء المحتل الفرنسي - إلا أنهم جوبهوا بكثير من المضايقات والالتزامات ما أدى إلى سجن بعضهم ونفي البعض الآخر⁽⁵⁾.

(1) هذه هي الجزائر، أحمد توفيق المدني، ص 90.

(2) المصدر نفسه؛ وينظر تصريحات أخرى لجرائهم في: ليل الاستعمار، فرحات عباس، ص 47-53؛ الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد معالم، د. محمد العربي ولد خليفة، ص 190-191؛ صفحات تاريخية خالدة، أحمد محمد عاشوراكس، ص 141-143.

(3) ينظر مذكرة حمدان خوجة المسلمة للجنة الإفريقية، ضمن كتاب مذكرات أحمد باي و حمدان خوجة و بوضرية، تعريب محمد العربي الزيزي، ص 147-168.

(4) (نحو 1189-1255هـ / 1775-1840م): كاتب سياسي، من رواد الحركة الوطنية الجزائرية، ولد بمدينة الجزائر، وبها نشأ وتعلم، تعلم القانون على أبيه، أصبح أستاذاً في الحقوق المدنية والقوانين الإسلامية. في عام 1784 صحب خاله للبلقان والقسطنطينية وغيرها، وفي 1820 زار فرنسا وتعلم لغتها، وبعد الاحتلال الفرنسي نظم الجزائريون أول حزب وطني سياسي بزعامة حمدان خوجة، فقارع الاستعمار بقلمه ولسانه، فنفاه الفرنسيون من الجزائر، أقام مدة في فرنسا (1833-1836) ثم سافر إلى القسطنطينية، واشتغل بالتأليف والترجمة والتحرير إلى وفاته. له آثار عدة منها: المرأة وهو أشهرها، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 136-137.

(5) ينظر: تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، 12/4.

وقد ظن الجيش الفرنسي بعد استيلائه على الجزائر العاصمة، دون مقاومة تذكر؛ أنه سيحتل القطر الجزائري كاملاً في غضون أيام قلائل، ولكنهم بمجرد محاولتهم التوسع إلى المدن الداخلية ووجوهوا بعدة مقاومات وثورات شعبية، كان من أولها مقاومة أهالي منطقة متيجة بقيادة ابن زعمون حيث امتدت من 1830 إلى غاية 1832⁽¹⁾.

ولعل أروع أمثلة المقاومات الشعبية، ما ضربه أهل الناحيتين الشرقية والغربية، أما الناحية الغربية فقد اجتمع رؤساء القبائل ووجوه القوم على مبايعة الأمير الشاب عبد القادر الهاشمي⁽²⁾ ببيعة شرعية سنة 1832 بعد أن أدركهم الاضطراب السياسي، والعجيب أنهم وُفِّقوا لقائد في مقتبل العمر، نظم دولته فأحسن تنظيمها، ودوّن دواوينها، وضبط أمورها، وسك نقودها، ونشر دعاياتها، واكتسب لها الأنصار، وفي نفس الوقت أنشأ جيشاً نظامياً أحسن فيه القيادة الحربية والمدنية معاً، أنزل بالأعداء خسائر فادحة رغم تجهيزات العدو والتفوق العظيم في العدد والعدة، وقد تخللت هذه الفترة عدة معاهدات بين الأمير وفرنسا، اعترفت له فيها باستقلال دولته وسلطته عليها، رغم أن هذه المعاهدات من طرف فرنسا كانت معاهدة مكر واحتيال. وفي سنة 1840م بلغت المعارك بينهما ذروتها، وحينها لجأ العدو الغاصب إلى أبشع وأشنع الطرق، من إفناء جماعي وإتلاف المدن والقرى، وحرق المزارع والغابات، إلى غير ذلك مما يندى له الجبين. وقد سُجِّل تدخل سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن لنجدة الشعب الجزائري، لكن الفرنسيين دحروا جنده، وضربوا بعض مدن المغرب مما اضطره لعقد الصلح والتعهد بعدم إعانة الجزائريين. وأمام هذه الوقائع المؤلمة، والأهوال القاسية، إضافة إلى تفرق صفوف جند الأمير والخيانات المتتالية، لم يسعه إلا الاستسلام؛ وذلك يوم 23 ديسمبر

1 ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة عمار، ص 130

(2) (1300 - 1222هـ = 1807 - 1883م): عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري: أمير مجاهد، شاعر، أديب، عالم، صوفي، ولد في القيطننة وتعلم في وهران. أدى فريضة الحج مع والده سنة 1241هـ ثم زار بغداد ودمشق وعاد إلى الجزائر. قاتل الفرنسيين وألحق بهم هزائم كبيرة، عقدت فرنسا معه الصلح سنة 1834، تفرغ أثناءها للإصلاح الداخلي، ونقضت فرنسا المعاهدة سنة 1835 فخرج الأمير بقواته وحاصر جيوشها، واستمرت الحرب بين الطرفين حتى عام 1847 حين هادن سلطان المغرب الأقصى فرنسا فضعف أمر الأمير وحوصر، واستسلم في 21 ديسمبر 1847 ونفي إلى طولون ومنها إلى أنبواز. ثم أفرج عنه و توجه إلى سورية حيث استقر بدمشق سنة 1271 إلى حين وفاته. له مؤلفات منها: "ذكرى العاقل"، و"المواقف"، و"ديوان شعر". معجم أعلام الجزائر، ص 103 - 104.

1847، حيث سيق مع أهله وذويه إلى فرنسا ثم أفرج عنه، وسار إلى بلاد الشام وبها توفي - رحمه الله -⁽¹⁾.

أما الناحية الشرقية، والتي مثلت المقاومة الحكومية، فكان قائد مقاومتها هو الحاج أحمد⁽²⁾ الذي كان بايا على قسنطينة في خدمة الأتراك من سنة 1824، ولما سقطت الجزائر العاصمة في يد الفرنسيين، عاد إلى قسنطينة وجمع شمل القبائل، وأقام مجلسا شوريا، وكون جيشا لمواجهة القوات الفرنسية؛ فحصن المدينة ودعا القبائل للجهاد، وقد رفض دعوة الفرنسيين للاستسلام والاعتراف بسلطة فرنسا مقابل الاحتفاظ بمنصب الباي مع دفع الجزية. وفي سنة 1836 انتصر عليهم انتصارا عظيما في جسر القنطرة رغم تفوق العدو عددا وعدة، لكن فرنسا استغلت معاهدة التافنة التي كانت مع الأمير عبد القادر سنة 1837 لتفريغ جهدها لاحتلال قسنطينة والقضاء على أحمد باي، ولما زحف العدو على المدينة دام الاشتباك ثلاثة أيام قتل خلالها القائد العام للجيش الفرنسي دامريمون والجنرال بيريقو، وخلف القيادة الجنرال فالي الذي تمكن من دخول قسنطينة يوم 13 أكتوبر 1837 بعد تدمير أسوارها، إلا أن سكانها لم يستسلموا وحاربوا بشجاعة، ما أدى إلى انتقام الفرنسيين من المدنيين وممتلكاتهم. وتوجه بعدها أحمد باي رفقة جنوده للجنوب ولم يستسلم، بل واصل المقاومة، وتنقل من قبيلة لأخرى مهاجما المراكز العسكرية الفرنسية؛ ولما أعياه المرض وتخلّى عنه أعوانه استسلم للسلطة الفرنسية على أن تسمح له بالهجرة إلى إحدى الدول الإسلامية، لكن فرنسا أخلفت وعدها وبقي تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته بالعاصمة سنة 1850⁽³⁾.

بالقضاء على أعظم مقاومتين على التراب الجزائري لم يسدل الستار على المقاومات الشعبية، ولم تنطفئ شعلة الروح الوطنية، بل استمر صمود الجزائريين طوال فترة الغزو متمثلا

1 ينظر: هذه هي الجزائر، ص 85-89؛ وينظر تفاصيل هذه المقاومة: تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن 19 ص 33-37، كتاب الجزائر ص 50-54؛ التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ص 108-115؛ موجز في تاريخ الجزائر، ص 131-140

(2) حوالي 1785-1850: أحمد بن محمد الشريف، حفيد باي قسنطينة، تقلد بعض المناصب ثم عين على رأس بايلك الشرق، قاوم الفرنسيين مدة 18 سنة. ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص 113-115.

3 ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة عمار، ص 141-143؛ وينظر تفاصيل هذه المقاومة: هذه هي الجزائر، ص 84-85؛ التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ص 115-119.

في مقاومات شعبية تواصلت طيلة القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين. لكن هذه المحاولات باءت بالفشل نظرا لعدم توازن القوى، وتشتت الثورات جغرافيا أمام الجيوش الفرنسية المنظمة التي ظلت تتزايد وتتضاعف لديها الإمدادات، أضف إلى ذلك السياسة الوحشية التي اتبعتها في الإبادة والحرق والتدمير. ومن أهم الثورات الشعبية المسلحة خلال هذه الفترة:

1- مقاومة الزعاطشة من 1848 إلى 1849: وكانت بزعامة رفاق الأمير عبد القادر شيخ الطريقة بوزيان، ورفيقاه محمد الصغير، والحاج موسى الدرقاوي. وامتدت ما بين قسنطينة إلى الزيبان، حيث ركز الفرنسيون جهودهم على واحة الزعاطشة بقوات كبيرة مدعومة بالحنونة، وقد واجههم المجاهدون بمقاومة عنيفة، لكن القصف المدفعي المكثف وإحراق النخل كان سببا في الهزيمة، وانتهت باحتلال القرية وتخريبها، واستشهد المجاهدون يوم 26 نوفمبر 1849، واستمرت الثورة في القرى المجاورة حتى سقوطها يوم 5 يناير 1850، وفي هذه الحملة حُمل رأس الشيخ بوزيان مع رؤوس أخرى إلى فرنسا بالمتحف الأنثروبولوجي بباريس⁽¹⁾.

2- ثورة القبائل من 1851 إلى 1857: تزعمها الشريف بوبغلة ما بين 1851 و1854، ثم الحاج عمر ولالة فاطمة نسومر من 1855 إلى 1857، أما ثورة الشريف بوبغلة فانطلقت من جرجرة وتمكن من إحراز أولى الانتصارات على الفرنسيين في مارس 1851، أجبر بعدها للانتقال إلى بجاية ثم إلى جرجرة، وبقيت المقاومة حتى سقط شهيدا على يد بعض أعدائه الجزائريين، يوم 26 ديسمبر 1854.

ثم تزعم الجهاد بعده في بلاد القبائل الحاج عمر، ولالة نسومر؛ حيث خاضوا عددا من المعارك ضد المصالح الفرنسية، أظهرت فيها لالة فاطمة شجاعة وبطولة نادرين. لكن الحملات الفرنسية المكثفة والكبيرة، إضافة إلى أعمال التدمير والإبادة والمصادرة، أوقفت هذه المقاومة، وتمكنوا بعد معارك عنيفة من أسر الحاج عمر يوم 8 ماي 1857، الذي

1 تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 125-127 - بتصرف -

وقد تم بحمد الله استرجاع رفاتة و 23 آخرين معه إلى أرض الوطن يوم 3 جويلية 2020، أي بعد 170 عاما تقريبا، ونسأل الله أن ييسر استرجاع البقية الباقية ممن نحسبهم عند الله شهداء هذا الوطن.

نفي إلى تونس، وبعدها بثلاثة أيام تم أسر المجاهدة لالة فاطمة إلى أن توفيت بزاوية تابلاط⁽¹⁾.

3- مقاومة الأغواط: من 1852 إلى 1854 تحت قيادة الشريف محمد بن عبد الله بن سليمان. حيث زحف المجاهدون على القبائل الموالية للفرنسيين، وتغلبوا على العديد منها، ودخلوا الأغواط عام 1852؛ وعلى إثرها حشدت فرنسا جموعها وانتقمت من المقاومة، وارتكبوا أبشع الجرائم فيها؛ مدة ثمانية أيام. واصل الشريف في تهديد مراكز الفرنسيين، وقد لجأت فرنسا بعد العجز عن إخماد المقاومة إلى الاستعانة بالقبائل الجزائرية الموالية لها لتطويق الثورة، فأجبرت القبائل الثائرة على الاستسلام، واضطر الشريف إلى اللجوء لتونس سنة 1853، وعاد للجزائر عام 1854 مستأنفا الجهاد لكنه انسحب ثانيا إلى تونس تحت وطأة مطاردات العملاء عام 1858، ثم رجع للجزائر مجددا نشاطه، إلى أن أُسر عام 1861، وقد تمكن من مغادرة الإقامة الجبرية بعنابة، ليلتحق بثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864، ثم إلى ثورة المقراني عام 1871، ولاذ بعدها إلى تونس إلى أن توفي عام 1895⁽²⁾.

4- ثورة أولاد سيدي الشيخ: من 1864 إلى 1880: انطلقت الثورة من منطقة البيض بقيادة سي سليمان بن حمزة، ثم خلفه بعد استشهاده في 8 أبريل 1864 إخوته سي محمد، فسي أحمد، وسي قدور، إلى جانب عمهم سي الأعلى ولد بوبكر، وفي أولى انتصاراتهم قضوا على كتيبة فرنسية في 7 أبريل 1864. وامتدت الثورة إلى معظم المناطق الداخلية الغربية والوسطى، هاجموا فيها القوات الفرنسية وعملاءها الخونة، وقرى ومزارع المستوطنين على مدى 16 عاما، شهدت خلالها معارك عديدة، وقد تمكنت فرنسا بعدها على القضاء على الثورة⁽³⁾.

5- ثورة المقراني من 1871 إلى 1872: طلب الشيخ المقراني من السلطات الفرنسية الاستقالة من منصب الباشاغا، بعد أن تدهورت الأوضاع بالشرق الجزائري، لكنها رفضت طلبه يوم 9 مارس 1871، فأقدم على الثورة وحمل السلاح، وفي 8 أبريل انضم الشيخ الحداد للمقراني، وقد كبدوا القوات الفرنسية خسائر كبيرة، وفي إحدى المعارك بعد أن خف القتال

1 ينظر: المرجع نفسه، ص 127-128 ؛ موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 151-153

2 ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 129-130.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص 130-132،

توجه المقراني للصلاة، ففاجأه أحد الزواف برصاصة قاتلة، يوم 5 ماي 1871، فتولى القيادة بعده أخوه بومرزاق، كما أُلقي القبض على الشيخ الحداد يوم 13 جويلية 1871، الذي واصل أبنائه من بعده الثورة، واستمرت المعارك حتى شهر أوت أين أخذتها القوات الفرنسية، وقد استمرت الثورة في الجنوب بقيادة بوشوشة إلى غاية 1874، حيث أسر جريحا ونُفذ فيه الإعدام في جوان 1875⁽¹⁾.

6- ثورة الشيخ بوعمامة (1881-1904): وقد لقب بعبد القادر الجزائري الثاني، بسبب قدرته على محاربة الفرنسيين لمدة 23 سنة، والتي فشلت في القبض عليه، ففي سنة 1881، تمكن الشيخ ورفاقه من نصب كمين لفرقة عسكرية، كانت موجهة للقضاء عليه، وامتدت ثورته إلى ناحية وهران، كما أسروا بعثة عسكرية بالهقار، وفي واقعة أخرى أسر ثلاثمائة فرنسي، لكن القوات الفرنسية في الأخير تمكنت من محاصرته والتغلب عليه، وقد توفي بوعمامة بوجدة يوم 7 أكتوبر 1908⁽²⁾.

7- مقاومة التوارق من 1916 إلى 1919: اندلعت ثورة التوارق في الصحراء الكبرى عام 1916، وقد شملت جانيت وتاغيت والهقار، بقيادة كل من أحمد سلطان والشيخ عبد السلام، مستغلين انشغال فرنسا بالحرب العالمية الأولى، إذ تمكنوا من اقتحام حصن جانيت يوم 24 مارس 1916، وتوالت بعدها المعارك بين الطرفين، إلى أن تمكنت منها فرنسا، وفي المقابل قامت معارك بالهقار دامت لغاية 1919، بقيادة كاوسن التارقي⁽³⁾.

حل هدوء نسبي بعد فشل هذه المقاومات الشعبية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وانتقلت الأطراف الوطنية إلى سلوك وسائل جديدة؛ تمثل في النضال السياسي السلمي عبر الجرائد والمجلات والنوادي والجمعيات. وكان مبتدأ لظهور الحركة الوطنية.

وقد برزت في تاريخ المقاومة السياسية اتجاهات مختلفة تبناها بعض مثقفي الجزائر آنذاك؛ فتيار ينادي بالاندماج وربط الجزائر بفرنسا لتحقيق المساواة بين الأهالي والمستوطنين،

1 ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 156-157

2 ينظر: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ص 150-151؛ موجز في تاريخ الجزائر، ص 158-159.

3 ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 160.

وممن تزعم هذه الفكرة ابن التهامي والدكتور بن جللول وفرحات عباس ويطلق عليهم "النخبة" وهم الذين تخرجوا من المدارس الفرنسية، وتيار ينادي بالحل الجذري دون الذوبان في فرنسا، وتزعمه نجم شمال إفريقيا بقيادة مصالي الحاج، والمثقفون الذين كانت ثقافتهم عربية إسلامية أطلق عليهم "المحافظون"⁽¹⁾.

وتزامن مع ذلك فرض قانون مححف يمس بالشخصية الجزائرية المسلمة، كان له صدى على الوطنيين المثقفين في معارضته بشتى الوسائل، ألا وهو قانون التجنيد ففي عام 1912م عند بدء بؤادر الحرب العالمية الأولى، أصدرت الحكومة الفرنسية قانون التجنيد الإجباري على شباب الأهالي للالتحاق بالجيش الفرنسي، مما أدى إلى أشكال مختلفة من الردود بين متظاهر ومرسل لوفود محتجة إلى فرنسا وبين مهاجر أرض الوطن؛ في مقابل النخبة المثقفة التي قبلت التجنيد بشرط منح الجزائريين نفس الحقوق مع المعمرين وهو ما رفضته فرنسا. وكان نتيجة هذا القانون مشاركة أكثر من مائة ألف جزائري في الحرب العالمية الأولى تكبد فيها الجزائريون 19074 قتيلا، و72035 جرحا، و8779 معطوبا⁽²⁾.

وممن برز وكان له دور فعال في المسار السياسي واعتبر أبو العمل السياسي في الجزائر هو الأمير خالد الهاشمي باعتباره أول مؤسس لحزب سياسي مدافع عن حقوق الجزائريين؛ إذ كرس حياته للنضال السياسي قولا وفعلًا، ومن ذلك أنه أسس "جريدة الإقدام" وجمعية "الأخوة الجزائرية" ورفع لائحة من المطالب الإصلاحية إلى حاكم الجمهورية الفرنسية في مؤتمر فرساي سنة 1922م ، ولما أحست السلطة الفرنسية بخطورة هذا النضال ضيقت عليه وعلى أنصاره حتى اضطرت لنفيه، ومع ذلك واصل نضاله في فرنسا وغيرها حتى توفي في دمشق يوم 9 جانفي 1936م⁽³⁾. تاركا باب النضال السياسي مفتوحا لمن بعده.

ومن الحوادث العظيمة التي كان لها الأثر على مستقبل الجزائر ما حدث في سنة 1926م حيث تم تأسيس "جمعية نجم شمال إفريقيا" في باريس، وثانيهما تأسيس "نادي الترقى"

1 ينظر: المرجع نفسه، ص 163

2 ينظر: المرجع نفسه، ص 162؛ سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، يحي بوعزيز، ص 43-45؛ تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 354-355.

3 ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، ص 164-165؛ هذه هي الجزائر، ص 162-163؛ التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ص 219-229.

بعاصمة الجزائر. فأما جمعية نجم شمال إفريقيا فنشأت عام 1926م بين فئات الجزائريين وضمّت معها التونسيين والمغاربة، وقرّبا منهاجها من الحزب الشيوعي الفرنسي، ثم اختصت بالجالية الجزائرية لتباين الأهداف والمطالب بين الدول الثلاث، وكان نجم هذا الحزب هو مصالي الحاج الذي يعتبر أول مطالب للاستقلال التام للجزائر، وقد عانى هذا الحزب من السلطات الفرنسية اضطهادا عظيما؛ فنفي وسجن زعيمها مرات، وحل حزبا كرات وأعيد إنشاؤه بأسماء أخرى منها "حزب الشعب" و"حزب انتصار الحريات الديمقراطية"، ومع هذه المضايقات تمكن من الكفاح والاستمرار، إلى أن دخل النزاع بين أفراد الحزب وانشق الحزب قسمين قسم موال لمصالي الحاج، وطرف معارض له والذي انبثق منه ما يسمى ب"المنظمة الخاصة السرية" فيما بعد التي فجرت الثورة⁽¹⁾.

وأما "نادي الترقّي" فبعد جهود عظيمة تم تأسيس هذا النادي عام 1927م في الجزائر العاصمة، فكان موقعا للمحاضرات والمسامرات والحفلات الكبرى، والذي كان له الأثر الكبير على الحياة السياسية والاجتماعية، ومنه تحقق حلم دعاة النهضة الإسلامية، وهو تأسيس هيئة إسلامية عربية المعروفة بـ "جمعية العلماء المسلمين" عام 1931م، وكان أساس قاعدتها هو الإسلام ديننا الجزائر وطننا العربية لغتنا، وقد استطاعت بفضل جهود أعضائها -وعلى رأسهم مجدد الدعوة الإصلاحية بالجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس⁽²⁾- تحقيق هذا الشعار على أرض الواقع؛ مع ما لاقته من مضايقات وتنكيل بأعضائها وجرائدها⁽³⁾.

1 ينظر: هذه هي الجزائر، ص 164؛ موجز في تاريخ الجزائر ص 167-170؛ سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، ص 82-88؛ تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 365-368.

(2) (1308 - 1359 هـ / 1889 - 1940م): عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس: من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى وفاته. ولد بمدينة قسنطينة لأسرة مشهورة بالعلم والثراء والجاه، وتعلم بمسقط رأسه ثم بتونس حيث أتم دراسته في جامع الزيتونة (سنة 1911 - 1912 م). وعاد إلى بلده، ودرّس بالجامع الكبير، ثم رحل إلى المشرق وحج، وعاد سنة 1913 وفتح نفسه لميدان التعليم والإصلاح، وكان شديد الحمالات على الاستعمار الفرنسي، أنشأت في أيام رئاسته كثيرا من المدارس. وأصدر عدة جرائد، أعظمها "الشهاب"، توفي بقسنطينة. من آثاره "مجالس التذكير" في التفسير، و"العقائد الإسلامية"، وجمع عمار طالي "آثار ابن باديس" في أربع مجلدات، معجم أعلام الجزائر، ص 28-29.

3 ينظر: هذه هي الجزائر، ص 165-167؛ سياسة التسلط الاستعماري، ص 89-92؛ موجز في تاريخ الجزائر ص

ويمكن تقسيم المسار السياسي للجزائر في هذه الفترة إلى مرحلتين هامتين:
 مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية: تميزت بمطالبة فرنسا بالتنازل عن الحقوق للجزائريين
 مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية: اتجهت فيها الآراء إلى توحيد الجهود للمطالبة
 بالاستقلال.

فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية خرجت الجماهير عبر كافة الدول احتفالا بالانتصار
 وسقوط النظامين النازي والفاشي، وكان الشعب الجزائري من هذه الشعوب التي أُقحمت في
 هذه الحرب ودفعت الكثير من أرواح أبنائها في مقابل وفاء فرنسا بعهدا وهو منح
 الاستقلال، فخرج الجزائريون في احتفالات ومسيرات سلمية فرحا بالنصر، وطمعا في تحقيق
 الوعد ومناداة بالإفراج عن المعتقلين، فما كان من المحتل الغاصب إلا أن وجه سلاحه وصب
 وحشيته تجاه شعب أعزل استنفر فيه جميع قواته البرية والجوية والبحرية وميليشيا المستوطنين،
 كانت نتيجتها مجزرة رهيبة قوامها أزيد من 45 ألف شهيد بينهم الشيوخ والنساء والرضع،
 شملت مدنا عدة أهمها سطيف وقالة وخراطة. مع ما تخلل ذلك من أعمال قصف ونهب
 وتدمير وانتهاك للأعراض، واعتقال الآلاف من زعماء وطنيين وحل الأحزاب والجمعيات.

وحينها أدرك الشعب الجزائري عقم التفاوض مع فرنسا وأن اللغة الموصلة للحرية هي لغة
 الكفاح المسلح⁽¹⁾، وهو ما تجسد على أرض الواقع، بعد تسع سنوات من اجتماع جهود
 الأحزاب وجميع أطراف المجتمع، لتنطلق أول رصاصة في 1 نوفمبر 1954م معلنة بدء الثورة
 التحريرية المجيدة. وبعد سبع سنوات ونصف من الجهاد والكفاح اضطرت فرنسا للاعتراف
 بسيادة الجزائر واستقلالها، وتم تحديد 5 جويلية 1962م الموعد الرسمي لإعلان الاستقلال، بعد
 ثورة كلفتها أكثر من مليون شهيد، وأضحت الجزائر مثالا يحتذى به في سلوك طريق
 الاستقلال والحرية⁽²⁾.

1 ينظر: هذه هي الجزائر، ص 176-180 / تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 455-458

2 ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، ص 207-209 / الجزائر إلى أين 1830-1992، مجموعة من الباحثين، ص

المطلب الثاني: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

الفرع الأول: الأوضاع الاجتماعية

إن الناظر في البنية الاجتماعية للسكان الجزائريين أواخر العهد العثماني يجدها مخالفة تماما لما هي عليه بعد الاحتلال الفرنسي، ففي العهد العثماني اتخذت شكلا هرميا تتصدره الطبقة التركية، يليها طبقة الكراغلة، ثم طبقة الحضر، ثم الأجانب، وأخيرا طبقة العموم -والذي كان سببا لتولد كثير من الأحقاد-، ومن حيث اللسان فكانوا ثلاثة أقسام بربر وعرب وأتراك، وباعتبار الديانة قسمان مسلمون وهم الجنس الأغلب، وأقليات من اليهود وبعض النصارى⁽¹⁾.

أما بعد الاحتلال فتغيرت البنية الاجتماعية إلى أسوأ الأحوال بدءًا بطرد العثمانيين، وتطبيق سياسة القتل والإبادة، والسلب والنهب، وتغلب الجنس الفرنسي الذين احتلوا المراكز الاجتماعية المرموقة⁽²⁾، وتكوّن منهم الرأسماليون بالمدن والإقطاعيون بالريف، وتميزوا بالتعصب والكره للجزائريين طيلة فترة الاحتلال، وهذا التعصب شمل جميع أطراف الاحتلال الفرنسي؛ حكومة وإدارة وبرلمانا وجيشا وكنيسة ومستوطنين، والمحلل لوسائل هذا التعصب يجد أنه استعمل فيه جميع وسائل الهدم والقتل والإجرام والإهانة والتقنين التعسفي وغيرها⁽³⁾.

من هذه القوانين "قانون كريميو": قانون صدر في 24 أكتوبر 1870: وقد نص على العديد من النقاط أبرزها: منح الجنسية الفرنسية لليهود بصورة جماعية مع التمتع بجميع الامتيازات التي يخولها القانون للرعايا الفرنسيين دون التخلي عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية. والقصد من وراء إصداره رغبة فرنسا في تقوية العنصر الأوروبي الفرنسي بمن فيه اليهود بالجزائر من جهة، وإعطائه الحق في ممارسة النشاط السياسي والإداري في المؤسسات الفرنسية من جهة أخرى، ولذلك وقف الجزائريون منه موقف رفض واستياء، حيث هضم السكان

(1) ينظر: المرأة، حمدان خوجة، ص 15، 56، 63/ موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 105، 107

(2) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصرة، شارل روبير أجيرون، ص 17 .

(3) ينظر: مجلة علوم الإنسان والمجتمع، عدد: 6، سياسة فرنسا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر 1930-

1954، د. بلقاسم ميسوم، ص 64

الأصليين حقهم، وفضل الأقلية اليهودية عليهم⁽¹⁾.

وقد عبر الحاكم العام للجزائر سنة 1871 "الأميرال الكونت دو غيدان" حين رفع تقريراً إلى وزير الداخلية الفرنسية في 29 إبريل 1871 بقوله: «لقد جرح العرب في أعماق قلوبهم وفي وطنيتهم النظيفة بسبب تخنيس اليهود الجماعي الذي سمح لليهود باحتلال مناصب عالية إدارية وقضائية»⁽²⁾.

واليهود كما وصفهم أحمد توفيق المدني⁽³⁾: "يشتغلون الأعمال المالية والتجارية، مثلما يشتغل بنو جلدتهم في كل بلاد الدنيا، ويجعلون مصالحهم المادية فوق كل عاطفة وفوق كل اعتبار"⁽⁴⁾.

قانون الأهالي: والمعروف بـ (الأنديجينا) وصدر في شهر مارس 1871م وبدأ العمل به سنة 1874م وهو عبارة عن مجموعة من الإجراءات الاستثنائية التعسفية منها:

- معاقبة الأهالي لأدنى عمل يقومون به.
- مصادرة أملاكهم دون حكم قضائي.
- منع الأهالي من التنقل بين الأقاليم المختلفة دون رخصة.
- منع التجمعات والاجتماعات مع منع الجزائريين من الذهاب للحج بحجة الطاعون وغيرها.

والقصد من إصدار هذا القانون هو تضيق الخناق على الجزائريين وجعلهم يعيشون في جو من الظلم والشعور بانعدامهم للأدمية ومن ثم دفعهم للهجرة من بلادهم وإحلال محلهم المعمرين⁽⁵⁾.

(1) ينظر: سلسلة جهاد شعب الجزائر، بسام العسلي، (87-83/5) كتاب الجزائر، توفيق المدني، ص 62.

(2) سلسلة جهاد شعب الجزائر، (87/5)

(3) (1317 - 1404 = 1899 - 1983): سياسي أديب من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولد بتونس لعائلة جزائرية، أكمل تعليمه بالزيتونة، اعتقل بعد الحرب العالمية الأولى، نشط بعدها في الصحافة، في 1925 نفي للجزائر، عين وزيراً للشؤون الثقافية بالحكومة المؤقتة، 1958، ثم مثل الجزائر بدرجة سفير، ثم وزيراً للأوقاف، ثم سفيراً لبلاده، له تقويم المنصور، كتاب الجزائر، حياة كفاح وغيرها. الإعلام بأعلام الجزائر، عبد الغني عيساوي، ص 204.

(4) كتاب الجزائر، ص 148.

(5) ينظر: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، د. جمال قنان، ص 126 - 129.

والمطلع على الحالة الاجتماعية للسكان يتبين له جليا مدى فظاعة جرائم المحتل الفرنسي تجاه الجزائريين والذين عُرفوا بالأهالي. و قد اختلف في تقدير عددهم غداة الاحتلال، فقل أكثر من ثلاثة ملايين⁽¹⁾، وأيا كان هذا العدد فبدلا من الزيادة الطبيعية حتمت الظروف القاسية على الشعب الجزائري تراجعا فادحا، وإبادة جماعية لشرائح واسعة من المجتمع بسبب عوامل كثيرة جراء الاحتلال الفرنسي منها القتل والتدمير الذي انتهجته فرنسا تجاه الأهالي، والفقر والبطالة التي أدت إلى مجاعات وأوبئة، إضافة إلى هجرة الجزائريين إلى بلدان شتى بسبب العدوان الفرنسي وسياساته، من الفقر والبطالة وغيرها. فمنذ دخول الاحتلال سنة 1830م إلى 1856م عرف النمو السكاني تناقصا بسبب الإبادات الجماعية، ثم نجده يتزايد تزايدا طفيفا إلى غاية 1954م حيث قاربت 10 ملايين، باستثناء الفترة الممتدة بين 1866م و1872م، وبين 1881م و1886م أين عرفت تناقصا حادا بسبب المجاعة والأوبئة التي راح ضحيتها حوالي 500000 نسمة، إضافة إلى العوامل الأخرى؛ وفي المقابل نجد نسبة الفرنسيين على قتلهم بالنسبة للجزائريين قد عرفت نسبتهم تزايدا مستمرا⁽²⁾، بسبب حالة الرفاهية التي كانوا يعيشونها، مع سياسة الاستيطان التي سنّها الاحتلال الفرنسي؛ حيث عمل منذ 1830م على تشجيع عملية الهجرة من فرنسا خاصة ومن أوروبا عامة إلى الاستيطان بالجزائر، وتوقفت نسبيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وخلال هذه الفترة تكونت طبقة بوجوازية من المستوطنين في المدن وطبقة من الإقطاعيين في الأرياف بعد أن استولوا على أخصب الأراضي، خاصة السهول الكبرى كسهل وهران، وعنابة، ومتيجة⁽³⁾، ففي سنة 1866م توافد على الجزائر 217990 أوروبي؛ أغلبهم من الفرنسيين والباقي من الإسبان والإيطاليين والمالطيين والإنجليز وغيرهم، وبلغ عددهم بين 1830م - 1850م: 63497 مستوطنا، ليصبح بين عامي 1921م - 1929م: 657641 مستوطنا، وترجع أصولهم إلى جنسيات أوروبية متعددة

(1) ينظر: في مرآة التاريخ، عبد الله شريط و محمد الميلي، ص152.

وذهب حمدان خوجة أنهم كانوا عشرة ملايين، وهي أكبر نسبة وقفت عليها. ينظر: كتاب المرأة ص13.

(2) ينظر الجدول التوضيحي للنمو السكاني من 1830م إلى 1954م: أطروحة الدكتوراه: الدولة والمجتمع في برنامج الحركة الوطنية، مراد بوعباش، ص110.

(3) ينظر: الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، د. عبد المالك التميمي، ص21-22/ تاريخ الجزائر المعاصرة، شارل أجيرون، ص41-44/ سلسلة جهاد شعب الجزائر، بسام العسلي، (72/5)

أغلبها من دول كانت تعاني الفقر والجهل والمتصفون بالأخلاق السيئة بسبب ظروفهم الاجتماعية التي كانوا يعانون منها، فمنحهم الاحتلال الفرنسي أحصص الأراضي الزراعية، وتحكموا في اقتصاد البلاد وإدارة شؤون الأهالي وأصبحت بيدهم السلطة والقوة والمال على حساب أبسط حقوق الجزائريين، على الرغم من تمثيلهم الضعيف الذي لا يمثل سوى عشرة بالمائة من مجموع سكان الجزائر⁽¹⁾. خاصة بعدما أعلن مجلس النواب الفرنسي سنة 1848م، " أن أرض الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا، وأنها جزء من أم الوطن، وأن الفرنسيين ينتخبون نائبين عنهم للمجالس القومية الفرنسية بباريس؛ كأن لا وجود للمسلمين"⁽²⁾.

وأقوال الفرنسيين في هذا الشأن كثيرة، منها ما نقله فرحات عباس في كتابه ليل الاستعمار حيث قال: «واقترح استعماري آخر بأن تسوى المشاكل الاجتماعية القائمة في فرنسا باستعمار الجزائر فقال: " إن نزع الملكية من يد الأهالي هو الشرط الأساسي الذي لا مناص منه لاستيطان الفرنسيين". وهذه الفكرة نفسها خامرت عقل عالم اجتماعي آخر، هو شارل فوريي، الذي يقول بأن هجرة الأوربيين إلى الجزائر يجب أن تكون عارمة جارفة، " يجب أن نبعث هناك جحافل من الأوربيين. إن في استطاعة فرنسا أن تبعث دون أن تنهك قواها أو ترهق نفسها ، أربعة ملايين نسمة، ثم تبعث أوروبا ما تبقى"⁽³⁾.

وتم تطبيق هذا المشروع الاستيطاني، الذي نجم عنه مصادرة أراضي شاسعة للجزائريين، وحرمانهم منها أو تعويضهم بأراضي قاحلة، بل والعمل أحيانا في أراضيهم عند الأوربيين المعتصبين لأراضيهم بأزهد الأجور؛ والذي كان سببا من أسباب الهجرة والفقر والبطالة والمجاعة والأوبئة. يقول فرحات عباس: " ستة ملايين من السكان لم يبق في أيديهم سوى أرض جرداء قاحلة، وبلغ الثلثان من هؤلاء السكان من الجوع والبؤس والفاقة مبلغها، وجردت القبائل الغنية والقوية من خيراتها، لأن أراضيهم وممتلكاتهم أصبحت نهبه الناهب، ولم يبق في وسع العربي الذي أصبح غريبا في أرض أجداده إلا أن يكون خادما للمعمر"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 119-120/ هذه هي الجزائر، ص 97-99/ ليل الاستعمار، فرحات

عباس، ص 57-58.

(2) هذه هي الجزائر، ص 97

(3) ص 43-44

(4) المصدر نفسه، ص 68

علما أن النسبة الغالبة للجزائريين كانت من البدو الذين يمتنعون الزراعة والرعي، وهذا ما أثر سلبا على حياتهم المادية والعددية، وهذا ما اضطر كثيرا منهم بعد فقد أراضيهم إلى الهجرة نحو المدن، ومع ذلك كانت تعيش هذه الطبقة في مستوى منخفض جدا؛ فأهلها إما عاطلون وإما لهم أعمال مؤقتة مثل مسح الأحذية، والحمالة، وبيع الصحف، ومسح البيوت، والأشغال العامة وغيرها. كما اضطر البعض منهم للهجرة خارج الوطن خاصة فرنسا، بحثا عن مورد الرزق والنجاة من الموت والهوان، ومع ذلك لم يسلموا من جبروت الاستعمار؛ حيث استُخدموا في مهن شاقة بأجور زهيدة، ولساعات طويلة، ودون أي ضمان اجتماعي أو رعاية قانونية، فضلا عن العنصرية الممزوجة بالقسوة.

وهذا لا يعني أن الحضر كانوا أحسن حالا، بل كانت مرتبتهم منحطة عن الأوروبيين، فلا يُمكّنون من الرتب العالية والوظائف السامية، فضلا عن الدخول في المناصب السياسية، وحتى أصحاب المهن والحرف، وجد كثير منهم أنفسهم على قارعة البطالة بسبب احتكار الأسواق وهدم كثير من المحلات والاستيلاء عليها والتمكين للبضاعة الأوروبية بأسعار تنافسية، أما الصناعات فكثير منها اندثر بدخول الاحتلال⁽¹⁾.

وقد نجم عن سياسة الاستيطان الأوروبي آثار سيئة من خلالها "تم تخطيط العائلات الجزائرية الكبرى التي كانت تمثل القيادات للمجتمع الجزائري روحيا وماديا، بل وحتى إداريا واجتماعيا وسياسيا، ومزق المجتمع الجزائري شر ممزق وشرذم وأفقر.

وتم تخطيط ما دعي بالبرجوازية الجزائرية في المدن الكبرى، وكانت تتألف من التجار، والحرفيين والقضاة، والمثقفين، فشردوا كذلك وزوحوهم في أعماقهم وأنشطتهم المختلفة من طرف الجالية الأوروبية التي كانت تتصف بالشراسة في ميدان الاقتصاد، والغلبة والقسوة في ميدان السياسة والإدارة"⁽²⁾.

وفيما يخص الصحة فقد مرضت الجزائر منذ دخول الاحتلال، وبدل تطورها تدهورت أحوالها، وخلقت حالة يرثى لها، ففي آخر فترات الاحتلال وصل معدل حياة الفرد الأوروبي في الجزائر إلى 72 عاما ونصف العام، في المقابل كان الجزائري لا يتجاوز 50 سنة، لكثرة الأمراض

(1) ينظر: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830-1954، يحي بوعزيز، ص 49، 52

(2) المرجع نفسه، ص 35-36

والأوبئة، وتدهور المستوى المعيشي، كمرض السل والتيفيس، فضلا عن المجاعات الفظيعة التي أصابت الجزائر في فترات متباعدة مثل مجاعة سنة 1867-1868م و1921م.

وفي مقارنة وحدة الحرارة الغذائية التي كان يتناولها الجزائريون لم تكن تتجاوز 1500 كالورية يوميا في المقابل كان الأوروبيون يتناولون 3000 وحدة كالورية يوميا⁽¹⁾.

والمطلع على الإحصاءات التي استخرجها أحد القادة الفرنسيين من التقارير العسكرية، دلته دلالة قاطعة على سوء الحالة الصحية المزعجة في الأوساط الجزائرية؛ حيث ذكر أعداد الذين استدعوا للخدمة العسكرية في كل من مدينة الجزائر، وتيزي وزو، ووهران، فلم يُقبل منهم قريب من النصف لأن حالتهم الصحية تمنع من ذلك؛ إما بسبب ضعف الجسم وانحطاط القوى، أو أمراض العيون، أو مرض السل، أو مرض الزهري، أو حمى البحر، أو خلل خلقي، وغيرها⁽²⁾.

ورغم كل هذه المعطيات فقد حُرِمَ الجزائريون العلاج والدواء، فلم تكن تلك الأعداد القليلة من الأطباء والمستوصفات لتسد حاجة أمة جزائرية تبلغ الملايين، فأى استقرار صحي يكون بنسبة طبيب لكل 10000 شخص أو أكثر؟ ومن وجدها لم يقدر على تكاليفها، أما أصحاب الأرياف الذين انعدمت عندهم وسائل الحياة الطبيعية فكانوا يتمنون الموت قبل العلاج⁽³⁾.

"أما الضرائب والقوانين المالية فقد استعملها الاحتلال كوسيلة غير رحيمة للسيطرة والقبضة الحديدية. إن احتلال أية قرية أو مدينة كان يعقبه فرض ضرائب حربية وضرائب استسلام. لقد فهم الفرنسيون أن الطاعة أو الخضوع يستلزم دفع الضرائب أو الجزية بكميات لا تتناسب مع القدرة على الدفع. وإذا عجز البعض عن الدفع أجبر الفرنسيون باقي المواطنين على الدفع الجماعي... وكان العاجز عن الدفع يحمل إلى السجن وبذلك يحرم أولاده وأهله من

(1) ينظر: سياسة فرنسا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر 1930-1954، مرجع سابق، ص66/ سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية، ص58.

(2) ينظر: كتاب الجزائر، ص359-360.

(3) ينظر: الجزائر حتف الاستعمار، ليون فيكس، ص19/ كتاب الجزائر، ص359/ سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية، ص59.

خدمته. فتتشرّد الأسر وتترمل النساء ويتيمّم الأطفال⁽¹⁾. وهناك أيضا ضرائب شاذة لا يدفعها إلا الجزائري؛ ومن ذلك قانون 1881م، كتحمّل الجزائريين مسؤولية حرائق الغابات ومعاقتهم بالعقوبة الجماعية عليها⁽²⁾.

وكان المستفيد الأكبر من هذه الضرائب العربية ومن الغرامات الثقيلة المفروضة على الأهالي هم الكولون وحدهم الذين عملت الإدارة الفرنسية على تدليلهم، فكان من المنطق العجيب أن الأوروبيين الأغنياء يدفعون أقل بكثير مما يدفعه الجزائريون الفقراء⁽³⁾.

ومما ذكره أحمد توفيق المدني في وصف حالة غالبية الجزائريين قوله: "أما الأغلبية الكبرى من الأنفس، فهي لا تزال تسكن -من سوء الحظ- القرابي وهي أكواخ حقيرة، بينها -إن صح التعبير- رب العائلة من قصب، وخوص، وقش، وليس بها منفذ، ولا يتخللها الهواء، ولا تدخلها أشعة الشمس. فهي إلى القبور أقرب منها إلى الديار. وأغلب سكان هذه القبور الموجودة فوق سطح الأرض، هم من العملة الفلاحين وغيرهم، الذين يعيشون عيش ضنك وفاقة وعسر، ويستمد الكثير منهم رزقه بواسطة التسول وبذل ماء الوجه. ولا ريب أن أسعد يوم عند هذه الطائفة هو اليوم الذي تريحهم الموت فيه من أعباء الحياة. ولا تسل عما بداخل هاتيك القرابي من أمراض، ومن علل، ومن آفات فوجود هذه القرابي الحقيرة، وانضواء نحو النصف من أبناء الأمة تحت سقوفها الواهية، هو وصمة في جبين النظام الاستعماري"⁽⁴⁾.

الفرع الثاني: الأوضاع الاقتصادية:

1- الزراعة: تميزت الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي بمستوى اقتصادي ضخم، ارتكز أساسا على الزراعة والرعي؛ والذي كان أغلب عنصر عيش الجزائريين، يكفيهم لعيشة كريمة، ويسمح بتصدير الفائض منه إلى الخارج⁽⁵⁾، ومع تنوع المحاصيل الزراعية إلا أن الغالب عليها كان هو إنتاج الحبوب، وبعد دخول الاحتلال الفرنسي وصدور القوانين المجحفة، التي أباحت اغتصاب أراضي الجزائريين، والاستيلاء على أخصبها، وتسليمها مجاناً للمستوطنين الأوروبيين.

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 6/ 279.

(2) ينظر المصدر نفسه.

(3) ينظر: المصدر نفسه، 6/ 349/ سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية، ص 42.

(4) جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، ص 74- 75.

(5) ينظر: هذه هي الجزائر، ص 108.

تحول الفلاحون الجزائريون من مُلاك للأرض إلى مجرد خماسين أو أجراء أو عاطلين عن العمل⁽¹⁾، وقد وصلت جملة الأراضي التي صودرت من الجزائريين بداية القرن العشرين إلى 2250000 هكتارا هي من أخصب الأراضي، وصار معدل ما يملكه الفلاح الجزائري 14 هكتارا في مقابل 108 هكتارات لكل فلاح مستوطن أوروبي، علما أن أغلبية المزارعين الجزائريين الآخرين أبعادوا إلى الأراضي القاحلة والمناطق الجبلية. والنتيجة الحتمية لهذه الظاهرة هو تدهور الحياة الاقتصادية للجزائريين⁽²⁾.

ولم يتوقف الأمر هنا بل كان أكبر هَمّ لدى المستوطنين هو الثراء بأي طريقة؛ ولو على حساب هلاك الجزائريين، فمن ضرباتهم القاسية أن خصصوا حوالي نصف مليون هكتار من أحسن الأراضي لغراسة الكروم المنتجة للخمور على حساب الحبوب، إضافة إلى آلاف الهكتارات لإنتاج الحوامض، فقد انخفض إنتاج الحبوب من 80% سنة 1860م إلى 44% سنة 1938، وما كادت المائة عام على احتلال الجزائر تمر حتى تحولت الجزائر من بلد منتج للحبوب ومصدر له، إلى بلد يستورد المواد الغذائية الضرورية لحاجات السكان، وبهذا لم تحقق الاكتفاء الغذائي الذاتي⁽³⁾.

أما في مجال تربية المواشي فلم يهتم بها المستوطنون كثيرا مقارنة بالزراعة والتجارة وكان غالبها في يد الجزائريين، ومع ذلك أصبحت قليلة الفائدة ولا تدر عليهم الأرباح التي كانوا يجنونها من قبل بسبب سياسة الاستيطان، وحصر أراضي الرعي والغابات، والضرائب الفاحشة المضروبة عليهم، مما أدى إلى إتلاف الثروة الحيوانية فانخفض عدد الأغنام من 8 مليون عام 1865 إلى 7،7 مليون عام 1885 وإلى 6،3 مليون سنة 1900، وانخفضت الأبقار من مليون عام 1867 إلى 846 ألف عام 1900⁽⁴⁾.

2- الصناعة والتجارة:

نظرا للاعتماد الكبير على الفلاحة، لم تكن الصناعات قبل الاحتلال بتلك القوة

(1) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 17 - 18.

(2) ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 119.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر 17 - 18 / سياسة التسلط الاستعماري 52.

(4) ينظر: سياسة التسلط الاستعماري، ص 36.

الاقتصادية والنوعية، فقد كانت حرفية تقليدية، تعتمد على نوعين من الصناعات؛ صناعة منزلية كالزراي والأواني الفخارية وغزل الملابس، وصناعة مدنية تقوم عليها هيئات حرفية على شكل نقابات حسب التخصص، إلى جانب اهتمام الدولة الجزائرية بصناعة الأسلحة والذخيرة، وصناعة السفن، كما اهتمت بمناجم المعادن المختلفة، ومع هذا النقص إلا أنها كانت أكثر تقدما وأحسن تنظيما مما هي عليه بعد الاحتلال⁽¹⁾، ذلك أن محق الصناعة الجزائرية كان جزء من السياسة الفرنسية، لأن النتيجة من إحداث صناعة في الجزائر هي مزاحمة "معامل فرنسا، وهذا مالا ترضاه دولة الاحتلال بحال. كما أن تصنيع القطر الجزائري يغير وضعية سوق اليد العاملة الجزائرية، فيغري العمال الجزائريين بالعمل الصناعي، المرتفع الأجور ويزهدهم في العمل الفلاحي عند المستعمرين مقابل الأجور المنخفضة، وهذا ليس في مصلحة المستعمرين"⁽²⁾. هذا باستثناء "بعض معامل الزيت، والصابون، وصناعة السجاير والتبغ، وما بقي بأيدي المسلمين من الصناعات المحلية مثل نسج الزراي وحياسة الأصواف للاستهلاك المحلي"⁽³⁾. وأغلب الصناعات التي بقيت تضررت جراء الاستيطان والسياسة الفرنسية، فقد تلاشت أمام توفر المصنوعات الفرنسية ورخصها، وأضحت الجزائر مختصة في تصدير المواد الأولية، وما كادت الثورة التحريرية تندلع حتى صارت الجزائر تستورد كل شيء تقريبا⁽⁴⁾،

ودلت بعض الإحصائيات أن 120 ألف عامل يمثلون التجار، والحرفيين الصغار، ينتمون إلى حوالي 100 ألف مؤسسة أهلية تستخدم حوالي 30 ألف شخص، وتربح حوالي 33 مليار فرنك سنويا في مقابل 65 مؤسسة أوروبية تربح سنويا 375 مليار فرنك⁽⁵⁾، وهو ما يكشف عن معاناة العامل الجزائري في مقابل العامل الأوروبي.

وقد سيطرت الرأسمالية على السوق الجزائرية، لتفتح المجال أمام البضائع الفرنسية، مع احتكار شركات النقل البري والبحري، الذي أدى إلى انهيار القوة الشرائية لدى الجزائريين، وفي المقابل أصبحت الجزائر تلعب دورا هاما في ازدهار الاقتصاد الفرنسي، إذ بلغت صادرات

(1) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر ج1، العربي الزيري، ص 19

(2) هذه هي الجزائر، ص 126

(3) المصدر نفسه.

(4) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر ج1، العربي الزيري، ص 20

(5) سياسة التسلط الاستعماري، ص 56.

الجزائر إلى فرنسا 70%، و33% من إيراداتها تأتي من فرنسا. وكان ازدهار رؤوس أموال المستوطنين وتوظيفها في مختلف المشاريع سببا في تدهور طبقة الملاك الصغار الجزائريين، في حين سيطرت الاحتكارات الفرنسية على مختلف المجالات في ميدان التجارة والصناعة والنقل وغيرها⁽¹⁾.

علما أن 57% من السكان الأوروبيين العاملين ينتمون إلى قطاع الخدمات والتجارة، و28.6% إلى قطاع الصناعة، و14.4% إلى قطاع الزراعة⁽²⁾.

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص 49-50

(2) تاريخ الجزائر المعاصرة، شارل روبير أجيرون، ص 124.

المطلب الثالث: الأوضاع الدينية والثقافية

الفرع الأول: الأوضاع الدينية

رغم اتساع مقومات الخلاف بين الجزائريين والأوروبيين من نواح شتى كاللغة والعرق والموقع الجغرافي، إلا أن أهم عنصر حساس لدى الجزائريين هو عنصر الدين، فالجزائر وهو بلد محافظ لم يكن أبناؤه ليتخلوا عن دينهم ولو على حساب مهجهم وأموالهم، وقد سعى المحتل الفرنسي من أجل بسط هيمنته السياسية على البلاد واستقراره الأبدي، القضاء على الدين الإسلامي-وجعلها من أولوياته-؛ وذلك بإدخالهم إلى المسيحية، أو على الأقل إخراجهم من الإسلام إلى الانحلال والتميع، وحتى يتمكن من تطبيق سياسته الاستعمارية على أرض الجزائر اتبع المحتل الفرنسي طرقا عدة للقضاء على الشخصية الإسلامية الجزائرية؛ بدءا بالقضاء على المساجد أو تقليصها، والاستيلاء على الأوقاف الإسلامية، والسيطرة على القضاء الإسلامي، ودعم التبشير المسيحي⁽¹⁾. وبهذا ندرك أن الجزائر تعرضت لغزوين أحدهما عسكري، والآخر فكري، ولهذا صح أن يطلق عليها أنها امتداد للحروب الصليبية.

"ومنذ اللحظات الأولى للاحتلال وقع الغدر بالمادة الأساسية في اتفاق الجزائر في يوليو 1830، وهي المادة التي تنص على احترام الأملاك واحترام الدين الإسلامي والعادات الخ"⁽²⁾. ومن الانتهاكات التي قام بها الاحتلال الفرنسي تجاه المؤسسات الدينية ما ذكره أبو القاسم سعد الله، حيث قال: "إن أول مسجد وقع عليه الاعتداء بالهدم الكامل هو جامع السيدة. وكان ذلك سنة 1830م... ثم تلاه توزيع المساجد على الجيش لربط خيوله ووضع عتاده ومراقده ومستشفياته، ثم بدأ تحويل بعض المساجد إلى الكنائس التي سنذكرها وإلى إقامات للجمعيات الدينية الفرنسية، وفي أثناء ذلك كان المعول يستعمل لهدم المساجد الأخرى أو بيعها إلى الأوروبيين ليهدموها، وبينوا عليها المنازل والحمامات والكوش. وقد استعمل بعض المساجد كمخازن للحبوب، وصيدليات ومسارح"⁽³⁾.

(1) ينظر: معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، صالح عوض، ص 204

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 154/5

(3) المصدر نفسه، 10/5. وقال أيضا في حديثه عن الاعتداء على المساجد: "من المؤلفات الجزائرية التي تعرضت للموضوع كتاب حمدان خوجة (المرآة)، وكان أول وثيقة تستنكر فعل السلطات الفرنسية من المساجد والأضرحة

ففي العاصمة مثلاً أغلق المحتل عام 1830م: 13مسجدا كبيرا و108 مساجد صغيرة و32 جامعا و12 زاوية. ووصل الحال عام 1862 أنه لم يبق إلا 4مساجد كبيرة و8مساجد صغيرة و9جوامع فقط⁽¹⁾.

ثم البقية الباقية من هذه المؤسسات لا يسيرها إلا موظفو الإدارة الفرنسية ورجالها، من مفتين وأئمة وغيرهم؛ ممن يتقاضى أجوره من الخزينة الفرنسية، ولا يتسلم وظيفته إلا بعد تقديمه ما يوجب رضا المحتل ويدوم على ذلك⁽²⁾.

كما أن من الخطوات الأولى التي اتخذها المحتل عام 1830 إصدار قرار يقضي بمقتضاه الاستيلاء على جميع أملاك الأوقاف الإسلامية، ومن ذلك التصرف فيها بالتأجير والكرأ وغيره، إلى أن جاء قانون 1873 الذي صودرت بموجبه نهائيا كل أملاك الأوقاف. لأن المحتل كان يعلم أن الأوقاف هي الراعي والممون الرئيسي للنشاطات الدينية والتعليمية، وفي نفس الوقت هو حجر عثرة في وجه المخطط التخريبي⁽³⁾.

أما القضاء الإسلامي الذي كان يمثل أحد الأسس القوية في ثبات الشخصية الجزائرية المسلمة، فلتحقيق محاربته قامت السلطات الفرنسية بعدة إجراءات تعسفية؛ أولها نفي العلماء والقضاة الذين رأوا أنهم لا يعملون معها، أو يتعاونون معها.

تلا ذلك صدور عدة قرارات؛ من أولها: قرار 1834 القاضي بإعطاء الحق للمتخاصمين بأن يستأنفوا أحكامهم التي يصدرها القاضي المسلم، أمام مجالس الاستئناف التي يتألف أعضاؤها من الفرنسيين واليهود. وتطورت القرارات إلى أن أعلن الحاكم العام "دوقيدون" أنه يجب محو شخصية القاضي المسلم وتعويضه بالقاضي الفرنسي، لأن فرنسا بزعمه غزت الجزائر، وأصبحت تحت سيطرتها، فيجب فرض إرادتها، وعليه ألغي قضاء الشرع الإسلامي، ثم ألغي المجلس الأعلى للقانون الإسلامي والمجالس الاستشارية، وانخفض عدد محاكم الشرع

وعظام الموتى، وأول من رفع صاحبه عقيرته بالاحتجاج بالقلم على ذلك الفعل. ولكن الكتاب يظل مقتصرًا على

فترة قصيرة جدا. (ثلاث سنوات) من عهد الاحتلال البغيض". المصدر نفسه: 8/5

(1) ينظر: معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، ص 205

(2) ينظر: هذه هي الجزائر: ص 148.

(3) ينظر: سياسة التسلط الاستعماري، ص 66-67 / موجز في تاريخ الجزائر، ص 124.

الإسلامي من 184 إلى 61 محكمة عام 1890، ثم أخضعت المحاكم الشرعية للوالي العام، مع إسناد وظائف القضاء الإسلامي إلى من ليس أهلا لها، ولا يصلح لها، كل هذا مع عراقيل كثيرة نصبت في وجوه الأهالي المسلمين لطمس هويتهم وشخصيتهم، وبقي هذا الوضع طيلة بقاء المستعمر الفرنسي⁽¹⁾.

وصدق أحمد توفيق المدني حين قال: "فالقضاء في القطر الجزائري مصيبة من أعظم المصائب الاستعمارية التي نكبت بها البلاد"⁽²⁾.

وفي مقابل محاربة القضاء والمؤسسات الإسلامية سعت الإدارة الفرنسية لترسيخ النصرانية في الجزائر، وكان ذلك واضحا من خلال التصريحات الكثيرة لقادتهم وزعمائهم، فضلا عن التأييد المادي والمعنوي للمؤسسات والهيئات التبشيرية؛ ومن أمثلة أقوالهم ما فاتح به الملك لويس فيليب الأسقف بافي بقوله: "يجب أن نتحلى بحسن التدبير للعمل على اعتناق العرب الدين المسيحي، أما إذا أسرعنا في ذلك فإننا سنضر بالقضية كلها، وأخيرا لا يكون العرب فرنسيين إلا إذا كانوا مسيحيين"⁽³⁾.

وحين سقطت مدينة الجزائر ودخلها الجنرال بورمون صرح للقساوسة الذين معه: "إنكم أعدتم فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع"⁽⁴⁾.

وقد كان تطبيق هذه السياسة بدءا باصطحاب القساوسة مع الجيش الفرنسي، وفتح مراكز التبشير المسيحية؛ وقد تزايد عدد المبشرين بتزايد المستوطنين، وهو داخل في محور الشخصية الإسلامية. وخلال فترة الاحتلال برز اسم الكاردينال لافيغري⁽⁵⁾ الذي أسس بعثة

(1) ينظر: سياسة التسلط الاستعماري، ص 40 - 41

(2) كتاب الجزائر، ص 139

(3) من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830 - 1962، د. شاوش حباسي، ص 13.

(4) المرجع نفسه، ص 12.

(5) (1825 - 1892) ولد في بايون، أصبح قسا لمدينة نانسي بفرنسا. وكان أستاذا للتاريخ الديني بالكلية الدينية بباريس. وشارك في توزيع المساعدات على النصارى في أحداث سورية 1860، وعمل على توسيع النشاط الكاثوليكي في المشرق. أصبح أسقفا للجزائر، وكان من أكبر دعاة التنصير في الجزائر. تاريخ الجزائر الثقافي، 119/6.

تبشيرية عرفت باسم الآباء البيض، والتي كان لها نشاط كبير في التنصير، خاصة أيام الأزمات والحن على رأسها المجاعة الكبرى التي ضربت الجزائريين عام 1867م، حيث أقاموا دورا للأيتام ضمت آلاف الأطفال الذين ربتهم تربية مسيحية، كما بذلوا جهدا عظيما في محاولة لتنصير منطقة القبائل، وكذلك الصحراء⁽¹⁾؛ لكنها محاولات باءت بالفشل الذريع مقارنة بالإمكانات التي بذلتها، والمدة التي بقيتها، وعدد النفوس التي نصرتها.

ورغم تطبيق قانون فصل الدين عن الدولة الذي صدر في فرنسا عام 1905 إلا أنه طُبّق على الدين اليهودي والمسيحي فقط، دون الدين الإسلامي، وهذا حتى يبقى تحت تصرفها، ولا يخرج عن سيطرتها؛ ولم ينته هذا الوضع المأساوي حتى جاء الاستقلال⁽²⁾.

وتأمل تعسفات الاحتلال الفرنسي، من خلال ما نقله أبو القاسم سعد الله عن مجلة العالم الإسلامي عام 1910، حيث جاء فيها: "إن فرنسا قد اصطنعت في الجزائر إسلاما فريدا خاصا بها، كما اصطنعت له رجالا من نوع خاص. وكل هذا الاصطناع جاء عن طريق اضطهاد المؤسسات الإسلامية. إن فرنسا قد دخلت إلى إفريقية الإسلامية عن طريق الجزائر. وخلال ثمانين سنة اصطنعنا إسلاما فذا في العالم، بدون أوقاف، وبمساجد إدارية، وأهل دين ورعين *dévots resansés*، وقضاة موظفين، وحج برخصة. وها نحن نصوغ الآن "كودا لقيطا من إنتاج الفقه الإسلامي والقانون الفرنسي. إننا خلال 40 إلى 50 سنة من الحملات والجيوش يمكننا أن ننسب نصفها على الأقل إلى اضطهاد المؤسسات الإسلامية. إنه لا يمكن الآن الرجوع إلى الوراء لكي نؤسلم الجزائر من جديد. إن الإساءة قد وقعت"⁽³⁾.

الفرع الثاني: الأوضاع الثقافية

لقد كان لأملاك الأوقاف الجزائرية - قبل الاحتلال - دور كبير في تنشيط الميدان الديني والثقافي، حيث كانت تنفق عوائدها في الأعمال الخيرية ومرتبات الأئمة والمعلمين ومساعدة الطلبة وتشبيد المدارس والمساجد، وكان أحد دعائم التعليم، وبفضله كان معظم الشعب الجزائري يحسن القراءة والكتابة، وهذا بشهادة المحتل نفسه حال دخوله الجزائر⁽⁴⁾.

(1) ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 124 - 126 / معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، ص 208.

(2) ينظر: سياسة فرنسا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر، مرجع سابق، ص 71.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، 349/4

(4) ينظر: موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 109.

ولما كان من أهداف الإدارة الاستعمارية طمس الهوية الجزائرية، فقد ركزت على إقصاء التعليم، وتمكين الجهل والأمية إلا في حدود ضيقة وهذا حتى تتمكن من فرض سيطرتها الكاملة على الجزائر.

ولتحقيق هذه الفكرة سارعت فرنسا بنهب أملاك الأوقاف وقتل واضطهاد ونفي الأئمة والمدرسين وطلبة العلم والوقوف ضدهم في نشر رسالتهم التعليمية، بل وإكراه بعضهم على الهجرة، ومنع فتح المدارس، ومحاربة استعمال اللغة العربية، وهدم المؤسسات الدينية من مساجد وزوايا ومحاكم، أو تحويلها إلى كنائس ومخازن ومراكز طبية وإدارية ومنازل للضباط الفرنسيين، وبل وحتى إسطبلات.

ولا شك أن العامل الاقتصادي مؤثر على العامل الاجتماعي والثقافي، ولهذا انتهج المحتل الفرنسي سياسة التجهيل مع سياسة التفجير.

وكان التعليم الرسمي الحكومي الجزائري يرمي لتعليم كل الأوروبيين، وتجهيل أكثر ما يمكن تجهيله من الجزائريين⁽¹⁾.

وكمثال على ذلك، انخفض عدد مدارس قسنطينة الابتدائية عام 1836 من 90 مدرسة إلى 30 مدرسة، وأصبح عدد تلاميذها 350 تلميذا بعدما كانوا أكثر من 1300 تلميذ، وتراجع عدد طلاب التعليم العالي من 700 إلى 60 طالبا⁽²⁾.

وفي عام 1882 لم يكن عدد التلاميذ الجزائريين في جميع مراحل التعليم يتجاوز 3172 تلميذا مسلما، وفي عام 1902 لم تتجاوز 4.26% من أبناء الجزائر، ومنذ استيلاء المستوطنين على السلطة عام 1870 انخفض عدد المدرسين تدريجيا.

وفي سنة 1944 وصل مجموع الأقسام المدرسية إلى 6500 قسم، كان نصيب المسلمين 1000 قسم لاستقبال 108000 تلميذ بمعدل 108 في القسم الواحد، في المقابل عدد التلاميذ الأوروبيين قد بلغ 118000 موزعة على 5500 قسم بمعدل 22 في القسم الواحد، علما أن عدد السكان الأوروبيين كان أقل من عشر العدد الإجمالي للسكان.

وأصبح الشعب الجزائري أميا بنسبة 80% تقريبا سنة اندلاع الثورة. فحوالي 7% أتيحت لهم فرصة التعليم من أبناء الجزائر، مع إضافة نسب الفشل والعجز عن مواصلة

(1) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 150/ هذه هي الجزائر، ص 140، 144.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 150.

الدراسة نتيجة الفقر والحاجة⁽¹⁾.

أما ما يخص اللغة العربية فبانتهاى القرن 19 أخذت الإدارة الفرنسية تصعد في محاربة اللغة العربية والتضييق على أصحابها؛ وذلك بسن قوانين وبيانات عنصرية ومجحفة. ففي عام 1904 صدر قرار من الحاكم العام الفرنسي بمنع الجزائري أن يفتح مدرسة لتعليم اللغة العربية إلا برخصة تحمل شروطا تعجيزية ومجحفة. وفي 1938 أصدر وزير المعارف الفرنسي قرارا يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر وهذا يستلزم منع تعلمها وتعليمها.

ولما كانت السلطات الفرنسية تعلم أن أغلب المعلمين لا يحسنون الفرنسية أرادت القضاء على هذه الفئة الفاعلة وإزالة أثرها؛ فأصدرت عام 1945 قرارا يفرض على كل معلمي اللغة العربية معرفة اللغة الفرنسية كشرط لتوظيفهم في المدارس. وفي عام 1947 نص الدستور على الاعتراف باللغة العربية وتدريسها مع الفرنسية، لكنه لم يطبق على أرض الواقع؛ بل بقيت اللغة العربية محاربة حتى الاستقلال⁽²⁾.

وحتى تاريخ الجزائر وجغرافيته لم يسلم من التحريف والتضييق، فقد كان يدرس في أقل من شهر خلال التعليم الابتدائي، بينما تاريخ فرنسا وجغرافيتها يدرس طوال مدة الدراسة. والذي يُدرّس من تاريخ الجزائر يُلقى محرفا مبتورا كإغفال العهد الإسلامي.

ومع ظهور الحركة الإصلاحية لم يقف العلماء مكتوفي الأيدي تجاه هذه السياسات الجائرة، بل نشروا أفكارهم ودافعوا عن لغتهم وأنشؤوا المدارس الحرة، وأسسوا الجمعيات والصحف، وألفوا الكتب المبرزة للهوية الجزائرية⁽³⁾. وإذا ذكر التعليم برز نجم جمعية العلماء المسلمين الذي لا يناع بحال، وقد نجحوا نجاحا كبيرا في هذا المجال، فقد أسسوا عشرات المدارس الحرة في الجزائر، وتكفلوا بالشباب الذين لم تستوعبهم المدارس الفرنسية، وسهلت لهم التعليم وأنقذتهم من الجهل وحافظت على شخصيتهم الإسلامية⁽⁴⁾، وأخرجت طبقة مثقفة من الطراز الرفيع ليس في الجزائر فحسب؛ بل في العالم الإسلامي رغم كل المضايقات التي لاقتها.

(1) ينظر: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ص 180/ تاريخ الجزائر المعاصر 1، الزيري، ص 21-22

(2) ينظر: سياسة التسلط الاستعماري، ص 60-61

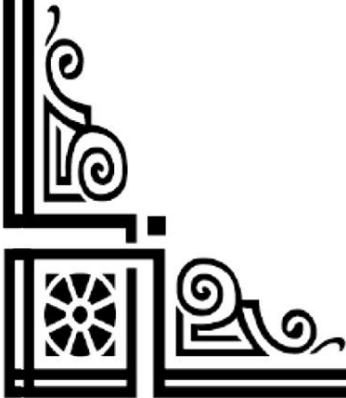
(3) مثل كتب التاريخ الجزائري: ككتاب تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي، وكتاب تاريخ الجزائر الحديث لمبارك الميلي،

وكتب أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، وهذه هي الجزائر، وجغرافية القطر الجزائري للناشطة الإسلامية، وغيرها.

(4) ينظر: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ص 252-253

الفصل الأول:
جهود علماء الجزائر الدعوية
من 1830 إلى 1954 م.

- المبحث الأول: تصحيح العقيدة وتقوية الإيمان.
- المبحث الثاني: غرس القيم وتهذيب الأخلاق.
- المبحث الثالث: تعليم الفقه و تصحيحه والتصدي للفتاوى
- المبحث الرابع: محاربة التنصير.



المبحث الأول:

تصحيح العقيدة وتقوية الإيمان.

تمهيد:

يذهب أغلب الدعاة والمصلحين إلى أنه لا يتم إصلاح المجتمع إلا إذا تم إصلاح الفرد ولا يتم إصلاح الفرد إلا إذا تم إصلاح عقيدته وأخلاقه، ولا شك أن العقيدة والأخلاق من أهم الأسس التي تقوم عليها مبادئ الدولة الإسلامية، فبالعقيدة النقية تتوحد صفوف المجتمع وتجتمع كلمتهم، وعليها تبنى جميع الأعمال، وبها يمكن التصدي للأفكار المنحرفة والهدامة؛ فأهل هذه العقيدة يجتمعون على منبع واحد وهو الكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة. فهي التي تفسر للفرد السر لوجوده في هذا الكون والغاية التي يسعى من أجلها والتفسير لنشأته، والتحديد لمصيره ونهايته⁽¹⁾.

وبها تتخلص الأمة من الجاهليات التي طمست معالمها، ودمرت خصائصها، فالعقائد الإسلامية والعبادات والمعاملات والسلوك كلها تتجه لوجهة واحدة هي إخلاص الدين لله تعالى.

1- الواقع العقدي قبل الاحتلال الفرنسي:

إن المتصفح لأحوال الجزائريين أواخر العهد العثماني يجد أن العقيدة السائدة في المجتمع الجزائري هي العقيدة الأشعرية على طريقة الجويني والغزالي؛ والتي ابتدأ دخولها القطر الجزائري ابتداء من عصر الموحدين، وأشهر المؤلفات في العقيدة مؤلفات السنوسي، خاصة "أم البراهين" التي بقيت مهيمنة على الدرس العقدي في المغرب، وكذلك المورد المعين لابن عاشر⁽²⁾. لذا نجد أن أغلب الدروس أو التأليف في هذا المجال لا تخرج عن مباحث علم الكلام، التي تتوسع غالبا في توحيد الربوبية، دون توحيد الألوهية، وإذا علمنا أن أواخر العهد العثماني عرف انحطاطا وركودا في جميع المجالات، ومن ذلك الجانب العلمي والثقافي؛ وزاد على ذلك انتشار البدع والخرافات، خاصة وأن السمة البارزة للجزائريين آنذاك الانتساب للطرق الصوفية؛ والتي

(1) ينظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، ص 37.

(2) ينظر: مقال "الإصلاح العقدي في دعوة ابن باديس وأثره على المجتمع الجزائري"، د. محمد حاج عيسى.

شجعت على انتشار الأشعرية عقيدة ومذهب مالك فقها وطريقة الجند سلوكا. وقد تتعدى بعض الطرق هذه العقيدة إلى عقيدة الحلول⁽¹⁾.

2- بعد الاحتلال:

بمجرد أن وطئت أقدام الاحتلال أرض الجزائر أدرك الجزائريون أن المستعمر الفرنسي معول هدم لا بناء بدءًا بنقضه لمعاهدة الاستسلام.

وقد بان للجميع أنه جاء إلى الجزائر وهو يحمل حقدا على الإسلام وأهله، فقد انتهج في ذلك سياسة القضاء عليه أو إضعافه مركزا على جملة من العناصر منها: خلخلة عقيدة المسلمين مع تأييد البدع والخرافات، وتجهيل الشعب بالتضييق على التعليم عموما والديني خصوصا، والاستيلاء على الأوقاف الراعي للنشاطات الدينية والتعليمية، والعائق في وجه المخطط الاستعماري بل وتحويلها لتمويل المخططات التبشيرية، ورفع مكانة الطرق الصوفية، استمالة لها، مع تقريب الأكثر طاعة وولاء لها، فضلا عن تشويه التاريخ وزرع الفتن بين أبناء الوطن الواحد⁽²⁾.

المطلب الأول: تقرير التوحيد وإبطال الشرك ومحاربة البدع والخرافات:

1- الفترة من 1830م إلى 1900م:

تمتاز هذه المرحلة بالقبضة التعسفية لسلطة الاحتلال ضد كل مقومات الشعب الجزائري، حيث نجد أن أبشع القوانين وأشدّها جرما صدرت في هذه الفترة؛ منها إلحاق الجزائر بفرنسا، وتجنيس اليهود، وقانون الأندجينا، وغيرها. إضافة إلى عدم الاستقرار السياسي المتمثل في اندلاع الثورات الشعبية إلى قيام الحرب العالمية الأولى، وهذه الظروف وغيرها جعلت هذه المرحلة حرجة بالنسبة للجزائريين على جميع المستويات، ومن ذلك الجانب الدعوي والإصلاحي.

(1) وللتوسع أكثر حول واقع الطرق الصوفية في الجزائر ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، لأبي القاسم سعد الله ج4 حيث فصل في منشئها وتعدادها وشيوخها وكثير مما يتعلق بها.

(2) ينظر: ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، يوسف بوغابة، ص146/ موجز في تاريخ الجزائر، عمورة عمار، ص 124.

وإذا كان الاحتلال الفرنسي قد استعمل جميع الوسائل الممكنة للقضاء على عقيدة الجزائريين الإسلامية فإن الجزائر لم تخل من علماء و مصلحين نافحوا من أجل بقاء هذه العقيدة سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وأعظم ذلك مجال التعليم والتدريس والتأليف، والذي عرف ركوداً أواخر العهد العثماني، وزاد بعد الاحتلال ركوداً وضعفاً في العطاء المعرفي كما ونوعاً، إثر الحالة المزرية للبلاد.

وبتحليل الجهود المبذولة في هذا الجانب نجد قسمين: قسم شرح بعض الكتب أو المتون الخاصة بعلم أصول الدين، وغالبها يصب في العقيدة الأشعرية، - وأشهرها العقيدة السنوسية ومقدمة ابن عاشر كما تقدم- ، ومن اشتهر بالتأليف والنظم في هذا الباب الأمير عبد القادر⁽¹⁾، ومحمد بن يوسف أطفيش⁽²⁾، ومحمد بن عبد الرحمن الديسي⁽³⁾، ومحمد بن علي

(1) فقد كتب تعليقات على حاشية جده بن خدة في علم الكلام، ورغم ضيق الوقت أثناء المقاومة كان ينتصب للتدريس في علم الكلام، كما كان مولعاً بتدريس أم البراهين، فقد ختمها بالمدينة أثناء معاهدة التافنة واحتفل بذلك. ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، لأبي القاسم سعد الله، 150/7.

(2) (1236 - 1333هـ / 1820 - 1914): محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أطفيش، ينتهي نسبه إلى عمر بن حفص الهنتاني جد العائلة الحفصية المالكة في تونس: مجتهد، من أكابر العلماء بالفقه والأدب واللغة والتفسير، ومن رجال النهضة الإصلاحية الحديثة بالجزائر. ولد في بني يسقن وبها نشأ وتعلم. سافر إلى الديار المقدسة مرتين. عكف على التدريس والتصنيف والوعظ والإرشاد إلى أن وافاه الأجل في مسقط رأسه. له آثار كثيرة منها: "هميان الزاد ليوم المعاد في التفسير، و"شرح النيل" في سبعة عشر جزءاً في الفقه، و"فك العاني من رقة المعاني" في البلاغة، و"أرجوزة" في القراءات، وغيرها. معجم أعلام الجزائر، ص 19 - 21.

وقد شرح عقيدة العزابة، وكتب حاشية على الموجز لعبد الكافي، كما بدأ شرحاً على معالم الدين للثميني لكنه توفي قبل إكماله. ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق: 152/7.

(3) (1270 - 1340هـ / 1854 - 1922م): محمد بن عبد الرحمن الديسي: مقرر، نحوي، متكلم، أصولي، فقيه مالكي، له نظم، ولد في قرية الديس بالصحراء الغربية في جنوب الجزائر. نشأ يتيماً وتعلم في بلده، ثم انتقل إلى زاوية الهامل وأخذ عن مؤسسها، ونبغ في العلوم الشرعية والعربية فولي التدريس في معهد الزاوية إلى أن توفي. له آثار منها: "فوز الغائم"، و"العقيدة الفريدة"، و"نظم الخصائص النبوية". معجم أعلام الجزائر، ص 142 - 143.

ومن شروحه في هذا الباب: "شرح الكلمات الشافية في شرح العقيدة الشعبية الجلييلة الكافية" الذي شرح فيه منظومة العقيدة للقاضي شعيب الجليلي "الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدليل"، وهو من الشروح التي لاقت رواجاً وشهرة واسعة آنذاك، وله مؤلفات أخرى في التوحيد مثل منظومة "الدرة" وشرحها المسمى "الموجز المفيد". ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق: 152/7-153.

الونيسي⁽¹⁾.

كما أن هناك من دخل هذا الباب بنظرة معاصرة في التأليف مثل قاضي تلمسان شعيب بن علي الجليلي⁽²⁾.

وقسم شرح العقيدة من خلال التفسير القرآني، أو الشرح لكتب السنة؛ انطلاقاً من آية أو حديث، وكلا القسمين كان عن طريق التأليف أو إلقاء الدروس في المساجد والزوايا - والعادة أن إلقاء الدروس أكبر حصّة من التأليف-، علماً أن أغلب دروس علماء هذه الفترة فضلاً عن قلتها لم تكتب ولم تسجل، وحتى التأليف كثير منها ضاع ولم يطبع.

وهذه الجهود وإن كان كثير منها غير مباشر في التصدي لتشويه العقيدة الإسلامية الصحيحة، وكثير منها يعتمد على المسائل الكلامية، ودون المستوى المطلوب في مضمونها⁽³⁾، إلا أنها بمجموعها تقف في وجه المخطط الاستعماري العام ضد تشكيك المسلم في عقيدته والاعتزاز بدينه والنفور من كل دين يدين بغير الإسلام، والاستجابة لداعي الجهاد انطلاقاً من العقيدة. ويتضح هذا الجهد أكثر بتصور الآثار المترتبة عليه لو فرضنا اقتصار العلماء على دروس الفقه فقط دون علم العقائد.

وإذا علمنا أن المحتل الفرنسي منع تدريس التفسير القرآني إلا برخصة ذات شروط تعسفية، لعلمه أن القرآن الكريم كتاب منهج وحياة، وطريق للتغيير والنهوض، لذا فرض قيوداً وحواجز تحول دون الوصول إلى مكنونه والغوص في معانيه، وسمح بتدريج حروفه وكلماته دون فهم أو فقه. ومع ذلك أثار عن ثلّة من العلماء وبعض المتصوفة أنهم شاركوا في التفسير -سواء

(1) (1233 - 1260 هـ / 1818 - 1844 م): محمد بن علي، أبو عبد الله الونيسي: فاضل، ناظم، مشارك في الأصول والفقه والكلام والمنطق والتصريف، من أهل قسنطينة، وبها نشأ وتعلم. مات وعمره سبع وعشرون سنة. له حاشية على صغرى الإمام السنوسي، وحاشية على ايساغوجي، وأرجوزة في التوحيد، وشرحين لها. معجم أعلام الجزائر، ص 347.

(2) (1259 - 1347 هـ / 1843 - 1928 م): شعيب بن علي بن محمد بن فضل الله البوبكري الجليلي التلمساني، أبو بكر: أديب، شاعر، له مشاركة في أنواع من العلوم، ولد ونشأ بتلمسان، وعائلته فيها معروفة. مثل الجزائر وتونس في مؤتمر المستشرقين في "ستوكهلم" سنة 1889 م. ولي قضاء تلمسان، وكان من أعضاء مجلس الشورى العلمي بها. له آثار منها: "المعلومات الحسان في مصنوعات تلمسان" و"الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدليل" وقد شرحه محمد الديسي وقرظه تقریظاً حسناً الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. وغير ذلك. معجم أعلام الجزائر، ص 68 - 69.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، (7/149)

كان كاملا أو بعضا منه- ومن هؤلاء الأمير عبد القادر حيث كان تفسيره مسموعا لا مكتوبا يلقي على أتباعه، ومنهم أيضا ابن العنابي⁽¹⁾.

أما التفسير المكتوب فالوحيد الذي أثر عنه التأليف بداية هذه المرحلة هو الشيخ محمد أطفيش بوادي ميزاب، وقد كان من أبرز العلماء العاملين على مذهب الإباضية، وكانت له ثلاثة كتب في التفسير: "التيسير في التفسير"، "هميان الزاد ليوم المعاد"، و"داعي الأمل ليوم العمل" الذي توفي قبل إكماله. مع ملاحظة أن مشاركة العلماء الرسميين الذين شاركوا في هذا المجال قليلة جدا مقارنة بغيرهم، لاحتياج كثير منهم إلى نصيب من الاجتهاد والامام بعموم الشريعة، بخلاف مسائل الفقه. بل حارب بعضهم تفسير الكتاب والسنة بحجج مختلفة، منها أن الخطأ فيه ليس كالخطأ في غيره، ولأنه يفتح باب الاجتهاد المغلق⁽²⁾.

وهذه الدروس وإن كانت تعتمد على المساجد والزوايا فإنها كانت تكثر وتقل حسب كثرة العلماء و قلتهم في كل منطقة، وحسب قوة العالم وضعفه في الزاوية أو المسجد الواحد؛ فتتنوع بين تعليق مختصر على متن وشرح مفصل، وبين تفسير آية أو آيات وتفسير القرآن كاملا أو قريبا منه⁽³⁾.

ومع هذه الجهود في الشروح والتأليف يذكر لنا أبو القاسم سعد الله تقييما عاما لهذا التوصيف فيقول: «ومع ذلك فإن التكرار والتقليد ظلا السمة الغالبة على هذه التأليف والمنظومات»⁽⁴⁾ أي قبل ظهور الحركة الإصلاحية، والتقييم الآخر هو أنها لم تعن بالتركيز على أهم أسس العقيدة؛ وهو توحيد الألوهية وإبطال وسائل الشرك، ومحاربة كثير من البدع والخرافات.

2- من 1900م إلى 1954م:

وهذه المرحلة وإن استمرت فيها معاناة الشعب الجزائري ضد تعسف الإدارة الفرنسية من

(1) (1189-1267هـ/1775-1850م): محمد بن محمود الشهير بابن العنابي، من أوائل المجتدين ودعاة الإصلاح الاجتماعي والسياسي في العالم الإسلامي، قاض، باحث، حنفي، ولد بمدينة الجزائر، بعد الاحتلال الفرنسي بسنة نفى لمصر، وبها توفي. من آثاره "السعي المحمود في نظام الجنود". ينظر معجم أعلام الجزائر: ص 245.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق: (11/7)

(3) وهذا فيه إشارة إلى أن كثيرا من الشروح والتأليف لم يصل إلينا ولم يسجلها التاريخ.

(4) المصدر نفسه: (149/7)

جميع النواحي والميادين إلا أنها مرحلة أخف وطئا من سابقتها في بعض الجوانب، فقد عرفت نقلة نوعية في الجهود المبذولة من طرف العلماء وانتعاشا في المجال السياسي؛ إذ توقفت المقاومات الشعبية، وانتشرت الأحزاب السياسية الجزائرية، وتبلورت فيها أفكار الحركة الوطنية والإصلاحية. رغم أنها عرفت مآسي كبرى مثل قانون التجنيد، واشتعال الحرب العالمية الأولى والثانية، وأحداث 8 ماي، والتعسف في محاربة الهوية الجزائرية، وغيرها.

وإضافة إلى العلماء الذين كانت تزخر بهم الجزائر عرفت هذه المرحلة رجوع ثلة من العلماء الذين درسوا بالمشرق الإسلامي، وتأثروا بأكابر علمائهم، والذين حملوا معهم فكرة الجامعة الإسلامية والفكرة الإصلاحية، وهذا ما جعل لهم تأثيرا بالحياة الدينية والثقافية، ومن ذلك علم العقائد وعلم التفسير وشروح كتب السنة؛ حيث دخلت "حيزا جديدا في الفكر والعلوم الاجتماعية على يد ابن باديس وأنصاره وتلاميذه من العلماء الذين مزجوا بين العلوم الدينية والدنيوية وفسروا العقائد الإسلامية في ضوء العلم الحديث، ومن تلاميذ هذه المدرسة مالك بن نبي⁽¹⁾ الذي تعمق في الفلسفة والدين والعلم"⁽²⁾.

وقد تنوع عطاء هذه المرحلة بين المسموع والمكتوب، كما عرف اهتماما بتوحيد الألوهية وإبطال الشرك ومحاربة البدع والخرافات والرد على أهلها.

ولا ينكر منصف مُطَّلَع على هذه المرحلة أن الحظ الأوفر والنصيب الأكبر كان من نصيب دعاة الإصلاح، خاصة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ضمت نخبة من كبار العلماء برئاسة شيخها العلامة عبد الحميد بن باديس، أمثال البشير الإبراهيمي⁽³⁾ والطيب

(1) (1905-1973): ولد بقسنطينة، أنهى دراسته الثانوية بالجزائر ثم انتقل لباريس وتخرج منها عام 1935 مهندسا كهربائيا، اتجه لتحليل الأحداث وإبراز مشكلات العالم المتخلف، لجأ إلى القاهرة عام 1956، وانتقل إلى الجزائر عام 1963، وعين مديرا للتعليم العالي، وفي عام 1967 استقال وتفرغ للعمل الفكري، له مجموعة من الكتب بالعربية والفرنسية تحت عنوان مشكلات الحضارة، منها الظاهرة القرآنية، آفاق جزائرية. ينظر: مقدمة كتاب مذكرات شاهد القرن.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 149/7.

(3) (1306-1358هـ / 1889-1965) محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، عضو الجامع العلمية العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، أحد رجال الإصلاح الإسلامي، أحد الخطباء والكتاب البلغاء، والعلماء بالأدب والتاريخ واللغة وعلوم الدين، ولد في قصر الطير، بدائرة سطيف، تلقى تعليمه الأول عن أبيه وعمه، ثم في زاوية شلاطة، هاجر إلى المدينة عام 1911، ثم إلى دمشق عام 1917، وعاد إلى الجزائر 1921، وانقطع للخدمة العامة مع ابن باديس

العقبي⁽¹⁾ والمبارك الميلي⁽²⁾ والعربي التبسي، وغيرهم. بل كان من أولويات هذه الجمعية هو الإصلاح العقدي والاجتماعي⁽³⁾. ولعل أهم ما ألف في هذا الباب في هذه المرحلة، وكان له أثر كبير على المجتمع الجزائري، كتاب "الشرك ومظاهره" للشيخ المبارك الميلي، حيث أشادت به جمعية العلماء ونوهت به؛ فقد جاء على لسان الشيخ العربي التبسي باسم إدارة الجمعية: «وعرض هذه الرسالة على مجلس إدارة الجمعية فتصفحها واستقصى مسائلها؛ فإذا هي رسالة تعد في أوليات الرسائل أو الكتب المؤلفة في نصر السنن وإماتة البدع، تقرر بها عين السنة والسنين، وينشرح لها صدور المؤمنين، وتكون نكبة على أولئك الغاشين للإسلام والمسلمين من جهلة المسلمين ومن أحمره المستعمرين... وإن المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر بإجماع أعضائه أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، ويوافق مؤلفها على ما فيها،

وصحبه، من أبرز مؤسسي جمعية العلماء، انتخب نائباً لابن باديس، ثم رئيساً لها بعد وفاته 1940، أنشأ عدداً كبيراً من المدارس، وأشرف على جريدة البصائر الذائعة الصيت في العالم الإسلامي، نُفي وسجن وعُذّب من طرف الاحتلال، رحل خارج الجزائر 1952، وساند الثورة الجزائرية، عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال 1962، وتوفي بعد أن أهككه المرض. من آثاره عيون البصائر، ومقالات صحفية كثيرة. ينظر: معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص12-13.

(1) (1307 - 1379 هـ / 1890 - 1960 م): الطيب بن محمد بن إبراهيم بن الحاج صالح العقبي: خطيب، كاتب، صحفي، له شعر، من رجال الحركة الإصلاحية الإسلامية. ولد في بلدة سيدي عقبة. هاجر مع أسرته إلى المدينة المنورة (سنة 1895 م) فنشأ بها وأخذ عن علمائها. وشارك في الحياة السياسية هناك، وفي سنة 1925 م عاد إلى الجزائر، فأظهر نشاطاً كبيراً في محاربة البدع والضلالات، وأصدر جريدة "الإصلاح" (1927-1948) فكانت منبرا لأقلام دعاة الإصلاح. ولما أنشئ "نادي الترقى" تولى الوعظ والإرشاد فيه. كما شارك في تأسيس "جمعية العلماء المسلمين" (1931 م) واختير نائباً للكتاب العام. ثم انفصل عن الجمعية في أوائل الحرب العالمية الثانية، ومات بالجزائر العاصمة. معجم أعلام الجزائر، ص238-239.

(2) (1316 - 1364 هـ / 1898 - 1945 م): مبارك بن محمد بن مبارك الهلالي الميلي: مؤرخ، كاتب، من رجال الإصلاح. ولد في ميلية (القبائل الصغرى)، وتعلم بتونس، فتخرج في جامع الزيتونة بشهادة التطويق. وعاد (1922 هـ) فعمل في مجال التعليم والكتابة. وتأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931 م) فكان من أقطابها وألمع كتابها، و كان يطلق عليه فيلسوف الحركة الإصلاحية. من آثاره "تاريخ الجزائر في القديم والحديث". و"رسالة الشرك ومظاهره". وله مقالات كثيرة. معجم أعلام الجزائر، ص325.

(3) ينظر بنود دعوة الجمعية وأصولها: ينظر مثلاً البند 2 و 12 إلى 17: الشهاب ج4، م13 ص195.

ويدعو المسلمين إلى دراستها والعمل بما فيها؛ فإنه العمل بالدين»⁽¹⁾.

كما أن الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة⁽²⁾ قام بتقريبها بقصيدة معبرة.

"تناول الميلي في كتابه موضوعات عديدة كلها تدور حول حاجة الشعب والعصر إلى الإصلاح، وضرورة العمل بالكتاب والسنة والابتعاد عن البدع والخرافات الدخيلة في نظره على الدين الإسلامي. وهكذا أقام دعوته على التوحيد الذي ابتعد عنه المسلمون رغم أن الإسلام قام على أساسه، وعلى اجتناب الشرك كاستعمال الوسائط والعقائد الضارة التي نهى الإسلام عنها. والميلي كان يؤمن بالتجديد الإسلامي ودور العلماء في بعث العمل بالقرآن والسنة النبوية"⁽³⁾.

أما محتوى الرسالة فيمكن تصنيفها إلى أبواب ستة، وهي: - تعريف الشرك، أهميته معرفته، والغرض من بيانه. - نماذج من مظاهر الشرك في الأقوام السابقة، وإسقاطها على من يشبههم فيها من المعاصرين. - مظاهر الشرك وأنواعه. - من يقف وراء نشر الشرك ويحميه قديماً وحديثاً. - ضرورة مقاومة الشرك ومظاهره. - خاتمة: قانون الإسلام الدائم لحفظ التوحيد ومقاومة الشرك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽⁴⁾.

فشمل أنواع العبادات والتصرفات والكرامات والولايات، وأنواع البدع والتصوف وألقابه، وما يتعلق بعلم الغيب والكهانة والسحر وبعض الممارسات كالزردات.

كما نوه في كتابه بقصيدة الشيخ الطيب العقبي المنشورة في جريدة المنتقد بعنوان: "إلى

(1) الشرك ومظاهره، ص 29

(2) محمد العيد بن محمد علي خليفة (1322 - 1399 هـ) (1904 - 1979 م)

عالم، شاعر، كاتب. درس بجامع الزيتونة، وساهم في حركة الانبعاث الفكري، عن طريق مزاوله التعليم ونشر القصائد والمقالات في الصحف والمجلات، في سنة 1927م دعي للتعليم في مدرسة (الشبيبة الإسلامية الحرة) بمدينة الجزائر، عمل فيها مدة اثني عشر عاماً، أسهم في تأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وكان من أعضائها العاملين، وفي هذه الفترة نشر الكثير من قصائده في صحف الجمعية: و في صحيفتي (المرصاد)، و (الثبات). له ديوان بعنوان: ديوان محمد العيد آل خليفة. تكملة مُعجم المؤلفين، وفيات (1397 - 1415 هـ) = (1977 - 1995 م)، محمد خير بن رمضان، ص 534.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي: (178/7-179)

(4) ينظر: كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ الشيخ محمد مبارك الميلي: دراسة تحليلية دعوية، بقلم: د. مفيدة

بلهامل: <https://binbadis.net/archives/9030>

الدين الخالص"⁽¹⁾، والتي تسير في فلك رسالة الميللي⁽²⁾.

"وهكذا فإن رسالة الشرك تعتبر دراسة لوصف حالة الإصلاح والمصلحين وحالة المراقبة والمرابطين في مرحلة معينة من تاريخ التخلف الفكري في الجزائر وفي العالم الإسلامي"⁽³⁾.

ومن عرف بالكتابة والتأليف في هذا المجال في هذه المرحلة فضلا عن الصحافة والخطابة الشيخ أبو يعلى الزواوي⁽⁴⁾؛ فمن كتبه في العقيدة والإصلاح: الإسلام الصحيح، وجماعة المسلمين، وفصول في الإصلاح، وغيرها.

ومن الكتب التي ظهرت في أوائل القرن العشرين الخاصة بالرد على البدع كتاب "اللمع على نظم البدع" للعلامة الشيخ عبد القادر المجاوي⁽⁵⁾ وهو شرح لقصيدة تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب⁽⁶⁾ "المنصفة" منظومة في البدع.

وهذه القصيدة قد شطرها إبراهيم بن عامر السوفي⁽⁷⁾ وسمى التشطير (مطالع السعود)،

(1) الصادرة يوم الخميس 30 محرم 1433 هـ الموافق لـ 25 أوت 1925م، العدد: 8 ص 33.

(2) ينظر نص القصيدة: الشرك ومظاهره ص 447-451

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 180/7

(4) (1295 - 1373 هـ / 1878 - 1952م): محمد السعيد أبو يعلى الزواوي، كاتب صحفي خطيب، له اشتغال بالفقه والتاريخ، من أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين ومن حارب الخرافات والبدع في كتاباته، ولد ببلدة العزازقة بالقبائل، نشأ وتعلم بدمشق، واشتغل بالتعليم والوعظ، وتوفي بالجزائر العاصمة، من آثاره: الإسلام الصحيح، جماعة المسلمين، تاريخ زواوة. معجم أعلام الجزائر، ص 164.

(5) (1264 - 1332 هـ / 1848 - 1913م): عبد القادر بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن المجاوي: مصلح تقليدي سلفي، خطيب، من كبار العلماء. ولد بتلمسان، وتعلم بها وبطنجة وتطاوين، وأكمل دراسته بجامعة القرويين بفاس. وعاد إلى الجزائر، فعين مدرسا بجامع الكتاني بقسنطينة، ثم بالمدرسة الكتانية. ونقل إلى مدينة الجزائر (1898م) وولي التدريس في القسم العالي بالمدرسة الثعالبية. مات بقسنطينة. من آثاره "اللمع على نظم البدع"، و"إرشاد المتعلمين" و"الاقتصاد السياسي". معجم أعلام الجزائر، ص 287.

(6) (1283 - 1358 هـ / 1866 - 1939م): المولود بن محمد السعيد بن الشيخ المدني بن العربي بن مسعود، ابن الموهوب: كاتب، خطيب، شاعر، نشأ وتعلم بقسنطينة. عين (سنة 1895م) أستاذا للفقه والعلوم الإسلامية بمدرسة "سيدي الكتاني" بقسنطينة ثم مفتيا للمذهب المالكي بها سنة 1908. وأسهم في تأسيس نادي "صالح باي" الثقافي. له شعر جيد في محاربة البدع، وعدد من المقالات الاجتماعية والثقافية. وكان يحسن الفرنسية ويجادل المستشرقين والمستعمرين. من آثاره "نظم مقدمة ابن جروم" و"شرح منظومة التوحيد" لشيخه المجاوي. معجم أعلام الجزائر، ص 324.

(7) (1307 - 1353 هـ / 1888 - 1934م): الملقب بالعوامر: من شيوخ العلم ورجال القضاء الشرعي بوادي

ونشر التشطير في جريدة الفاروق⁽¹⁾.

وكذلك كتاب "شموس الأحلام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام" للشيخ المولود الزريري⁽²⁾؛ وهو شرح لمثن ابن عاشر لكنه عالج فيه موضوع البدع والرد على المبتدعين⁽³⁾. ومنهم محمد بن مصطفى الخوجة⁽⁴⁾، الذي كانت له مواقف معروفة في محاربة البدع، ويعد من أوائل تلاميذ الأستاذ محمد عبده الذين نشروا مذهبه الإصلاحية خارج مصر، وله تأليف كثيرة. وغيرهم كثير أمثال عبد الحليم سماية⁽⁵⁾ و...

وفيما يخص الدروس المسجدية المهمة بالعقيدة فيأتي على رأسها دروس الشيخ ابن باديس، وأشهرها رسالة العقائد الإسلامية، وهي عبارة عن دروس أملاها الشيخ ابن باديس بين 16 رجب 1353 و25 صفر 1354 الموافق لأكتوبر 1934 وماي 1935، بجامع الأخضر بقسنطينة بنسبة حصة واحدة أسبوعيا لا تتجاوز 30 دقيقة⁽⁶⁾. والذي كتب هذه

سوف، له اشتغال بالفقه والتاريخ. تعلم ببلده وبتونس، ودرس وأفتى، وكان من أتباع الطريقة القادرية. من آثاره "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" و"حد السنان في عنق المنكر لخالد بن سنان" و"نفحات الريانية علي القصيدة المدنية". معجم أعلام الجزائر، ص 182.

(1) ينظر: مجموع ذاكرة الجزائر ج3: اللمع على نظم البدع، تحقيق: عبد الرحمن دويب، ص63، وينظر: تاريخ الجزائر الثقافي (173/7).

(2) : 1315 - 1344هـ / 1897 - 1925م: المولود بن محمد بن عمر، شاعر فقيه مالكي، من رواد الإصلاح في الأوراس، تولى تحرير جريدة الصديق 1920، والتي تعد من أوائل الصحف في محاربة البدع والدعوة إلى النهوض، ولد بزرية الواد وتوفي ببوفاريك. ينظر: معجم أعلام الجزائر، ص158

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي (151/7)

(4) 1281 - 1333هـ / 1865 - 1915م: الملقب بالمضربة، والمشهور بالشيخ الكمال: شاعر، كاتب، عالم بالشرع والعربية، أقرأ التفسير والفقه والتوحيد، له مواقف معروفة في مقاومة الاحتلال الفرنسي. ينظر: معجم أعلام الجزائر، ص138.

(5) (1283 - 1351هـ / 1866 - 1933م): عبد الحليم بن علي بن عبد الرحمن خوجة: من أوائل المصلحين الجزائريين المعتنقين لمذهب الشيخ محمد عبده الإصلاحية، ومن أوسع علماء عصره علما وثقافة. ولد بمدينة الجزائر وتعلم بها وبتونس. تولى التدريس بالجزائر العاصمة 1896، ثم بالجامع الجديد 1900. مات بمدينة الجزائر، بعد مرض عقلي لشدة ويلات الاستعمار. من آثاره "اهتزاز الأطوار والرى من مسألة تحليل الربا". معجم أعلام الجزائر، ص178.

(6) ينظر: العقائد الإسلامية، عبد الحميد بن باديس، رواية وتعليق: محمد الصالح رمضان، ص 6

الإملاءات هو الشيخ محمد الصالح رمضان⁽¹⁾.

وأما عن قيمة هذه الرسالة فقد سار الإمام فيها على طريقة الشارع الحكيم والمبنية على مراعاة الفطر الإنسانية السليمة البعيدة عن الأوضاع والتقنيات البشرية التي تعب الأوائل في وضعها وأتعبوا الناس في فهمها، كل ذلك على أسس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وفي هذا يقول محمد الصالح رمضان: "وقد حذا فيها الإمام حذو السلفية الرشيدة من اعتماد كتاب الله، والصحيح من سنة رسول الله ﷺ، قبل تفسيرات المذاهب المختلفة وتأويلات أصحابها في مرحلة الاختلاط، والاستشهاد بما عند الأقدمين من أصحاب الأديان والفلسفات والمذاهب الأخرى... وكان ذلك مما دعا المصلحين إلى ضرورة العودة إلى إصلاح العقائد الإسلامية، وشرح المصطلحات، وحل القضايا على نمط سلفي واضح بصريح نص الكتاب والسنة الصحيحة، لا برأي الجبرية والقدرية وغير ذلك من الآراء الفلسفية"⁽²⁾.

ولم تقتصر دروس الشيخ في الدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك على مسجده بقسنطينة بل تعدت مناطق عديدة⁽³⁾ من خلال زيارته ورحلاته الميدانية⁽⁴⁾.

أما ما يخص المقالات الصحفية⁽⁵⁾، فقد ظهرت بقوة في هذه المرحلة -حتى قبل تأسيس جمعية العلماء- وهو الميدان الذي تنفس فيه العلماء الصعداء حيث بثوا علومهم وآراءهم

(1) ولد في 24 أكتوبر 1914م بمدينة بسكرة. استهل تعلمه ببلدته، تابع تعلمه الابتدائي في المدرسة الفرنسية إلى الشهادة الابتدائية، التحق سنة 1934م بدروس الإمام ابن باديس ولازمه، أسند له القيام ببعض الدروس، في 1946م عُيّن مديراً لمدرسة (دار الحديث)، ثم مفتشاً جهويا للتعليم العربي الحر بتلمسان، وفي 1953م مفتشاً عاما لمنظومة التعليم العربي الحر. بعد الاستقلال تقلد عدة مهام اجتماعية وثقافية، وواصل التعليم أستاذا في الثانوية إلى التقاعد 1979م، وتوفي يوم 23 جويلية 2008م. من آثاره: "الإصلاح الإسلامي والتصوف المنحرف"، "من وحي الرحلة"، ومسرحيات وديوان وغيرها. "المرحوم الشيخ محمد الصالح رمضان: وجهوده في خدمة الدين والوطن والعلم"، محمد بن سميعة. <https://binbadis.net/archives/2361>

(2) العقائد الإسلامية، ص 10

(3) وهذا يقاس عليه حال كثير من إخوانه العلماء المصلحين.

(4) ينظر مثلا ما ذكره ابن باديس في مذكراته حول رحلته الأولى إلى مدن الشرق الجزائري؛ ومن ذلك زيارته إلى مدينة عين البيضاء سنة 1929 حيث ألقى درسا في توحيد الله وإفراده بالعبادة ونبد كل أنواع الشرك ومظاهره، كما نوه بالجهود الإصلاحية التي يقوم بها علماء وطلبة العلم بعين البيضاء حيث أزيلت الصناجق والأعلام الشريكية التي كانت ذريعة للتمسح بها. ينظر: آثار ابن باديس، 304/4 - 305.

(5) سيأتي مبحث خاص عن الصحافة الجزائرية ودورها في الدعوة والإصلاح.

وهومهم، وأرخوا الحبال عن أقلامهم، رغم المضايقات والعراقيل التي وضعتها الإدارة الفرنسية، إذ أن أغلب الصحف تم إيقافها من طرف المستعمر الفرنسي نظرا للمواضيع الحساسة التي عالجتها في مختلف القضايا، والتي لا تتماشى مع منهج الإدارة الفرنسية.

ومن حيث التأثير على عامة الناس نجد على رأسها الصحف ذات التوجه الإصلاحية، وهذا لا يعني أن النخب الجزائرية من باقي أطراف المجتمع لم تشارك في هذه المجال بل نجد أفرادا كانت لهم مشاركات قوية سطع نجمهم من خلالها، وسطروا أسماءهم فيها بأحرف لا تنمحي؛ أمثال عمر راسم⁽¹⁾ مؤسس صحيفة ذو الفقار، وعمر بن قدور⁽²⁾ مؤسس صحيفة الصديق، وأبو اليقظان⁽³⁾ مؤسس صحيفة وادي ميزاب⁽⁴⁾.

وإذا كان الحديث عن إصلاح العقيدة فإن الصحف الإعلامية التي كان لها الصدارة بحق في هذا المجال هي صحف جمعية علماء المسلمين الجزائريين⁽⁵⁾، إذ تقدم أنه كان من أولوياتها الدفاع عن العقيدة، إضافة إلى صحف أعضائها الخاصة⁽⁶⁾.

وبتحليل المواضيع التي شملتها المسائل العقدية نجد أنها تتركز إما على تقرير التوحيد ومسائل

(1) عمر راسم بن علي البجائي: 1883-1959م: ولد بالعاصمة وبها توفي، صحفي، خطاط كبير، عرف في ميدان الصحافة بأفكاره السياسية الوطنية الجزائرية، وفي ميدان الإصلاح الاجتماعي بمبدئه العبدوي. من أوائل المحاربين للصهيونية في العالم العربي قاطبة. من آثاره "تفسير القرآن الكريم" كتبه في سجنه، ومقالات كثيرة في الاجتماع والسياسة والفن " مات بمدينة الجزائر. ينظر معجم أعلام الجزائر: ص243، الصحف العربية الجزائرية: ص: 44

(2) (1305 - 1351 هـ / 1886 - 1932 م): عمر بن قدور الجزائري: صحفي، كاتب، شاعر، من رواد الصحافة العربية الوطنية في الجزائر، عرف باتجاهه السلفي الإصلاحية. من أهل مدينة الجزائر، وبها نشأ وتعلم. أنشأ جريدة "الفاروق" سنة 1913، ذات القضايا العربية والإسلامية، نفى إلى الأغواط. ثم اعتزل الصحافة وأوى الى شبه عزلة صوفية. من آثاره "الإبداء والإعادة في مسلك سائق السعادة". معجم أعلام الجزائر، ص243-244.

(3) الشيخ إبراهيم بن عيسى بن يحيى أبو اليقظان (1306 - 1393 هـ / 1888 - 1973). من مواليد مدينة القنطرة جنوب الجزائر. صحفي، شاعر، من رجال الإصلاح والتجديد، له اشتغال بالتاريخ والتراجم والفقه. ترك إنتاجا ضخما من الرسائل والكتب. أصيب بالشلل سنة 1957، فاعتكف في بيته إلى أن توفي. ينظر: معجم أعلام الجزائر: ص: 356.

(4) سيأتي الحديث عن بعض هذه الصحف في مبحث الصحافة الجزائرية.

(5) مثل جريدة السنة النبوية المحمدية، الشريعة، الصراط السوي، وأهمها وأكبرها البصائر.

(6) مثل المنتقد والشهاب لابن باديس وصدى الصحراء لأحمد العقبي بمشاركة الطيب العقبي ومحمد آل خليفة والعمودي، والجزائر للزاهري، والإصلاح للعقبي...

الإيمان، وإما في إبطال الشرك والنهي عن البدع والخرافات، وإما في الرد على الطرق الصوفية المناوئة للدعوة الإصلاحية؛ فأما القسم الأول في تقرير التوحيد والإيمان، فكانت المسائل المطروحة تدور في الجملة حول: بيان أركان الإيمان⁽¹⁾، وأقسام التوحيد⁽²⁾، وبيان أهمية توحيد العبادة⁽³⁾، وتعريف العبادة وأركانها⁽⁴⁾، وذكر بعض أفرادها كالخوف والرجاء⁽⁵⁾، والتنبيه إلى أن الدعاء أهم أنواع العبادة⁽⁶⁾.

وأما القسم الثاني في إبطال الشرك والنهي عن البدع والخرافات، فكانت مسأله تصب في تعريف الشرك، وبيان خطورته والتحذير منه، وبيان مبدأ ظهور الشرك، والتنبيه إلى أن لا إله إلا الله لا تنفع مع التلبس بالشركيات، إضافة إلى إنكار كثير من البدع والخرافات. مثل البناء على المساجد، والغلو في الصالحين، وتقديس شيوخ الطرق الصوفية، وإثبات علم الغيب لغير الله، والسحر، والمزارات والزرادات⁽⁷⁾.

(1) ينظر: العقائد الإسلامية فصل عقائد الإيمان ص55، ومن ذلك مبحث القدر حيث قال ابن باديس رحمه الله في (ص:70): «ومن توحيده تعالى في ربوبيته: اعتقاد أن العبد لا يخرج في جميع تصرفاته عن مشيئة الله، غير أن له اختيارا يجده بالضرورة من نفسه، مشيئة يجدها كذلك فيما يمكنه من أفعاله كان بها مكلفا، ثم هو لا يخرج بها عن مشيئة الله»

(2) قال ابن باديس في تفسير سورة يوسف: "فهو يدعوهم إلى الله الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه هو خالق الكون وخالقهم، لا يسميه إلا بما سمي به نفسه ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته ومواقع رحمته ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته في جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله" مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لابن باديس: ص (63-64).

(3) ينظر مقال الشيخ العربي التبسي: "ما هو الإخلاص ومن هو المخلص" الشهاب 15 ذي القعدة 1351هـ/ 12 مارس 1933 ج4 مجلد9 ص188

(4) ينظر: الشرك ومظاهره: ص (133-137).

(5) ينظر: الشهاب: الأمراض الفاشية في الإسلام، العربي التبسي، ج7، ص 280/ و ينظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: ص 281

(6) ينظر: الشرك ومظاهره: ص273

(7) وخير مثال لهذه المسائل هو كتاب الشرك ومظاهره فقد تعرض لجميع هذه المسائل بالشرح والتدليل، فضلا عن عشرات المقالات لباقي دعاة الإصلاح. كمقالة مولود الحافظي (قبل أن ينقلب على الجمعية): تحرير القول في إبطال التوسل والاستغاثة بالأولياء، الشهاب: 1 شعبان 1350/ديسمبر 1931 ج7 ص820، وينظر أيضا الشيخ أبو يعلى الزواوي مصلحا ومجددا: د. بلقاسم شتوان؛ في إنكاره تشييد القبور والبناء عليها ص 57 و102.

وأما القسم الثالث المتعلق بالرد على الطرق الصوفية المنحرفة فسيأتي مبحث خاص به.

3- أسس الإصلاح العقدي:

إن استعراض جملة من هذه النماذج المشرقة في الدعوة إلى العقيدة الصحيحة كافية للقارئ بالحكم على أن هذه الجهود العقدية في الدعوة إلى الإصلاح مبنية على أسس متينة واضحة، تخالف كثيرا ممن سلك مسلك الدعوة إلى الله في ذلك الوقت، ويمكن إجمال أهمها فيما يلي:

أ- الرجوع إلى الكتاب والسنة⁽¹⁾:

أي إلى المنبع الذي استقى منه السلف الصالح امتثالا لما رواه مالك؛ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»⁽²⁾.

وهذا التأصيل فيه تقرير لمصدر الاستدلال والتحاكم، وفي نفس الوقت إبطال لكل المناهج المخالفة لهذا المنهج، بدءًا بالاستدلال بمنهج علماء الكلام المتأثرين بالأساليب الفلسفية، إذ "المقرر عند بعض الفرق أن العقائد أمور عقلية يجب بناؤها على العقل، وخاصة أبواب التوحيد والصفات والقدر والنبوات، وفي هذا يقول السنوسي: «إن الإيمان أصله المعارف العقلية والأدلة البرهانية، لا يكون عن تقليد وإنما عن نظر سديد»⁽³⁾. وقد طبق هذا التأصيل في كتبه، ومنها العقيدة الصغرى -أم البراهين- التي لا تجد فيها آية قرآنية ولا حديثا نبويا"⁽⁴⁾. وهنا يكمن أهم فرق بين المنهجين، والأثر المترتب عليهما في فكر المسلم وعقيدته.

وفي أهمية القرآن الكريم في العقائد يقول ابن باديس رحمه الله: «أدلة العقائد مبسوبة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام، وأصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفصيلها في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسل ليبين للناس ما أنزل عليهم فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم، إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم، ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله، فهو الذي يجب على أهل العلم أن

(1) ينظر تفصيل هذا الفرع: مقال الإصلاح العقدي في دعوة ابن باديس وأثره على المجتمع الجزائري، د. محمد حاج عيسى، <https://binbadis.net/archives/3821>

(2) الموطأ، مالك بن أنس، ت: محمد الأعظمي، (1323/5)، ح 3338

(3) العقيدة الوسطى وشرحها، أبو عبد الله محمد السنوسي، ص 102.

(4) مقال الإصلاح العقدي في دعوة ابن باديس وأثره على المجتمع الجزائري، مرجع سابق.

يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه»⁽¹⁾. كما بيّن في نصوص أخرى أهمية السنة الصحيحة، كقوله رحمه الله في سياق ذكر المنهج المتبع في تدريس العقائد: «فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك، فيحضر مجالس العلم التي تذكره بآيات الله، وأحاديث رسوله ما يصحح عقيدته ويزكي نفسه ويقوم عمله»⁽²⁾.

ب- فهم الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح: وهذا أصل مهم من أصول الاستدلال على العقائد، فهو الفيصل بين جميع الفرق الإسلامية التي تدعي اتباع القرآن والسنة. بما في ذلك المتأخرون من المتصوفة والأشاعرة الذين قصروا مذهب مالك على الفروع دون الأصول. وهو القائل: " لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلُهَا"⁽³⁾.

وهذا نقيض قولهم: « عقيدة السلف أسلم وعقيدة الخلف أعلم وأحكم»، يقول العربي التبسي وهو يتكلم عن الدعوة الإصلاحية:

« تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب الله وسنة النبي ﷺ، والسير على منهاج السلف الصالح في أخلاقهم وعاداتهم القولية والاعتقادية والعملية، وتطبيق ما هو عليه المسلمون من عقائد وأعمال وآداب على ما كان في عهد السلف الصالح، إذ عد الخطاب الإصلاحية ما وافق منهج السلف الصالح أنه من دين الله، وأن القائم به قائم بدين الله، أما ما لم يكن معروفاً في عهد الصحابة فليس من دين الله »⁽⁴⁾.

ج- الاهتمام بتراث علماء الأمة:

من تتبع مصادر دعاة الإصلاح وجد أنهم اهتموا اهتماماً كبيراً بتراث علماء الأمة إذ هو الناقل لما عليه السلف والرابط لما بين السلف والخلف، ولو تتبع الباحث على سبيل المثال مصادر الشيخ بن باديس لوجدها جامعة بين الأصالة والتنوع والتعدد؛ فمنها: موطأ الإمام مالك، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، والاعتصام والموافقات للشاطبي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والشفاء للقاضي عياض، والعواصم من القواصم لابن العربي،

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 142.

(2) المصدر نفسه، ص: 320.

(3) مسند الموطأ: أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَافِي، ص: 584، رقم 783

(4) مقدمة الشرك ومظاهره، ص 27.

وغيرها⁽¹⁾.

وهذا الاهتمام بالتراث أدى إلى التأثير بأصحاب هذه المصادر، فاقتفوا آثارهم وطريقتهم في دعوتهم ومنهج تأليفهم وتدريسهم وصبرهم وغيرها من الجوانب المتعددة للإصلاح.

4- أثر الإصلاح العقدي على المجتمع الجزائري:

إن هذه الجهود المبذولة في الإصلاح العقدي لم تذهب سدى، وإنما كان لها صدى على الواقع الجزائري، وكانت لها آثار متعددة يمكن تلخيصها في نقاط ثلاث:

أ- ربط الأمة الجزائرية بالكتاب والسنة في الاستدلال العقدي:

وهذه الثمرة الغالية يلخصها العلامة الإبراهيمي بقوله: «والإمام رضي الله عنه كان منذ طلبه للعلم بتونس قبل ذلك، وهو في مقتبل الشباب، ينكر بذوقه ما كان يبني عليه مشائخه من تربية تلامذتهم على طريقة المتكلمين في العقائد الإسلامية، ويتمنى أن يخرج تلامذته على الطريقة القرآنية السلفية في العقائد يوم يصبح معلما، وقد بلغه أمنيته فأخرج للأمة الجزائرية أجيالا على هذه الطريقة السلفية؛ قاموا بحمل الأمانة من بعده، ووراءهم أجيال أخرى من العوام الذين سعدوا بحضور دروسه ومجالسه العلمية، وقد تربت هذه الأجيال على هداية القرآن فهجرت ضلال العقائد وبدع العبادات، فطهرت نفوسها من بقايا الجاهلية التي هي من آثار الطرائق القديمة في التعليم وقضت الطريقة القرآنية على العادات والتقاليد المستحكمة في النفوس وأنت على سلطانها، وقد راجت هذه الطريقة وشاعت حتى بين العوام وإن كانوا لا يحسنون الاستدلال بالقرآن... فأصبح العامي لا يقبل من العالم كلاما في الدين إلا إذا استدل عليه بآية قرآنية، وأصبح العامي إذا سمع الاستدلال بالقرآن والحديث هش وشاعت في شمائله علامة القبول، وهذه أمانة على عودة سلطان القرآن على النفوس يرجى منها كل خير»⁽²⁾.

ب- بث روح العمل والتضحية:

إن مجاهرة دعاة الإصلاح بمخالفة عقيدة الإرجاء، ونصرتهم لاعتقاد السلف بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؛ طهر كثيرا من المظاهر السلبية على المستوى الفكري والعملي كقولهم الإيمان في القلب؛ مع تعطيلهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتقصير في الطاعات،

(1) ينظر مصادر ابن باديس: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، عمار بن مزور، ص 80-81

(2) آثار الإبراهيمي، 5/ 314.

والانغماس في المعاصي والكسل وترك الكسب الحلال كل ذلك احتجاجا بالقدر، فضلا عن ترك الجهاد ومقاومة المستعمرين بدعوى الرضا بالقضاء، وكذا الرضا بكل مظاهر الدون والتخلف وعدم محاولة التغيير بزعم أنه قدر محتوم، فكانت هذه الجهود سببا في بث روح العمل والتضحية في سبيل الدين والدعوة، وكان من آثارها بعث روح الجهاد في الأمة الجزائرية.

ج- تصحيح مفهوم التوحيد وآثاره في التفكير:

إن الابتعاد عن منهج الكتاب والسنة في المجال العقدي سببٌ لانتشار جميع مظاهر الشرك، ومن ذلك التوحيد المستمد من المباحث الكلامية الذي كان حاجزا بينه وبين توحيد الألوهية مما نتج عنه مظاهر التفكير الخرافي، الذي يجعل صاحبه يؤمن بتأثير الأموات والأشجار والأحجار، ويرفع منزلة مدعي العلم والتصوف فوق منزلة البشر، وتجعل عقيدته هشة تتأثر فيها بالأفكار السلبية، وتتقبل معها كل خرافة وبدعة. ولما قيض الله رجالا يحملون هذه الجهود المباركة، تم تصحيح مفهوم التوحيد، والقضاء على كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافة، ومن ثم تصحيح عقلية الجزائريين وطريقة تفكيرهم⁽¹⁾.

المطلب الثاني: الرد على الطرق الصوفية المنحرفة

1- مفهوم التصوف:

جاء في الموسوعة الميسرة أن التصوف: "حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعاتٍ فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري. ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقا مميزة معروفة باسم الصوفية، ويتوخى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية والفارسية واليونانية المختلفة. ويلاحظ أن هناك فروقا جوهرية بين مفهومي الزهد والتصوف أهمها: أن الزهد مأمور به، والتصوف جنوح عن طريق الحق الذي اختطه أهل السنة والجماعة"⁽²⁾.

وقد يختلف رجال الطرق أنفسهم حول تعريف التصوف حسب الوسائل التي يستعملونها

(1) ينظر تلخيص هذه النقاط الثلاث: الإصلاح العقدي في دعوة ابن باديس وأثره على المجتمع الجزائري، مرجع سابق.

(2) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، 249/1

للوصول إلى هدفهم؛ فمنها المدوح ومنها المذموم. ومن المصطلحات المتعلقة بالتصوف: الشيخ والطريقة والزاوية والدرويش والمرابط والشريف وغيرها⁽¹⁾.

2- حال الطرق قبل الاحتلال:

عرفت الجزائر الطرق الصوفية قبل دخول العثمانيين، حيث كانت تحت نفوذ الشاذلية⁽²⁾ والقادرية⁽³⁾، والعمانيون أنفسهم كانوا في تكوينهم الديني والنفسي و الحربي من أتباع الطرق الصوفية؛ وهذا ما نتج عنه كثرة الأضرحة والقباب والزوايا و مشاهد الزيارة والتبرك والذبح والنذر، وإقامة الحضرة وتقديم الهدايا⁽⁴⁾.

"وفي هذا العهد غرقت الجزائر في التصوف والدروشة فأصبح [كثير من] العلماء يتباهون بأخذ الطرق والأذكار والخرقه والسبحة والمصافحة والأسودين، وأصبح الحكام يظهرون كل الاحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا. أما العامة فلا تسأل عن أحوالها وعقائدها ومستواها الخلقي والاجتماعي"⁽⁵⁾. فقد عمت الخرافة المتعلمين والعلماء والدراویش والكتاب على حد سواء.

يضاف إلى ذلك ما كان يقع بين العثمانيين والمرابطين من علاقة فاسدة بين الطرفين باستغلال كل طرف للآخر بالهدايا والرشاوي والمصالح الشخصية وغيرها⁽⁶⁾.

وهذا لا يعني عدم وجود متصوفة نأت نفوسهم عن كثير من هذه الضلالات، ومالت ضمائرهم إلى الإصلاح ونبد الفساد؛ أمثال الثعالبي والفكّون والأخضري وغيرهم. ورغم هذه المفاسد والسلبيات "فإن المرابطين لعبوا دورا بارزا في الحياة الثقافية والسياسية

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 8/4 و 10. وينظر تفصيلا أكثر لهذه المصطلحات: 15-11/4
(2) الشاذلية: طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي المنسوب إلى الأشراف، ت: 656هـ، يؤمن أصحابها بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية، إضافة إلى اشتغالهم بالذكر المفرد. تنسب إليه كرامات بعيدة عن التصديق، مركزها الأم بمصر، ومنها انتشرت. ينظر الموسوعة الميسرة 275/1-279

(3) القادرية: وتنسب للشيخ عبد القادر الجيلاني ت: 561هـ ببغداد، ويعتبر عند المتصوفة قطب الأقطاب، وتنسب له خوارق وكرامات، زاويته الأم ببغداد، ولها فروع بالجزائر، وهو من الأشراف. ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، 43-42/4

(4) ينظر: المصدر نفسه 462-466/1

(5) المصدر نفسه، 467/1، وقد ذكر أبو القاسم كثيرا من وقائع هذه الخرافة، ينظر مثلا 480/1، وينظر أيضا كتاب

الجزائر، لأحمد توفيق المدني، ص 376-377

(6) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق، 470/1.

للبلاد. ذلك أن كثيرا من الأشعار والتأليف في المناقب والتصوف والسير قد ظهرت خلال هذا العهد. وكانت معظم الزوايا... مراكز للتعليم ومخازن الكتب، كما كانت الطرق الصوفية مصدر قلق للولاة الظالمين يخشون بأسها وثورتها⁽¹⁾.

3- حال الطرق الصوفية بعد الاحتلال:

إن تغير العامل السياسي كان له ردة فعل على الطرق الصوفية، ويمكن القول أنها عاشت فترة الاحتلال مرحلتين بارزتين على العموم: فترة المقاومة وفترة الاختراق والتدجين. وقبل التقسيم يحسن الإشارة إلى أشهر الطرق آنذاك وبعض الإحصاءات والمسائل المتعلقة بها. فقد بلغ عدد الطرق الفاعلة في الجزائر أكثر من ستة وعشرين، منها حوالي أربعة فقط أنشئت في عهد الاحتلال الفرنسي كالسنوسية⁽²⁾ والعلوية⁽³⁾، ومن الباقي ما أسس في الجزائر كالرحمانية⁽⁴⁾ والتجانية⁽⁵⁾، ومنها ما أسس خارجها كالقادرية والشاذلية؛ وكل طريقة لها وزنها وخطرها حسب شهرة الشيخ وقوة سمعته وكثرة أتباعه⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، 525/1.

(2) السنوسية: دعوة إسلامية مشوبة بالصوفية؛ ظهرت في القرن 19 بليبيا، وامت شمالي أفريقيا، وبعض البلاد الإسلامية. على يد الشيخ محمد بن علي السنوسي 1202هـ. 1276هـ (1787. 1859م)، وإليها ينسب الشيخ عمر المختار 1275. 1350هـ (1856. 1931م). ينظر الموسوعة الميسرة 288-287/1.

(3) العلوية: طريقة حديثة تفرعت عن الشاذلية الدرقاوية، المنسوبة إلى الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغاني، المتوفى عام 1934. الذي استقل بتأسيس زاويته الخاصة بمستغانم عام 1910م. وقد انتشرت انتشارا واسعا وسريعا بفضل الوسائل الحديثة التي استعملها؛ وأهمها الجرائد الأسبوعية مثل "لسان الدين" و"البلاغ الجزائري" التي دافعت عن الزوايا وانتقدت مخالفيها، إضافة إلى الرسائل التي نشرت آراءه وغيرها من قضايا التصوف. وبعد وفاته خلفه صهره عدة بن يونس إلى وفاته عام 1952. ينظر: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، د. عبد العزيز شهبي، ص 155-157، وتعتبر من أكثر الطرق عداء لجمعية العلماء المسلمين.

(4) الرحمانية: طريقة صوفية، أسسها أحمد بن عبد الرحمن الجرجري المعروف ببوقرين، ت: 1208هـ في الجزائر في القرن 18م، وانتشرت في أنحاء الجزائر في القرن 19م. وأصلها خلوتية. ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، 507-506/1.

(5) التيجانية: فرقة صوفية تؤمن بإمكانية مقابلة النبي ﷺ عيانا، وأن النبي ﷺ قد خصهم بصلاة (الفتاح لما أُلغى). مؤسسها هو: أبو العباس أحمد بن محمد التيجاني، (1150-1230هـ) (1737. 1815م) ولد بعين ماضي من صحراء الجزائر. مركزها الأول بفاس. لعبت دورا مهما في موالاة الإدارة الفرنسية. ينظر الموسوعة الميسرة 281/1.

(6) ينظر: كتاب الجزائر، ص 378، وتاريخ الجزائر المعاصر، بشير بلاح، ص 335.

وأهم هذه الطرق وأشهرها القادرية، الرحمانية، الدرقاوية⁽¹⁾، التيجانية، السنوسية، والعلوية⁽²⁾.

وبسقوط الدولة العثمانية تحت يد السلطة الفرنسية لم يجد الجزائريون الرافضون للاحتلال من يعطونه يد السمع والطاعة في تسيير أمورهم إلا شيوخ الزوايا.

فأغلب القادة الذين أعلنوا الجهاد ضد المستعمر الفرنسي كانوا من الطرق الصوفية. ولا يمكن تعميم الأحكام على عموم الطرق الصوفية، إذ إنها تختلف من طريقة لأخرى ومن شيخ لآخر ومن زاوية لأخرى. لكن الدارس لحقيقتها يجد لها إيجابيات تذكر، وفي المقابل سلبيات تُحذر؛ فمن الإيجابيات أن أغلبها قاوم الاحتلال الفرنسي حتى مطلع القرن العشرين، حيث شاركوا في أغلب الثورات الشعبية، كما دافعوا على كثير من مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين واللغة والوطن⁽³⁾.

أما عن السلبيات التي لعبتها هذه الطرق فمنها التعاون مع المحتل ومباركة جهوده، واستغلال الناس وجمع حطام الدنيا، إضافة إلى نشر الجهل والشرك والبدع والخرفات، بل واقترب بعض شيوخها كثيرا من المحرمات كشرب الخمر وارتكاب الفواحش والانغماس في الشهوات⁽⁴⁾.

4- الفترة ما بين 1830 - 1900:

أيقن المحتل الفرنسي أهمية الزعامات الدينية في المجتمع الجزائري وقدرة تأثيرها الفائق على أتباعها، خاصة فيما يتعلق بإعلان الجهاد، وإثارة ما تصفه بالتمرد ضد مصالح الاحتلال، لذا حرصت السلطة الاستعمارية على استقطاب هذه الزعامات بمختلف الأشكال سواء باستخدام الإغراء أو الاستدراج أو القوة، مع محاولة ضرب بعضها ببعض؛ وتتضح هذه الصورة

(1) الدرقاوية: وأصلها الشاذلية، ظهرت بالمغرب الأقصى، تنسب لمحمد العربي الدرقاوي، ت: 1239هـ / 1823م، أهم زواياها: زاوية أولاد الأكراد بتيارت، أسسها عدّة بن غلام الله (ت: 1283هـ / 1867م). وعنها تفرعت عدّة طرق

أخرى، خالفت الشاذلية إزاء التسامح والمهادنة ضد العدو. ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، 4/ 112-113

(2) ينظر تاريخ الجزائر المعاصر، بشير بلاح، ص 335-337

(3) وقد أثر عن السنوسية الفضل في نشر الإسلام بوسط إفريقيا، وينظر بعض الإيجابيات: كتاب الجزائر، ص 375-

376

(4) ينظر تاريخ الجزائر المعاصر، بشير بلاح، ص 338

أكثر بين الطريقة القادرية والتيجانية حيث نجحت الإدارة الغربية في الوقيعة بينهما⁽¹⁾. كما دخلت في حروب مع البعض الآخر إلى أن قضت على المقاومات الشعبية ودخلت مرحلة جديدة هي تحويل هذه الطرق وسيلة للهيمنة النفسية على المجتمع الجزائري لصالح الاستعمار الفرنسي⁽²⁾.

أما الجانب الداخلي لهذه الطرق فقد تقدم أنه دخلها كثير من البدع والخرافات والفساد العقدي، وتقدم أنها أهملت توحيد الألوهية لتركيزها على المبادئ الكلامية في تقرير العقيدة، ومع هذا لم تخل هذه الفترة من جهود في الإصلاح، ومن أوائل من ثار على البدع المنسوبة للطرق الصوفية "ابن العنابي" الذي عرف بمواقفه الإصلاحية قبل نفيه من الجزائر وبعدها. من ذلك ما كتبه جوابا على بعض الأسئلة الواردة عليه:

"ورفع فساد هؤلاء الزنادقة، الذين أدخلوا على الإسلام وأهله أعظم الفساد والشر، من أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى، فهو من أعظم الجهاد. ولا يعتبر بما يظهرونه من الصلاح والنسك فإنه من مكر الزندقة وخداعها، أخزاهم الله وأبعدهم وسلط عليهم من ملوك الإسلام الذابين عن حمى شريعة سيد المرسلين من يشئت شملهم ويحسم مادة فتنتهم وشرهم"⁽³⁾.

ولا يستغرب أن يكون "قد عني هؤلاء الزنادقة طائفة المتصوفة وأهل الطرق الذين كانت لهم مواقف من النوع الذي أشار إليه كإظهار النسك وإخفاء المحرمات. وهو في هذا يعد من الثوار على أهل الخرافة والشعوذة والطرقية والمتاجرة بالدين في وقت مبكر نسبيا"⁽⁴⁾. ومن الإصلاحات ما ذكره الشيخ المهدي البوعبدلي⁽⁵⁾ أن الشيخ محمد مزيان بن

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 4/236.

(2) للتوسع أكثر في أساليب الإدارة الفرنسية في استغلال مشايخ الطرق الصوفية، ينظر مذكرة السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1914، ص 119، 122.

(3) رائد التجديد الإسلامي: محمد بن العنابي، أبو القاسم سعد الله، ص 90.

(4) المرجع نفسه، ص 91.

(5) (1907-1992): محمد المهدي بن أبي عبد الله الحسني ولد في بطيو (آرزو)، درس في مسقط رأسه ثم في مازونة. انتقل عام 1931 إلى تونس والتحق بجامعة الزيتونة، في 1938 عاد إلى الجزائر وعمل إماما ومفتيا. قام بمهام لصالح الثورة التحريرية. بعد الاستقلال اشتغل بالبحث التاريخي، عين عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى، وتولى مهام أخرى. جل آثاره مقالات أو محاضرات، وله: "جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني"، "ثورة الشريف بوبغلة". ينظر: "ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي"، جمع وإعداد: عبد الرحمن ذويب، ص 55-111.

الحداد⁽¹⁾ - وهو من الطريقة الرحمانية - ألف تأليفاً " يتعلق بالبدع المنسوبة للطريقة الرحمانية، وقدم للتأليف بحثاً يصف فيه حالة البلاد إذ ذاك - أي سنة 1261هـ - وذلك بأمر شيخه المهدي السكلاوي اليراتني المتوفى بدمشق"⁽²⁾.

5- الفترة ما بين 1900-1954م:

منذ أوائل هذا القرن عرفت جهود هذه المرحلة توجهاً آخر، وظهرت مؤلفات حول الإصلاح والإسلام الصحيح وإنكار البدع والخرافات استجابة لداعي النهضة الإسلامية والدعوة السلفية؛ حيث شارك فيها عدد من العلماء والكتاب، منهم الموظفون الرسميون، أمثال المجاوي وابن الموهوب والحفناوي⁽³⁾ وابن سماية، ومنهم الأحرار أمثال حمدان الونيسي. وابن باديس ومبارك الميلي.

كما أن الطرق الصوفية في هذه المرحلة دخل كثير منها مرحلة المهادنة بل والاختراق والتدجين من طرف الإدارة الفرنسية، ومد الدعم الروحي لموالات فرنسا، وكان في طليعتها الطريقة التيجانية⁽⁴⁾.

وقد ذكر أحمد توفيق المدني: " أن العقلاء من الطريقتين أنفسهم الذين يرون أن وظيفتهم إنما هو إرشاد الناس للدين والتمسك بأهدابه وبث العلم في الصدور يشاركون المصلحين في مقاومة هذه البدع والأضاليل"⁽⁵⁾.

(1) محمد أمزيان بن علي المعروف بابن الحداد 1205-1290هـ/1790-1873م، انتهت إليه مشيخة الطريقة الرحمانية في وقته، ولد في منطقة القبائل، كان له دور كبير في ثورة 1871م ضد الفرنسيين، دفن بقسنطينة. من آثاره "رسالة في التصوف" و" شرح لمنظومة ابن رشد". ينظر معجم أعلام الجزائر: ص120، وتاريخ الجزائر المعاصر، بشير بلاح، ص202

(2) ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي، عبد الرحمن ذويب، مرجع سابق، ص155.

(3) (1269 - 1361هـ / 1852 - 1941م): محمد الحفناوي بن أبي القاسم الديسي، أبو القاسم: كاتب، شاعر، له اشتغال بالتاريخ. ولد ببلدة الديس، وتعلم في زاوية ابن علي داود ببلاد زواوة ثم في زاوية طولقة وزاوية الهامل. ودرس بالجامع الكبير بمدينة الجزائر، وتولى منصب الإفتاء المالكي سنة (1936م). من آثاره "تعريف الخلف برجال السلف"، والخير المنتشر في حفظ صحة البشر". معجم أعلام الجزائر، ص121.

(4) ينظر مثلاً تاريخ الجزائر الثقافي، 4/242-299، و ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص 101.

(5) كتاب الجزائر، ص 377.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الشيخ العربي التبسي في تعليقه على مؤتمر الطريقة المنعقد بالعاصمة حيث قال: "وقدم إلى الجزائر يوم الاثنين 19 الشاب الناهض الشيخ محمد الصالح بن الشيخ الهاشمي ليشارك نيابة عن أخيه الشيخ عبد العزيز رئيس الطريقة القادرية بشمال إفريقيا الذي استدعي للحضور، فألقى خطبة رائعة: بين فيها أن لا طريقة إلا طريق السنة وذكر فضل علماء الإصلاح على الجزائر في بث الهداية الإسلامية الحقّة، عكس ما نشر عنه في جريدة "ليكوذالجي" (1).

و"من الملاحظات الهامة التي أبداهـا "رين" (2) بعد دراسة وإمعان أن الطرق الصوفية التي تحالفت مع فرنسا فقدت حيويتها وانخفض عدد أتباعها بينما الطرق التي ظلت على عدائها أو حيادها اكتسبت أتباعا وتجددت. ولذلك نصـح بعدم اتخاذ أسلوب المواجهة والانتقام ضد الطرق العدو كهدم الزوايا واعتقال الزعماء ونفيهم لأن ذلك يخدمها ويضر بالمصلحة الفرنسية. وقال إن أكثر الطرق عداء في وقته هي الرحمانية والدراقوية، وأكثرها ولاء هي الحنـصالية (3) والعيساوية (4) والتجانية (5).

"وأخطر ما ينسب إلى بعض الطرق الصوفية ادعاؤها أن الاستعمار قضاء وقدر، وأن الله قدر للاستعمار أن يحل بالجزائر، وهو وحده القادر على إخراجه متى شاء. ولذلك لاقت هذه الطرق عناية ورعاية من الاستعمار، كما حظيت بدراسة المستشرقين" (6).

وانطلاقا من هذه المعطيات كان ولا بد من حدوث صدام بين دعاة الإصلاح ودعاة الطريقة نتيجة التباين في الأفكار والتوجهات ومهاجمة البدع والخرفات التي يتبناها الطرف الآخر، خاصة مع ظهور الحركة الإصلاحية بزعامة ابن باديس، وظهور الطريقة العلوية التي

(1) جريدة البصائر: الصادرة يوم الجمعة 28 صفر 1357هـ / 29 أبريل 1938م 'عدد 111، ص 6.

(2) مستشرق وكاتب فرنسي، ت: 1905م.

(3) الحنـصالية: فرع للشاذلية، مؤسسها سعيد بن يوسف الحنـصالي، من المغرب الأقصى، ت: 1114هـ / 1702م، اشتهرت في الجزائر على يد أحمد الزواوي. ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، 86/4.

(4) العيساوية: من فروع الشاذلية الجزولية، مؤسسها الشيخ محمد بن عيسى دفين مكناس، اشتهرت بأعمال لا علاقة لها بالعبادة كالسحر والرقص، ولها فروع بالجزائر. ينظر المصدر نفسه، 81/4.

(5) المصدر نفسه، 306/4.

(6) عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، عمار بن مزوز، ص 45.

اعتبرتها الإدارة الفرنسية نموذجاً جديداً للتصوف العصري. وكان هذا في وقت انفتح فيه الجزائريون على الصحف والمجلات الذي بث فيها كل اتجاه وحزب آراءه واتجاهه⁽¹⁾.

6- جهود علماء الإصلاح في مجابهة الطرق الصوفية المنحرفة:

من أوائل الأعلام التي تذكر في هذا المجال الشيخ صالح بن مهنا⁽²⁾ الذي كانت له حملات عنيفة ضد الطرق التي جعلت من التصوف شعوبة ووسيلة للاستزاق؛ حيث ذكر الشيخ البوعبدلي في ترجمته أنه "كان من دعاة السلفية الذين حاولوا أن يحيوا تعاليمها في هذه البلاد رغم تنكر الوسط لهذه التعاليم، وتآلب خصومه عليه، واستعانتهم على محاربتهم بعناصر خارجة عن الإطار العقائدي الديني، إذ هددوه في معاشه وحرية وعرضه، إلا أنه ثبت ثبات المؤمنين الصادقين إلى أن لقي الله"⁽³⁾. ومن المسائل التي أثارها واشتهرت عنه مسألة الرد على الأشراف⁽⁴⁾؛ خاصة عند تحقيقه وتعليقه على رحلة الحسين الورثياني، والتي تعرض على إثرها إلى محن عظيمة، وتآليف كثيرة تضمنت الرد عليه، كما رد على ذلك في رسالة سماها: "تنبيه المعتزين في الرد على إخوان الشياطين"⁽⁵⁾.

وبدخول سنة 1931م ابتدأ عهد جديد لصراع جماعي بين الإصلاحيين والطرقيين؛ سجلت الصحف والمجلات كثيراً من وقائعه، خاصة بين الطريقة العليوية وبين أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان من أولويات أهدافها تطهير المجتمع من بدع وخرفات الطريقة⁽⁶⁾ قبل مجابهة الإدارة

(1) يرى البعض أن الموافقة الفرنسية لتسهيل عمل الإصلاحيين في مقابل الطرق الصوفية التي طالما حاربتها حتى تكون حاجزاً ضد توغل المد الشيوعي. ينظر تاريخ الجزائر الثقافي 330/4.

(2) القسنطيني الأزهري (1271-1328هـ/1854-1910م): عالم سلفي من رواد الحركة الإصلاحية الذين حاربوا البدع، اشتغل بالتدريس بقسنطينة ومات بها. ينظر معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 323. وممن اعتنى بترجمته الأستاذ سليمان الصيد، ومما ذكره عنه قوله: "وفي رأيي أن شخصا لم يظلم في الجزائر، ولم يغبن حقه فيها مثل ابن مهنا". صالح بن مهنا: حياته تراثه، ص 11.

(3) ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي، قسم التراجم، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، ص 11.

(4) وهم الذين اتصل نسبهم بالنبي ﷺ، وقد زعم بعض من غلا فيهم أنهم لا يحاسبون ولو كان عاصيا مسرفا على نفسه.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص 9.

(6) جاء في البند 16 من أصول الجمعية: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحنيز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال... والاستغلال... من تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور...". الشهاب: ج 4، ص 13، ص 195.

الفرنسية. ويرجع ذلك لسببين: ديني وهو تطهير الدين مما علق به من خرافات وشركيات، والثاني سياسي وطني: يتعلق بموالات هذه الطرق للإدارة الفرنسية في إخضاع هذا الشعب ووقف عجلة تطوره ونهضته⁽¹⁾.

وقد عرفت تلمسان صراعاً بلغ أشده بين الطرفين ممثلاً في الدرقاوية والعلوية، وبين الإصلاحيين ممثلاً في شخصية الإبراهيمي نفسه، بعد استقراره بتلمسان سنة 1933، وخصوصاً بعد فتح مدرسة دار الحديث، وقبول أهالي تلمسان ونواحيها⁽²⁾ فكرة الإصلاح وعزوف كثير منهم عن الطرفين، ما عُد انتصاراً كبيراً حققته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁽³⁾. علماً أن الاستعمار الفرنسي استغل ذلك في تعزيز بقائه وسلطته.

يقول الإبراهيمي: "إن هؤلاء المصلحين لا يعملون - مسلمين ومحاربين - إلا عن إيمان وعقيدة، وعقيدتهم في الطُّرق هي أنّها علّة العلل في الإفساد ومنبع الشرور، وأنّ كلّ ما هو متفشٍّ في الأمّة من ابتداعٍ في الدّين، وضلالٍ في العقيدة، وجهلٍ بكلّ شيء، و غفلةٍ عن الحياة، وإلحادٍ في الناشئة؛ فمنشؤه من الطُّرق ومرجعه إليها، فلا يجهلنّ جاهل ولا يقولنّ قائل: إنّ المصلحين شغلوا أوقاتهم بالطُّرق واستنفذوا قوّتهم في مقاومتها، حتى ألّتهم عن كلّ شيء، وربّما كان فيما شُغلوا عنه ما هو أحقُّ بالاهتمام ممّا شُغلوا به؛ وهذه نقطةٌ يجب إيضاحها دفعاً للأوهام.

إنّا علّمنا حقّ العلم - بعد التّروّي والتّثبت ودراسة أحوال الأمّة ومناشئ أمراضها - أنّ هذه الطُّرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرّق المسلمين، لا يستطيع عاقل سلّم منها ولم يُبدّل بأوهامها أن يكابر في هذا أو يدفعه، وعلّمنا أنّها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدّين والدنيا، ونعلم أنّ آثارها تختلف في القوة والضعف اختلافاً يسيراً باختلاف الأقطار،

(1) ينظر قريباً منه: الصراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني، 61/1

(2) من ذلك نشاط الشيخ محمد بن بشير القباطي في الغزوات، ينظر مثلاً مقال: موقف الطرق الصوفية من نشاط الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بتلمسان 1932-1939، أ. عبد الرحمن بن بوزيان.

(3) بل "جاوز ذلك إلى محاربة الشيخ من يدافع عن هذه الطريقة ويتعصبون لها من بعض العلماء. ويتمثل موقفه هذا خصوصاً في الوقوف بالمرصاد للشيخ عبد الحي الكتاني الذي كان يمم الجزائر فيطيل المقام بديارها. ولم يكن ينعوي أثناء ذلك أن يشن على الحركة الإصلاحية الجزائرية حرباً معلنة طوراً، وغير معلنة طوراً آخر". أعلام الثقافة والعلوم: ص 66.

ونعلم أنّها أظهر آثارا وأعراضا وأشنع صورًا ومظاهرًا في هذا القطر الجزائري والأقطار المرتبطة به - ارتباط الجوار القريب - منها في غيره، لأنّها في هذه الأقطار فروعٌ بعضها من بعض، ونعلم أنّنا حين نقاومها نقاوم كلّ الشر، وأنّنا حين نقضي عليها - إن شاء الله - نقضي على كلّ باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنّه لا يتمّ في الأمة الجزائرية إصلاحٌ في أيّ فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطريقة المشؤومة، ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان، ومع ما فيها من إفسادٍ للعقول وقتلٍ للمواهب⁽¹⁾.

ولما كانت الجهود التفصيلية في تقويض شرور الطريقة كثيرة ومتنوعة، فإن حسب الباحث أن يشير إلى بعض المواضيع مع التركيز على أهمّها⁽²⁾:

أ- التفريق بين المتصوفة المتقدمين والمتأخرين والإنكار على من أخطأ منهم:

قال المليي: "وما زال الصوفية يتفننون في وضع الإسناد ليربطوا طرقهم بعظماء الزهاد، وإن اشتملت على ضروب من الضلال والفساد، حتى جاء أخيرا أحمد بن سالم التيجاني، فاختصر الإسناد، وادعى أنّه تلقى طريقته من خاتم الأنبياء من غير واسطة"⁽³⁾.

جاء في جريدة الشهاب: "أنّ أكابر الصوفية كالجنيد، وأبي يزيد وأبي بكر الدقاق...، وغيرهم صدرت منهم أقوال وأعمال مخالفة للشرع منكّرة، أنكرها عليهم العلماء، وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه الذي ذكر فيه تلبيس إبليس على الطوائف من ذلك شيئا كثيرا، رواه بأسانيده وأنكره، ونقل عن أهل العلم إنكاره". ثم قال: "فإذا كان أكثر صوفية زمان السلف حُقق ليس لهم عقول، ومن صاحبهم لا يعود له عقله أبدا... وأنكر عليهم الأئمة وبدّعوهم وأخرجوهم من البلاد، فما بالك بمتصوّفة زماننا"⁽⁴⁾.

ب- صدهم عن تفهم القرآن وتفسيره:

(1) آثار الإبراهيمي: (1/189-190)

(2) ذكر الباحث سليم مجوي في مذكرته: "جهود أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقرير توحيد العبادة والرد على المخالفين فيه" نقولا كثيرة ومتنوعة في هذا المجال استندت منها وانتقيت بعضها في هذا المطلب نظرا لكثرتها.

كما أنه تقدم شيء من جهود العلماء في تقرير التوحيد وإبطال الشرك، فيرجع إليه في موضعه.

(3) الشرك ومظاهره ص 423.

(4) جريدة الشهاب: عدد: 174، رد الأئمة المتقدمين على غلطات الأكابر وضلالات الأعداء المتشبهين، تقي الدّين

الهاللي، الخميس 17 جمادى 1/1347 / 29 نوفمبر 1929. (4/469-471).

يقول الإبراهيمي: "إنَّ أعظم مصيبة أصابت المسلمين - وهي جفائهم للقرآن وحرمانهم من هديه وآدابه - منشؤها من الطُّرق، فهي التي غشَّت المسلمين لأوَّل ما طاف بهم طائفها، وغشيتهم بهذه الروح الخبيثة: روح التزهيد في القرآن، وكيف لا يزهد المسلمون في القرآن وكلُّ ما فيه من فوائد وخيرات وبركات قد انتزعتها منه الطُّرق وجرّدتها منها، ووضعت في أورادها المبتدعة ورسومها المخترعة، وتخلّته شيوخها ومقدّميها وصعاليكها؟ ولماذا يُعَيِّي الناس أنفسهم في فهم القرآن وتدبره، وحمل النفس على التخلُّق بأخلاقه والوقوف عند حدوده، إذا كان كلُّ ما يناله منه مع هذا التعب يجده في الطريق عفوا بلا تعب وبلا سبب، أو بأيسر سبب. فإذا كان هذا القرآن يفيد معرفة الله وهي أعلى مطلب؛ فالقوم عارفون بالله، وإن لم يدخلوا كُتّابا، ولم يقرؤوا كُتّابا، وكلُّ من ينتسب إليهم فهو عارف بالله بمجرد الانتساب أو بمجرد اللحظة من شيخه... فكيف تبقى للقرآن قيمة في نفوس الناس من هذه الناحية بعد هذا التضييل، وكيف لا يستحكم الجفاء بين الأمة وقرآنها مع هذا التدجيل والصدّ عن سواء السبيل"⁽¹⁾.

وقد ذكر مبارك المليلي قصّة لبعض هؤلاء مع ابن باديس، حيث كان يلقي درسا في تفسير سورة الأعراف، فقام إليه أحدهم رافعا صوته بعدم جدوى دروس التفسير، طالبا درسا في «مختصر خليل»، فلم يجن من اعتراضه إلا المقت من الحاضرين. كما ذكر شبّهاتهم في هذا الباب، وما بنوا عليه كلامهم الفاسد. حتى قال قائلهم: "الرجوع إلى الكتاب والسنة ضلال وهلاك وخسارة أبدية وشقاوة سرمدية"⁽²⁾.

وبلغ الحال ببعض الطرقيين كالتيجانية مثلا إلى التزهيد في قراءته وتلاوته، فضلا عن فهمه وتفسيره، وذلك بسبب ما اخترعوا من أذكار محدثة وأوراد منكّرة، زعموا أنّ المحافظة عليها خير من تلاوة القرآن، وأنّ الصلاة على النبي ﷺ بصيغة مخصوصة تفضل القرآن بمزات⁽³⁾.

ج- زعمهم اتباع الكتاب والسنة:

وأكبر هذه الدعاوى تأسيسهم جمعية مضارة لجمعية العلماء المسلمين، سموها زورا وبهتانا

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء: ص (24-25).

(2) الشرك ومظاهره: ص (71-72).

(3) ينظر: آثار ابن باديس: (3/142-144)، آثار الإبراهيمي: (1/171)، الموسوعة التاريخية للشباب: محمد البشير

الإبراهيمي، د. عبد المالك مرتاض، ص 61.

جمعية علماء السنة - والتي لم يكتب لها الاستمرار إلا فترة قصيرة وانحل قوامها - يقول الإبراهيمي: "إنَّ الحقَّ لا يثبت بالدعوى ولكن بالدليل، وإنَّ العبرة بالمسمَّيات لا بالأسماء وبالأفعال لا بالأقوال... وإذا كان ذلك كذلك؛ فما بال أصحابنا «علماء السنَّة» يتسمَّون باسمٍ لا يلتقون مع معناه في طريق، ولا يقوم عليه شاهد من أقوالهم، ولا يُنتزع عليه دليل من أفعالهم... إنَّ هذه السنَّة المطهَّرة تأبى لنا إلا أن نسمِّيهم بأسمائهم، وأن نفضح مخازيهم، ونكشف سوائهم، وننزع عنهم هذا الثوب المستعار، ونُظهرهم للأُمَّة كما هم في الحقيقة والواقع، لا كما هم في الزعم والدعوى، ويومئذ يتبيَّن للناس أنَّ بين هؤلاء وبين السنَّة بُعد المشرقين"⁽¹⁾.

د- خلطهم بين صحيح السنَّة وضعيفها:

قال ابن باديس لما انتقد بعض من قرَّض رسالة ابن عليوة، وقد عزا حديثا إلى البخاري والترمذي وليس فيهما: "والحقيقة أنَّ إخواننا هؤلاء ما أتوا إلا من ناحية الضعف الفاشية البادية في أكثر علماء المسلمين اليوم وقبل اليوم بكثير، وهي الإعراض عن كُتب السنَّة وعدم الإطِّلاع عليها و الوقوف على المشهور منها، فضلا عن غيره، وعُرف هذا منهم حتى صار من ينسب شيئا إلى النبي ﷺ أو إلى جوامع سنته؛ لا يخشى شيئا من ناحيتهم في الردِّ عليه و تبيين حقيقة ما جاء به، بل صاروا هم أنفسهم - إلا من شاء رُئكَ - كحاطب ليل، ينقلون - إذا كتبوا - الغثَّ و السمين، لا يميِّزون بين مقبول و مردود"⁽²⁾.

هـ- استغلال عوام الناس بالتليس عليهم وأكل أموالهم:

فهذا مدرِّس يذكر حال الزوايا وأربابها في منطقته؛ فيقول: "...وعندهم قوانين يقال لها السفارة، وضعها ربُّ الزوايا، ليست من الشرع ولا تقرُّب منه وهي عندهم أعظم من الواجبات الدِّينية، وسأبيِّن لك عن تحقيق ومشاهدة ليظهر الحقُّ ويرجع الكلُّ إليه. إنَّ تلك الأحباس والأوقاف التي ذكَّرتُ؛ يسوغ للشيخ وأولاده لبس الحرير... وخواتم الذهب والفضة والسلاسل... ولا ناهي ينهى ولا زاجر يزجر، لا من الدِّين لأنَّهم هتكوه وأحلُّوا حرمته، ولا من العباد لخوفهم من أولاد الشيخ أن يضربوهم بالباطن بأن يُعموا أبصارهم أو يتعرَّضوا لهم عند

(1) آثار الإبراهيمي: (113/1-115).

(2) آثار ابن باديس (252/3).

الخاتمة، لعلمهم الظاهر والباطن وعزّتهم عند الله في اعتقادهم،... وبعض المتغالين في مدحهم وحبّهم يقولون: إنّ زناهم ليس بزنا، وشرّهم الخمر ليس بخمر بل غسل أو ماء زمزم... يشترّون من أنواع الخمور غالية الأثمان من تلك الأوقاف أو بعض الصدقات للطلبة المساكين المستعبدين المذلّولين، الذين يصبّ عليهم أرباب تلك الزوايا من أنواع العذاب ما لا يُعدّ ولا يُحصّر؛ ومن أقلّ ما نذكر من ذلك: نقل الحجارة والحطب على أعناقهم، والرمل والزيتون في حجوهرهم البالية، وكنس أرواث الدواب من الاصطبلات... وكلّ زاوية تكلف طلبتها بما شاءت من غير مبالاة، طابق حالهم أم لم يطابق، والذي لم يقبل يذهب في حال سيّله"⁽¹⁾.

يقول الإبراهيمي: "إنّ محلّ النزاع بيننا وبينكم هو هذا العامي؛ نريد أن نحرّره من استعبادكم ونُطلقه من أسركم، وتريدون أن يبقى عبداً تستغلّون خراجَه، ولا يستقيم لكم هذا منه إلا بجهله وغفلته، فأنتم تجهدون في تجهيله وتضليله... نريد لهذا العامي أن يؤمن بالله ربّا، وبالإسلام ديناً، وبالكعبة قبلة، وبالقرآن إماماً، وبمحمد ﷺ رسولا، وأن لا يرجو النفع إلا من ربّه، ولا يستدفع الضرّ إلا به، وأن لا يستعين بعد الأسباب الكسبيّة إلا بقوّته، وتريدون أن يؤمن - مع ذلك أو قبل ذلك أو بعد ذلك - بأنّكم أولياء الله وإن استبحتم الحرّيات وركبتم الحرّيات، وأن يشرككم مع الله في الدعاء أو يدعوكم من دونه، وأن يلتجئ إليكم حتى فيما هو من خصائص الألوهيّة، وأن يشدّ الرحال لبيوتكم كما يشدّها لبيت الله، فجاءهونا بالتكذيب إن استطعتم... يريدون منّا ألاّ نسَمّيهم لصوصاً؛ كلا إنّهم لصوص، ويزيدون على اللصّ العادي بوحدة - وما يزيدون بها إلا النقص - وهي أنّهم يتلصّصون باسم الدّين"⁽²⁾.

و- اتّهاماتهم الباطلة:

قال ابن باديس: "ضجّ المتعيّشون من الزوايا والطرائق من هذه الدعوة وكبر عليهم وقعها، وخافوا على رياستهم - المبنية على الجهل والخرافة - أن يتصدّع من العلم الصحيح ركنها، وعلى تلك الأقوال - التي أفقرها باغتصابها الأئمة وزاحموا أو عطّلوا مجايي الحكومة - أن ينضب معيّنُها، فأخذوا يرمون الدعوة الإصلاحية بالعظائم عند الأئمة وحكومتها، من التقوّل عليها

(1) الشهاب: (310-309/1)

(2) آثار الإبراهيمي: (117-116/1)، وينظر قصيدة الزاهري في فضح منكرات الصوفية: بعنوان إلى زعيم المصلحين،

الشهاب (735-734/2)

والتشويه لسمعتها، والتحريف لكلماتها، والتضليل عن غايتها، ويذلون كل ما لديهم من قوّة، تارة في أفانين الإفك، وأخرى في وسائل الفتك للقضاء على دعايتها..."⁽¹⁾

ز- الاعتداء على أعراض المصلحين بالثلب، وعلى أشخاصهم بالضرب.

بعض الناس إذا اعترفوا بهزيمتهم أمام حجة الخصم وأدلته، أذعنوا للحق ورجعوا إليه، وفي المقابل أناس يسلكون أساليب أخرى منحطة، كالوشاية والشتم والضرب بل ومحاولة القتل؛ وهذا ما سلكه بعض أصحاب الطريقة العلوية لما رأوا أن مجاهداتهم للنشاط الإصلاحي في مقالاتهم وتجمعاتهم لم تنجح، لجؤوا إلى الوشاية لدى الإدارة الفرنسية واستعدائها عليهم، ورفعوا عريضة إلى الحاكم العام بمدينة تلمسان، عليها توقيع 75 رجلاً منهم، ضدّ نشاط الجمعية، وخصوصاً الشيخ البشير الإبراهيمي، إضافة إلى برقية أرسلها العشعاشي رئيس الجمعية الدينية المرابطية بتلمسان إلى الحاكم العام.⁽²⁾

ولم يكتفِ الطرقيّون بسلاح الشتم والسبّ والقذف والثلب، بل لجؤوا إلى الاعتداء بالضرب. وقد شمل ذلك كلا من أحمد بوشمال⁽³⁾ والزاهري⁽⁴⁾. إلّا أنّ الحادثة التي أثارت حفيظة الجزائريين الغيورين، بل وكثيراً من أقطار العالم الإسلامي، وجادت فيها قرائح الكتاب والشعراء، مُنكرة ومُنذدة بالاعتداء. حادثة الاعتداء على الإمام ابن باديس، رئيس جمعية

(1) جريدة الشهاب: (241/4-242).

(2) ينظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، لأبي القاسم سعد الله: (61/3).

(3) الإمام المصلح، الكاتب المناضل عالم الدراسات الإسلامية، ولد بقسنطينة في 25 جانفي 1899، تعلم مبادئ القراءة والكتابة بحج سيدي جليس، وختم القرآن الكريم، تلمس نهج ابن باديس في الإصلاح التربوي والديني، وكان رفيقه في الحركة الإصلاحية، وكان مدير جريدة "المنتقد" و"الشهاب" وصاحب الإجراءات الإدارية، في 1946 انتخب عضواً في مجلس جمعية العلماء التنفيذيين، ثم أميناً للمالية، بعد إعلان الثورة وضع مطبعة الجمعية في خدمة الجبهة، اعتقل مرات، وفي مساء 13 سبتمبر 1958 تم اختطافه من بيته ليلاً، ولم يظهر له أثر بعد ذلك، وأعلن أن 20 أكتوبر 1958، تاريخ استشهاده، عن عمره يناهز 58 سنة. ينظر: "أحمد بوشمال المناضل المجاهد المثقف الشهيد"، محمد الطيب. <https://binbadis.net/archives/11612>

(4) (1317-1376هـ/1899-1956م): محمد السعيد السنوسي صحفي شاعر كاتب من رجال الحركة الإصلاحية. عرف بنقده للطريقة وهجومه على البدع، قبل أن ينقلب على الجمعية. أصدر عدة جرائد، من آثاره: "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير". اغتيل عام 1956. ينظر معجم أعلام الجزائر، نويهض، ص 157 / موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين، مجموعة من الأساتذة: إشراف رابح خدوسي، 71/2

العلماء المسلمين الجزائريين. من قبل أحد أتباع الطريقة العليوية. وذلك لما رد الشيخ ابن باديس على ابن عليوة المستغامي في مساسه بالجناب النبوية في كتابه "رسالة جواب سؤال عن سوء مقال"⁽¹⁾ فقبول بجرمة نكراء اهتزت لها قسنطينة ككل في محاولة اغتيال فاشلة.

ح- الرد على عقيدة وحدة الوجود والحلول:

قال الشيخ أحمد حماني - رحمه الله - في نقده لإحدى قصائد ابن عليوة: "هذه دعوة صريحة إلى القول بوحدة الوجود! والعبد مسبوق بعدم وهو من بعد وجود فان، خلاف ما يقول هنا...ومثل هذا الكلام لا يصح أن يُحسب من آمن به في صف الإسلام، ولهذا كُفّر علماء المسلمين القائلين بالحلول ووحدة الوجود"⁽²⁾.

وقد نشرت "الشهاب" سلسلة مقالات في ذلك بعنوان: «العليوية بالجزائر أخت القاديانية بالهند، وشبه الشيء منجذب إليه»⁽³⁾.

ط- تبرؤ المصلحين من تجاوز الحد في مجابهة الطريقة:

أنشأت الطريقة العليوية جريدة "المعيار"، حيث نفتت فيها سمومها في الرد على المصلحين باستعمال السبِّ والتَّلبُّب والشَّتْم والقذف، فأنشأ بعض الموالين للإصلاح جريدة "الجحيم" يردُّون بها على جريدة "المعيار"، واستعمل بعض كُتَّاب "الجحيم" لغة "المعيار"، فلم يَرُق ذلك علماء الجمعية، وتبرَّؤوا من الجريدتين، مع أن إحداهما تمثلهم والأخرى تحاربهم. قال الملي: "وإننا نعلن براءتنا من الجريدتين، وسخطنا على خطَّتهما، واستيائنا من لغتهما، وعدم تحمُّلنا لَتَبَعَةٍ نتائجهما، وإذا كنَّا نرى أنَّ البادئ أظلم، ونعلم أنَّ العرب تقول: «المرء مقتول بما قَتَلَ به؛ إن سيقًا فسيِّف وإن خنجرًا فخنجر» فإنَّ الشارع منع المقتصَّ من استعمال بعض الأسلحة التي يستعملها الجاني. هذا بياننا اضطررنا إلى إذاعته بروز جريدة «الجحيم»، لا أطال الله حياتها وحياة سالفتها"⁽⁴⁾.

(1) وقد قرضها كثير من كبار أهل العلم، من داخل الوطن وخارجه، ينظر: ص33-34

(2) الصراع بين السنة والبدعة: (208/1).

(3) أول هذه المقالات: العدد (97): الصادر بتاريخ الخميس 17 ذي القعدة 1345 هـ / 20 ماي 1927 م

(4) جريدة السنَّة: (5/2).

ي- موالاتهم للإدارة الفرنسية:

جاء في جريدة البصائر: "...لذلك ألفت نظر كل مسلم عليم باللسان الفرنسي وخاصة المصلحين الذين لا يعوزهم جود من يدرسون معه تلك الكتب الفرنسية المفيدة أن يطالعوا الكتاب الفرنسي المعروف باسم "الجمعيات الدينية في إفريقيا الشمالية"... فإنه يجد بهذا الكتاب وثائق تاريخية مهمة عن علائق رؤساء الطريقة بالاستعمار والمكاتبات السرية التي كان يرسل بها أولئك الشيوخ إلى رؤساء الجيش الفرنسي المحتل وإلى الحكام المحليين في مختلف الشؤون والشجون..."⁽¹⁾.

ونشرت جريدة فرنسية⁽²⁾ مقالا، تصف فيه حال الطريقة في المغرب؛ جاء فيه: "الآن فقط عرفنا أنّ أشياخ الطُرق وأبناء الزوايا هم أحباب فرنسا وخدمُها الصادقون، لأنّه لا يقع من حركة الشباب اليوم إلا أخبرونا به... ومع أنّ أشياخ الطُرق عملوا لنا أعمالا صالحة وكانوا أعانونا على الاحتلال إعانة كبرى؛ فإنّنا كنّا نحسبهم مسلمين يخلصون للإسلام أكثر ممّا يخلصون لنا، أمّا اليوم؛ فقد تبينّ لنا بالتجربة والعيان أنّهم يخلصون لنا فقط، ثمّ هم بعد ذلك لا يهتمّهم إن أخلصوا الإسلام أم كانوا له غير مخلصين".

يقول الإبراهيمي: "لا تعجب إذا كان الاستعمار لا يجد مبتغاه إلا في طائفة مخصوصة... ولكن تأسف لهذه الطائفة التي تمكّن للاستعمار أن يعث بكرامة الدّين فيستخدمها باسمه، وأن تكون لها - مع هذا - دعوى في الدّين ولو كدعوى آل حرب في زياد... عرفنا هذا من الإدارة الاستعمارية حتى ما يغالطنا فيه أحد، وعرفنا من هذه الطائفة أنّها كانت في تاريخ الاستعمار طلائع الجنوده، وأعمدة لبنوده، وشباكا لصيده، وحبائل لكيده، وأنّها كانت وما زالت في المواقف الوطنيّة والأزمات القوميّة داعية هزيمة ووسيلة تخذيل، وإنّ من المخجل أن نسّمّي أفرادها أناسيّ تعقل وتعي وتشعر، وإنّما هي آلات وأدوات تُسخّر وتُسَيّر"⁽³⁾.

"وبالرغم من كل هذه التناقضات بين الجمعية والطريقة إلى حد محاولة الاغتيال والتصفية

(1) مقال بعنوان: الطريقة والإصلاح، العدد 85 ص 2

(2) اسمها «الطان»، ولعل معناها «الوقت» من الكلمة الفرنسية «TEMPS». نقلا عن مذكرة "جهود أعلام الجمعية

في تقرير توحيد العبادة"، سليم مجوبي، ص 290.

(3) آثار الإبراهيمي: (392/3-393).

الجسدية إلا أن دعاة الإصلاح أبدوا استعدادهم للعمل معهم في كل المجالات التي تخدم الشعب والوطن والدين شريطة أن لا يكونوا آلة مسخرة في يد نواح اعتادت تسخيرهم، فكل طريقي مستقل في نفسه عن التسخير فنحن - دعاة الإصلاح - نمد يدنا له للعمل في الصالح العام، وله عقليته لا يسمع منا فيها كلمة"⁽¹⁾.

والخلاصة التي لا شك فيها أن رجال الإصلاح قد نجحوا بنجاح عظيم في مقاومة الطرق الصوفية، وإن بقيت لهم فلول لم تؤثر في الشعب الجزائري كما أثرت فيهم الجمعية. "فقد خمدت نيران أهل الزردة، وزالت عن البلاد حمى الدراويش، وتخلصت منها الجماهير بعد أن ظلت طوال خمسة قرون ترقص على دقات البنادير، وتبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والأوهام"⁽²⁾.

ومن النصوص المؤكدة لهذه الخلاصة ما اعترف به جنرال فرنسي في بعض الصحف الفرنسية سنة 1955م عن سر إخفاقه في الجزائر بعدما كلف بالقضاء على الثورة في الأوراس، فيما نجح في إخمادها في المغرب بقوله: "إنه في المغرب اعتمد على سلطة المشايخ في التأثير على الجماهير" ثم أضاف: "أما في الجزائر، فإنه لا وجود لهؤلاء المشايخ ولا سلطة لهم على الجماهير"⁽³⁾.

وهو يؤكد كذلك صدق نبوة رجال الإصلاح في البداءة بجهد الاستعمار الروحي الداخلي قبل الاستعمار المادي الخارجي.

(1) عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الإصلاح، ص 105 بتصرف.

(2) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص 28

(3) الصراع بين السنة والبدعة، 1/53-54 بتصرف، و ينظر ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي: ص 99.

المبحث الثاني:

غرس القيم وتهذيب الأخلاق.

المطلب الأول: ماهية الأخلاق وأهميتها:

1- ماهية الخلق:

أ- لغة: جمعه أخلاق، من خلق الغلام: إذا حُسُنَ خُلُقُه. ويطلق على العادة، والسجية، والطبع، والمروءة، والدين⁽¹⁾.

ب- اصطلاحاً: قال الجرجاني: "الخلق: عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سميت الهيئة: خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقاً سيئاً، وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن... من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال: خلقه الحلم"⁽²⁾.

فمن أمثلة الخلق الحسن: الأمانة، والحلم، والإيثار، وكظم الغيظ، وكف الأذى. ومن أمثلة الخلق السيئ: الكذب، والغش، والخيانة، والظلم، والحسد.

2- أهمية الأخلاق في حياة البشر:

إن مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يمكن لأي مجتمع الاستغناء عنها، لأنه الحبل الذي ينسجم به أفراد المجتمع الواحد، ومتى فقدت تفكك أفرادهم وتصارعوا وذهبت مصالحهم؛ ما أدى بهم إلى الانهيار ثم الدمار.

وإذا كانت الأخلاق ضرورة في نظر المذاهب والفلسفات الأخرى فهي في نظر الإسلام أكثر ضرورة وأهمية، لذا ترتب عليها الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة⁽³⁾.

كما أن صلاح أفعال الإنسان مرتبط بصلاح أخلاقه؛ فإذا صلح الأصل صلح الفرع، والعكس ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَإِذْ رَّبُّهُ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾

(1) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 86/10، معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار، 689/1.

(2) كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص101

(3) الأخلاق في الإسلام، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات، ص12.

الأعراف: 58. ولهذا كان منهج المصلحين في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم البداءة بإصلاح النفوس وتركيتها، وغرس القيم الفاضلة، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿١١﴾ الرعد: 11⁽¹⁾.

وإذا كان الإنسان مكوناً من جسد وروح، ظاهر وباطن، فالخلق يمثل صورته الباطنة، وهي قوام شخصية الإنسان المسلم. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ الحجرات: 13⁽²⁾.

بل إن الشريعة الإسلامية قد كملت في جانب الأخلاق، لأن من مقاصد بعثته صلى الله عليه وسلم إتمام محاسن الأخلاق لقوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»⁽³⁾.

3- الاحتلال والأخلاق:

قيل قديماً السياسة بلا أخلاق، خصوصاً من يتبع المدرسة الميكافيلية⁽⁴⁾ في الحكم، المتبنية لقاعدة الغاية تبرر الوسيلة، هذا في السياسة عموماً فكيف بالاستعمار الفرنسي النصراني على الدول الضعيفة الذي هو جزء من السياسة العالمية؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَسَ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ البقرة: 119. وهم وإن ارتقوا في الحضارة المادية لكنهم انحطوا في الحضارة الأخلاقية، وبلغوا معه في الانحلال مبلغاً متدنياً لا يحتاج معه إلى دليل.

وقد سعى الاحتلال الفكري لترسيخ مبادئه في الانحلال الأخلاقي تجاه الدول التي أحكم قبضته عليها بأساليب منها:

(1) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص 79-80

(2) موسوعة الأخلاق الإسلامية، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، 14/1 .

(3) أخرجه أحمد في المسند: 513/14، والحاكم في المستدرک: 613/2، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(4) نسبة لنيكولو ميكايلي المفكر والفيلسوف والسياسي الإيطالي في القرن السادس عشر، أول من أسس لقاعدة الغاية تبرر الوسيلة. واعتبرت الانطلاقة الأولى التي ينطلق منها كل سياسي ديكتاتوري، حيث يضعها نصب عينه ويتبناها لتبرر له الاستبداد وممارسة الطغيان والفساد الأخلاقي. والدين ضروري للحكومة لا لخدمة الفضيلة ولكن لتمكينها من السيطرة على الناس. مبرراً بأن الخوف أساسي من أجل السيطرة على الشعوب ومن لم يفعل لا يعتبر قائداً سياسياً ناجحاً.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي: 107/6 - 108

المطلب الثاني: واقع الأمة الجزائرية الأخلاقي:

تقدم أن الأمة الجزائرية قبل الاحتلال دخلها الانحطاط والانهيار في جميع مستوياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن ذلك الجانب الأخلاقي؛ فقد انتشرت مظاهر الانحلال والربا والرشوة والخمور وغيرها، حتى شاعت عند العلماء أنفسهم⁽¹⁾. وزاد الطين بلة دخول الاحتلال الفرنسي الزاعم للرفق والنهضة.

1- الفترة ما بين 1830 - 1900م:

بما أن هذه المرحلة كانت حرجة لدى الجزائريين، إذ كانت مرحلة عدم استقرار لكونها فترة احتلال أغلب المدن الجزائرية، واندلاع الثورات الشعبية فإنها لم تكن مانعا من تفشي بعض مظاهر الفساد الأخلاقية، وكيف نتصور إصلاحا ومن أهداف المحتل الفرنسي ضرب المنظومة التربوية.

حتى إن تحليل فكرة الأخلاق في نظر البرنامج الفرنسي تتماشى في الواقع مع الأفكار الماسونية التي كانت وراء الثورة الفرنسية. والعجب من هذا البرنامج أنه كان يخلط بين التربية الأخلاقية والتربية السياسية. فكان يدخل الولاء لفرنسا ضمن هذه التربية. فقد جاء في البرنامج التنصيص على توجيه التلاميذ نحو طاعة الوالدين واحترام المعلم. وهذا واضح ومعقول. ولكن تعليمهم وتعليم ذويهم الواجبات نحو فرنسا مقابل حمايتهم وتوفير العدل لهم وحفظ السلام والمصالح العامة، وكون فرنسا فعلت الخير نحوهم لأنها علمتهم ومدنتهم. كما نص البرنامج على تعليم الطفل طاعة واحترام من يحكم ويسير البلاد باسم فرنسا، بل واحترام العلم المثلث والجيش الفرنسي، وكذلك احترام القانون والسلطات على أنه شعار كل أمة متحضرة⁽²⁾.

هذا فيما يخص الجانب الفرنسي أما الجانب الجزائري فكان للمقاهي مثلاً دور في بعض الفساد الأخلاقي - كما وصفه بعض السياح والرحالة - إذ كان يرضي الرغبات الجنسية ويجلب الشباب الأوروبي الغريب عن البلاد، وخصوصاً العسكريين. وقد جيء بالنساء والولدان وآلات الطرب. واعتبر بعض الأوروبيين الذين حضروا مثل هذه الحفلات فنا منحطاً، وحكموا من

(1) ينظر مثلاً: المصدر نفسه: 404/1 - 407، 2/ 241 - 242.

(2) المصدر نفسه: 428/3 بتصرف.

خلاله، استحقاق الشعب للاحتلال وفرض حضارة جديدة عليه. علما أن الهجرة قد أفرغت المدن من عناصرها البشرية الراقية فنا وعلمًا وثروة.

وبعض المقاهي كانت تحتضن الاختلاط فكانت الفتيات ترقص على أنغام الموسيقى، و يغنين مع مطربين آخرين. وفي مقهى آخر، يستجلب صاحبه الزبائن إليه بشتى أنواع الإغراءات، حتى المنحطة منها.

فكل مقهى كان مختصا بتقديم حفلة أو موسيقى متميزة لزبائنه. مع تنافس على جلب الزبائن والتنفيس عن أحزانهم ودغدغة عواطفهم، وجمع المال من حرامه وحلاله⁽¹⁾.

و لا شك أن هذه المرحلة لم تخل من جهود لمحاربة الانحلال وبناء القيم والأخلاق، مع أن كثيرا منها لم يسجل ولم يدون، فدروس التفسير وشروح الحديث⁽²⁾ كثير منها شمل على جملة لا بأس بها من الدعوة للقيم والأخلاق الفاضلة والتحذير من الأخلاق السيئة، كما أن كثيرا من الزوايا والمدارس القرآنية التي سلمت من بطش الاحتلال ساهمت في هذا المجال بشكل كبير؛ فمن الخطأ حصر دور المدارس القرآنية في تحفيظ القرآن الكريم، بل امتد إلى التربية الدينية والأخلاقية، وهذا هو الجانب الذي لم يرد الفرنسيون انتشاره، مع سماحهم للتلميذ بحفظ حروف القرآن فقط دون فهم معانيه⁽³⁾.

كما أن هذه المرحلة لم تعدم بعض المؤلفات في نشر الأخلاق الفاضلة ومحاربة الأخلاق السيئة على قلتها، وأغلبها نابع من الطرق الصوفية المنتشرة آنذاك، مثل تأليف عبد الحفيظ الخنقي الونجلي⁽⁴⁾ لرسالة "الحكم الحفيظية"، وهي الرسالة التي شرحها المكي بن الصديق⁽⁵⁾ الذي كان مدرسا ومفتيا بجامع سيدي المبارك، ومثل: المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية:

(1) ينظر المصدر نفسه: 434 - 438

(2) وقد تقدم شيء من ذلك في جهود إصلاح العقيدة.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 47/3

(4) صوفي مناضل. عاصر ثورة الزعاطشة واحتلال بسكرة. وجاهد بسيفه، رغم علمه وكبر سنه. قيل إنه قتل الضابط سان جيرمان قبل أن يستشهد هو، أثناء معركة وادي براز قرب سيدي عقبة سنة 1849، وقيل توفي بنفطة سنة 1850. ينظر: المصدر نفسه: 127/7.

(5) (.../1311هـ=.../1898): محمد المكي بن الصديق الونجلي الخنقي، مدرس مؤلف ناظم خطيب صوفي على الطريقة الرحمانية، ترك جملة من التأليف والمنظومات. ينظر: مدونة سيدي بن عزوز:

تأليف مصطفى باش تارزي⁽¹⁾. حيث ذكر في الباب الثالث والرابع جملة من الآداب والأخلاق، واشتهرت المنظومة وشرحها بين طلبة العلم والتصوف. وقد قدم عبد الحميد بن باديس لطبعها في المطبعة الإسلامية الجزائرية⁽²⁾.

كما عرف آخر القرن التاسع عشر جهودا ظاهرة الأثر لبعض المصلحين؛ على رأسهم المصلح الكبير الشيخ عبد القادر المجاوي، منذ تصدره للتدريس بجامع الكتاني بقسنطينة سنة 1869م، ثم تعيينه بمدرسة قسنطينة فالعاصمة.

وقد "كان مسؤولو التعليم يقاومون سرا وعلانية، مستخدمين مختلف الوسائل لتمرير رسالتهم التربوية، ذلك أن التعليم ليس بالقلم والقرطاس فقط، ولكن بالمثل الأعلى والكلمات المعبرة والتوجيه القويم والنصائح الخالصة. وإذا كان الفرنسيون قادرين على مراقبة التعليم العربي الإسلامي في المساجد والزوايا والمكاتب، فإنهم لم يكونوا قادرين على مراقبة التربية والتوجيه الصالح اللذين ييئهما المعلمون في تلاميذهم. ومن هؤلاء ستكون البذرة الخيرة للنهضة والحركة الإصلاحية"⁽³⁾.

"فالسُّلطات الفرنسيّة كانت تُراقب هذا التعليم ولا تُريده أن يتجاوز مبادئ الفقه والتوحيد الموجهة للعامة، ولكن المدرّس الماهر ذا الضمير الحرّ يستطيع أن يُوصل رسالته إلى التلاميذ النبهاء والحاضرين المتطلعين"⁽⁴⁾.

ولذلك لم يقتصر الشيخ المجاوي - رحمه الله - على الدّروس النظاميّة فكان من عادته أن يختلط بطلابه خارج الدّرس لينفخ فيهم من روحه، وكانت علاقته بهم علاقة أبويّة تقوم على أساس المحبّة الخالصة والجهاد العلميّ النافع، فكان بذلك المثل للمعلّم والقُدوة والمربي.

بل دعا عبد القادر معشر المدرسين إلى وجوب دراسة علم الأخلاق والنفس في المدارس

(1) مصطفى بن عبد الرحمن بن أحمد باش تارزي: صوفي، من علماء قسنطينة، وبها نشأ وتعلّم، أخذ عن والده وغيره. من آثاره "المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية" شرح منظومة والده. فرغ منها سنة 1287هـ / 1870م. ينظر

معجم أعلام الجزائر: ص 31-32.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي: 130/7.

(3) المصدر نفسه: 20/3.

(4) المصدر نفسه: 128/3.

وذلك في سبيل إصلاح جذري لتعليم الناشئة تعليما عصريا سليما⁽¹⁾.
وقد تقدم ذكر كتابه "اللمع على نظم البدع" في شرح منظومة ابن الموهوب التي عالج فيها كثيرا من الآفات الأخلاقية.

وحتى المؤتمرات الدولية لم تخل من جهود العلماء في الدعوة إلى الأخلاق فها هو محمد بن رحال⁽²⁾ يتحدث عن الإسلام في مناسبتين قريبتين من بعضهما، الأولى عند انعقاد مؤتمر المستشرقين في باريس سنة 1897، حيث قدم مشروع كتاب بعنوان: مستقبل الإسلام، وهو بحث في حالة المسلمين والإسلام أمام هجمة الغرب والمسيحية. ثم نشره في مجلة متخصصة في العلاقات الدبلوماسية؛ حيث تحدث إلى العلماء الفرنسيين وغيرهم عن الإسلام في الجزائر، ووصف المسلمين بالتخلف التقني والتعليمي، ولكنه انتقد فرنسا والغرب على فساد الأخلاق وانتشار الخمر والزنى والمراعاة، وقد تساءل ما إذا كان المسيحي سيلجأ في النهاية إلى الإسلام كآخر ملجأ له. وكانت المناسبة الثانية سنة 1901م⁽³⁾.

2- الفترة ما بين 1900 و1954م:

عرفت هذه المرحلة زيادة على الفساد الأخلاقي المتراكم من المرحلة التي قبلها أنواعا أخرى، كانت نتيجة للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتدهورة؛ كتفشي السفور والتبرج، والقمار والورق، وبيوت الدعارة والاختلاط، وغيرها. وفي نفس الوقت عرفت جهودا أخرى في التصدي لهذا الفساد الأخلاقي بنشر الأخلاق الفاضلة ومحاربة الأخلاق السيئة، بدءا بالتركيز على أهمية الأخلاق، لأن "الذي يُوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر. وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله"⁽⁴⁾.

وزيادة على هذا الاهتمام الذي تجسد في الدروس والشروح وجدت بعض التأليف الخاصة

(1) الشيخ عبد القادر الجاوي: دعوة عبد القادر الجاوي إلى دعوة أصلية وعصرية، عبد المجيد بن عدة، ص 43.

(2) العلامة سي أحمد بن رحال الندرومي 1273 - 1345هـ / 1857 - 1928م: ولد بمدينة ندرومة. رجل علم ودين، وهو قايد ونائب مالي، وهو مؤلف وباحث وأديب، ووطني وسياسي. أول جزائري حاز على شهادة البكالوريا عام 1874م. وكانت جهوده فردية. ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي: 123/6-126.

(3) ينظر المصدر نفسه: 427/6، و167/7.

(4) آثار ابن باديس: 339/1.

بالأخلاق، مثل كتاب في الأخلاق للمولود الزريبي: وكان قد شرع في تأليف هذا الكتاب وقد نشر منه فصولا في جريدة (الصديق) التي كان الزريبي يشرف عليها، علما أن كثيرا منها لم يطبع أو لم يصل إلينا، مثل: كتاب شعب الإيمان: الذي وضعه محمد البشير الإبراهيمي، وهو في موضوع الأخلاق والفضائل الإسلامية، وكتاب بغية الطلاب في علم الآداب: تأليف الرزقي الشرفاوي⁽¹⁾.

إضافة على ذلك انفتح الجزائريون -على تنوع مشاربهم- على ميدان الصحافة، ويمكن الحكم أن جميع التوجهات الجزائرية رغم اختلاف بعضها جذريا قد شاركت في غرس القيم وتهذيب الأخلاق عموما، بما في ذلك الإصلاحيون، والمحافظون، والأحرار، والموظفون الرسميون؛ لاتفاقهم في هذه المسألة على أصولها، وإن اختلفوا في بعض جزئياتها.

ويتضح ذلك بضرب أمثلة لكل واحدة منها:

أ- الإصلاحيون

اهتم رواد الإصلاح وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين في بث الأخلاق والفضائل بين الناس بجميع الوسائل من خطب ودروس ومقالات وأدب وشعر وغيرها، فهذا هو الشيخ الزواوي موضوعات الخطبة عنده تدور حول الأمراض الاجتماعية والجهل وفساد الأخلاق وفساد التربية والتعليم، والحاجة إلى الإصلاح⁽²⁾.

وها هو محمد العابد يصدر تقويمه (تقويم الأخلاق) في فاتح 1927 (1345 هـ)، وقد طبعه في المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة. وكان دافعه في إصدار التقويم هو المساهمة في النهضة المباركة. وكان المخطط أن يصدره سنويا، ويضمه أنواعا من الفوائد وفنونا من الأدب وأولها الأخلاق التي اعتبرها عماد النهضة عند الشعوب. ولذلك أطلق على مشروعه اسم (تقويم الأخلاق)⁽³⁾.

أما عن المقالات فحدث عنها ولا حرج، فهي كثيرة ومتنوعة مبثوثة في جميع الجرائد. وقد جاء في القانون الأساسي للجمعية التنصيص: "على أنها تهديدية إرشادية وأنها تحارب

(1) ينظر هذه الكتب: تاريخ الجزائر الثقافي: 181/7

(2) ينظر: الشيخ أبو يعلى الزواوي مصلحا ومجددا، ص 44.

(3) ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق: 297/5.

الآفات الاجتماعية وكل ما يحرمه صريح الشرع"⁽¹⁾. وجاء في كثير من بنود أصولها الدعوة إلى الأخلاق والفضائل.

ب- الموظفون الرسميون:

من أبرز الموظفين لدى الإدارة الفرنسية ممن كان يملك قلما سيالا وفكرا نيرا وصُنّف من العلماء الأدباء مفتي الحنفية بالجزائر العاصمة الشيخ محمد العاصمي⁽²⁾، حيث كان يكتب المقالات الصحفية ويستنهض الهمم في العشرينات والثلاثينات. ومن مشاركاته في نشر الأخلاق أنه كان يعرض لبعض الآيات ويفسرها تفسيرا ملخصا موجزا بعبارات بسيطة كأنها موجهة للعامة وللمبتدئين، ومعظمها في معاني دينية وأخلاقية. وشارك أيضا بمقالاته في تقويم المنصور وفي تقويم الأخلاق⁽³⁾.

من ذلك مقالة في (الأخلاق والآداب الإسلامية) للعاصمي نشرها محمد العابد الجلالي⁽⁴⁾ صاحب كتاب تقويم الأخلاق، "وهي في أخلاق العرب في الجاهلية والإسلام مع جولة في التراث والمجتمع المعاصر، وأمثلة ومقارنات بالأخلاق الغربية. ورغم أنه لا وجود لاسم الجزائر فيها فإن كل المؤشرات تدل على أن الكاتب (العاصمي) كان يعني قومه. ومن جوانب هذه المقالة الحديث عن الفلسفة والأخلاق عند القدماء والنفس وأنواعها... الغضبية والبهيمية، ثم عند العرب والمسلمين، وعند الغربيين"⁽⁵⁾.

(1) آثار ابن باديس: 563/3

(2) : محمد العاصمي: 1307-1372هـ / 1888-1951م: له اشتغال بالصحافة، ولد ببلاد القبائل، وتعلم بزاوية الهامل، عين مفتيا حنفيا 1944م، كان من أعضاء جمعية العلماء المسلمين، ثم انقلب عليها حين أصدر مجلة المسجد لسان حال رجال الدين الرسميين، توفي بحادث سيارة بالعاصمة. معجم أعلام الجزائر: ص212

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي 27/7، ويضيف أبو القاسم أنه انحرف إلى خدمة أغراض غير وطنية. ولم يبق على ذلك التيار الفكري بعد أن أصبح من الموظفين الرسميين. وكان يشرف على تحرير جريدة أسبوعية (الرشاد) وهي من الجرائد المضادة للإصلاح.

(4) محمد العابد الجلالي: 1308-1387هـ / 1890-1967م: ولد بأولاد جلال، من أوائل كتاب القصة في الجزائر، له اهتمام بالصحافة، اشتغل بالتدريس في مدارس جمعية العلماء المسلمين أكثر من ثلث قرن، صاحب جريدة أبو العجائب، من آثاره: تقويم الأخلاق، الأناشيد المدرسية، ومقالات صحفية. ينظر: معجم أعلام الجزائر: ص115

(5) تاريخ الجزائر الثقافي: 71/8

ج- الطرق الصوفية:

لقد كان للفكر الصوفي في الجزائر قدم راسخة، وله طرقه المتعددة، وكانت تعبر عنها جرائد متنوعة؛ ومن بين هذه الطرق الطريقة العليوية التي تعتبر من أشهر الطرق الصوفية نفوذاً، ورغم عدائها المعروف تجاه الفكر الإصلاحى، إلا أنها كانت لها جرائد؛ مثل جريدة "لسان الدين"⁽¹⁾ كثير من "مقالاتها جاء مكرساً لوصف الحالة الدينية في المجتمع الجزائري والتنديد بالفوضى الأخلاقية التي أصبحت سائدة بعد الحرب العالمية الأولى، ودعوة الناس إلى التمسك بالقيم الإسلامية وفهمها فهما صحيحاً"⁽²⁾.

د- الأحرار:

من الرجال الأحرار الذين كان لهم ظهور بارز على الساحة الجزائرية في مجالات مختلفة فضلاً عن الدفاع عن الدين والأخلاق الثائر الوطني عمر راسم الذي انتقد الأوضاع الاجتماعية بالكلمة والصورة، وخصوصاً في جريدته "ذو الفقار" التي كانت مقالاتها اجتماعية دينية حارة اللهجة؛ هاجمت فيها الأغنياء الاحتكاريين، وحملت على أنانيتهم وانتفاعيتهم على حساب شعبهم، ودعت في سبيل القضاء على هذه الروح المتخاذلة إلى البذل والتعاون والتراحم في مقابل الاشتراكية العلمية⁽³⁾.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره أبو القاسم أنه جاء "في افتتاحية العدد الثالث من جريدته (ذو الفقار) التي عنوانها (بالإسلام والمسلمين) عبارات مفعمة بالثورة على الوضع العام الذي عليه المسلمون الجزائريون وغيرهم. وفي لهجة خطابية ساخنة تساءل كيف يكون المسلم مسلماً في بلاد مساجدها خالية من المصلين، بينما شوارعها مملوءة باللصوص والسفلة، بلاد انتشر فيها الربا والسلب والجفاء بين أهلها، وانعدم فيها الإحسان، وكثر فيها تقليد الكافرين (الفرنسيين). ودعا راسم إلى نبذ الكسل والخمول والتوكل على الغير، وإلى التخلص بالفضيلة. وقال إننا إذا لم نعرف الأسباب التي أدت بالأمّة العربية إلى القوة والسؤدد، اندثرنا. وفي نظره أن تلك الأسباب

(1) جريدة دينية سياسية إخبارية أسبوعية صدرت في أول جانفي 1923 بالجزائر بتحرير مصطفى حافظ، تتكلم بلسان الزاوية العليوية، توقفت في نفس السنة ثم ظهرت بين 1937 و1939م. ينظر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، د. محمد بن صالح ناصر، ص 57.

(2) المرجع نفسه، ص 57، راجع مثلاً: مقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، العدد 40، ص 1.

(3) المرجع نفسه، ص 45.

لا تخرج عن مكارم الأخلاق وأحسن الصفات. ثم طلب من الله أن يجري في عروقنا دم السلف"⁽¹⁾.

ومن العلماء البارزين الذين كانت لهم بصمات نيرة في التاريخ الجزائري، وإصلاحات عديدة الشيخ أبو اليقظان، ومن ذلك لمساته في الإصلاح الأخلاقي، حيث يظهر ذلك واضحا من خلال جريدته "وادي ميزاب"؛ التي "حاربت الآفات الاجتماعية من فسق وخمر وقمار وتسكع وتهتك، وقاومت الأخلاق المنحرفة ولا سيما ذات الطابع الانفرادي والذاتي مثل الأنانية، وتفضيل المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، والإعجاب بالنفس، وطغيان التفكير المادي واللامبالاة"⁽²⁾.

إلا أن الفارق في هذه الجهود المبذولة هو مصدر هذه الأخلاق، فالجانب الصوفي يعتبر التصوف مصدرا من مصادر نشر الأخلاق والدين، وهذا ما يتنافى مع مبادئ الإصلاحيين الذين يعتبرون القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان في الحركة الإصلاحية⁽³⁾.

والسؤال المهم: هل يمكن أن نحكم بأن الأمة الجزائرية في هذه الفترة قد مسخت هويتها الأخلاقية؟ والجواب: أنه رغم كل مظاهر الفساد والانحلال التي وقع فيها بعض أبناء الجزائر، فإنها لم تمثل إلا فئة قليلة لا تمثل السواد الأعظم الذي حافظ على سلامة عقيدته وصفاء فطرته، وهذا في ظل الجهود الاستعمارية الجبارة في محاولة مسح الأمة أخلاقيا، في مقابل جهود علمائنا الأجلاء المحدودة التي كانت حجر عثرة في وجه هؤلاء، وموعول هدم لكثير من هذا الفساد.

ف« الجزائر بدلا من أن تموت، انتفضت حية، وبدلا من أن تنهار، تماسكت وتجمعت وأعلنت عن وجودها، وبدلا من أن تبتلعها الصليبية، وقفت شوكة في حلق الصليبية، ولم يعرف بلد آخر في الشرق أو في الغرب ما عرفته الجزائر من أساليب الصليبية حتى الأندلس وحتى فلسطين لم تعرفا هذه الأساليب، لقد امتدت هذه الأساليب إلى تفتيت التماسك العنصري والعائلي، وامتدت إلى تخليط الأنساب وتخطيط الأخلاق، امتدت إلى إزالة الصبغة العربية والصبغة الدينية، وتم هذا في غفلة من العالم الإسلامي والأمة العربية في القرن الماضي، وكانت الجزائر وحدها في الميدان فلم يكن بجوارها أحد كما هو الحال الآن»⁽⁴⁾.

(1) تاريخ الجزائر الثقافي: 289/5.

(2) الصحف العربية الجزائرية، ص 76.

(3) ينظر: الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي على نهج جمعية علماء المسلمين الجزائريين

1931 - 1944، د. إبراهيم مهديد، ص 34.

(4) مذكرات خير الدين، 402/1.

المبحث الثالث: تعليم الفقه و تصحيحه والتصدي للفتاوى

وفي هذا المبحث سيتم تناول موضوع الفقه وقسيمه الذي هو موضوع الفتوى؛ فأما الفقه فيُدرس فيه وضع الفقه قبل الاحتلال، ثم السياسة الفرنسية نحو الفقه الإسلامي، وبعدها تذكر جهود علمائنا في خدمة الفقه فترة الاحتلال، وأما الفتوى فيدرس فيها مكانة الفتوى وخطر استغلالها من طرف الاحتلال في غير بابها، ثم أصناف المفتين وجهود كل صنف في ذلك.

المطلب الأول: خدمة الفقه وتصحيحه

1- وضع الفقه الإسلامي قبل الاحتلال:

ارتبط الشمال الإفريقي بالمذهب المالكي منذ قرون عديدة، وفيه تكونت المدرسة المغاربية بسماتها وخصائصها التي تميزت عن قريناتها الحجازية والمصرية والعراقية. ومن تأمل تراث فقهاء الجزائر في هذه المرحلة وجد أنهم قد أخذوا بحظ وافر في خدمة الفقه المالكي وتنميته أصولا وفروعا وتأليفًا، مما حذى بالمتأخرين منهم اعتماد البعض منها في الفتوى والاجتهاد كالمعيار المعرب للونشريسي، وشرح ابن مرزوق التلمساني على مختصر خليل بن إسحاق، والدرر الكامنة في نوازل مازونة للمازوني⁽¹⁾.

هذا وقد كان للمذهب المالكي متونه وشروحه، والمشهور منها: موطأ مالك، والمدونة لسحنون، وتحفة الحكام لابن عاصم، ومختصر ابن الحاجب، والرسالة للقيرواني؛ لكن المعتمد عندهم بأخرة هو مختصر خليل بن إسحاق الذي شاع في القرن 12هـ⁽²⁾.

وإلى جانب الفقه المالكي كان هناك المذهب الحنفي والإباضي؛ فأما الحنفي فقد انتشر بمحيي العثمانيين؛ حيث أنشئ في عهدهم هيئة الإفتاء الحنفية، التي كانت تعتبر أعلى سلطة بعد الحاكم، مما كان لها دور في بروز علماء وأعيان الفتوى الحنفية خصوصًا، وتميز إنتاجها العلمي بكونه تطبيقيا أكثر منه نظريا، وكان لها مجلس شرعي يتولى الفصل في القضاء والنوازل الكبرى وتتعبق فيه أحكام القضاة ويسمع فيه إلى المتظلمين، ومركزه الجامع الأعظم؛ وكان

(1) ينظر: مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جهود فقهاء الجزائر في خدمة الفقه المالكي، د. ماحي قندوز،

العدد السابع، ص 56.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 4/528-529.

من مهام المفتي مسؤولية تعيين القضاة وعزلهم والإشراف على المدارس وإصدار الفتاوى⁽¹⁾.
وأما المذهب الإباضي فقد كان مستقلاً؛ إذ كان بينهم اتفاق مع السلطة ينص على عدم تدخلها في شؤون المجتمع الإباضي مقابل الولاء⁽²⁾.

2- السياسة الفرنسية نحو الفقه الإسلامي:

بدخول الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر دخل الإسلام فيها تحت النفوذ الفرنسي، وكانت مما سعت إليه إقصاء المذهب الحنفي لأنه يمثل العثمانيين، لذا أضعفت من مكانة المفتي والقاضي الحنفي بخلاف الإباضي. أما المذهب المالكي فمع تضيق الخناق عليه هو كذلك إلا أن الإدارة الفرنسية قد اعتمدته لأنه مذهب الغالبية من السكان؛ وكان مختصر خليل هو المقرر في المدارس الرسمية والمحاكم، وتسابق المستشرقون إلى ترجمته والتعريف به.

وفيما يتعلق بسياسة الإدارة الفرنسية تجاه المجال الفقهي، فقد سلكت عدة أساليب منها:
- نفي العلماء واضطهادهم وقتلهم ومحاولة تدجين الباقي: ومن أوائل ما فعلته الإدارة الفرنسية هو نفي شيخ الإسلام محمد بن العنابي وإلغاء منصب شيخ الإسلام عام 1830، ومنذ ذلك العهد لم يصبح للديانة مرجع رسمي، بل أصبح كل إمام أو مفت مستقلاً عن كل هيئة وإدارة إلا الإدارة الفرنسية، لكنهم أبقوا على منصب المفتي⁽³⁾.

- التدخل في تدريس الفقه واستغلال المدرسين: منعت الإدارة الفرنسية بعض أبواب الفقه في الدروس والخطب والفتاوى لعلمها أنها قد تؤجج مشاعر الجزائريين نحو الثورة، أو تخالف المبادئ التي تحاول ترسيخها في المجتمع الجزائري، مثل أبواب الجهاد وغيره.

وكان المصدر الوحيد لتخريج القضاة والفقهاء هو المدارس الثلاث التي أنشئت عام 1850، وكان ذا مستوى ضعيف ثقافياً ودينياً، وأما الذين تكونوا بمستوى عال خارج هذه المدارس فحاولت الإدارة الفرنسية استيعابهم وإدماجهم في أغلب الأحيان أمثال: المجاوي،

(1) ينظر: المذهب الحنفي ومشيخة الإسلام الحنفية في الجزائر من فتح شمال إفريقيا إلى غاية الاستقلال، فارس زاهر، مجلة جامعة إرجيس كلية الإلهيات، ص 973، 982.

(2) ينظر: علاقة رجال الإفتاء بمحيطهم في الجزائر خلال العهد العثماني، د. محمد لعباسي، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد: 21، ص 540.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 4/350 - 351.

وعاشور الخنقي⁽¹⁾، وابن المهنا⁽²⁾.

ومع نقص العلماء وتدجينهم وضعف المستوى العلمي، فضلا عن الغزو الثقافي والتعسفات السياسية الأخرى، كان الطابع العام هو تجرد الدراسات الفقهية؛ مما حدا بالجزائريين التخلي عن الهيئة الدينية الرسمية التي لم تكن تخرج عن الحدود المرسومة لها، وتحويل الوجهة نحو المرابطين المقاومين، وبعض الطرق الصوفية⁽³⁾.

- التفريق بين المذاهب: مما سعت إليه الإدارة الفرنسية كذلك، الضرب بين المذاهب بسل سلاح التفريق بينها، فحاولوا التفريق بين المذهب المالكي والحنفي، ولما لم يفلحوا حاولوا التفريق بين المالكية والإباضية، فنصبوا الحماية على أهل ميزاب دون التدخل في شؤونهم وتسهيل بعض أمورهم⁽⁴⁾.

3- جهود العلماء في خدمة الفقه من 1830 إلى 1954:

مع أن الأوضاع التي سادت البلاد بعد الاحتلال كانت سببا قويا في ضعف المستوى الفقهي؛ نظرا للسياسة الفرنسية المتبعة وضعف الثقافة الدينية وعدم الاستقرار المعيشي، إلا أن الجزائر لم تعد رصيда معتبرا من التأليف في المجال الفقهي، وإن كان الطابع العام عليها أنها مسائل تعلقت بأبواب ومسائل جزئية، ولا شك أن الشروح الفقهية المسموعة كانت أكثر وأوسع من التأليف، فقد كان اهتمام أغلب المساجد والزوايا والمدارس التعليمية بالفقه أكثر منه بغيره من العلوم؛ خاصة المتون المشهورة كمختصر خليل.

وإذا كان يستحيل حصر إسهامات فقهاء الجزائر في خدمة الفقه فترة الاحتلال⁽⁵⁾،

(1) (1264 - 1348هـ / 1848 - 1929م): عاشور بن محمد بن عبيد بن محمد المسعودي، الهلالي النسب، الخنقي: بحاث، من العلماء، عرف بالهجاء، ولد في "حنقة سيدي ناجي"، ونشأ بقسنطينة، وتعلم بها وبنفطة. نفي إلى الأغواط لأكثر من 15 سنة. من آثاره "منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف" رد فيه على صالح بن مهنا. مات بقسنطينة. معجم أعلام الجزائر، ص136. بتصرف

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 76/7

(3) ينظر: المصدر نفسه، 4/529-530

(4) ينظر: المصدر نفسه، 6/303.

(5) لأن كثيرا منها لم يسجل ولم يدون كـ بعض الشروح المسموعة، أو نخب وسلب بفعل الاحتلال أو ضاع بفعل الإهمال، أو أنه لا يزال مخطوطا؛ وهذا النوع الأخير منه أعداد لا بأس بها داخل وخارج الوطن تنتظر رفع الحجب عنها لتخرج إلى النور، وتثري المكتبة الجزائرية ويستفيد منها اللاحقون. وينظر مثلا العمل الجليل المتمثل في موسوعة ذاكرة الجزائر

- فلا بأس بذكر نماذج لبعض الأنواع والأبواب الفقهية⁽¹⁾ اكتفاء ببعض عن الكل.
- وأول الأنواع ذكرها هي الكتب الفقهية الشاملة لجميع أو أغلب أبواب الفقه⁽²⁾:
- شرح كتاب النيل وشفاء الغليل للثميني شرحه محمد بن يوسف أطفيش - الذي كان المرجع لأهل ميزاب في الشؤون الدينية -، وهو في الفقه الإباضي، وهو عمل ضخم يقع في 12 جزء. واعتمد رسميا في المحاكم كمرجع في الفقه الإباضي عام 1886، لاتساعه وشموله ووضوحه. وألف الكتاب لما كانت ميزاب تحت الحماية الفرنسية.
- كما أن الشيخ أطفيش كانت له تآليف فقهية أخرى منها:
- الذهب الخالص، جامع الوضع والحاشية، حي على الفلاح، شامل الأصل والفرع - وهو في باب الطهارة والصلاة -.
- كما وضع للطلبة شرح الدعائم، وأساس الطاعات⁽³⁾.
- حاشية على شرح إبراهيم الشيرخيتي على مختصر خليل لعمار الغربي المعروف بأبي راشد القسنطيني⁽⁴⁾.
- شرح نظم خليفة بن حسن القماري لمثن الشيخ خليل، للمكي بن الصديق الحنفي⁽⁵⁾.
- ما يتعلق ببعض المسائل الجزئية:

التي تضمنت أعمالا كثيرة من تراث الجزائر.

- (1) أغلب هذه المؤلفات ذكرها أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثقافي، وعدد منها مطبوع ضمن مجموعة ذاكرة الجزائر.
- (2) مما يناسب هذا المقام التنويه ببعض جهود حمدان خوجة الذي عرف بمساهماته الجلية في مجال الإصلاح والجهاد والتعليم وغيرها، وله إسهامات أخرى في مجال العلوم، ومن ذلك الفقه الحنفي؛ فقد كتب: "إمداد الفتاح" وهو ترجمة لكتاب "نور الإيضاح ونجاة الأرواح" للشيخ حسين الشرنبلالي من العربية إلى التركية. ولم يُذكر في صلب الموضوع لأنه باللغة التركية وكتب بعد نفيه من الجزائر واستقراره باستنبول.
- كما ذكر الأستاذ سليمان صيد في فصل مؤلفات الشيخ صالح المهنا كتاب: مختصر الترغيب والترهيب على ترتيب أبواب سيدي خليل. صالح بن مهنا القسنطيني: حياته وآثاره، ص 171.
- (3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 78/7، 86-88.
- (4) تولى الفتوى بقسنطينة قبل احتلالها، (ت: 1835م).
- (5) وهو مخطوط، وقد وهم أبو القاسم سعد الله فجعله شارحا لمثن الشيخ خليل، وعده حيا أوائل القرن العشرين.
- والصحيح أنه توفي عام 1311هـ. ينظر: موقع مدونة سيدي بن عزوز:

ما يتعلق بعلم الفقه والفقهاء:

- رسالة في معنى الدين والفقه، لمحمد بن خوجة.

ما يتعلق بالموطأ:

- مقدمة موطأ الإمام مالك رضي الله عنه، للشيخ محمد بن علي السنوسي⁽¹⁾.

ما يتعلق بالطهارة:

- رسالة في أحكام المياه البادية، للشيخ العمالي⁽²⁾.

- منظومات الطاهر العبيدي السوفي، منها:

- منظومة في ستر العورة، وزادها تحلية وخدمة، تقرّظ الشيخ ابن باديس، والشيخ الديسي.

- منظومة في الحيض والنفاس وأحكامهما.

- منظومة في التيمم.

وله في غير الطهارة، مثل: مناسك الحج والعمرة، السلاح والعدة في مهمات أحكام المعتدة، رسالة عن الشيخ الدردير.

ما يتعلق بالصلاة:

- نور الإثمد في سنة وضع اليد على اليد لأحمد عليوة صاحب الطريقة العليوية.

- الحسام الريق في حلق من أنكر الجمعة في بلدة سيق، للمنور بن بشير.

- المحلى⁽³⁾ في مشروعية الخروج إلى المصلى، للشيخ حسن بن أبي لحبال اليدري.

- الدعاء على إثر الصلاة الجماعية ورفع اليدين ومسح الوجه، للشيخ طعيوج⁽⁴⁾، في سبع صفحات.

ما يتعلق برمضان:

(1) طبع بجمع وتحقيق: د. نجيب بن خبزة.

(2) سيأتي الكلام عنه عند الحديث عن المفتين الرسميين.

(3) ضبطه أبو القاسم سعد الله بالجيم المعجمة، وضبطه المحقق عبد الرحمن ذويب في مجموعة ذاكرة الجزائر بالحاء المهملة، وأما الشيخ بولحبال فستأني ترجمته.

(4) ذكر أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثقافي أنه كان يحتفل كل سنة إثر ختمه تدريس مختصر خليل، ت: 1932م.

- رسالة هلال رمضان، للرزقي الشرفاوي.
- حسن العوم في بحر مسائل الصوم، للطاهر العبيدي.
- ما يتعلق بالزكاة:**
- حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام للبشير الإبراهيمي.
- ما يتعلق بالحج:**
- رسالة حول الحج: قرير المقام وتيسير المرام إلى حفظ حال الحجاج من سفرة وأيتام، للقاضي شعيب الجليلي.
- ما يتعلق بالبيع:**
- الربا في الشريعة الإسلامية وعواقبها العملية، وهي رسالة دكتوراه، لابن علي الفخار عام 1908م، وله كذلك رسالة بعنوان: القراض في الشريعة الإسلامية.
- اهتزاز الأطواد والربى من مسألة تحليل الربا، للشيخ عبد الحليم بن سماية.
- ما يتعلق بالنكاح والطلاق:**
- الزواج بالريبة، للشرفاوي⁽¹⁾.
- الحجج المسلمة في حكم من طلق امرأته ثلاثاً في كلمة، للشيخ سيدي محمد العربي بن قشوط.
- ما يتعلق بالأطعمة:**
- ذبائح أهل الكتاب، لأبي يعلى الزواوي.
- ما يتعلق بالجهاد:**
- حسام الدين لقطع شبه المرتدين، للأمير عبد القادر.
- ما يتعلق بالفرائض:**
- القول الراجح بالعمل المصيب في الفرائض والكسور والجبر والوصايا بالنصيب، لابن الموفق الصالح بن عبد القادر القسنطيني.
- جلاء الران وتنوير الجنان فيما أشكل من طرق الميراث على الإخوان، لقدور بن

(1) وله مجموعة من المقالات بالبصائر حول هلال رمضان، والأعياد الدينية. ينظر: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، د. يحي بوعزيز، ص314.

سليمان المستغامي⁽¹⁾.

- ممن عرف بإتقانه هذا الفن، وكانت له فيه إسهامات جيدة: العربي بن حمدان، حيث كانت له أسانيد في الفرائض، ونسخ كتاب المقرب المستوفى في شرح فرائض الحوفي، وجعله وقفا، كما كشف عن مصادر علم الفرائض المتبقية لدى علماء الجزائر غداة الاحتلال منها: فرائض الشيخ خليل بن إسحاق، قرأها على ابن الشاهد. شرح على الدرة البيضاء، للقاضي شعيب الجليلي.

المسائل العامرية على مختصر الرحبية، لإبراهيم بن محمد الساسي العوامر⁽²⁾.

أبواب متفرقة:

- كتاب تحفة الخليل في حل مشكلة من مختصر خليل⁽³⁾، للشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن السلطاني الزيتوني⁽⁴⁾، (ت: 1958م)، وقد قرظها كل من الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ الصالح بن العابد القسنطيني⁽⁵⁾.

- شفاء الصدور في مسألتى الشكور، للشيخ محمد المختار بالعمش، (ت: 1870م)، متعلقة بالصلاة على النبي ﷺ.

- العرف في منطقة تلمسان، لأبي بكر عبد السلام ابن القاضي شعيب.

- أحكام الخنثى، لمحمد بن علي الونيسي، (ت: 1845م).

- أنفس درة في مسألة الهجرة، للشيخ محمد بن محمد الديسي.

(1) شاذلي ثم تجاني، له تأليف عدة، ت: 1904م، ينظر: تعريف الخلف: 323/2.

(2) وفيما يخص مؤلفاته الخاصة في هذا الفن يقول أبو القاسم: "وربما ترك ابن حمدان تأليفا في الفرائض لم يصلنا، لأن حبه لهذا العلم وإتقانه له تجعلنا مطمئنين إلى أنه ألف فيه". تاريخ الجزائر الثقافي، 7/ 287.

(3) وصفها ابن باديس بقوله: "رسالة جلت الحساب الخفي المعقد باللفظ السهل الواضح...وهي مسألة استعصت على كثير من الأفهام وطاشت من أيدي رماثها السهام". مقدمة الكتاب، 49/4-50.

(4) الفقيه النحوي اللغوي الأصولي، ولد عام 1896 بقرية لبير ولاية باتنة، ابتدأ تعليمه على يد والده، وتلمذ على ابن باديس، قصد تونس وتحصل على شهادة التطويع من الزيتونة 1924، اشتغل بالتدريس بين تونس والجزائر، وبعد تدهور صحته توفي بالكاف عام 1958. من آثاره: فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك، تاريخ الكاهنة، ومجموعة قصائد. مجموعة ذاكرة الجزائر: تحفة الخليل في حل مشكلة من مختصر خليل، 4/14.

(5) الشيخ الصالح بن سعد بن العابد الهلالي، ولد سنة 1875، بقسنطينة وبها نشأ وتعلم، ثم التحق بالمدرسة الثعالبية بالعاصمة، درس بعناية، ثم قسنطينة إلى أن وافته المنية، 1934. حاشية مجموعة ذاكرة الجزائر: تحفة الخليل، 4/51.

وقد أسلفنا أن هذه المؤلفات إنما هي إشارة إلى بعضها⁽¹⁾.

أ- بعض سمات الفقه الإصلاحية:

من المناسب بعد ذكر شيء من إسهامات الفقهاء الجزائريين في مجال التأليف عموماً، أن يسלט الضوء على طبيعة الفقه فترة الحركة الإصلاحية، لما تميزت به هذه الأخيرة عن غيرها من الحركات والفترات، بالتركيز على أمور مهمة، كالتعليم وتجديد الدين ومحاربة الآفات الاجتماعية.

ومعلوم أن هذه الفترة عرفت رجوع عدد من أساطين العلم الذين تعددت مشاربهم الفقهية والاجتهادية والتعليمية؛ مما كان لهم أثر واضح على الساحة العلمية والعملية، مع الإشارة أنها لم تترك ذاك الموروث الفقهي الكبير بحيث يعتبر مرجعاً في الفقه، لكنها تركت بصمات على الفقه الإسلامي التي تعتبر جهوداً مميزة في خدمة الفقه الجزائري، وكثير من هذه البصمات قد سطرت في الصحف والمجلات، وأبرز هذه الصحف صحف جمعية العلماء المسلمين؛ التي برز اعتناؤها بالتجديد والإصلاح واضحاً في أغلب الميادين، فقد كان لها ركن دائم للفقه والفتوى، وكان لأعضائها فتاوى واجتهادات، ومراسلات فقهية بينهم وبين بعض علماء عصرهم، أمثال الشيخ الطاهر بن عاشور، بل كانوا يستفتون في قضايا مصيرية خارج القطر الجزائري؛ كمسألة الخروج على ملك المغرب وغيرها.

ومن هذه الجهود:

1- الرد على المفتين الزائفين:

إن كلا من العالم والفقهاء والمفتي له مكانة جليلة من الاحترام والتقدير بين المسلمين في ربوع العالم الإسلامي، ذلك لأنه يعتبر جنداً من جنود الشريعة، ومورداً من موارد العلم يستقي منه الجاهل والمتعلم، هذا إذا كان عالماً عاملاً، مخلصاً مصلحاً، هادياً مهدياً، فإذا زاغ عن هذا الحد، وباع الدين بالدنيا، واستعبدته المصالح والشهوات، وشغلته الأموال والأولاد؛ كان عندهم أشد من قاطع الطريق، والفاجر، والفاسق، وكان داء لا دواء، وللأسف فإن هذا الوصف قد

(1) إن المتأمل والمستقرئ لما كتب حول جهود علماء الجزائر في خدمة الفقه عموماً، يجد المدة المدروسة تكاد تنحصر بين الفتح الإسلامي وآخر العهد العثماني، أي أنه يتوقف عند الاحتلال الفرنسي، وهذا يدل على مؤشرات منها: ضعف وقلة التأليف في هذه الفترة، صعوبة دراسة هذه الفترة، احتياج هذه الفترة إلى دراسة شاملة وعميقة.

انطبق على زمرة من الأئمة والمفتين والموظفين الرسميين الذين أذا بهم الاستعمار الفرنسي في سياسته، وأصبحوا أحد أدواته في هدم كيان الجزائر⁽¹⁾.

لذا قام في وجههم العلماء والمصلحون، ورأوا أن من تمام الحفاظ على هذا الدين والوطن؛ هو بيان زيفهم وفضحهم، ومن ذلك تطهير أحكامهم وفتاويهم والرد عليها.

وفي هذا يقول الإبراهيمي: "الأمة تطالب بفصل الدين عن الحكومة، ولسانها في ذلك جمعية العلماء، والمطلب حق، ولا مفر للحكومة منه، والحكومة لا تريد أن تنفض يدها من المساجد وأوقافها ورجالها، فكيف العمل؟ العمل هو جمع هذا الجند من المفتين والأئمة والمؤذنين ورجال الزوايا وإعدادهم لوقت الحاجة فإما أن يبقى ما كان على ما كان، وإما أن تسلم المساجد والأوقاف لهم، لأن هذا أيضا لا يخرج عن إبقاء ما كان على ما كان"⁽²⁾.

وإذا أردنا أن نضرب مثالا واقعيا، فما أحسن المقال المعنون بـ: "في بيت الإفتاء"⁽³⁾، حيث تكلم صاحبه عن مفتي تلمسان الذي وقع في أمرين عظيمين؛ أولهما تحكمه في رؤية الهلال مخالفا بذلك باقي المدن، وجميع الجرائد التي اتفقت كلمتها على دخول الشهر، وثانيهما منعه المساجد من أن تقام فيها شعائر الله حيث أصدر أمره بغلق المساجد، حتى هبت الأمة التلمسانية، ودفعت نوابها ضد الشيخ المفتي في سبيل حرية الدين والمساجد، وكان مما ختم به قوله: "ولم يتفق المسلمون جميعا في تلمسان على شيء قط مثلما اتفقوا ضد فضيلة الشيخ المفتي، وضد ما اقترف من السعي في خراب مساجد الله"⁽⁴⁾.

وهذا السعي وإن لم يكن من الفقه لكنه تطهير للفقه وحماية له.

2- الدعوة إلى تجديد الفقه:

مرت الأمة الإسلامية بمرحلة ارتفعت فيها دعاوى بغلق باب الاجتهاد ما أدى إلى الجمود والتعصب، وجنح الفقهاء إلى التقليد الذي غطى حكم ومقاصد الشريعة، وحل الابتداع محل الاجتهاد والإبداع؛ ولم تسلم الأمة الجزائرية فترة الاحتلال من هذا المرض، مما

(1) وهذا لا يعني أن كل من تقلد الوظيفة الفرنسي كان عميلا لهم، وبحثنا هذا يتضمن مواقف كثيرة تثبت ذلك.

(2) آثار الإبراهيمي، 395/3.

(3) الشهاب: عدد 139، الخميس 23 رمضان 1346م 15 مارس 1928، ص 9.

(4) المرجع نفسه، وينظر مثالا آخر في هذا الموضوع مقال الإبراهيمي في رده على الشيخ الطاهر بن عاشور في فتوى قراءة القرآن على الأموات: أشيخ الإسلام هو أم شيخ المسلمين، البصائر، 1 ربيع الأول 1355م 22 ماي 1936.

حذا بالمصلحين إلى الوقوف ضد هذا الداء بالدعوة إلى تجديده وتمحيصه وطرح سقيمه. فها هو الإمام عبد الحميد بن باديس يدعو إلى الاجتهاد، ويرفض الجمود في مقاله المعنون بـ: "أساس الإصلاح إصلاح التعليم"، وذلك حين تعرض لشكوى الإمام ابن العربي الأندلسي من فقهاء زمانه، من الجمود والتقليد، وعدوهم عن النظر والاستدلال. حيث ختم مقاله بقوله: " فإذا كان الحال هكذا من تلك الأيام في تلك الديار وقد مضت عليه القرون في هذه البلاد وغيرها فإن قلعه عسير، والرجوع بالتعليم إلى التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالمآخذ والأدلة أعسر وأعسر، غير أن ذلك لا يمنعنا من السعي والعمل بصدق الرجاء وقوة الأمل، وسننفذه في دروسنا هذا العام والله المستعان "(1).

وأما الفقيه أبو يعلى الزواوي فقد دعا في مناسبات عدة إلى الإصلاح والتجديد في الفقه بأساليب متنوعة، من ذلك قوله: " والمعنى المراد أن أساليب التعليم عندنا غير مستحسنة إذا كان الواجب خلاف ما ذكرت، فليكن المعلمون عارفين عالمين بالأصول والمقاصد الإسلامية، وليلقنوا التلاميذ أولاً فأولاً، ولا يأمرهم بالقراءة فقط ويتركهم وغايتهم الحفظ فقط "(2).

ومن تتبع أساليبهم وجد الشيء الكثير لكن القصد التمثيل.

3- التحذير من العصبية المذهبية:

لقد كان التمدد الفقهى طريقة من طرائق التعليم، ووسيلة من وسائل حفظ أصول وفروع الأئمة الأعلام، لكن لما تخللت هذه العصبية العمياء؛ فرقت بين المسلمين، وجعلت كلام غير المعصوم أصلاً، وكلام الله ورسوله فرعاً.

فكان من الدعوة إلى الحفاظ على رونق الفقه التحذير من هذه العصبية البغيضة، وهو ما نبه عليه دعاة الإصلاح في مقالاتهم وفتاويهم، وفي هذا يقول الإبراهيمي، بعد أن تكلم عن براءة التمدد من تفريق صف المسلمين، وخطر العصبية المذهبية وشورها: " وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية، وكان لها أسوأ الأثر في تفريق

(1) آثار ابن باديس، 222/3

(2) البصائر: إلى الإصلاح، عدد 12، الجمعة 4 محرم 1355 / 27 مارس 1936، ص 7.

وللتوسع في هذا الباب، ينظر: مبحث تجديد الفقه عند الزواوي، ضمن مذكرة: الشيخ أبو يعلى الزواوي وجهوده في الفقه والأصول، للباحث: بوبكر صديقي.

كلمة المسلمين، وإنّ في وجه التاريخ الإسلامي منها لندوبًا. أما آثارها في العلوم الإسلامية فإنها لم تمدّها إلّا بنوع سخيّف من الجدل المكابر لا يسمّن ولا يغني من جوع، ولا عاصم من شرور هذه العصبية إلّا صرف الناشئة إلى تعليم فقهي يستند على الاستقلال في الاستدلال، وإعدادها لبلوغ مراتب الكمال، وعدم التحجير عليها في استخدام مواهبها إلى أقصى حد⁽¹⁾.

وفي طرائق تعليم الفقه التي تنمي ملكة الاستدلال وتقضي على التعصب، يقرر ابن باديس أنه "يجب أن يقتصر فيه على تقرير المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى بهم إلى ذكر بعض أدلتها، وعلى أصول الفقه مسائل مجردة، ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية لتحصل لهم من هذا ومن ذكر أدلة المسائل الفقهية كما تقدم ملكة النظر والاستدلال"⁽²⁾.

وهذا فيه درء للخلاف بين العلماء من جهة، وبين العلماء والعامّة من جهة أخرى. بل كان من فقهه رحمه الله، أنه كان عندما يؤلف للمثقفين يأتي لاختياره بأدلة من الكتاب والسنة، مستشهدا بأقوال الفقهاء، وقد يجتهد فيرجح في المسألة وفق أصول مالك. وعندما يكتب لغيرهم من العوام والمقلدين، فإنه يورد الحكم مجردا عن دليله وعلته إلّا حيث يستدعي الحال التدليل أو التعليل، كما هو الحال مع المستفتين. أما عموم الناس من متعلمين وأنصاف متعلمين وعوام؛ فإنه يلتزم ذكر قول الفقيه المالكي في متن من المتون المشهورة لديهم، ويثني بالدليل مع ذكر مأخذه وأصله، ولا يفعل ذلك إلّا مجازاة لطامة عموم التقليد، والتحجير في وسط متديني عصره⁽³⁾.

وهذا المنهج واضح في تلاميذه الذين غرس فيهم هذا المبدأ الفقهي.

4- تعليل الفقه:

إن أساس الفقه هو الفهم والاستدلال والاستنباط، فإذا توقف عند الحفظ دون الفهم، وإلى تكرار المعلومات مع البعد عن إدراك الأبعاد والدلالات، خرج الفقه عن رونقه وبهائه، وهو ما سلكه أصحاب الجمود والتقليد، خلافا لما سلكه دعاة الإصلاح؛ من الدعوة إلى

(1) آثار الإبراهيمي، 1/165 - 166.

(2) آثار ابن باديس، 3/182.

(3) مجلة الموافقات: عدد 6، خصائص الفقه الباديي، محمد عيسى، ص 542 بتصرف.

تطبيق المنهج التعليلي للفقهاء الإسلامي المستخلص من روح الشريعة الإسلامية السمحاء المبنية على ربط الأحكام بالحكم والعلل والأسباب حتى لا تؤخذ الأحكام الفقهية على شكل مسلمات لا تعرف عللها وأسبابها⁽¹⁾.

وكان هذا المنهج واضحاً في منهج ابن باديس أثناء دروسه وشروحه وكتاباتة⁽²⁾. ومن الأمثلة الواضحة عن التعليل من خلال العنوان فضلاً عن المضمون؛ ما كتبه الشيخ أبو يعلى الزواوي تحت عنوان: "سر تعدد الزوجات" حين رد على دعاوى النصارى ومن ناوهم، حيث قال: "ولكم حاولت إقناع بعض المتفرنجين وغير المتفرنجين بلزوم تعدد الزوجات وصلاحه ديناً ودنياً، وأن فيه خيراً كثيراً من جميع الوجوه فأبوا أن يدركوا مقصدي الشرعي، حتى ظننت أن لا نور لهم يقبلون به حججي الدامغة"⁽³⁾. والمقارن بين كتابات الإصلاحيين الفقهية وكتابات أصحاب الجمود، يلاحظ الفرق جلياً في اعتماد هذا المنهج التعليلي.

ب- آثارهم الفقهية:

أما آثارهم الفقهية فتتنوع بين المسموع والمكتوب، أما المسموع فكان من خلال الدروس والشروح، وكان الاحتفاء بختم الكتب شرحاً وفقهاً له سمته البارزة آنذاك، وما أحسن الاحتفاء والاحتفال الذي عقب ختم الموطأ بالجامع الأخضر بقسنطينة بعد صلاة العشاء لشارحه الإمام الهمام عبد الحميد بن باديس حيث تقاطرت الوفود من كل حذب وصوب لحضور هذا الختم، الذي وصفه أحدهم بأنه "كان درساً جامعاً بين الأنس السار بالتدريس الراقي واليأس المؤلم من تكرار هذا الأنس أمام غير ذلك الأستاذ، ثم الأسف لعدم التقيد لتلك الجواهر التي لا تجدها في غير ذلك الدرس، ولقد أصبحنا نعتقد في الموطأ أنه ما زال بكراً لم

(1) ينظر المصدر نفسه، ص 548.

(2) ينظر مثلاً: الشهاب: الصلاة لأوقاتها، 1 ذي القعدة 1345 / مارس 1931.

(3) الشهاب: مجلد 7، ج 5، 1 محرم 1350 / ماي 1931، ص 313.

إن الجهود النوعية في خدمة الفقه المالكي كثيرة جداً، لا تنحصر فيما ذكرنا؛ فمن ذلك: تقديم الأخذ بنصوص الكتاب والسنة على كل رأي، عدم التقيد بالمذهب المالكي عند الترجيح، الاهتمام بالمسائل الواقعية دون الافتراضية، التنوع في المصادر العلمية والمذهبية لدراسة المسائل الفقهية، ربط الأحكام الفقهية بدليلها، إلى غير ذلك.

يشرح ولا أستطيع أن أقنع بذلك من لم يحضر درس الأستاذ⁽¹⁾.

أما الاهتمام بإقراء مختصر خليل فهو قديم، واستمر إلى فترة الاحتلال -ولا يزال في عصرنا هذا-، وكان من مظاهر ذلك عقد المجالس لتدريسه وشرح ألفاظه، وفهم معانيه⁽²⁾؛ من ذلك جهد الشيخ الرزقي الشرفاوي الأزهري الذي أقرأ المختصر واختار له شرح الخرشبي، لتقريب مبانيه وتبسيط معانيه، بعد رجوعه من مصر عام 1933م. وعلى إثر ختم هذا المختصر أقيم حفل علمي بل تاريخي اكتظت فيه رحاب زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بالطلبة والعلماء، ألقى فيها الشيخ الشرفاوي خطبة علمية هادفة بليغة، وارتحل بعده الأستاذ أحمد بن الشيخ محمد سعيد البسكري، وكان ذلك يوم الأحد 14 ربيع الثاني 1357هـ⁽³⁾. ومن العلماء الذين ذكر مترجموه أنه أقرأ المختصر أكثر من مرة بالمسجد الكبير، الشيخ محمد شارف⁽⁴⁾.

أما الشيخ مصطفى بن عبد القادر بن فريجة⁽⁵⁾ فقد وُصف بأنه أعطي مالا فأتلفه في وجه الله، وأعطي علما فبثه بين الناس، فجمع بين التعليم والإنفاق، فدرّس في المسجد وفي بيته

(1) البصائر: ختم الموطأ، عدد 171، الجمعة 1 جمادى الأولى 1358 / 23 جوان 1936، ص2.

(2) ذكر محقق كتاب تحفة الخليل عبد الرحمن ذويب نبذة من عناية أهل الجزائر بهذا المختصر تأليفا وإقراء، فأما التأليف فذكر نموذجين لكنهما قبل فترة الاحتلال، وأما ميدان الإقراء فذكر بعض النماذج فترة الاحتلال. ينظر: 7/4 - 12. ومن لطيف ما نقله في الملاحق، مقال بعنوان: فقهاء الزاوية وختم مختصر خليل، لأبي يعلى الزواوي، ذكر فيه أن ختم خليل للكتاب بمسائل الخنثى التي فيها ألفاظ فاحشة غير مناسبة للعوام أثناء الجمع الغفير، فالأولى الختم بباب الوصية أو الشهادة والقضاء، لأن قوله ليس قرآنا لا يقبل التقديم أو التأخير. وهذا من فقهه رحمه الله. ينظر: 77/4.

(3) ينظر: البصائر: احتفال علمي، عدد: 121، الجمعة 10 جمادى الأولى 1357هـ / جويلية 1938م، ص 5 / مجموعة ذاكرة الجزائر، تحفة الخليل، 9/4 - 10 / أعلام الفكر والثقافة، ص314.

(4) مجموعة ذاكرة الجزائر، تحفة الخليل، 11/4.

أما ترجمة الشيخ محمد: (1325هـ - 1432 / 1908م - 2011): ولد بمدينة مليانة، من أسرة مشهورة بالتدوين والعلم، ثم رحل إلى العاصمة، لطلب العلم عام 1932م، جُند إجباريا، ووقع أسيرا للجيش الألماني بفرنسا وعاد من الأسر إلى الجزائر عام 1945م، عُيّن مؤدّنا، ثم إماما بجامع "سيدي رمضان"، ثم إماما بالجامع الكبير إلى الاستقلال. مارس التدريس والخطابة إلى أن أحيل على التقاعد 1987م. وبقي يدرّس إلى أن أفضّعه المرض.

ينظر: "من أعلام الجزائر: الشيخ محمد شارف رحمه الله"، عبد الحليم توميّات:

<https://web.archive.org/web/20201207113016>

(5) توفي حوالي 1930 عن 95 سنة.

بغريس مختصر خليل، وكان ينفق على طلبته من ماله، ظل على ذلك نحو ثلاثين عاما، ثم انتقل إلى تغنيف وتولى الإمامة والخطابة عشرين عاما⁽¹⁾.

وحق الشيخان عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي كان لهما عناية بإقراء هذا المختصر، فأما عبد الحميد بن باديس، فكان من بين دروسه العلمية الفقهية المقررة بالجامع الأخضر: مختصر خليل وغيره⁽²⁾.

وأما البشير الإبراهيمي، فقد كتب إلى رفيق له في الطلب: "وأنا متكبد بملازمة الدرس إلى أول الشتاء بعد الشروع في قراءة المختصر... وقد أبطنا هذه الأيام القراءة لأجل المرض، بعدما وقفنا على أحكام الدماء من الإجارة..."⁽³⁾.

ومن المجالات الأخرى في الاعتناء بهذا التراث، الاعتماد عليه في مجال الفتوى والاستدلال، وكتب الفقهاء الجزائريين طافحة بذلك، فضلا عن نصوص شراحه وحواشيه. بل نقلوا هذا الحب والاهتمام إلى طلبتهم، حيث نجد أن كثيرا من طلبة المدارس والمساجد والزوايا، قد أتقنوا حفظه عن ظهر قلب.

فإقراء مختصر خليل ما هو إلا جزء من أجزاء كثيرة مثل شيئا من إسهامات علمائنا الأماجد في خدمة الفقه الإسلامي.

وأما المكتوب فأغلبه تقاسمته الصحف والمجلات، وكان الطابع العام عليه هو البث في أحكام جزئية متنوعة مثل الصلاة وأوقاتها، وتعدد الجمعة، وصلاة العيدين، والزكاة، والصيام ورؤية الهلال، والحج، والأسرة، والحجاب، والخلو بالأجنبية، وذباح أهل الكتاب، وكراء الأرض، وغيرها.

علما أن البث في المسائل الفقهية الجزئية لم يقتصر على دعاة الإصلاح بل كان مشتركا بين جميع فقهاء الجزائر؛ سواء كانوا من الجانب الصوفي⁽⁴⁾، أو من الموظفين والمفتين الرسميين⁽⁵⁾،

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 123/3

(2) ينظر: آثار ابن باديس: 195/3

(3) ينظر: مجلة الموافقات، رسالة خاصة إلى محمد السعيد الهلالي، ص 762.

(4) ينظر مثلا: جريدة البلاغ، ولسان الدين.

(5) ينظر مثلا: جريدة كوكب إفريقيا، مجلة صوت المسجد.

أو من الأحرار وغيرهم⁽¹⁾.

ولعل أهم البصمات الفقهية التي تركتها جمعية العلماء المسلمين، ما استنتجه أحد الباحثين⁽²⁾ من أن ابن باديس ورفقائه أمثال الإبراهيمي وأبي اليقظان، وحتى بعض تلاميذه أمثال الشيخ أحمد حماني، قد أوجدوا مدرسة فقهية باديسية بالمعنى الاصطلاحي للمدارس الفقهية التي لها أسسها ومبادئها وغاياتها، ولها أتباع ومؤلفات، لكنها مدرسة تحتاج إلى تجلية جهودها، وإظهار مكانتها، لنفض الغبار عن تراث تاريخي جزائري عظيم، تناساه المتقدمون، وتجاهله المتأخرون⁽³⁾.

وإذا كان الكلام على جمعية العلماء المسلمين كهيئة ضمت فقهاء وعلماء⁽⁴⁾ كانت لها بصمة خاصة على الفقه الإسلامي الجزائري، فإنه من المناسب الإشارة إلى علم بارز وفقه المعني عرفته الجمعية؛ بله الجزائر، ألا وهو الشيخ العربي التبسي فإلى جانب توليه الإدارة، والتدريس، والإشراف على جريدة البصائر، تولى رئاسة لجنة الإفتاء بالجمعية، التي كان لها أهلا، وحسب شهادة تلامذته ومعاصريه من العلماء والمصلحين، فقد كان فقيه الجزائر بلا منازع، وتعتبر شهادة صديقه الأستاذ توفيق المدني دليلا على علمه الغزير ومكانته الفقهية، وذلك حين ذكره بقوله: "كان الشيخ العربي بطلا من أبطال الجزائر والإسلام، وكان مجاهدا ومثالا حيا للنضال الإسلامي الخالص النزيه، لم يكن له طمع في الدنيا على الإطلاق، وكان لا يقصد في جهاده إلا وجه الله ونفع المجتمع وإخراج الوطن من الظلمات إلى النور، وكان

(1) ينظر مثالا: جريدة الفاروق، وادي ميزاب.

(2) وهو د. محمد عيسى، ذكر ذلك في المرجع السابق: خصائص الفقه الباديسي، ص 557-559.

(3) قد يقال إن المدرسة الفقهية لا تكون مدرسة حتى تعرف برصيدا من التأليف الفقهية الشاملة؛ تأصيلا وتفريعا، متنا وشرحا وتحشية، وهذا ما يعزّ في المدرسة الباديسية مقارنة بغيرها، ولعل الجواب أن يقال بأن ما خلفته المدرسة الباديسية من أسس ومبادئ وغايات، وأتباع وزاد فقهي؛ كاف في عدها مدرسة فقهية مستقلة، لكن الإنصاف أن لا يعني ذلك أنها في مصاف المدارس الفقهية الكبرى أمثال المدرسة العراقية والمصرية التي دام تأسيسها قرونا، وأنتجت ثروة فقهية كبيرة لا تزال بعض مراجعها معتمدة إلى عصرنا هذا، بخلاف المدرسة الباديسية؛ والعذر أنها مدرسة تأسست في فترة عصيبة اهتمت بالتجديد والإصلاح عن التأليف والإفصاح، وتأليف الرجال عن تأليف الكتاب.

(4) من هؤلاء الفقهاء الذين عرفتهم الجمعية، والذين تصدروا للفتوى: عبد الحميد بن باديس، البشير الإبراهيمي، المبارك الملي، الطيب العقبي، أبو يعلى الزواوي، سعيد صالح، وغيرهم.

علما غزير العلم سيما في الفقه الإسلامي، وكان راوية لفقه مالك، ولا أرى أن هناك في العالم العربي من يجاريه في هذا المضممار"⁽¹⁾.

كما أشاد تلميذه أحمد بن ذياب بفقهه وعلمه الغزير، حيث قال: "كما أنه في الدروس التي تتصل بالقرآن، وتفسير محكم آياته، وتأويل المتشابهات منه، عالم فحل، ومجتهد له آراؤه الساطعة، وتخريجاته القيمة، ونظرياته العبقريّة. أما الفقه في الحلال والحرام وما اتصل بهما فحدث عن البحر ولا حرج"⁽²⁾.

وانطلاقا من هذه الشهادات تبرز قيمة الشيخ العربي التبسي الذي تميز بخصائص منها:

- مرجعيته العلمية في الداخل والخارج.
- غزارته العلمية في مختلف العلوم.
- اعتماده على المذهب المالكي، مع تفتحه على باقي المذاهب الفقهية، دون تعصب.
- مكانته لدى أعضاء الجمعية عموما، والشيخين ابن باديس والإبراهيمي خصوصا⁽³⁾.

ج- أثر المرجعية الفقهية على الأمة الجزائرية:

وأخيرا رغم كل المحاولات التي سعى إليها المحتل الفرنسي بشتى الأساليب لمسح ومسح الهوية الجزائرية، فإن الفقيه الجزائري كان له دور فعال في الحفاظ على هوية الشعب الجزائري، سواء كان متعصبا أو متفتحا، وسواء كان مقلدا مرجعيته المختصرات والحواشي، أو كان مجتهدا يربط الأمة بالدليل والمصلحة الشرعية⁽⁴⁾؛ فإن ذلك كله جمع الشعب الجزائري على أحكام في العبادات والمعاملات والعقود لا تخرج عن دين الإسلام، وفي نفس الوقت تخالف دين الاحتلال، بل وتؤزّه على التمسك بشريعة الإسلام. فوالله لجزائري واحد مقلد متعصب

(1) نقلا عن "الشيخ العربي التبسي"، خالد أقيس، ص 106.

(2) مجلة الأصالة: العربي التبسي والنهضة العلمية بالجزائر، العدد 8، ربيع 2 وجمادى 1 1392هـ/ ماي وجوان 1972م، ص 266. ومما نقله صاحب "مذكرة الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي مصلحا" بعد هذه العبارة: "ولك أن تطالع فتاويه وتخريجاته ورخصه الفقهية التي كان يسأل فيها عامة الناس وخاصتهم، أو التي كان ينبري إلى التعرض لها كقضية التحنيس بالجنسية الفرنسية..."، ولم أظفر بهذه العبارة في مجلة الأصالة.

(3) أطروحة دكتوراه: الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي مصلحا، أحمد عيساوي، ص 149.

(4) ينظر: جهود فقهاء الجزائر في خدمة الفقه المالكي، د. ماحي قندوز، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية،

لفقه مالك، خير من ألف جزائري متفرنس منسلخ عن الحضارة الغربية لا يؤمن بوجود أمة جزائرية.

المطلب الثاني: خدمة الفتوى

تمهيد:

لما كانت منزلة الإفتاء منزلة عظيمة الخطر جليلة القدر، وصاحبها موقع عن رب العالمين، نص عدد من الفقهاء والأصوليين أنه لا فرق بين المفتي والمجتهد⁽¹⁾، وأن المفتي أعلى منزلة من الفقيه؛ فالإفتاء: يعرف بأنه إخبار عن حكم شرعي عن دليل لمن سأل عنه من غير إلزام⁽²⁾. وعن منصب الإفتاء ومكانته يقول ابن القيم: "ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق؛ فيكون عالما بما يبلغ صادقا فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضي السيرة، عدلا في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله؛ وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟ فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يُعد له عدته، وأن يتأهب له أهبته، وأن يعلم قدر المقام الذي أقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به"⁽³⁾.

وكيف لا يكون المفتي بهذه المنزلة، وأقواله قد تُخرج المرء من الإسلام أو تدخله فيه، وقد تبطل صلاته وصومه وحجه، وقد تفرق بينه وبين زوجته، وقد تأمر بقتله، أو بقتال سلطانه وحاكمه؛ فهي تشمل جميع شؤونه في دينه ودنياه. والفتوى قد تكون دواء وقد تكون ثباتا وقد تكون سلاحا وقد تكون غير ذلك.

ولأجل هذه المكانة والمنزلة للفتوى، وإبرازا لجهود علمائنا الجزائريين في هذا

(1) والصحيح أن بينهما فروقا، منها: أن الإفتاء يكون في الحكم الظني والقطعي، أما الاجتهاد فيكون في الظني/ يشترط في الفتوى مراعاة الواقع وحال المستفتي والقرائن بخلاف الاجتهاد/ يشترط وقوع السؤال من المستفتي أو وقوع المسألة المستفتى عنها بخلاف الاجتهاد. ينظر: الفتوى: أهميتها، ضوابطها، آثارها، د. محمد يسري إبراهيم، ص 63.

(2) المرجع نفسه، ص 30.

(3) إعلام الموقعين عن رب العالمين، 1/ 8-9.

الميدان؛ كان الأنسب فصل جهود علمائنا في الفتوى عن جهودهم في الفقه.

فالفرنسيون أنفسهم أدركوا خطر الفتوى فترة الاحتلال، وأنه سلاح ذو حدين، وأثره مخدر لأهل الإسلام، لذا كانت لهم خطط وسياسات إزاءه أول ما دخلوا أرض الجزائر؛ إذ قضاوا على منصب شيخ الإسلام وتحكموا في منصب الإفتاء، ونصبوا بعض الجزائريين الذين يأتزمون بأمرهم وينتهون بنهيهم ولا يحيدون عن مصلحة المحتل الفرنسي، ولو على حساب الإسلام وأهله.

بل وصل خبثهم ومكرهم أن دسوا جاسوسا متنكرا بزي الإسلام واسمه ليون روش الفرنسي⁽¹⁾، كُلف بمهمة تضعف من القوة الحربية للأمير عبد القادر، وتفت في عزيمة الجهاد عند المسلمين، باستعمال سلاح الفتوى، فقامت السلطات الفرنسية باتفاق مع بعض مقدمي الطرق الصوفية -على رأسها التجانية- بصياغة فتوى شرعية تبيح لمسلمي الجزائر العيش تحت الحكم الفرنسي المسيحي مع الدعوة إلى ترك الجهاد الذي يُعد حينئذ إلقاء النفس إلى التهلكة، فرشحوا روش للقيام بهذه المهمة مع تغطية له من بعض أصحاب الطرق الصوفية، وذلك بعرضها على المراكز الدينية المسموعة الكلمة عند المسلمين مثل القيروان والأزهر والحرمين، وكسب الموافقة منها، وكان ذلك عام 1841م⁽²⁾.

بعد هذا المدخل سنتعرض في هذا المبحث إلى أنواع المفتين في عهد المحتل الفرنسي مع الإشارة إلى بعض جهود كل صنف منهم:

والمحلل لأحوال أصحاب الفتوى يجدهم صنفين؛ صنف تابع للإدارة الفرنسية، وهم المعروفون بالمفتين الرسميين، وصنف مستقل عنها، وهذا الأخير يمكن تقسيمه إلى قسمين: قسم المفتين الأحرار باعتبارهم أفرادا سواء كانوا من أصحاب النزعة الصوفية، أو الإباضية، أو التوجه الإصلاحية، وقسم المفتين الأحرار باعتبارهم هيئة جماعية مستقلة، لها لجناتها وأعضاؤها وبنودها؛ والمتمثلة في جمعية العلماء المسلمين؛ فيكون التقسيم ثلاثيا.

(1) ادعى الإسلام والتحق بخدمة الأمير عبد القادر وأصبح أحد مقربيه وكتبه الخواص، وتسمى بعمر بن عبد الله، ولما توترت العلاقة بين فرنسا والأمير عام 1939 هرب روش ورجع إلى قومه.

(2) ينظر: مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ترجمة وتقديم: محمد خير محمود البقاعي، ص21.

1- المفتون الرسميون:

رغم السياسة التي انتهجتها الإدارة الفرنسية لإقصاء المذهب الحنفي، وإلغاء منصب شيخ الإسلام، وإضعاف الدين الإسلامي عموماً، إلا أنها استمرت في تعيين المفتي الحنفي والمالكي، خاصة في المدن الرئيسية كالعاصمة وقسنطينة ووهران.

ومن المهام التي كان يتولاها المفتي أنه كان يدير الجامع الرئيسي، ويؤدي صلاة الجمعة ويعلم التوحيد ويصدر الفتوى، وزيادة على ما سبق يراقب الإمام والحزب⁽¹⁾ والمؤذن وغيرهم من موظفي المسجد. كما يلقي الدروس الدينية في المسجد خلال شهر رمضان، ويستقبل الزوار للرد على فتاويهم، وهو الذي يباشر صلاة الاستسقاء. ومع هذا فإن سلطته ودائرة تصرفه كانت محدودة؛ وهذا المنصب الحساس كانت السلطة الفرنسية هي التي تختار من يتولاه من بين المتعلمين الذين يخدمون القضية الفرنسية⁽²⁾.

وهذا لا يعني أن كل من تقلد هذا المنصب كان على شاكلة واحدة؛ فاقدا للأهلية والهوية الوطنية، مدهانا للحكومة الفرنسية، بل نجد بعض المفتين ممن اتسم بوصف العالم العامل استطاع أن يوفق بين مكانة الإفتاء، ومنصب الوظيفة لدى الإدارة الفرنسية.

وفي هذا يقول عبد الرحمن ذويب في ترجمة الشيخ البوعبدلي بعد أن ذكر مساوئ الموظفين الرسميين: «هذه حقيقة لكن يجب أن تقف بجانب حقيقة أخرى، وهي أنه لا ينبغي أن نعمّم هذا الحكم على جميع من تولى هذه الوظائف في تلك الحقبة من الزمن، أولاً لأننا وجدنا كثيراً ممن لا يساورنا أدنى شك في إثبات عدالتهم ونزاهتهم، وإخلاصهم لدينهم ولوطنهم قد تولى الوظيفة في تلك المرحلة، ثم إن الأنظار والأفهام متفاوتة في الحكم على الأشياء التي تتحقق بها المصلحة العامة، فلا لوم على من استقر رأيه وكان مبلغ علمه أنه بسلوكه سبيل التوظيف في هذا السلك أنه سيخدم به دينه ووطنه وقومه»⁽³⁾.

وفيما يلي نماذج لبعض المفتين الرسميين الجزائريين الذين تولوا منصب الإفتاء وكانت لهم

(1) وهم الذين يقرؤون القرآن في المسجد أو أجزاء منه حيث يجتمعون كل شهر.

(2) ينظر: مجلة الإنسانيات، عدد 23-24، «حسن بولحبال مفتي وهران»، ص 29-46.

(3) ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي، مرجع سابق، ص 76-77.

بصمات فترة الاحتلال ما بين: 1830 - 1954م⁽¹⁾:

أ- مصطفى بن الكبابطي: (1189 - 1277هـ/ 1775 - 1860م)

من فقهاء المالكية، الذين كان لهم اشتغال بالسياسة، ومساهمات شعرية، تولى التدريس والقضاء قبل الاحتلال، وبعد الاحتلال بسنة، ونفي ابن العنابي، عين في منصب المفتي، وبقي فيه إلى نفيه عام 1843م، وكان أهلا لهذا المنصب إذ جمع بين المعقول والمنقول، وتتلמד على عدة مشايخ تولوا منصب الإفتاء، واشتهر برواية أحاديث الصحاح. وفي فترة توليه منصب الإفتاء كان واسطة بين الإدارة الفرنسية وبين الأهالي، يتراسل معهم في كل ما يتعلق بمهمته، وكان لا يقبل من مقترحاتهم وتدخلاتهم إلا ما لا يمس القيم المتوارثة وتعاليم الشريعة ومصالح المسلمين؛ فما رآه من القرارات متماشيا مع التعاليم الدينية قبله وحاول إقناع غيره بقبوله، ومارآه مخالفا للتعاليم الدينية رفضه وحاول إقناع غيره برفضه، وهنا بدأ التصادم بين الطرفين. ولما استولت السلطة الفرنسية على الأوقاف، واتبعته بقرار إلزام تعليم أبناء الجزائريين اللغة الفرنسية داخل المدارس القرآنية، وتحت يد معلم فرنسي؛ وقف المفتي موقف المعارض الحازم ضد هذه القرارات، لأنه رأى فيها جورا وتعديا على حرمة الدين ورجاله، وعلى لغة القرآن والكرامة الثقافية، ولما كانت المسألة ترجع إلى صاحب القوة والسلطة؛ حكم الفرنسيون بعزل المفتي وسجنه ثم نفيه من الجزائر، حيث رحل إلى مصر ولحق بزميله ابن العنابي، وبها توفي⁽²⁾. هذه بعض المحطات النيرة المختصرة التي أثرت عن الشيخ الكبابطي، ولا شك أنها أكثر وأوسع من ذلك⁽³⁾.

(1) الحقيقة أن النماذج كثيرة وذكر المميزين منهم يثقل البحث، لذا اجتهدت في انتقاء بضع الشخصيات من عشرات الأعلام، وحاولت ذكر أبرز الشخصيات مع التنويع بين العمالات الثلاث العاصمة، قسنطينة، ووهران، وكذلك مراعاة التنويع في الفترة الزمنية للاحتلال، مع عدم إغفال المذهب الحنفي.

(2) ينظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، 11/2 وما بعدها/ معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 273.

(3) يقول المهدي البوعبدلي: "وإن حظي محمد بن محمود الحنفي بدراسات قيمة، فإن أمنيته أن يعتني بعض الباحثين بحياة مصطفى القباطي الذي وإن لم يوظف رسميا بالإسكندرية، فإنه كان من خدمة العلم خصوصا رواية الحديث إلى أن أدركه المنون بما سنة 1268هـ". ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي، قسم التراجم، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، ص 69.

ب- حميدة بن محمد العمالي: (1227 - 1290هـ / 1812 - 1873م)

العمالي نسبة إلى جبل عمّال القريب من العاصمة، قاض، محدث، حافظ، من أكابر فقهاء المالكية، تتلمذ على مشايخ كبار، أمثال الكبابطي، وابن الشاهد، ومحمد أوعزيز، وله إجازات كثيرة في كتب الحديث، تولى القضاء سنة 1849، ثم الفتوى سنة 1856، انتصب للتدريس بالجامع الكبير، وكان متمكنا من عدة علوم. وصف بأنه شيخ الجماعة قبل ظهور الشيخ المجاوي، لأنه تخرج على يديه طلاب أصبحوا ذوي مكانة وشهرة أمثال حسن بن بريهمات، ومحمد بن عيسى، ومحمد بن العطار، وبعضهم ممن تولى الإفتاء أمثال علي بن عبد الرحمن، ومحمد بن زاكور، وعلي الفخار. كما ترك ابنا سار على نهجه العلمي، كانت له مساهمة في الإمامة والتدريس والفقهاء؛ وهو علي العمالي.

إن دراسة أحوال الشيخ حميدة العمالي تنبئ عن وجود ميزات جوهرية تختلف عن بقية أهل العلم المعاصرين له من وجوه عدة، فرغم الوظيفة الرسمية التي كان يشغلها، والفترة السياسية الصعبة التي كان يعيشها، إلا أنه تميز بعمقه الفقهي، وكثرة أسانيده عن الشيوخ، وكذلك كثرة تلاميذه الذين أصبحت لهم شهرة ومكانة عالية، وكانت له مشاركة في حركة الإصلاح الاجتماعي، كما ترك بعض الآثار الكتابية الفقهية منها: مجموعة فتاوى فقهية تزيد مسائلها على الثلاثمائة وقعت بينه وبين الشيخ محمد بن سيدي علي مبارك، وله رسالة في نظام وترتيب محاكم القضاء، إضافة إلى رسالته في أحكام مياه البادية، وكان إلى ذلك جماعة للكتب مشهورا بين علماء المغرب باقتناء نفائس الكتب ونوادير المخطوطات، وكان المتفوق في عصره لتدريس البخاري رواية ودراية⁽¹⁾.

ج- علي بن الحفاف: (.../1307هـ،.../1890م)

علي بن عبد الرحمن بن محمد الحسني المعروف بابن الحفاف، مقرئ، عارف بالحديث، من فقهاء المالكية، عالم مخضرم زمن الاحتلال، ولد بالجزائر وبها نشأ وتعلم، أخذ العلم عن ثلة من العلماء البارزين، أمثال الكبابطي، وبرع في علوم كثيرة، وهو يعد خاتمة علماء القراءات بالجزائر آنذاك. انضم إلى حركة الأمير عبد القادر بمليانة، وعين كاتباً للأمير، وبعد وقوع زمالة

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 3/76 - 80 / معجم أعلام الجزائر، ص 242 / تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي،

الأمير في قبضة الفرنسيين 1843، ومصادرة الأملاك، رجع ابن الحفاف إلى العاصمة معدما، لكنه تمكن من الوظيفة وترقى فيها إلى أن عين مفتيا بالبليدة 1859، ثم تولى فتوى المالكية والتدريس بالجامع الكبير 1873 إلى أن توفي.

ترك ابن الحفاف تقييد وأشعارا وبعض المؤلفات مثل: "منة المتعال في تكميل الاستدلال" في القراءات السبع، وله إجازات إلى بعض المعاصرين أمثال أبي القاسم الحفناوي⁽¹⁾، والمكي بن عزوز، والقاضي شعيب بن علي⁽²⁾.

ويعد ابن الحفاف من أبرز الشخصيات الجزائرية التي كانت حلقة وصل بين العهد التركي والاحتلال الفرنسي، حيث لعب أدوارا متنوعة في المجال السياسي والثقافي بعد الاحتلال، ومن المواقف المميزة التي اشتهرت عنه، ثلاث مواقف⁽³⁾ نشير إليها باختصار:

الموقف الأول: هو الرسالة التي وجهها إلى علماء عاصمة الجزائر، من معسكر الأمير عبد القادر بمليانة، حيث كان كاتبها خاصا للأمير، وقد أرسل إليهم رسالة توبيخ وتشنيع على إقامتهم بالجزائر بدلا من مغادرتها، والتحاقهم بصفوف المجاهدين الذين هم تحت إمرة الأمير عبد القادر، وإعلان الجهاد؛ والحكم الذي استفز العلماء بالعاصمة هو الحكم بالكفر على كل من رضي بالمكث ولم يهاجر؛ مما أدى إلى الرد على رسالته، وكان من بينهم أستاذه محمد بن الشاهد الذي رد فيه ردا قويا ومقنعا⁽⁴⁾.

(1) ومن لطيف مآذره الحفناوي عن إجازته: "وكانت وفاة الإمام ابن الحفاف يوم السبت صباح عام 1307، وكنت في عشية يوم الجمعة قصده مع علامة المغربين الأدنى والأوسط الشيخ المكي بن مصطفى بن عزوز فرزناه وطلب منه الشيخ الإجازة في البخاري خصوصا وفي غيره على ما أظن عموما، فأجازه وفي الغد سمعنا بوفاته، فسبحان التقدير على جمع من يشاء بمن يشاء متى شاء". تعريف الخلف برجال السلف، 260/2

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 80/3 - 83 / معجم أعلام الجزائر، ص 121.

(3) ينظر: ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي، قسم التراجم: ص 63 وما بعدها، حيث ذكر هذه المواقف الثلاث بتفصيل أوسع.

(4) مما جاء في رد ابن الشاهد: "وكيف يتصور في أذهانكم أننا نرضى بالكفر، ونحب معاشرته أهله، وقد غلت أسعارنا، وتعطلت صنائعنا، وتهدمت حوانيتنا، وتعسرت مكاسبنا، وحفرت مقابرنا، ونبشت ضرائح أوليائنا، وما حصلت هذه الأشياء إلا بسبب دخوله، فأني عز لنا في هذه الأشياء حتى نرضى بها كما ذكرتم، وقلتم إن النفوس اللئيمة إذا ألقت العز، فلا تحب مفارقتها، أبهذه الأشياء عز لنا، والله الذي لا إله إلا هو، نحن إذا أصبحنا، لا نريد أن يمسي معنا، وإذا أمسينا لا نريد أن يصبح معنا". المرجع نفسه، ص 73

وقضية الهجرة من القضايا الشائكة في البلاد الإسلامية عموماً، وعلي بن الحفاف نفسه الذي أثار المسألة نجده يستشير بيزم الخامس في الهجرة لما أراد تحويل الوجهة إلى الشام، فأشار عليه بالبقاء لأن مثله قليل، وخروجه برأسه يفوت على الناس تعليم أمر دينهم، وبقاؤه يحفظ على الأهالي ديانتهم وعقيدتهم، وهذا أنفع عند الله له وللعمامة.

الموقف الثاني: تمكن المترجم له من الحج عام 1286هـ، وفي الموسم التقى بالشيخ دحلان المفتي الشافعي بالديار المقدسة، ووقعت بينهما مناظرة في قضية البسملة هل هي جزء من الفاتحة، وما يتبع ذلك من حكم ترك قراءتها في الصلاة، مما هو مشهور عند أئمة المذاهب؛ وعند رجوعه من الحج ألف رسالة بعنوان: "الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة"، وذيلها برسالة أخرى ناقش فيها آراء الشيخ محمد عlish الفقيه المصري ومفتي المالكية، المؤيد للشيخ دحلان في هذه المسألة.

الموقف الثالث: من المسائل الشائكة كذلك التي كان يحدث حولها الخلاف والنزاع كثيراً، مسألة رؤية هلال رمضان، وكان المفتي علي بن الحفاف كثيراً ما يقلد تونس في ثبوت الهلال، وصادف تدخل الشيخ محمد بن مصطفى المشرفي الفاسي بغليزان، حين كان الفارق بين الرؤيتين ليلتين⁽¹⁾، فألف رسالة رد فيها على ابن الحفاف، فتدخل أحد تلامذة ابن الحفاف ورد رداً مقذعاً على المشرفي، وهو التلميذ أبو طالب قاضي مستغانم، في رسالة سماها: "الإنصاف في نصرة نجل الحفاف ورد اعتراضات السفساف"، فرد عليه المشرفي برسالة سماها: "السهام الصائبة في رد الدعاوي الكاذبة"، ثم رد عليه أبو طالب برسالة أخرى سماها: "الحسام في تكسير السهام".

وقد علق المهدي البوعبدلي على هذه القضية فقال: "ورغم ما في هذه الرسائل من إقذاع وخروج عن صميم موضوع الخلاف فإنها مفيدة جداً، إذ لولاها لما كنا نطلع على تراجم كثير من علماء ذلك العهد - وإن كان عهداً قريباً - كما أفادتنا هذه الرسائل وجود رأي عام في أوساط الفقهاء والشعب، لا كما يتصوره كثير من المعاصرين بأن قضية ثبوت الهلال كانت تفرضها سلطات الاحتلال على السكان بواسطة الفقهاء الجامدين، فيمتثلون للأوامر دون أن

(1) ذكر الشيخ البوعبدلي أنها كانت ثلاث ليال، ثم ذكر أن الرؤية بالعاصمة كانت ليلة الأربعاء، وبوهران ليلة الجمعة، فالفرق ليلتان، والله أعلم.

يحركوا ساكننا، وهكذا نرى كثيرا من المتأخرين استغلوا هذه الفترات من تاريخ البلاد فمسخوها وشوهوها"⁽¹⁾.

ج- محمد السعيد بن زكري: (1267-1332هـ / 1851-1914م)

من أبرز مدرسي العاصمة، تولى الإمامة والإفتاء، وكانت له دراية بالفقه وعلم الكلام، ولد بمنطقة الزاوة، وكان تعليمه عصاميا حيث تنقل بين الزوايا، حتى وصل إلى العاصمة عام 1890، وعين مفتيا للمذهب المالكي بالعاصمة عام 1908، من أبرز تلاميذه أبو يعلى الزواوي، وقد ترك بعض التأليف مثل: "أوضح الدلائل في إصلاح الزوايا ببلاد القبائل".

من المواقف التي تذكر في سيرة ابن زكري، هي أزمة التجنيد الإجباري الذي فرضته السلطات الفرنسية على الجزائريين عام 1911، حيث عارضه كثير من علماء وشرفاء الجزائر، إذ هو موقف رجّ المجتمع الجزائري ليحصحص أهل الحق عن أهل الباطل، ويكشف عمن كان مواليا للإدارة الفرنسية، ومن كان مواليا للشعب الجزائري؛ وكان موقف ابن زكري موقفا حرجا لا يحسد عليه، فقد كان على كرسي الفتوى الذي يمثل الوظيفة الفرنسي، فإن أيد وهو يعلم بطلان هذا الحكم الجائر سقط في أعين المعارضين وأعين الشعب، وحُسب على حزب فرنسا، وإن هو عارض غضبت عليه السلطات الفرنسية وعاقبته، لأنه يعد حينئذ قد استغل وظيفته الرسمية في موقف سياسي حساس، ولكن الله أنقذه بأن أرسل إليه صديقه دومينيك لوسيان (مدير الشؤون الأهلية) الذي نصحه بالسفر إلى الخارج أثناء هذه الأزمة، فسافر إلى الشام⁽²⁾.

ومع أنه لم يصدع بالحق في هذه المسألة، لكن الموقف الذي اتّخذه من السكوت والسفر حتى ينجو من القضية ينبئ عن حس وطني، وموقف شرعي، وإضمار مخالفة للإدارة الفرنسية.

د- الحسن أبو الحبال: (1897-1944م):

تعتبر مدينة وهران عاصمة الغرب الجزائري، وتعد من المدن الهامة بعدد سكانها وإشعاع مدارسها وموقعها الاستراتيجي كله. وكان بها مفتي واحد يقوم بمهامه في المسجد الكبير، وقد تداول على هذا المنصب عدة مفتين، كان من بينهم الشيخ حسن بولحبال.

(1) المرجع نفسه: ص 77.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 3/ 97-99. ولوسيان هذا هو الذي استعان بخبرة ابن زكري في الفقه لإنجاز مشروعه في تدوين الفقه الإسلامي.

و هو حسن بن محمد بن أحمد بن محمد اليدري، ولد ببلدة خنشلة. تعلم على يد والده وفقهاء ومعلمي بلده خنشلة. وفي سنة 1909 انتقل إلى تونس والتحق بجامع الزيتونة حيث أخذ عن الشيخ النخلي و محمد بن يوسف وآل النيفر وغيرهم، ثم عاد إلى الوطن ليشغل بالتدريس في مدينة باتنة وفي خنشلة ثم في عين البيضاء⁽¹⁾.

وفي سنة 1931 لما كثرت الطلاب على منصب إفتاء بجاية، خصصت الجمعية الدينية بقسنطينة يوما لامتحان عام تنوعت مواضيعه، وأعربت فيه عن عدالة وإنصاف في اختيار الكفاء لهذا المنصب، وقد تقدم له عدة مشايخ من مناطق مختلفة، وكان الامتحان خلال يومين، وقد استبشرت الأمة الجزائرية بهذا الامتحان للخطط الدينية⁽²⁾، وأسفرت النتائج عن فوز الشيخ حسن بولحبال المدرس بعين البيضاء، الذي استبشر به أهل بجاية واحتفوا به، وبقي بها مدة عشر سنوات لينتقل بعدها إلى مدينة وهران مفتيا في المنصب نفسه سنة 1941، وأخذ منصبه ببجاية الشيخ المهدي البوعبدلي⁽³⁾.

مارس الشيخ بصفته مفتيا عدة مهام هي الإفتاء والوعظ والإرشاد وإمامة صلاة الجمعة وعضوية جمعية الأحباس. كما كان يعتبر من بين الرجال الرسميين الذين يحضرون الاحتفالات الرسمية.

كان بولحبال فصيح اللسان قوي البيان والحجة في علوم مختلفة في الدين واللغة والشعر، ترك ديوانا شعريا وبعض التأليف في علوم الدين، وكان دمث الأخلاق، وكانت له أفكار إصلاحية رغم ارتباطه بوظيفة الإفتاء. بلغ الشيخ حسن بولحبال قمة عطائه في المرحلة الأخيرة من حياته، وبذلك أصبح أحد أعلامها الكبار. وقد ترك مؤلفات منها:

- "نبراس الحقيقة فيمن ادعى العلم والحقيقة"

(1) ينظر: مجلة الإنسانيات، «حسن بولحبال مفتي وهران»، عبد القادر خليفي، عدد 23-24، ص 29-46.
(2) لأن السلطات الفرنسية كانت تختار لمثل هذه المناصب الدينية أشخاصا ليس لهم من الدين إلا الاسم، وكانت الوساطة لهذا أو ذاك من قبل رجال مقربين من السلطات الفرنسية هي التي تقرر من الفائز منهم بالمنصب، وكل يريد أن يعين صاحبه. وقد كتبت جمعية العلماء مقالات تستبشر فيه بهذا الإنجاز، وتخطب السلطة الفرنسية بتعميمه حتى لا يقع الحيف، ويكون الاختيار ضمن المقبولين.

(3) ينظر: مذكرة: الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي 1830-1962، ملاح الهواري، ص 29-

- "تنبيه المسلم إلى فضائل زمزم"
- "المحلى في مشروعية الخروج من المصلى".
- ديوان شعري.
- إلى جانب مقالات وقصائد منشورة في بعض الصحف
- "حدثت بين الشيخ بولحبال وبعض رجال الطرق الصوفية ما يشبه النقائض، ويدخل هذا فيما كان يقع بين الإصلاحيين ورجال الطريقة من منافرات ومناظرات... ومما يدل على اعتدال فكر بولحبال وتوسطه بين الطرفين (العلماء والطريقون)، ما جاء في مذكرات عبد الرحمن بن العقون الذي أورد أهم ما جاء في الخطاب الذي ألقاه بولحبال في المؤتمر الثالث لـ "جامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفية"، المنعقد بالعاصمة سنة 1939، وذلك نقلا عن جريدة الرشاد، لسان حال الجمعية بالعدد 42، بتاريخ 2 ربيع الثاني الموافق لـ 22 ماي 1939. حيث يقف بولحبال موقفا وسطا بين رجال الطرق والعلماء، ويجاول ردء الصدع وربط اللحمة بين رجال العلم الجزائريين كافة".
- توفي بعد مرض عضال لازمه مدةً بعد عودته من البقاع المقدسة، ودفن بقبة سيد الهواري بوهرا⁽¹⁾.

خاتمة:

إن ارتباط الموظفين الرسميين بالسلطة الفرنسية لا يعني أنهم في مرتبة ومكانة واحدة، ففيهم العالم الرياني وفيهم الجاهل الموظف، وفيهم صاحب المبادئ الوطنية وفيهم دون ذلك، وإذا كان بعض الموظفين الرسميين ومنهم المفتون الذين عينتهم الإدارة الفرنسية قد أصبحوا أداة تتحكم بهم السلطة في تحقيق رغباتها وشهواتها، فإن فريقا منهم نأى عن سلوك هذا السبيل، فقد كانت لبعضهم بصمات في جهود علماء الجزائر، لكننا نجد بعضها في مجالات محدودة والتي لا تصادم الإدارة الفرنسية علنا خصوصا الإفتاء؛ إلا من استعمل الحكمة والتقية، أو خالف وجاهر بموقفه فكان مصيره الطرد والنفي.

(1) ينظر: مجلة الإنسانيات، عدد 23-24، «حسن بولحبال مفتي وهران»، ص 29-46.

وفيما يخص عمالة قسنطينة فتقدم الحديث عن المفتي المولود ابن الموهوب كما ستأتي محطات أخرى عنه.

2- المفتون الأحرار:

ويقصد بهم العلماء والفقهاء الذين تولوا الخطابة والإفتاء بعيدا عن مهام الوظيفة الفرنسي، فلم يكن لهم ذلك الحرج الذي يجده المفتون الرسميون حين تتعارض الفتوى مع مصلحة السلطة الفرنسية⁽¹⁾.

وهؤلاء لا يختصون بالمساجد الكبرى ولا بالمدن بل يتنوعون بين المساجد والزوايا وبين المدن والقرى، ومنهم من اقتصر على باب أو أبواب من الفقه، ولا يمكن حصر هؤلاء لكثرتهم، فضلا أن كثيرا منهم لم يشتهر ذكره ولا يعرف أثره.

لذا اقتضى البحث الإشارة إلى بعضهم؛ وقد جاء هذا العنصر مشتملا على نموذج من القرن 19، ونموذج من القرن 20، ونموذج عن إقليم من الأقاليم العلمية الجزائرية التي عرفت بالنوازل.

ولعل أول النماذج وأولها هو شخصية الأمير عبد القادر ومراسلاته الفقهية.

أ- الأمير عبد القادر ومراسلاته الفقهية:

فرضت إمارة الأمير عبد القادر في الفترة الممتدة بين 1832-1847، واقعا تاريخيا كشف عن نوازل فقهية مستجدة، تتعلق بالجمال السياسي والجهادي، كان لها حق من النظر والاجتهاد؛ نظرا للمؤثرات التي طرأت على هذه الوقائع والمسائل⁽²⁾.

ومعلوم أن الفتوى أعم من النازلة، إذ جاء في تعريف النوازل الفقهية أنها:

"الوقائع الجديدة التي لم يسبق فيها نص أو اجتهاد"⁽³⁾.

وقد كان للأمير العديد من الرسائل بينه وبين العلماء والأعلام، وله من الفتاوى والأجوبة

(1) وهناك نماذج كثيرة لبعض المفتين الرسميين الذين غلبوا إرادة السلطة الفرنسية على آرائهم الشخصية والوطنية، كما هو الحال في مسألة التجنيد، والمشاركة في الحرب ضد ألمانيا، مثل ابن الموهوب، وباش تارزي، ومحمد العاصمي، و...

(2) ينظر: مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، النوازل الفقهية في مراسلات الأمير عبد القادر للفقهاء، عبد الجليل أولاد حمادي، مجلد 10، عدد 2، ص 410. ونظرا لطبيعة البحث فإن الدراسة اقتضت الإشارة إلى هذه المراسلات وما تضمنته من نوازل على العموم، ومن أراد التوسع فليرجع إلى ما ذكره الباحث في مضمون النوازل الفقهية التي احتوتها مراسلات الأمير، مع ذكر أثر هذه الفتاوى على مساره التاريخي والجهادي.

(3) فقه النوازل للأقليات المسلمة «تأصيلا وتطبيقا»، د. محمد يسري إبراهيم، 34/1. وينظر تعريفات أخرى ذكرها المؤلف في نفس المبحث.

التي شملت التفسير والحديث والفقه والعقائد والكلام وعلوم أخرى⁽¹⁾.

وقد تقدم أن له رسالة بعنوان: "حسام الدين لقطع شبه المرتدين"، وهي فتوى عن سؤال ينتصر فيها صاحبها إلى وجوب الحجرة من المناطق التي وقعت تحت سيطرة المحتل الفرنسي، مضمنا إياها الفتاوى التي سأل عنها علماء مصر والمغرب. ومن رسائله أيضا، رسالة قصيرة في أحكام الهدنة مع العدو موجهة للجنرال ديميشال⁽²⁾.

والمأمل في كتابات الأمير يجده أحيانا مفتيا وأحيانا مستفتيا، وهو ما يعطي نتيجة أن الأمير قد جمع بين العلم وبين الخشية والتواضع، إذ مكانته العلمية والفقهية ساهم بها في البث في فتاوى وأحكام متنوعة؛ وخشيته وتواضعه مع خطورة النوازل التي طرأت عليه، كالحكم على المرء بالكفر أو الإسلام، أو الحكم بالردة، وما يترتب عليه من استحلال دمه، وسلب ماله، وسبي ذريته، وغير ذلك من الأحكام، التي لو نزلت على عمر لجمع لها أهل بدر، أوجبت عليه مشاورة أهل العلم واستفتاءهم، وكل من كتابات الأمير في الجانبين كانت سببا في إثراء الساحة الفقهية والتاريخية.

وإذا تمت الإشارة إلى فتاويه بقيت الإشارة إلى استفتاءاته، حيث تعددت مراسلات الأمير للفقهاء داخل وخارج الوطن؛ وستكون الإشارة إلى ثلاث رسائل مهمة⁽³⁾، مع بعض الملاحظات العامة، وهي:

مراسلته للفقهاء أبي الحسن التسولي، وجوابه هو كتابه المسمى: "أجوبة التسولي عن مسائل عبد القادر في الجهاد"، ويلاحظ أن الأمير خص الشيخ التسولي بمجموعة من الأسئلة الشائكة، لما عرف عنه من تمكنه في الفقه، ورسوخه في العلم، زيادة على ما عرف عنه بتأليفه الفقهية في باب الجهاد حتى غدا كأنه تخصصه الفقهي⁽⁴⁾.

ومراسلته للفقهاء عبد الهادي بن عبد الله الحسني الفاسي؛ والملاحظ على نص السؤال أنه

(1) ينظر مثلا ما نقله محمد ابن الأمير من أجوبة أبيه في "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر"، تحت الفصل المعنون بـ: "ذكر ما أجاب عليه من أسئلة العلماء الأعلام"، ص 224-246.

(2) يراجع: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، عبد الحميد زوزو، ص 74-75.

(3) ينظر هذه المراسلات الثلاث: مجلة الناصرية، النوازل الفقهية في مراسلات الأمير عبد القادر للفقهاء، ص 418 وما بعدها. حيث ذكر النوازل والمسائل الفقهية المستخلصة بشيء من التفصيل، دون الملاحظات التي ذكرتها.

(4) ينظر: أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، ص 45-46.

اتسم بعزو المسائل إلى كثير من الأئمة الأعلام، فذكر نقل ابن الماجشون، وحكاية ابن بطل، وما نقل عن ابن وهب وجمهور الشافعية، وأصحاب مالك، وما ذكره شراح ابن الحاجب، وما نقل عن ابن رشد، ومالك، وغيرهم؛ وهو ما يدل على علم المستفتي بمذهب مالك وأصحابه وغيره من المذاهب، وأنه سؤال عالم لا متعلم.

ومراسلاته للشيخ محمد عlish، ويلاحظ أن الأمير استفتى علماء المغرب لما تعلق الأمر بمسائل بينه وبين عدوه الفرنسي، ولما تعلق الأمر بحاكم المغرب، غير وجهة المسؤول إلى مصر بعيدا عن الجزائر والمغرب، حتى تتحقق الحيادية في الجواب، ولا يخاف المفتي على نفسه من الصدع بما يراه حقا؛ وهذا من فقه الفقه.

والنوازل الفقهية التي اشتملت عليها استفتاءات الأمير تمثلت في قضايا متنوعة، منها⁽¹⁾:

- أحكام التعامل مع المتمردين على طاعة الأمير، وعقوبة الجواسيس.
- أحكام الصلح والتجارة مع العدو الفرنسي.
- كيفية تحصيل الموارد المالية للجيش وحكمها عند عجز بيت المال، وحكم إعانة المسلمين بأبدانهم.

- بعض الأحكام المتعلقة باستنفار الرعية استعدادا للحرب وما يتعلق به.
- حكم البقاء في المناطق التي تحت سيطرة العدو.
- بعض الأحكام المتعلقة بالتعامل مع الأقليات الدينية، كالإباضية.
- حكم التعامل مع سلطان المغرب الذي قلب ظهره للأمير.
- والخلاصة التي نختم بها هذا العنصر أن محطة الأمير عبد القادر لا تتوقف عند هذا الحد، فلو توسعت الدراسة وانتقلت إلى أحوال الإمارة القادرية الفقهية لأخرج لنا تراثا كبيرا، جزيل العطاء، متنوع الأفكار.

ب- النوازل وإقليم توات:

من الأقاليم التي اشتهرت بالإسهام في مجال النوازل قديما؛ إقليم توات⁽²⁾، يؤكد ذلك أحد

(1) مجلة الناصرية، النوازل الفقهية في مراسلات الأمير عبد القادر للفقهاء، 409-410 بتصرف.

(2) يقع في المنطقة الغربية للصحراء الجزائرية، جنوب غرب العرق الغربي الكبير بالتحديد في ولاية أدرار، ويسكن توات أعراق مختلفة من عرب وأمازيغ وحراطين ومن أصول أفريقية.

الباحثين بقوله: "وقد انتشرت النوازل الفقهية أيما انتشار في توات، وأصبح الإقليم موسوما بها، وبلغ حد شيوعها أن توجه الناس بأسئلتهم إلى العلماء العابرين توات مع ركب الحجيج، فضلا عن العلماء المستقرين النوازيين"⁽¹⁾. واستمر هذا العطاء إلى فترة احتلال الجزائر. ومن أعلام هذا المجال: القاضي أبو يحيى بن محمد المنياري (ت: 840هـ/1436م)، والشيخ عبد الله بن أبي بكر العصوني (909هـ/1503م)، ومن أشهر ما جمع بها من نوازل: نوازل الجزلاوي، ونوازل التلالي، ونوازل الجنتوري.

وإذا كانت الدراسة منصبة على فترة الاحتلال الفرنسي، فإن العقود الأولى عرفت جمعا لبعض النوازل أو ترتيبا لها، منها:

- "غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل": جمعها عبد العزيز البلبالي⁽²⁾ مكملا ما بدأه والده الشيخ محمد البلبالي (ت: 1244هـ/1829م).

"وهي عبارة عن مجموعة من الفتاوى والقضايا والمسائل المنقولة من سجلات القاضي عبد الحق بن عبد الكريم البكري (ت: 1210هـ) الذي شكل محاسبا استشاريا من أربعة فقهاء لمشاورتهم في القضايا التي كانت تستشكل عليه، وجمع عبد العزيز أحكام السجل التي قيدها والده وسماها غنية المقتصد السائل، وقام بنسخها وإخراجها من مسودتها وترتيبها في كتاب على أسلوب مختصر خليل، حيث قسم الكتاب إلى عدة مسائل، رتبها من بعده تلميذه أحمد الحبيب البلبالي وقد أضاف إليه مقدمة"⁽³⁾.

- ترتيب الشيخ محمد بن أحمد البدوي البكري⁽⁴⁾: حيث رتب نوازل عبد الله بن أبي

(1) القيم الاجتماعية بإقليم توات من خلال أدب النوازل - نوازل عبد الرحمن الجنتوري أنموذجا-، د. خير الدين شترة، ص 61.

(2) (1190-1261هـ / 1776-1845م): هو القاضي أبو البكري محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمان البلبالي المولود بتمنطيط ترعرع في صحن العلم ومعانقة اللوح والقلم بجوار أبيه، صدحت قريحته بفنون الشعر وكان من القانتين، خلف والده حين انهكه العياء، له يد طولى في مسائل الفقه كثير التقييد، اجتهد في الرد على الفتاوى والاطروحات الفكرية. ينظر: صفحة: الأسرة البلبالية: سلسلة تراجم القضاة البلباليين:

<https://www.facebook.com/el.belbali/posts/1786375648100017>

(3) القيم الاجتماعية بإقليم توات من خلال أدب النوازل، د. خير الدين شترة، ص 67.

(4) (1228-1261هـ/1845-1813م): فقيه حافظ جمع بين المنقول والمقول، تولى الخطابة، وتصدر للتدريس والفتوى، توفي في شبابه متوجها لأداء الحج. ينظر: مجموعة ذاكرة الجزائر: مسائل عبد الله بن أبي مدين التمنطيطي، ترتيب الشيخ محمد بن أحمد البدوي البكري، 5/6.

مدين التمنيطي (1231هـ/1816م) التي هي أجوبة لأسئلة راسل بها العلماء، وطعمها بأجوبة شيوخه التنلاي والزجلاوي والبلبالي، مع اختياره للنوازل التي لم يقع عليها النص، أو لم يطلع على النص فيه إلا المتمرس من الفقهاء⁽¹⁾.

ج- الشيخ الحاج عبد الرحمن بوعزيز:

وإذا انتقلنا إلى القرن العشرين، بعيدا عن الجرائد والمجلات التي حوت كمّا معتبرا من الفتاوى، فإننا نجد عددا كبيرا من المفتين الأحرار ممن لهم وطنية عالية، تفرقوا في أنحاء الجزائر⁽²⁾ قد ساهموا في هذا الميدان. ولنضرب مثلا بالشيخ الحاج عبد الرحمن بوعزيز⁽³⁾ والد د. يحي بوعزيز؛ حيث يتحدث ولده عنه فيقول:

"وإلى جانب هذا كان الوالد الحاج عبد الرحمن بوعزيز يتولى وظيفة الإفتاء والفصل في مشاكل الناس نظرا لتضلعه في مادة الفقه الإسلامي، ومادة الفرائض، يحضرون إليه من سائر القرى والأعراش ليحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، ويرىهم من الالتجاء إلى المحاكم الفرنسية التي تكلفهم ضياع أوقاتهم، وأمواهم، وأعراضهم. وطيلة حياة الوالد منذ أن أصبحت أدرك، لم يخل أسبوع واحد من حضور وفد أو مجموعة وفود ليفصل فيما بينهم في القضايا والمشاكل القائمة، والطارئة، فيبدأ بعرض الصلح أولا ثم إن رفضوا يقدم لهم حكم الله حسب القرآن، والسنة، وأحكام الشريعة الإسلامية"⁽⁴⁾.

وأضاف أن بعضهم كان يلح على المتخاصمين في العرش الحضور لوالده لأجل الفصل في مشاكلهم حسب الشرع الإسلامي والرضا بحكمه، حتى لا يذهبوا للمحاكم الفرنسية؛ وهذا من الوطنية الكاملة والتدين العالي⁽⁵⁾.

(1) ينظر المرجع نفسه، 6/ 6-7. القيم الاجتماعية بإقليم توات من خلال أدب النوازل، 68-69.

(2) تقدم ذكر كل من الشيخ أطفيش والشيخ بيوض من الجانب الإباضي، وإسهاماتهم في التأليف والتدريس والفقه والعزابة والرد على التنصير، ومشاركتهم في ميدان الفتوى من باب أولى.

(3) (1301-1374هـ / 1884-1955م): تعلم في الزوايا، وكان يتكسب من الفلاحة، انتسب إلى الطريقة الخلوتية ثم انتقل إلى الطريقة العليوية، وأصبح من كبار مقادير الطريقة، وأسس لنفسه زاوية بالجعافرة، ولم يتطرق ابنه لنظرته وتعامله مع الحركة الإصلاحية.

(4) أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، 1/ 63.

(5) ينظر: المرجع نفسه، 1/ 143.

3- جمعية علماء المسلمين الجزائريين والفتوى:

مع أن وصف العمل الحر ينطبق على جمعية العلماء المسلمين وعلى العلماء الأحرار، إلا أن الجمعية اختصت بكون عملها عملاً جماعياً منظماً ذات مشروع حضاري، أضفى عليها الشرعية والقبول والتمثيل الوطني، وما أحسن ما تنبأ به الشيخ العربي التبسي حول أهمية العمل الجماعي المؤسسي الجاد، قبل ولادة الجمعية، في مقاله المعنون بـ: "أزفت ساعة الجماعة وتصرم عصر الفرد"، حيث يقول: "فإن هذا العصر عطّل الفرد ونبذ حكمه، وأمات مفعوله، وتجاهل وجوده، فأينما أمّلت سمعك أو أرسلت نظرك في الشرق أو الغرب، لم تجد إلا أمة فحزبا فهيئة منها وإليها كل شيء، فهي التي تذب عن الهيئة الاجتماعية، وتحرس الأمة في نوائب الدهر وعادية الأيام، وتغار على كرامتها وحسن الحديث عنها، وتأخذ بيدها قبل أن تغرق عند هبوب السماسم ولفح الأعاصير، وتكون لسانها الناطق بطلبتها، وحسها المتألم لألمها... فنؤلّ وجوهنا نحو هذه الأمة ونبحث من بينها عل من تكون هذه المهمة؟ ومن يلزمه تكوينها وإخراجها إلى الناس حتى تكون سبّة التفريط له إن هو تلكاً عن القيام بحق الأمة عليه"⁽¹⁾.

أ- لجنة الفتوى:

لما كانت الفتوى بالمزية التي تقدم ذكرها، خصص بعض علماء الإصلاح عدة مقالات في الصحف والمجلات للإجابة على استفتاءات السائلين قبل نشوء الجمعية، بل وفتح المجال لمن كانت له أهلية الإفتاء⁽²⁾.

وعند تأسيس الجمعية تم تسطير مسودة للقانون الداخلي للجمعية جاء في مادتها 78: "تعهد الجمعية إلى جماعة من العلماء المستقلين في علم الدين - تسميهم لجنة الإفتاء - ليكتبوا في المسائل التي عمت فيها البلوى وكثر فيها خلاف الناس، وكانت مثار نزاع مستمر وجدال مستمر بين الأمة حتى دخل في المعمعة من يحسن الكلام ومن لا يحسنه، مثل مسائل الربا والمزارعة والقراض والأوراق المالية، والروائح واللحوم والشحوم الأجنبية، وطعام الكتاني والمطالبة بالأرض على الضرر الأدبي، والتقليد في رؤية الهلال وغير ذلك، وتكون الكتابة على أسلوب

(1) الشهاب: عدد 31، الخميس 6 ذي القعدة 1344هـ / 17 جوان 1926م، ص .

(2) كما كان الحال مثلاً في جريدة الشهاب للمصلح عبد الحميد بن باديس.

البحث والاستدلال ونقد الأدلة، ثم يبينوا للناس حكم الشريعة في هذه المسائل بعد فحص الجمعية لها لإجازتها، وتنشر تلك الكتابات باسم الجمعية حتى تكون فصلاً في محل النزاع"⁽¹⁾.
أما فيما يخص تخصيص قسم الفتوى بجريدة البصائر، فقد جاء على لسان الجمعية ما نصه: "...فإننا خصصنا له بعد اليوم قسماً في الجريدة، وعهدنا مؤقتاً إلى لجنة تأتمنها على الفتوى في دين الله برئاسة الأستاذ الشيخ أبي يعلى الزواوي رئيس لجنة العمل الدائمة لجمعية العلماء في الجزائر، والإمام بجامع سيدي رمضان، وسيكون الجواب عن كل استفتاء وكل سؤال في الدين يرد على البصائر من قبل هذه اللجنة، إلى حين تعيين جمعية العلماء من ناحيتها بصفة باتة من يتولى ذلك"⁽²⁾.

وبالفعل وقت الجمعية بما وعدت به، حيث قرر المجلس الإداري للجمعية يوم السبت 20 رجب 1356 / 25 سبتمبر 1937⁽³⁾، تأسيس لجنة الإفتاء "وظيفتها بيان حكم الله في المسائل التي تحتاج إلى الإفتاء، وتكون هذه اللجنة مستندة إلى أصول التشريع الإسلامي، ويجب عليها أيضاً أن تعرض فتاويها المتعلقة بمهام الأمور على المجلس الإداري ليرى رأيه في الفتيا وأعضاؤها الأساتذة: العربي التبسي (رئيس)، مبارك الملي (عضو مستشار)، الإبراهيمي (عضو مستشار)، علي الخيار (عضو مستشار)"⁽⁴⁾.

هؤلاء الأعضاء نخبة مميزة لفقهاء الجمعية يمثلون الأعضاء الإداريين للجمعية فقط، أما نوابغ الجمعية ومن يشار إليهم بالبنان في الفقه والفتوى والعلم بالدين، فهم أكثر من ذلك بكثير.

ب- مظان الفتوى:

تنوعت فتاوى الجمعية بين المنابر العامة والخاصة، فتنوعت بين دروس التفسير والحديث والخطب، وبين المحاضرات العامة والمقالات في الجرائد والمجلات. وأخذت الجمعية على عاتقها ألا تنشر في جريدتها المميّزة البصائر إلا ما صدر عن لجنة الفتوى وأقرته اللجنة، ويلاحظ قلة

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 88/1.

(2) البصائر: عدد 12، الجمعة 4 محرم 1355 / 27 مارس 1936، ص 5.

(3) ينظر البصائر: عدد 83، ص 1.

(4) البصائر: عدد 86، الجمعة 8 رمضان 1356 / 13 نوفمبر 1937، ص 3.

الفتاوى بالجريدة، وذلك يرجع إلى أمور منها⁽¹⁾:

- الغالب على الفتاوى الخصوصية، وليس من المناسب نشرها في الصحف، فضلا عن مسألة تعظيم الفتوى.

- كثرة الأسئلة الموجهة للجنة الإفتاء؛ التي تحتاج إلى جهد ووقت من أجل الاختيار والانتقاء ثم الجواب، إضافة إلى الأعمال الأخرى المسندة للجنة، مما يجرى رئيس تحريرها جراء ذلك.

- كثرة الفتاوى في الجريدة يخرجها عن المقصود الذي أنشئت من أجله.

- تنوع مظان الفتاوى عند الجمعية يسد شيئا من هذا النقص.

- حرص الجمعية على الاختصار في الفتوى على النوازل المستجدة أو المسائل المحتاجة إلى نظر واجتهاد، أو المسائل التي يحدث فيها خلاف كبير بين الأمة.

ج- الوصف العام لفتاوى الجمعية:

إن المتأمل في فتاوى الجمعية يجدها قد شملت جميع مناحي الحياة الدينية والدنيوية، وهذا يبرز مدى حرص الشعب الجزائري على دينه من جهة، ومن جهة أخرى مدى اهتمام علماء الجمعية بإصلاح المجتمع في جميع المجالات الحياتية الدينية والدنيوية.

علما أن أغلب المسائل التي وقع السؤال عنها كانت ترد من داخل الجزائر، وقد ورد بعضها من خارج الجزائر كتونس والمغرب، وقد تكون فتاوى مباشرة، وقد تكون تعليقات على فتاوى أو رسائل؛ سواء كانت صادرة من داخل الجزائر كالتعليق على رسالة القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، أو خارجها كالتعليق على فتوى الطاهر بن عاشور.

كما يلحظ المتأمل أن الجمعية لم تأل جهدا في استغلال الفتوى من أجل تمرير مشروعها الإصلاحى للوقوف ضد كل ما يعيق قيام الدولة الإسلامية وثبات الأمة الجزائرية بجميع مقوماتها، فنصبت الفتوى سلاحا في وجه المخطط الاستعماري لطمس الهوية المسلمة، وفي وجه أفكار المستشرقين النظرية، وعمليات المبشرين والملحدين الميدانية، وفي وجه انحرافات الصوفية وخرافاتهم الطرقية. كما اتخذت الفتوى وسيلة لتوحيد الأمة على العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة، وتعليمها أمر دينها مع إيقاظ الوعي الوطني ومعالجة النوازل العامة في ظل

(1) ينظر: فتاوى علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين واختياراتهم الفقهية، مصطفى صابر، ص 20-22

الاحتلال ضمن دائرة أحكام الشريعة الإسلامية. وما فعلت ذلك إلا لأنها جمعية وهبت نفسها للجزائر والإسلام.

د- لمحة عن بعض الفتاوى والمفتين:

إذا استقرأنا فتاوى أعضاء الجمعية فإننا لا نجد فتوى كان لها أعظم الخطر، وأكبر الأثر في الأوساط الجزائرية من فتوى ابن باديس في حكم التجنس⁽¹⁾. فقد كانت سياسة فرنسا ترمي إلى الإدماج السياسي الكامل، وتذويب شعبه في ثقافتها الغربية، تمهيداً لفرنسته وتنصيره.

ولما كان من الجزائريين من تربى في أحضان الاحتلال، ورغب ورغب في التجنس بالجنسية الفرنسية، والتخلي عن بعض أحكام الشريعة الإسلامية، بغية الحصول على بعض الحقوق السياسية، تصدّت الجمعية لهذا الأمر وحارته في الخطب العامة، والمحاضرات وفي الصحف، موضحة حكم الإسلام في ذلك، ولما أصرّ دعاة التجنس على مطالبة الحكومة بتسهيل التجنس، وكثرت الأسئلة على الجمعية حيال هذا الموضوع، أصدرت على لسان رئيسها، فتوى في غاية الجرأة والصراحة بتكفير من يتجنس بالجنسية الفرنسية، ويتخلى عن أحكام الشريعة الإسلامية، حيث قال: "التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكمًا واحدًا من أحكام الإسلام، عُُدَّ مرتدًا عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتدّ بالإجماع"⁽²⁾. كما بيّن آثار التزوج بغير المسلمة، وآثار التجنس الخطيرة على أبنائه، وأنه ليست هناك من توبة إلا بالتخلي عن هذه الجنسية والرجوع إلى أحكام الشريعة.

وكان لهذه الفتوى صدى واسع خارج الجزائر فضلًا عن داخلها، فقد أيقظت في الجزائريين شعورهم بالانتماء إلى الإسلام والعربية والجزائر، وزعزعت شيئًا من كبرياء فرنسا، وهو حس لم يبلغه سياسي قبله⁽³⁾.

(1) للشيخ ابن باديس فتاوى أخرى ذات شهرة ووقع في الأوساط الجزائرية، مثل فتوى: جواب عن سؤال، وهي رد على الذي قال أبياتا أساء فيها الأدب مع الحضرة النبوية، وقد قرضها جمع من أهل العلم من الجزائر وتونس والمغرب. وكذلك رده على فتوى الطاهر بن عاشور في قراءة القرآن على الأموات. ينظر مثلاً مجلة الموافقات، خصائص الفقه البادي، المثل الأول، ص498، / المثل الثاني: ص501، 556.

(2) البصائر: نص فتوى: التجنس والتوبة منه، عدد95، 12 ذي القعدة 1356 / 14 جانفي 1938، ص2.

(3) ينظر مجلة الموافقات، عدد6، ص555. وينظر بعض آثار هذه الكلمة في آثار ابن باديس: 3/ 316، 383.

هـ- أما مفتو الجمعية، فمن أعضائها الذين برزوا في هذا الميدان: الشيخ أبو يعلى الزواوي، حيث كان يولي للفتوى عناية فائقة، واهتماما كبيرا، مما جعله يتقلد منصب الفتوى في الجمعية وقبل الجمعية، ويفتي في جريدة البصائر، والإصلاح، والبلاغ، ويراسل من داخل البلاد وخارجها، وكانت ترد عليه الاستفتاءات الكثيرة كما ذكر عن نفسه.

وهذا ما نلمسه في نطاق فتاويه⁽¹⁾ التي شملت الأحكام الاعتقادية، والأحكام الفقهية إضافة إلى فتاويه في علوم القرآن، وعلوم الحديث، وأصول الفقه، ومسائل اللغة والنحو، والآداب الإسلامية، وحتى القضايا التاريخية؛ كما نجد حيزا كبيرا لفتاوى الزواوي في النوازل مثل معاملة البنوك الحديثة الربوية⁽²⁾.

بل نجد الزواوي يعتد بنفسه في هذا الميدان -دون استكبار- حيث ابتدأ مقاله: "تعدد الزوجات في الإسلام" بقوله: "أخذت الفتاوى تتوارد في شأن تعدد الزوجات، والله أعلم بما في نفوس المستفتين والمفتين أيضا، ولما كنت أعد نفسي من أبطال أولئك الفرسان في ذلك الميدان، خشيت ما خشيت من مواطأة بعض الجاهلين بمقاصد الإسلام العزيز، من الإفرنج الطاعنين في الإسلام..."⁽³⁾.

إن العالم الفقيه الزواوي يعتبر مثالا من عشرات الأمثلة لمن تصدى للفتوى من أعضاء جمعية العلماء المسلمين، وجهود مجموعهم في هذا الميدان هو الذي فرض على الأمة الجزائرية، بل الأمة الإسلامية الاعتراف بأحقيتها في الفتوى، وأنها أهل لها، حيث كسبت ود علماء المسلمين في كل الأقطار والأمصار، ما جعل الجمعية تستفتي في قضايا مصيرية، كما هو الحال في فتوى التجنس التي صدرت من هيئات تونسية ومغربية، وفتوى فتنة الخروج على سلطان المغرب وغيرها. وفي أهلية الجمعية لقيادة الأمة، فضلا عن الفتوى يقول إبراهيمي: "وللعلماء المصلحين قوتهم

(1) ينظر رسالة: الشيخ أبو يعلى الزواوي وجهوده في الفقه والأصول، ص 141، وقد توسع الباحث في ذكر نماذج لمجالات الفتوى عند الزواوي.

(2) الشهاب: حكم معاملة البنوك، عدد 175، 24 جمادى الأولى 1347 / 6 ديسمبر 1928، ص 8/ وعدد 176، ص 7.

(3) البصائر: عدد 137، الجمعة 4 رمضان 1357 / 28 أكتوبر 1938، ص 4. وينظر بعض فتاويه في كتاب: الشيخ أبو يعلى الزواوي مصلحا ومجددا، د. بلقاسم شتوان، مبحث: الشيخ أبو يعلى الزواوي والفتوى، ص 113. وللتوسع في جهوده في الفتوى يرجع إلى أطروحة الدكتوراه: الشيخ أبو يعلى الزواوي وجهوده في الفقه والأصول، للشيخ بوبكر صديقي، ص 136.

في التوجيه، ومكانتهم في التدبير، وقدرتهم على القيادة، وإن هذه النتيجة لدعوة جمعية العلماء لمعجزة ادّخرها الله لهذا القطر الجزائري⁽¹⁾.

وقد جمع صاحب كتاب: " فتاوى علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين واختياراتهم الفقهية" فتاوى الجمعية، وصنفها ضمن الأبواب التالية: العقيدة، العبادات، المعاملات، الأحوال الشخصية، الأطعمة والأشربة، متفرقات.

ولا شك أنها أوسع من ذلك؛ كما ذكر المؤلف نفسه، إضافة إلى أن مظان فتاوى الجمعية لا تقتصر على الجرائد، كما أن بعضها قد يكون مقالا عن مسألة أصلها استفتاء، أو يجب فيها المفتي في مسائل قبل أن يسأل.

و- إسهامات المفتين الجزائريين:

رغم التفاوت البين بين أصناف المفتين: سواء مثّلوا الرسميين والأحرار، أو الجمعيات والأفراد، بل التفاوت الموجود بين شخصية مفت وآخر؛ إلا أننا نجد أنهم قد تركوا بعض الآثار والإسهامات التي تسجل في حسنات الرجل ومحاسنه، حيث صورت لنا تلك الصورة الجميلة التي رسمها مجموعهم، ولم ينفرد بها أحادهم، ومن بينها:

1- الاحتفاء ببناء المساجد وفتحها:

إن الشعور الديني تجاه بيوت الله كان ولا يزال متيقظا لدى الجزائريين، رغم السياسة الفرنسية التي انتهجتها السلطة المحتلة تجاه المساجد، خاصة العقود الأولى من الاحتلال، ومع هذه الظروف كانت المبادرات الفردية والجماعية في بناء المساجد مستمرة، والصورة الجميلة هنا، هو ذلك الاحتفاء والاحتفال ببناء المسجد وفتحه، ودعمه دعما ماديا ومعنويا؛ بالإنفاق تارة وبال دعوة إلى الإنفاق، أو حضور الافتتاح تارة أخرى؛ حيث يتقدم الأعيان سواء كانوا من المفتين الرسميين، أو العلماء الأحرار، لتدشين الفتح، وإلقاء كلمة بالمناسبة⁽²⁾.

(1) البصائر: عدد 36، 8 رجب 1367 / 17 ماي 1948، ص 2.

(2) ينظر مثلا ما وقع في نهاية شهر شعبان عام 1349 هـ الموافق ليوم الجمعة عام 1931 م، حيث تفضل الإمام الكبير عبد الحميد بن باديس رحمه الله رفقة وفد كبير من خيرة علماء الجزائر من بينهم فضيلة العلامة الشيخ المفتي ابن الموهوب والشيخ عبد المجيد بن جامع وغيرهم رحمهم الله جميعا من أجل تدشين المسجد العتيق بمدينة شلغوم العيد.
<https://www.facebook.com/chelghoum43/photos/a.801753013326048/1019848361516511/?type=3>

وما نشرته الشهاب: عدد 127، ص 18-20: عن سكان قرية كاسان نواحي مستغانم، حيث أشادوا بالمتبرعين الذين ساهموا في بناء

2- المشاركة في التعليم والإصلاح:

تعتبر المساجد ودور العبادة من أكبر الجامعات ومراكز التعليم في تاريخ الإسلام، ولا شك أن أساتذتها هم العلماء والفقهاء بمختلف تخصصاتهم، ولما كانت مهمة التعليم والتدريس من أولويات العلماء لا تكاد تجد ترجمة من تراجم العلماء، إلا وفيها أنه تصدى للتعليم والإقراء، وكانت لهم مساهمات في الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ومن ذلك فقهاء الجزائر ومفتوها فترة الاحتلال، مع التفاوت في كثرة الدروس وقلتها، حسب شخصية العالم وانشغاله، ومعلوم أن المفتي الموظف ليس كالمعلم المتفرغ⁽¹⁾.

3- المسائل المتعلقة بشعائر الديانة الإسلامية:

أرشد الله تعالى عباده المسترشدين الحيارى سؤال أهل العلم والذكر، لمسيس حاجة العباد إلى من يزيل عنهم اللبس، ويعلمهم أمر دينهم، ولو ترك الناس على أهوائهم لوقعت الفوضى، ووجد النزاع والخلاف، وتبدلت معالم الدين، وهذا ما كان يحدث في الجزائر في كثير من المسائل والقضايا القديمة والمستجدة، أشهرها مسألة رؤية هلال رمضان وشوال؛ حيث يختلف الناس في تحديده، ويكون الفارق أحيانا ثلاثة أيام، مما دعا تدخل كثير من العلماء والمفتين الرسميين والأحرار، لأجل تخفيف هذا النزاع ولم شمل الأمة الجزائرية، وقد وجدت مبادرات طيبة الأثر في هذا المجال من علماء وفقهاء كثر⁽²⁾.

مسجدهم من الداخل والخارج، وذكر على رأس القائمة قاضي محكمة كاسان محمد بن كورة، ومفتي معسكر الشيخ الحاج عبد القادر بالصاديق. وقد جاء في مذكرة: الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ص 69-76: جملة من الأمثلة المتنوعة، مضمونا وشكلا تؤكد هذه الصورة.

- (1) وأمثلة هذا أشهر من أن تذكر؛ وهذه الجزئية هي لب مضمون هذه الرسالة.
 - (2) ينظر مثلا خطاب المولود الحافظي إلى القضاة والمفتين خاصة المفتي المولود بن الموهوب، من أجل الاعتناء بتحرير مسألة الصيام والإفطار، والإجابة على الإشكالات التي أحدثت اضطرابا بين الناس. جريدة النجاح: عدد 283، ص 2. واستجابة مفتي قسنطينة المولود بن الموهوب بتحقيق الرؤية في جميع الأشهر، مع التماس القضاة بالاهتمام في أمر الشهادات حرصا على جمع كلمة المسلمين في شعائرهم الدينية. جريدة النجاح: عدد 1132، ص 2. نقلا عن مذكرة الإفتاء والمفتون في الجزائر، ص 111-112.
- كما أن جمعية العلماء المسلمين كان لها دور كبير في هذه المسألة، حيث بادرت بالقول والفعل إلى توحيد كلمة المسلمين بتوحيد الإفطار والصوم، وظهر الأثر الإيجابي سريعا بأن خفت وطأة الخلاف، وتذوقت الأمة طعم الوفاق. ينظر: الشهاب، 1937، المجلد 12، الجزء 11، ص 461.

المبحث الرابع: محاربة التنصير

بعد تحقيق المحتل الفرنسي أكبر أهدافه وهو احتلال الجزائر وظلم أهلها واستغلال ثرواتها، سعى لتحقيق أهداف أخرى تُمكن من بقاءه في أرض الجزائر إلى الأبد؛ من ذلك القضاء على دين الإسلام ونشر النصرانية مكانه، وهو ما يعرف بالتنصير.

فما هو التنصير، وما هي السياسة التي انتهجها المحتل في الجزائر لتمكين التنصير، وما هي أهم شخصياته وهيئاته، وما هي الجهود المبذولة من طرف العلماء في مجابهة هذا الخطر العظيم؟

المطلب الأول: ماهية التنصير:

1- لغة: التنصير مصدر نصّر ينصّر تنصيرا فهو منصّر والمفعول منصّر، ومعنى نصّر ولده جعله نصرانيا، والجمع نصارى؛ وهم من يتبع دين المسيح عليه السلام⁽¹⁾. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟»⁽²⁾.

2- اصطلاحا: جاء في تعريف التنصير في الموسوعة الميسرة أنها "حركة دينية سياسية استعمارية بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة وبين المسلمين بخاصة بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب"⁽³⁾. فهو بمعنى آخر يهدف إلى إخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي وإحلال الديانة المسيحية محل الديانة الإسلامية مع تعدد الأهداف والغايات المنافية للإنسانية من وراء ذلك. ومن الألفاظ ذات الصلة بالتنصير مصطلح التبشير.

3- التبشير:

أ- لغة: من فعل بشرّ يبشر تبشيرا، وهو بمعنى التبليغ والإخبار بما يسر: ﴿يَنْزَكِرِيَّاءُ

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة، 2220/3

(2) صحيح البخاري، بابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الْإِسْلَامُ، (94/2)، رقم

1358، صحيح مسلم، كتاب القدر، (2047/4)، رقم 2658.

(3) (665/2).

إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ إِسْمُهُ يُوحْيَى ﴿٧﴾ (مریم: 7)⁽¹⁾.

ب- اصطلاحاً: تعريف أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التي يقومون بها لتنصير الشعوب غير النصرانية، ولا سيما المسلمون.

ثمّ تحوّل هدف التبشير داخل الشعوب المسلمة إلى غاية التكفير، وإخراج المسلمين عن دينهم، ولو إلى الإلحاد والكفر بكل دين.

إن أصل (التبشير) في اللغة و واقع حال المبشرين الصليبيين وأهدافهم من التبشير، جعلت التبشير يحمل معنى آخر غير معناه اللغوي الأصلي⁽²⁾.

المطلب الثاني: السياسة الفرنسية نحو التنصير

من التناقض لدى الإدارة الفرنسية تبنيتها لمبدأ العلمانية الذي يحكم بفصل الدين عن الدولة، وقد طبقته في الجزائر على جميع الأديان إلا الإسلام، لأنه يعارض بزعمها مصلحتها الاستبدادية. ولما كان الغزو غزوان جندت لغزو الأرض العسكريين، وجندت لغزو الأفكار رجال الدين، وعليه صدرت قرارات بعد الاحتلال مباشرة بتدمير الزوايا والمساجد وتحويل كثير منها إلى كنائس، وتعطيل الأوقاف وتحويل البعض الآخر لصالح الإدارة الفرنسية، وفي نفس الوقت تعاونت تعاوناً كبيراً مع الهيئات الكنيسية من مختلف أنحاء العالم، مع الدعم المادي والمعنوي بجميع أشكاله في سبيل القضاء على الإسلام وأهله.

ومن أجل إنجاح مشروع التنصير استغلت الإدارة الفرنسية أهم المجالات الرئيسية بدءاً بالمؤثرات الفكرية من تشويه لصورة الإسلام والطعن فيه، والقضاء على التعليم العربي الإسلامي واستبداله بالتعليم الغربي النصراني، وفي هذا يقول المنصر "هنري جاسب": "إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح، وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية"⁽³⁾.

ومن وسائلهم أيضاً إثارة الشعوبية والقومية كما فعلوا مع البربرية في منطقة القبائل. ومن وسائل التبشير الخطيرة العلاج الطبي خاصة وقت الأزمات كزمن الأوبئة والمجاعات،

(1) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، 207/1

(2) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار، عبد الرحمن حَبَنَكَة الميداني، ص 53.

(3) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، ص 166.

وفي هذا يقول المنصّر موريسون: "نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين المرضى الخارجيين في المستشفيات أن ندخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية"⁽¹⁾.

ومن الوسائل التي ولجها المحتل الفرنسي من أجل التنصير استغلال الشؤون الاجتماعية، فاهتموا بالمرأة والطفل وأمر الزواج والأعمال الحرفية وغيرها. يقول المبشر صموئيل زويمر: "إن أكبر حجة كان المبشرون يدعمون بها أعمالهم التبشيرية منذ مائة سنة كانت لاهوتية دينية محضة، أما الآن فقد أصبحت أعمالهم مشفوعة بأسباب اجتماعية"⁽²⁾.

وقد عرف المشروع التنصيري من بداية الاحتلال إلى نهاية القرن 19 ثلاث فترات مهمة: الفترة الأولى: من 1830م إلى 1845م: تميزت بقدم عدد كبير من الجمعيات التنصيرية وتأسيس أول أسقفية بالجزائر.

الفترة الثانية: من 1846م إلى 1866م: وتميزت بتعيين الأسقف "بافي" الذي كان له نشاط كبير في التنصير، مع قدوم بعض الجمعيات التنصيرية إلى الجزائر.

الفترة الثالثة: من 1867م إلى 1892م أي منذ تعيين الكاردينال لافيغري إلى غاية وفاته، وهي الفترة الأكثر أهمية للنشاط الكبير المبذول فيها، ولاعتبارها تنمة للاحتلال العسكري⁽³⁾.

ومن أوائل الحوادث المشهورة التي سجلتها كتب التاريخ الجزائرية في هذا الشأن حادثة تحويل المرأة الجزائرية إلى النصرانية وحماية الإدارة الفرنسية لها - بزعمهم - من عقاب القاضي وغضب الأهالي⁽⁴⁾؛ وهو دليل من عشرات الأدلة على تواطؤ الإدارة الفرنسية في خدمة التنصير ومحو الهوية الجزائرية.

(1) المصدر نفسه، ص 179.

(2) المصدر نفسه، ص 182.

(3) ينظر: مجلة الدراسات التاريخية، أضواء على التنصير والمنصرين في الجزائر 1830 - 1892م، أ.حميد قريشلي، العدد:

15 و16، ص 316.

(4) ينظر: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 830 - 1954، د. شاوش حباسي، ص 19/ الحركة

الوطنية، أبو القاسم سعد الله، 81/1. وللتوسع في أبعاد وتفاصيل هذه القضية يراجع مذكره البوعبدلي، ترجمة

البوعبدلي، قسم التراجم، ص 67 - 68.

وقد ذكر الإبراهيمي بعض أساليبهم وسياستهم فقال: " أما المسيحية فهي حاملة اللواء، وقائدة الرعيل، ومن ورائها الاستعمار بخيله ورجله، وجيوشه، ومدافعه، وقوانينه، وأمواله، وجرائده، يحمي حماها، وينافح عنها، والحكومة برجالها، وأدواتها، ووسائلها، تمدّها بالعون، وتبذل لها المساعدة والتنشيط، وتمهد لها سبل العمل، وتوسع لها في مجال الحرية لبثّ دعايتها التبشيرية إلى أقصى حد، ومن ثم فهي تؤسس مراكز التبشير، وتعمرها بالدعاة والأطباء والمعلمين، وتجهزها بكل وسائل الإغراء والإغواء، وتغتنم المجاعات والأوبئة فرصًا لاصطياد الجوع واليتامى والمرضى لتفتنهم عن دينهم بلقمة أو ثوب أو جرعة دواء، وما مهد لها تلك الأسباب إلا الاستعمار، فهو الذي أجاع وأعرى، وهو الذي أفقر وأمّرض، وهو الذي مكن للجهل والجمود؛ كل ذلك عن عمد وقصد، وكل ذلك ليدل، ويقل، ويهيئ للمبشرين وسائل التنصير، وقد بلغ من تأييد الحكومة الجزائرية للتبشير أنها أوكلت للمبشرين في الكثير من مراكزهم توزيع المؤن المخصصة على المسلمين لتحبيبهم إلى الناس ولتيسر لهم سبل الاختلاط، حتى يجر حديث حديثًا، وتتسرب الدعاية التبشيرية بينهما، وإن توزيع التموين في زمننا هذا لسلطة تعلو على جميع السلط، وجاذب من أعظم الجواذب"⁽¹⁾.

ولو استعرضنا كلام زعمائهم في هذا المجال لوجدنا كلاما كثيرا؛ من ذلك ما صرح به الجنرال دي بورمون للقساوسة الذين كانوا معه في الحملة إثر سقوط مدينة الجزائر: "إنكم أعدتم فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع"⁽²⁾.

وعندما استقبل الملك لويس فيليب الأسقف دوبوش، فاتحه بقوله: "لا يكون العرب فرنسيين إلا عندما يصبحون مسيحيين"، ويتوقف ذلك علينا نحن الاثنين فلنعد الحياة إلى إفريقيا".

كما فاتح خليفة دوبوش الأسقف "بافي" بقوله: "يجب أن نتحلى بحسن التدبير للعمل على اعتناق العرب الدين المسيحي، أما إذا أسرعنا في ذلك فإننا سنضرر بالقضية

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 80/3 - 81

(2) من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر، المرجع السابق، ص 12.

كلها"⁽¹⁾. ونقل عن الجنرال "فالي" أنه قال: "الدين المسيحي ضروري لتحقيق أغراض الفرنسيين بالجزائر، وأن فرنسا ستبقى أطول في المكان الذي تغرس فيه صليباً من المكان الذي ترفع فيه علماً فقط"⁽²⁾.

وقد كان شعار دور الأيتام برعاية المبشرين، هو تصريح لافيغري: "علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهداً لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل.. تلك هي رسالتنا الإلهية"⁽³⁾.

1- الشخصيات والهيئات:

أ- الشخصيات:

عرفت فترة الاحتلال الطويلة شخصيات كثيرة دخلت مجال التنصير، أمثال القسيس أنطوان دوبوش 1838، وساعده الأيمن القسيس سوشي، والأسقف بافي 1846م، والمنصر العسكري والجاسوس شارل دوفوكو 1901م، وغيرهم⁽⁴⁾. لكن أهم الشخصيات التي كان لها أثر في المجال التنصيري، وخلال أهم مراحل العمل التنصيري؛ شخصية كلما ذكر التنصير في الجزائر ارتبط اسمه به ألا وهو الكاردينال لافيغري الذي لقب بـ: أبو التنصير في الجزائر وإفريقيا، والذي خلف الأسقف بافي أواخر 1866م باقتراح من الجنرال ماكهمون، وتعتبر الفترة 1868-1892م أخطر فترة للتنصير، ويرجع ذلك لأسباب منها:

- النشاط الفعال الذي أبداه في نشر المسيحية.
- مواقفه التنصيرية التي استهدفت خدمة المصالح الفرنسية بالجزائر وإفريقيا بوجه عام.
- التأييد الذي حصل عليه من بعض المسؤولين الكبار في الجزائر وحكومة باريس وعلى رأسهم نابليون الثالث.

وكان يرى أن القرآن والإسلام أشدّ عدو للمسيحية يفرض عليه محاربتهما وذلك بتنصير المسلمين، كما اهتم بالأعمال الخيرية لتوجيهها في مجال التنصير، فأنشأ المدارس الفرنسية

(1) المرجع نفسه، ص 13.

(2) المرجع نفسه، ص 22.

(3) معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، صالح عوض، ص 208.

(4) للاطلاع على دور هذه الشخصيات وشخصيات أخرى ينظر: الحركة التبشيرية الفرنسية 1830-1871، خديجة بقطاش، ص 42-56.

لتحقيق الإدماج. وفي مجاعة 1867-1868 جمع 1800 طفل في المراكز والملاجئ قصد علاجهم وتنصيرهم. وكون منهم أسرا، وأسكنهم في قريتين بسهل الشلف، عرفت بقرى النصارى العرب.

وكانت له مجلة أسبوعية تنصيرية "صدى سيدتنا الإفريقية"⁽¹⁾.

ب- الهيئات:

عرفت الجزائر هيئات وجمعيات تنصيرية عدة؛ تفاوتت بينها من حيث الجهود والتأثير. اهتم بعضها بجانب التعليم وذلك بالاتجاه نحو الأطفال، مثل جمعية "الآباء اليسوعيين" (الجزويت) التي تبنت المذهب الكاثوليكي، وجمعية "ميلد ماي" التي تبنت المذهب البروتستانت. ومن أولى الجمعيات التي قدمت الجزائر، جمعية الترابيست، تلتها جمعيات أخرى مثل "الراهبات الثالوثيات" بوهران، و"راهبات باستور الطيب"، و"إخوان العقيدة المسيحية" وغيرها.

والملاحظ هو ارتفاع عدد الجمعيات التنصيرية التي وفدت إلى الجزائر في عهد الأسقف "دوبوش"، وتلتها كذلك مرحلة ظهوره وخلفه في التنصير الأسقف "بافي"⁽²⁾. وإذا كان الكاردينال لافيغري من أشهر الأساقفة الذين عملوا في هذا المجال، فالجمعية التي أسسها في عهده هي أبرز الجمعيات التي ارتبط اسمها بالتنصير في الجزائر؛ ألا وهي "جمعية مرسلي إفريقيا" التي عرفت تاريخيا باسم "الآباء البيض"، وتفرعت عن هذه المؤسسة الأم فرقة أخرى وهي "الأخوات البيض" وشكلت جيشا من المنصرين سماه بعضهم "الجيش الأبيض". وقد استغلت هذه الفرقة الظروف القاسية التي كان يعيشها المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي، لتحاول نشر النصرانية على نطاق واسع خاصة زمن الحروب والمجاعات باعتبارها مؤسسة خيرية تهدف إلى تخفيف المعاناة عن السكان⁽³⁾.

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص 106-111، 121-122 / لافيغري والتنصير في الجزائر، ضخامة الإمكانات والجهود وضالة النتائج والمردود. قرى العرب النصارى أنموذجا، عبد القادر بوتشيشة، ص 656/ وللتوسع أكثر ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 6/119-133.

(2) ينظر: رسالة ماجستير: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904، دراسة تاريخية تحليلية، وعلي محمد الطاهر، ص 115/ أضواء على التنصير والمنصرين في الجزائر، مرجع سابق، ص 317-320 و 325.

(3) لافيغري والتنصير في الجزائر، مرجع سابق، ص 658، بتصرف

2- مناطق التركيز التنصيري:

لقد سار التنصير في الجزائر مع الاحتلال في مسار واحد، فكلما احتُل شبر تقدم العسكر وتبعه رجال الدين، فلم تخل ربوع الجزائر؛ لا شمالها ولا شرقها ولا غربها من محاولات التنصير، وحتى الجنوب بصحرائه الشاسعة عرف جهودا متواصلة لمحاولات التنصير، وما النشاط الدؤوب الذي قام به المنصر شارل دوفوكو في نشر المسيحية في صحراء الجزائر إلا جزء من ذلك. أما إذا كان الحديث عن المناطق الأكثر استهدافا للتنصير؛ فتُجمع كتب تاريخ الجزائر عند ذكر التنصير في الجزائر على ذكر منطقة القبائل، حيث جرت فيها جميع الوسائل والطرق.

وأول المحاولات الفعلية بدأت من سنة احتلالها رسميا عام 1858م، وكانت الجهات المشتركة في تنصير المنطقة تشمل كلا من العسكريين والسياسيين ورجال الدين، فشملت أولا الدراسات الاستطلاعية لإثبات قدم المسيحية بالمنطقة، وترويج التقارب والتشابه بين سكانها والفرنسيين، وأما السياسيون فقد رفعوا أعلامهم في عدة مقالات، يطالبون بتنصير المنطقة لأن البربر يزعمهم أكثر من العرب، وأنهم أقرب للمسيحية. أما رجال الدين فكان لهم النصيب الأكبر؛ فلم يملوا ولم يكلوا عن استعمال جميع الوسائل بدءا بمحاولة مسخ هوية القبائلي عن دينه وتاريخه ووطنه، فبنوا الكنائس، وشيدوا المدارس التبشيرية، وكثرت الجمعيات التبشيرية في صورة جمعيات خيرية، خاصة أثناء الأزمات⁽¹⁾.

كما يجب أن لا يهمل الدور الكبير الذي لعبه الكاردينال لافيچري في محاولة تنصير المنطقة.

المطلب الثالث: جهود العلماء في الرد على التنصير

إن موضوع التنصير في الجزائر خصوصا موضوع حساس وخطير، ذلك أنه يمس أهم مقومات الأمة الجزائرية ألا وهي الهوية الجزائرية في جميع جوانبها؛ في دينها وتاريخها ولغتها ووطنيتها، وإذا علمنا أن التنصير كان يمشي مع الاحتلال جنبا إلى جنب؛ والذي بقي قرابة قرن وثلث قرن، فإن مجابهة هذا الخطر العظيم تستدعي جهودا جبارة ومتكاثفة، ولا يمكن لشخص أو جهة واحدة أن تقف ضد هذا المشروع الطاغوي.

(1) ينظر: الحركة التبشيرية الفرنسية، مرجع سابق، ص 141-151.

فالتاريخ والواقع الجزائري أثبت أن الجزائر بجميع أطيافها (مكوناتها الوطنية)، وفي جميع مراحل الاحتلال قد وقفت ضد مشروع التنصير؛ فشملت السياسيين والإداريين، وشملت الأفراد والجمعيات، وشملت رجال الدين بمختلف توجهاتهم، وحتى عموم الشعب الجزائري المغلوب على أمره شارك في هذا الجهاد وأثبت صلابته الدينية وشخصيته الجزائرية رغم الظروف القاسية التي مورست عليه.

إلا أن المقصود هنا في هذه الدراسة هو جهود العلماء والدعاة على سبيل العموم لا الاستقصاء، لذا سيقتصر على علماء الطرق الصوفية، وعلماء الإصلاح، وعلماء الإباضية⁽¹⁾.

1- جهود علماء الصوفية في الرد على التنصير:

لقد كان الطابع العام على الجزائريين خلال القرن 19 هو الانتساب للطرق الصوفية، وذلك قبل تدجينها وظهور الحركات الإصلاحية، وقد عُرفت هذه المرحلة بالمقاومات الشعبية التي عمت أرجاء الجزائر، والتي قاد أغلبها زعماء الطرق الصوفية، حيث كان الدافع الأول دينيا لا دنيويا، فقد كانت نظرهم للاحتلال الفرنسي أنه حملة صليبية على الإسلام وأهله، يوجب عليهم الدفاع عن هذا الدين بالنفس والنفيس، وهذا ما يوضح سبب ندرة الردود الكتابية لاختلاف طبيعة الرد عن غيرهم ومن جاء بعدهم؛ فقد كان ردا عمليا جهاديا لا كتابيا سياسيا.

و"لا غرابة أن تكون سياسة التنصير عاملا في دفع الجزائريين إلى الثورة. على الرغم من أن رسائل المقراني وبومزراق وقادة الإخوان الرحمانيين، لا تشير صراحة إلى قضية التنصير، إلا أن العامل الديني كان الحافز الأساسي لاستنفار الناس وحضهم على الجهاد وحمل السلاح. ففي رسالة الباشاغا إلى الشيخ بن كابه، وكبراء قرية (بو جليل بني عباس) قال بعد التحية: (وبعد فتوكلوا على الله ورسوله، وتقدموا إلى الجهاد لنصرة دينكم عزما). فهو يدعو الناس إلى الجهاد لنصرة دينهم. وتلك هي عقلية جماهير الجزائريين تجاه النصارى - المسيحيين المسيطرين على بلادهم. ولا بد أنها عقلية جاءت نتيجة سياسة التنصير التي عملت الكنيسة على تحقيقها منذ

(1) وهو تقسيم اجتهادي، وافق فيه تقسيم الباحث في كتابه: "جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير"، لاعتبارات اجتهادية، إذ يمكن إضافة جهود أخرى مثل جهود الموظفين الرسميين.

الاحتلال"⁽¹⁾.

وقد ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله جهودا أكثر تفصيلا في هذه المرحلة فقال: " لقد عارض الجزائريون حركة التبشير منذ البداية ورأوا فيها خطرا على هويتهم ودينهم. تحصنوا أولا في بيوتهم فلم يرسلوا بأولادهم إلى مدارس الإدارة الفرنسية خوفا عليهم من التنصير والفرنسة المتلازمين. واحتجوا على تحويل المساجد إلى كنائس. وحين انتقل العمل الديني الفرنسي من المدن إلى الأرياف رأينا ردود فعل المناطق المعنية مثل زواوة والشلف والأغواط وورقلة. وكانت ثورة 1864 ثم 1871 ترجعان جزئيا إلى توغل حركة التنصير وتحديدها لمشاعر المسلمين. فقد لجأت هذه الحركة إلى استخدام وسائل الإغراء مستغلة حاجة السكان إلى العلاج والمساعدات الخيرية والتعليم، فنصبت الورشات والمصحات وبعض المدارس التي كانت مفيدة للأهالي. ولكنها كانت أفحاحا لاصطياد الضحايا الذين كانوا قلة من الناس. وكان رجال الكنيسة أنفسهم قد اعترفوا أن الناس كانوا يأخذون منهم دون أن يقعوا في حبالهم. وكان للمرابطين ورجال الزوايا دور في رفض التنصير وإبعاد أتباعهم، فكان المتصلون منهم بالسلطة الفرنسية يحتجون لديها وينذرونها بسوء العواقب، مثل ما فعل ابن علي الشريف. وأما غير المتصلين بالسلطة فكانوا يقاومون بوسائلهم الخاصة بتنبيه الغافلين ووعظ الناس عن طريق المقدمين والإخوان. وقد وصلت المقاومة إلى العنف ضد القساوسة والتخلص من بعضهم جسديا في الصحراء، مثل مقتل دي فوكو"⁽²⁾.

وأشهر الطرق الصوفية التي عرفت بمقاومتها الدينية على الحملات الصليبية؛ هي الطريقة الرحمانية⁽³⁾، والقادرية⁽⁴⁾، والهبرية، إضافة إلى طرق أخرى لم تبلغ شهرة التي سبق ذكرها⁽⁵⁾.

(1) سلسلة جهاد شعب الجزائر، بسام العسلي، 205/5

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، (6/139-140).

(3) فمن ثوراتهم "ثورة الوسط التي كانت في بلاد القبائل وعمت برج بوعرريج شرقا ووصلت إلى بعض الحدود الغربية كانت تحت سلطة الإخوان الرحمانيين ونقصد بذلك ثورة سنة 1871م بقيادة الشيخ المقراني والشيخ الحداد والتي كان الدافع إلى قيامها هو تعدي المبشرين على حرمة الدين ودعوة المسلمين إلى دين النصرى وسب دين الإسلام فترك الإخوان الرحمانيين خلواتهم واتجهوا إلى الجهاد المقدس ضد أعداء الدين من النصرى". نقلا عن مذكرة جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962م، عبد الرؤوف قرناوب، ص 132.

(4) وجهاد الأمير عبد القادر في هذا المجال نار على علم.

(5) ينظر المرجع نفسه، ص 121.

وبالقضاء على المقاومات الشعبية مطلع القرن العشرين دخلت هذه الطرق مرحلة جديدة هي مرحلة التدجين، وقد نجحت السلطات الفرنسية في ذلك نجاحا كبيرا، وهو ما أدى إلى نتيجة تتعارض فيها موالاة كثير منهم لسلطة الاحتلال مع الرد على التنصير الذي تؤيده وتدافع عنه فرنسا؛ فهذا هي الطريقة العلاوية التي كان لها جرائد ومجلات خصصت منها جزء في الرد على التنصير وأهله، إلا أن هذا الرد كان منصبا على الجماعات البروتستانتية دون المذاهب الكاثوليكية؛ لعداء الأولى للسلطة الفرنسية بخلاف الثانية⁽¹⁾. وهذا لا يعني إنكار أن لهم جهودا مبذولة في هذا الشأن، فقد كانت لهم كتابات ومقالات كان لها في العموم أثر في تثبيت المؤمن على دينه والتنفير من مخططات الاحتلال الفرنسي التنصيرية.

وبتتبع بعض جرائد الطريقة العلاوية من حيث المنهج المتبع في الرد على التنصير نجد أنها سلكت طرقا كثيرة منها⁽²⁾:

- نقل أخبار مؤتمرات التنصير وفضح بعض الأعياب المستشرقين⁽³⁾.
- الاطلاع على محتوى الكتاب المقدس، ونشر المخازي الموجودة في كتبهم المحرفة كالطعن في الأنبياء والخط من أقدارهم⁽⁴⁾.
- فضح دسائس المبشرين والإرساليات التنصيرية⁽⁵⁾.
- الاحتفال بدخول بعض الأوروبيين إلى الإسلام، وحكاية أخبارهم ونقل بعض مسائل الإيمان المتعلقة بهم⁽⁶⁾.
- تنبيه الأولياء الذين يبعثون أولادهم للمدارس الفرنسية للتحلي باليقظة والحيطه، وحفظهم من الذوبان والانحلال⁽⁷⁾.

(1) ينظر هذا السلوك للطريقة العلاوية: المرجع نفسه، ص 121.

(2) للتفصيل أكثر في منهجهم في الرد على التنصير ينظر: المرجع نفسه، ص 123 - 136.

(3) ينظر مثلا: فيم تبشرون البلاغ الجزائري، عدد 77، السنة الثانية، 24 محرم 1347/12 جويلية 1928، ص 2.

(4) ينظر: المصدر نفسه.

(5) ينظر: مساعي المبشرين، البلاغ الجزائري، العدد 72. السنة الثانية، 19 ذي الحجة 1346هـ - 8 جوان 1928م.

(6) ينظر: عشر نسمة يعتنقون الإسلام في احتفال السادة العلويين بكاردف، لسان الدين، عدد 15، 9 رجب 1355هـ،

ص 2

(7) ينظر: أخطار المبشرين، البلاغ الجزائري، عدد 248، 18 شوال 1350/26 فيفري 1932، ص 2.

- نقل بعض أخبار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لبعث الحماس والثبات في نفوس المسلمين⁽¹⁾.

وفي الجانب الآخر بعيدا عن المقاومات والجرائد والمجلات، نجد دورا مهما للزوايا التعليمية طيلة فترة الاحتلال؛ فقد "كانت تعتبر حصونا للعقيدة والإيمان، ومراكز لتحفيظ القرآن، وتعليم الدين فقد ركزت أيضا على تعليم اللغة العربية بهدف تعليم الدين ونشره، وفهم القرآن وما يتصل به من علوم التشريع والأخلاق والعقائد والتفسير والحديث إلى غير ذلك من علوم الدين واللغة، وبذلك عملت الزوايا على الإبقاء على مبادئ الشخصية العربية الإسلامية، ومقاومة سياسة التنصير، وساهمت في حماية المجتمع من الذوبان في ثقافة المحتل وعقيدته"⁽²⁾.

2- جهود علماء الإباضية في الرد على التنصير:

الإباضية نسبة إلى مؤسسها عبد الله بن إباح التميمي، ويعرفون في الجزائر ببني ميزاب نسبة إلى منطقة واد ميزاب الواقعة بمدينة غرداية جنوب الجزائر. اشتهر "لديهم نظام اسمه (حلقة العزابة) وهي هيئة محدودة العدد تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاً وتقوم بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي الدينية والتعليمية والاجتماعية والسياسية، كما تمثل مجلس الشورى".

الذي كان لها الأثر الواضح في نشاط الحركة العلمية والحضارية للمجتمع الإباضي⁽³⁾. "ومنذ احتلال الصحراء في أوائل الخمسينات عوملت ميزاب معاملة خاصة حين أعطيت نظام الحماية الفرنسية مع الاحتفاظ بأمورها الداخلية من شعائر وعزابة وتعليم وتجارة وقضاء. ولكن في سنة 1882 شمل الاحتلال المباشر ميزاب أيضا ورفع عنها نظام الحماية، وسمح لأهلها بممارسة شعائرهم حسب مذهبهم"⁽⁴⁾.

ومنذ قدوم الكاردينال لافيغري وتولييه مندوبية إرسالية الصحراء ازداد النشاط التنصيري

(1) ينظر: امبراطور اليابان يشيد مسجدا في عاصمته، البلاغ الجزائري، العدد 324، 19 رمضان 1353هـ / 6 جانفي 1934م، ص 4

(2) الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، د. عبد العزيز شهبي، ص 43-44.

(3) الموسوعة الميسرة 1/58، 61/ وينظر تاريخ الجزائر الثقافي 5/176/ الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، 169-171.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي 7/77-78

بالصحراء الجزائرية، وبتعيين شارموتان رئيساً لمركز الأغواط توغل النشاط إلى بسكرة وورقلة وميزاب ومثليي عن طريق الآباء البيض والأخوات البيض وفتح المستوصفات والمعامل والمدارس في ظل أوضاع السكان القاسية.

وفي غرداية تحديداً أقام المنصرون مركزاً للأخوات البيض؛ فكّن يقدم تعليمًا حرفيًا للبنات الأهليات، كما دخل بعض الفتيات الميزابيات معامل الخياطة والطرز والحرف، حتى بلغ الاحتكاك إلى زيارة النساء في بيوتهن، فكان الاهتمام بالمرأة الميزابية كبيراً⁽¹⁾.

ولم يكن المجتمع الميزابي يجهل نوايا الحركة التنصيرية فكان بداية الأمر مغلقاً على نفسه، ورفض التعامل مع هذه المراكز، ولم يكن من السهل اختراقه؛ لكن سرعان ما تغير الوضع بسبب الحاجة إلى المساعدات الاجتماعية خاصة الطبية منها، ومع هذا لم تنجح هذه السياسة في الوصول إلى مآربها بسبب تماسك المجتمع وصموده، مما أدى بالآباء إلى إنشاء مركز لدراسة المجتمع الصحراوي؛ أطلق عليه مركز الوثائق الصحراوية⁽²⁾.

إن هذه المعطيات تدفع للتساؤل عن ردة فعل المجتمع الميزابي تجاه التنصير رغم كل هذه الجهود المبذولة وتسهيل الإدارة الفرنسية وتواطئها.

والجواب أن المقاومة كانت قوية شكلاً ومضموناً؛ فكان المجتمع الميزابي بداية الاحتلال من المشاركين في الثورات الشعبية ضد الحرب الصليبية الفرنسية⁽³⁾، كما تزامن ذلك مع وجود علماء في المنطقة كان لهم أثر بالغ في تماسك المجتمع الميزابي؛ على رأسهم الشيخ أطفيش الذي كان المرجع لأهل ميزاب في الشؤون الدينية. فمن جهوده أنه كتب رسالة احتجاج إلى الوالي العام يحذر فيها من المساس بالمساجد، ويتوعد بالانتقام، وذلك لما حاول المستعمر الفرنسي هدم الجامع الكبير بالعاصمة⁽⁴⁾.

كما أنه حذر من اقتناء نسخ التوراة والإنجيل محاربة للتنصير والتهويد معاً، وقد صرح بذلك في تفسيره فقال: " وفي عصرنا كثرت نسخ التوراة والإنجيل بلفظ العربية وخطها، والصواب ألا تشتري ولا تباع ولا تُقبل، ويسمونّها العهد القديم، والإنجيل العهد الجديد، ولو

(1) ينظر أطروحة: الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1945 و1920، عبد القادر قوبع، ص142

(2) ينظر: جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير، مرجع سابق، ص139.

(3) ينظر: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص188-189.

(4) ينظر: الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، عدون جهلان، ص110

كان فيهم خير لاتبعوا العهد الأجد، وهو القرآن⁽¹⁾.

و ذكر أحد الباحثين أن من أهم ما كتب في المقارنة بين الأديان والرد على المنصرين في تلك الفترة كتاب الشيخ "أطفيش" واسمه "رد الشرود إلى الحوض المورود" وهو كتاب تناول فيه مؤلفه عقيدة النصاري وما لحقها من زيغ وانحراف مستدلا بذلك من الكتاب المقدس، والكتاب يقع في 12 بابا، ونقل عن بعضهم أن الكتاب موجود في مكتبة الشيخ أطفيش بني يسقن وهو مخطوط. كما أنه كتب كذلك رسالة ثانية في الرد على أحد الإنجليز الذي كان يطعن في الدين الإسلامي ويشكك المسلمين في دينهم بتونس، فكتب له ردا وصفه من اطلع عليه أنه مفحم، وفي نفس الوقت أرسل إليه يدعوه للحضور إلى مزاب للمناظرة وسمى هذه الرسالة "قذى العين على أهل اليقين"⁽²⁾.

وقد برز بعد الشيخ أطفيش علماء آخرون، خاصة بعد ظهور الحركة الإصلاحية وانتشار الجرائد والمجلات، وكان من أبرزهم الشيخ بيوض⁽³⁾ والشيخ أبو اليقظان؛ أما الأول فبرز في مجال التدريس والوعظ والإرشاد، ويعتبر المعهد الذي أسسه في القرارة أهم معهد أسس في تلك الفترة، فقد كان مركز إشعاع علمي، وجامعة مفتوحة يؤمها كل الناس، استطاع بفضلله أن يزرع في قومه استعدادا للاستجابة إلى كل ما يمليه المسجد أو يدعوه إليه⁽⁴⁾.

وسبب تأسيس المعهد ما ذكره بعضهم في قوله: "وتأسيس الشيخ بيوض لمعهد في فترة

(1) تيسير التفسير، الحاج بن محمد يوسف أطفيش، 2/182 / وللتوسع أكثر في جهود الشيخ أطفيش ينظر مجلة الواحات للبحوث والدراسات، عدد 12، جهود الشيخ أطفيش الإصلاحية ومواقفه الوطنية، بالحاج أوزايد/ منهج الشيخ أطفيش في التعامل مع السنة النبوية، فتحي دادي بابا.

(2) جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير، ص 143 - 144

(3) إبراهيم بن عمر بن بابة بن إبراهيم بن حمو، الملقب ببيوض [1316 - 1400 هـ / 1899 - 1980 م]

عالم إباضي، مفسر، مجاهد، من أكابر العلماء المسلمين ورجال الإصلاح في وقته، من أهل القرارة بالجزائر، مولدا وإقامة ووفاة. اشتغل بالتعليم الديني مدة طويلة، وشارك في النهضة الإصلاحية، السياسية والدينية، التي مهدت لقيام الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي سنة 1954. من آثاره "تفسير القرآن الكريم" اشتغل به تدريسا. معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض، 1/17.

(4) ينظر: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص 177، ومعلومات أكثر عن هذا المعهد وتجربة الشيخ بيوض التربوية، ينظر: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، بسام العسلي، ص 198 وما بعدها.

الاستعمار البغيض حصنا للعقيدة ورباطا لمواجهة الزحف الصليبي فهذا في نظره هو الحل الوحيد والسليم لمواجهة ومهاجمة الثقافة الفرنسية الهادفة إلى تحريف وتعقيم أصالتنا وديننا الإسلامي⁽¹⁾.

إضافة إلى دور الوعظ والإرشاد والتعليم كان لنظام العزابة عموما ورياسة الشيخ بيوض لها خصوصا -مدة نصف قرن تقريبا- دور كبير في تماسك المجتمع الميزابي وصموده أمام جحافل التحجيل والتنصير والمسخ الفرنسية، فقد استعملت هيئة العزابة هيئتها وسلطتها الروحية على المجتمع في الرد على التنصير، وذلك بعدة طرق ووسائل فتارة تصدر الفتاوى التي تحرم التعامل مع الأجنبي كما فعلت مع مدارس الآباء البيض، وتارة بإعلان البراءة من كل مزابي يتصل بالفرنسيين، مما أدى إلى رفض التعامل مع كل الجهات⁽²⁾.

وأما الرجل الثاني وهو الشيخ أبو اليقظان فقد برز في مجال الصحافة والكتابة بجرائده ومقالاته المعروفة بقوة ألفاظها وجزالة معانيها. والتي كانت كلماته أشد وقعا من السيوف وسط المعارك، ساهمت بشكل كبير في نشر الوعي بين المجتمع الجزائري؛ مما أدى إلى تعطيل جرائده من طرف الإدارة الفرنسية مرات متتالية. وقد تناول قضية التنصير بمختلف أسبابها وأبعادها ونتائجها، فهاجم المنصرين والمؤتمرات التنصيرية، ونادى العلماء بسلوك الجد والوقوف ضد هذا الباطل⁽³⁾. كما ذكر كثيرا من مخططاتهم وسبل مواجهتها⁽⁴⁾.

3- جهود الإصلاحيين في الرد على التنصير:

إن المتفحص لجهود الإصلاحيين تجاه الحملات التنصيرية الفرنسية في الجزائر يجد أنها كانت جهودا جبارة؛ شملت أغلب الوسائل الممكنة إن لم تكن جميعها، فتنوعت ردودهم بين كتابة المقالات الكثيرة والمتنوعة، وتأليف الكتب الخاصة، وتوعية عموم الناس من خلال

(1) الفكر العقدي عند الشيخ بيوض وآثاره في الإصلاح، حمو بن عيسى الشيهاني، ص362: نقلا عن جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير، ص149.

(2) ينظر: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص177/ جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير، ص142.

(3) ينظر مثلا: واد ميزاب، مؤتمرات المبشرين ضد شمس الإسلام، عدد، 88 الجمعة 3 محرم 1346 - 22 جوان 1928، ص2، وينظر مقالات أخرى حول هذا الموضوع في الأعداد 80، 83، 85، 87.

(4) ينظر مثلا: وادي ميزاب، دسائس المبشرين في بلاد الإسلام، ع57، 17 نوفمبر 1927.

دروس المسجد والنوادي، كما أنشؤوا المدارس التي كانت حصنا منيعا في وجه التنصير إضافة إلى الرحلات العلمية والزيارات الميدانية⁽¹⁾.

وأول ما يتبادر إلى الذهن إذا ورد ذكر الإصلاحيين هو جمعية العلماء المسلمين التي نالت الحظ الأوفر في الإصلاح عملا وأثرا وتميزت بعملها الجماعي، لذا سطع نجم أعضائها البارزين في كل أفق إسلامي. وفي هذا الشأن يقول أبو القاسم: "و حين ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قاومت التنصير وهاجمته بقوة، وسخرت صحفها ودروس المساجد إلى كشف مخططاته. وكان كتابها يتصدون أيضا للمنحرفين الذين وقعوا ضحية التجنس. فوقفوا ضد لحمق، وبيلاح، وسعدي اواكلي، والزناقي وغيرهم. وهاجمت جريدة (الشريعة) ما قام به الآباء البيض سنة 1933 حين استعرضوا المنتصرين الجزائريين بلباسهم المحلي وسط العاصمة، ومعظمهم كانوا من أطفال العائلات الفقيرة. واعتبرت الجريدة ذلك إهانة لمشاعر المسلمين وتحديا لها. كما هاجمت ما كانت تكتبه وسائل إعلام الكنيسة من التفريق بين المسلمين الجزائريين وادعاء أن البربر قرييون من الإنجيل وأنهم لذلك يقتربون من أخلاق الفرنسيين"⁽²⁾. وفي هذا المقام يحسن ذكر أمثلة تفصيلية لبعض هذه الجهود المتنوعة.

ففي مجال التأليف الخاص في الرد على التنصير-على قلته فترة الاحتلال-؛ برز كتاب محمد السعيد الزاهري: "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير"، وهو ضمن بحوثه في الإصلاح والنهضة، ومقصود الكتاب من خلال عنوانه هو أن الإسلام رغم كماله وجماله يتعرض لهجمات تشويه وتنفير، مما ركب صورة سيئة لدى كثير من الغربيين وبعض المسلمين، ولو أن أبناءه دعوا إلى الإسلام؛ بإبراز تعاليمه السمحة، وأحكامه الملائمة للإنسانية التي يقتنع بها كل عاقل غير متعصب، وردوا على تلك الشبه والدعاوى الملصقة به لانتشر الإسلام في أقطار المعمورة⁽³⁾، ولا تقتصر هذه الدعوة على الرجال أو أصحاب الشهادات، بل تعم الرجال والنساء وأصحاب الشهادات وغيرهم؛ والكتاب عبارة عن قصص واقعية تضمنت بعض وسائل أعداء الإسلام في الطعن في هذا الدين وتشويه صورته، وكيف تحول كثير ممن تأثر بهذه

(1) حتى باب الجهاد بالسنن زيادة على اللسان ولجه الإصلاحيون لما اندلعت الثورة التحريرية المباركة عام 1954م.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 6/139-140

(3) وفي هذا يقول الزاهري: "لو أن لهذا الإسلام هداة يهدون بالحسنى، ودعاة ينشرون الإسلام في أوروبا وأمريكا وغيرها لما لبثت الكرة الأرضية إلا يسيرا حتى يغمرها الإسلام بنوره"، ص 18.

الشبه من معاد للإسلام إلى مدافع عنه بفضل كلمات في الدعاية إلى الإسلام والتبشير به، من ذلك ما ذكره عن تلك المرأة الغربية التي ألقت كتابا في تحرير المرأة والدعوة الضمنية لنبد الإسلام، فقابلته بعض المسلمات العاميات بنقد الكتاب بالحجة والبيان؛ مما كان سببا في نبد الكاتبة لكتابها، بل وتأليف كتاب في محاسن المرأة المسلمة وحجائها⁽¹⁾، كما ذكر خطر المدارس الفرنسية التي تبث سمومها التبشيرية في سلخ المسلم عن هويته ودينه، من خلال نماذج لبعض الشباب الجزائري الذي أصابه هذا الداء وتداركه الله بالدواء⁽²⁾، وتطرق لأثر الحكومات في تغذية الروح العدائية من خلال مقارنته بين الحكومة الفرنسية، والحكومة الإسبانية مع رعاياهم المسلمين⁽³⁾. ونبه إلى أن الذين يطعنون في الدين ويفجرون في الخصومة أقل خطرا وتأثيرا ممن يدسون السم في الدسم، ويلبسون على الناس دينهم؛ من ذلك تلبسهم على بعض المتصوفة أن التصوف والمسيحية دين واحد⁽⁴⁾. كما أشار إلى دور الجرائد والمجلات في التصدي للتنصير ومواجهته، وأثر تفرق المسلمين فيما بينهم والغفلة عن انتشار التنصير، وقد ركز على أهم عامل في ثبات المسلم وهو التمسك بكتاب الله والتحاكم إليه، ثم ختم كتابه بقوله: "فينبغي لعلماء الدين أن لا يتركوا الاستعمار يغلبنا على تلك الطائفة المتعلمة من الشبان، ولو أن علماءنا زودوها بالمعلومات الإسلامية الصحيحة، لقامت للإسلام بدعاية نشيطة وتبشير واسع النطاق ومن هذه الحوادث الواقعة التي تلوتها عليك تعلم أن التبشير الإسلامي لا محالة مفيد، وأن الدعاية إلى الدين الحق، لا بد أن تترك أثرها المحمود، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"⁽⁵⁾. وفي أثناء كتابه ذكر نتيجة مهمة وهي أن المسلمين لا يمكن أن يتركوا الإسلام ويتنصروا⁽⁶⁾.

(1) ينظر فصل: الكتاب الممزق: ص 18

(2) ينظر فصل: صديقي عمار، ص 25، وفصل طلبة إفريقيا الشمالية ص 32.

(3) ينظر فصل: حنين الإسبان إلى العرب، ص 90.

(4) ينظر فصل: كيف يغوون شبانا، ص 108.

(5) ص 120.

(6) وتحدث الزاهري في هذا الصدد عن عجب صاحبه فقال "فعجب صاحبي من نشاط التبشير المسيحي في بلاد

الإسلام مع أنه لا يلاقي إلا كل خيبة ولا ييؤ إلا بالفشل والإخفاق"، ص 84.

وينظر تعليق أبي القاسم حول مضمون هذا الكتاب: تاريخ الجزائر الثقافي، 169/7

أما جهودهم في الرد على التنصير من خلال الجرائد والمجلات فباب واسع يعسر حصره وعرضه، لكثرة مع تنوع مواضيعه، ففي بعضها حذروا من خطر المبشرين، وفي نفس الوقت جادلوههم وأفحموهم بالحجج والبراهين، فنصحوهم بأن الأولى هداية بني جنسهم في بلاد أوروبا، فهم أكثر فسادا وضياعا، بل والخروج من المأزق الذي هم فيه إذ إن حكوماتهم تتبرأ من المسيحية وكنائسها لأنهم كانوا سببا في كثير من الجرائم والفضائع، كما خاطبوا الحكومة الفرنسية بأن المبشرين عرقلوا سياستها؛ فهم حجر عثرة في السعي المبذول لتحسين العلاقة بين المسلمين والفرنسيين، وذلك بجرح عواطفهم وإثارتها. ونبهوا إلى أن الحكومة لم تكن من ورائهم سوى الخسارة الأدبية والمالية⁽¹⁾.

وحذروا أيضا من مؤتمرات التبشيرية التي يجتمعون فيها على نفث سمومهم تجاه المسلمين⁽²⁾.

وحذروا أيضا من خطر المدارس الفرنسية النصرانية التي تفسد عقيدة الطفل الجزائري وصبغته الدينية، ونصحو الآباء بتفضيل المدارس العلمانية على النصرانية، حفاظا على دين أبنائهم وبلوغا بهم للثقافة والعلم⁽³⁾.

كما تعرض أعضاء الجمعية للجزائريين الذين تنصروا، وناقشوا عدة مسائل متعلقة بهم، شفقة عليهم ونصحا لهم وخوفا على غيرهم من أن يسلكوا طريقهم، وتأثروا لحالهم في مقابل استهزاء المنصرين بهم وبهيئتهم، كما ذكروا أعظم سبب لتنصر هؤلاء وهو استغلال حاجتهم إلى الطعام والشراب، وربما خوفا على أولادهم من الهلاك؛ والنتيجة المقررة عندهم أن هؤلاء المرتدين لم يتركوا دين الإسلام حبا في النصرانية ولكنهم تنصروا لأسباب جماعها الفقر والجهل والعجز، فضلا أن أغلبهم كانوا يتامى صغارا لا ناصر لهم ولا مرشد استغلهم المبشرون.

كما حملوا جزء من اللائمة على الأغنياء المسلمين الذين لو تحملوا مسؤولية إخوانهم الفقراء لنجى كثير منهم من مكر المنصرين وجلبهم إلى ملاجئهم ومدارسهم، وفي نفس الوقت ردوا على كثير من الشبه بل والدعاوى الباطلة كمحاولتهم التفريق بين المسلمين الجزائريين

(1) ينظر: الفرق، نحن والمبشرون، جريدة الشهاب، عدد9، الخميس 10 شعبان 1326/2 فيفري 1928، ص9

(2) ينظر مثلا: الشهاب، مؤتمر التبشير في فلسطين وشكوى الجمعيات الإسلامية منه، عدد144، الخميس 6 ذي

القعدة/ 26 أبريل 1928، ص2

(3) ينظر: الصراط، مدارس الحكومة العلمانية والمدارس الفرنسية، الإثنين 4 رجب 1352 / 23 أكتوبر 1933، ص 6

بإدعاء أن البربر قرييون من الإنجيل وأنهم يقتربون من أخلاق الفرنسيين⁽¹⁾.

ومن الجهود العظيمة التي وقفت في وجه التنصير، والتي برزت آنذاك رغم المضايقات الحكومية، وقلة ذات اليد، وشساعة الجزائر الجغرافية؛ هي إنشاء المدارس الحرة الإسلامية؛ التي جمعت برامجها بين الثقافة الدينية والدنيوية، وكونت الشخصية الجزائرية المسلمة، والتي أنشأت جيلا لا يعترف إلا بالإسلام دينا وبالعربية لغة وبالجزائر وطنا⁽²⁾.

كما أن الدروس والمحاضرات والخطب الكثيرة التي كانت تعرف بالإسلام ومحاسنه، وتذكّر بشرائعه وحسن تعليقه، كانت كافية لكثير من الجزائريين أن يثبتوا على دينهم، بل وينقلبوا إلى دعاة وحماة لهذا الدين⁽³⁾.

يضاف إلى هذا كله الرحلات العلمية والزيارات الميدانية لعلماء الإصلاح في مواجهة التنصير التي أفصحت عن إيمان عال ويقين كبير وشجاعة منقطعة تحلى بها هؤلاء الرجال. وها هو الشيخ محمد خير الدين⁽⁴⁾ يذكر في مذكراته إحدى الرحلات المباركة في هذا المجال؛ وذلك حين وردت جمعية العلماء رسالة استغاثة للدفاع عن الإسلام بورقلة، تقول: "إن الحاكم قد حوّل السلطة لقساوسة الآباء البيض، في منع المسلمين من الصلاة في المسجد، ونقل التلاميذ من المدارس القرآنية إلى مراكز التبشير"⁽⁵⁾. فأرسله على إثرها الشيخ ابن باديس مبعوثا حيث أعد تقريرا شاملا لما يحدث بورقلة، رُفع إلى الشيخ ابن باديس، فما كان منه إلا

(1) الشريعة، ألف وسبعماية مسلم - يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتقون النصرانية الكاثوليكية، الزاهري، 1 ربيع الأول 1352 / 24 جويلية 1933، ص 6

(2) وهو الشعار التي سارت عليه الجمعية وجعلته أهم مبادئها. ومن أمثلة هذه المدارس الأكثر شهرة وأثرا: معهد ابن باديس بقسنطينة، ودار الحديث بتلمسان. وسيأتي مبحث خاص عن المدارس الجزائرية ودورها في فصل الوسائل الدعوية.

(3) ومن تتبع مثلا دروس الشيخ ابن باديس المسجدية في التفسير والحديث، وخطب الزواوي، ومحاضرات الإبراهيمي، وغيرهم مما يتعذر حصرها ووصفها، ظهر له هذا الأثر الطيب عيانا على عموم الشعب الجزائري. وسيأتي وصف بليغ للشيخ خير الدين أثناء زيارة الشيخ ابن باديس لبسكرة.

(4) (1310 - 1413 = 1895 - 1994): أحد كبار العلماء بالجزائر، وأحد الأعضاء البارزين المؤسسين لجمعية العلماء، ولد ببسكرة وبها تعلم، تتلمذ لابن باديس، انتخب بعد الاستقلال عضوا في المجلس الوطني، اهتم بخدمة الإسلام والدعوة إليه ونشر العربية ومحاربة الفرونكفونية والتغريب، انقطع في آخر حياته عن الناس وكتب ذكرياته ونشرها. الإعلام بأعلام الجزائر من كتاب الأعلام، عبد الغني عيساوي، ص 197 - 198.

(5) مذكرات خير الدين، 1 / 272

أن "بادر رحمه الله إلى رفع الاحتجاجات إلى الدوائر الرسمية في الجزائر وفرنسا والصحافة المحلية والأجنبية، وكان لهذا العمل صدى عميق في شتى الأوساط، وتحققت نتائج إيجابية، حيث توقف المد الصليبي في هذه الجهة وعاد المسلمون إلى صلواتهم في مساجدهم، وعاد أبناءهم إلى الكتاتيب القرآنية يلهجون بالقرآن ترتفع حناجرهم بترديد آيات الله"⁽¹⁾.

وقد ذكر بعض الباحثين من الطرق التي واجهت بها الجمعية التنصير زيادة على ما تقدم من دعوة الأمة إلى الإنفاق، والاهتمام بالأيتام، واستيعاب الأطفال في المدارس الإسلامية، ورفع الصوت عاليا بالاحتجاج والاستنكار، ذكر مهادنة الطرق الصوفية، والسكوت عن الزوايا والطرق في الأماكن المستهدفة بالتنصير مثل منطقة القبائل، حتى لا يستغل الصراع الداخلي من طرف المبشرين. وهذا من فقه المقاصد، ودرء المفسدة الكبرى على الصغرى⁽²⁾.

إن الخلاصة التي يصل إليها كل باحث منصف في مسألة التنصير رغم الجهود المبذولة من معونة الحكومة الفرنسية، واستعمال المكر والقوة، وإنفاق الأموال، وتجنيد الرجال والنساء، وطول مدة التبشير (132 سنة) إلا أن النتيجة الواقعية هي أن التنصير في الجزائر باء بالفشل الذريع، بفضل الله ثم بفضل تماسك نسيج المجتمع الجزائري وحصانته الدينية، وبفضل جهود أبنائه الجليلة.

ويعتبر جواب سكان منطقة القبائل للضابط الفرنسي مبدأ لهم ولكل الجزائريين الشرفاء: "إننا لن نتخلي أبدا عن ديننا، وإذا كانت الحكومة تريد إرغامنا على ذلك، فنحن نطلب منها الوسيلة لمغادرة البلاد. وإذا لم نجد هذه الوسيلة فنحن نفضل الموت على التخلي عن ديننا"⁽³⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 1 / 274.

(2) ينظر: ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص 77

(3) موجز في تاريخ الجزائر، عمورة، ص 125.

الفصل الثاني:
جهود علماء الجزائر في الإصلاح الاجتماعي
من 1830 إلى 1954 م

المبحث الأول: الحفاظ على الهوية الوطنية.
المبحث الثاني: إحياء التعليم والحفاظ على اللغة العربية
المبحث الثالث: معالجة الانحرافات والمشاكل الاجتماعية



المبحث الأول:

الحفاظ على الهوية الوطنية.

تمهيد:

تشكّلت معالم الهوية الجزائرية على مدى عصور من الزمن، وكوّنت كيانا ذاتيا للجزائريين على الأرض الجزائرية، كان في مقدمة مرتكزاتها الأساسية التي شكلت الهوية الجزائرية هي العروبة والإسلام وتاريخ الجزائر وجغرافيته؛ فقد كان الإسلام القاسم المشترك الذي جمع سكان هذا البلد بمختلف شرائحهم وانتماءاتهم العرقية، وأثر في علاقاتهم وعاداتهم، أما اللغة فعلاوة على كونها أداة تواصل لها مكانتها في الحياة الاجتماعية، فهي مرتبطة عضويا بالمكوّن الأول، وأما التاريخ وجغرافيته فيبرز في كون التركيبة السكانية تكونت من سكان البلاد الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وأصبحوا جزءا من الثقافة العربية الإسلامية، لها خصوصيتها المميزة ومصالحها المترابطة، كل هذا ارتبط بالأرض التي احتضنتهم عبر تاريخ الإسلام الطويل، حيث أيقنوا أنهم مسؤولون على الحفاظ عليها والدفاع عنها، ضمن حدود اقتضتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية⁽¹⁾، ومن ذلك الاستعمار؛ الذي احتل الأرض الترابية وسعى منذ استيطانه بكل ما أوتي من إمكانيات ووسائل لتغريب المجتمع الجزائري، وسلخه عن قيمه ومرتكزاته الأساسية، توصّلا لحو مقومات شخصيته التي يتميز بها، أو زعزعتها وتشويهها على الأقل، لأن فرنسا كانت تعلم أن هذه الأمة ما دامت متمسكة بإسلامها وعريتها وتاريخها وحضارتها وقيمها، فإن الخطر محقق لا محالة بالكيان الفرنسي، ومهدد لوجوده ومصالحه عاجلا أم آجلا⁽²⁾.

بل إن المستعمر كابر وعاند ولم يعترف بوجود هوية أصيلة لأمة جزائرية، فهم لا يشكلون عنده أمة ولا شعبا متجانسا، بل أعراق مختلفة وقبائل متفرقة متناحرة، يحتاجون إلى أصحاب حضارة مثل الفرنسيين لتمدينهم وتنويرهم -زعموا-، وهو ما أثبتوه في مناهجهم ومقرراتهم

(1) ينظر: آليات الاستعمار الاستيطاني والأوروبي في الجزائر وليبيا: الهوية الليبية وتأثير الاستعمار الإيطالي فيها، صلاح

الدين حسن السوروي، ص 173 - 174.

(2) ينظر: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر: 1913 - 1940، عبد الرشيد زروقة، ص 136.

التعليمية⁽¹⁾؛ ويصدق عليهم أنهم كذبوا ثم صدّقوا ما كذبوا.
 وقبل التعرض لمقومات الشخصية الجزائرية، وكيف حافظ عليها علماء الجزائر؛ نقدم بين
 يدي ذلك مفهوم الهوية وأهم مقوماتها، وسياسة فرنسا وأهدافها نحو الهوية، وأهم المسائل التي
 عارضت الهوية.

(1) ينظر: أطروحة دكتوراه: الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر: 1880-1914، عبد الحميد عومري، ص19.

المطلب الأول:

الهوية الوطنية والسياسة الفرنسية

1- تعريف الهوية:

أ- لغة: مصدر صناعي من "هو"؛ الدال على ذات الشيء أو الشخص المستقلة عن ذوات الأشياء أو الأشخاص الآخرين⁽¹⁾، وهو معنى حادث، لذا لم تذكره المعاجم القديمة بهذا المعنى.

ب- اصطلاحاً:

مما جاء في تعريفها "إحساس الفرد بنفسه وفرديته وحفاظه على تكامله وقيمه وسلوكياته وأفكاره في مختلف المواقف"⁽²⁾.

وبالنسبة للجماعة فهي "مجموعة من الخصائص والملامح التي تتكون منها الشخصية المتميزة لشعب من الشعوب"؛ فهوية الفرد تميزه عن الآخرين، وهوية شعب تميزه عن باقي الشعوب، وهذا ما يطلق عليه الهوية الوطنية أو القومية⁽³⁾. ومن المعاني ذات الصلة بالهوية مصطلح الشخصية.

2- أهمية الوعي بالهوية الوطنية:

من خلال تعريف الهوية تبرز الآثار العظيمة لتحقيق الهوية وانعكاسها على الفرد والمجتمع، وثمرات الالتزام بها أكثر من أن تحصى؛ فهي تعطي قوة ولحمة في المجتمع، وتكون سدا منيعا يصعب اختراقه من طرف الكائدين والباغين، وتُسَهِّل اللّحوق بركب الحضارة، كما تنعكس إيجاباً على سائر المجالات الحياتية.

وفي حال انعدام شعور المرء بهويته نتيجة عوامل داخلية وخارجية، يتولد منه ما يسمى بأزمة الهوية التي تفرز بدورها أزمة وعي، تؤدي إلى ضياع الهوية نهائياً⁽⁴⁾.

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة، 2372/3.

(2) المرجع نفسه.

(3) الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 20.

(4) ينظر: مفهوم الهوية الوطنية: محاولة في التعريف الوظيفي، باقر جاسم محمد.

3- أهم مقومات الهوية:

إن الهوية الوطنية تختلف وتتنوع مقوماتها من أمة لأخرى، وإذا كان الحديث عن الأمة الجزائرية فمن أهم مقوماتها الأساسية الشخصية هي: دين الإسلام واللغة العربية ووطن الجزائر بتاريخه وجغرافيته.

فالإسلام كدين وأخلاق وسلوك وحضارة، والعروبة كلغة وثقافة وتاريخ وانتماء، والجزائر كجزء من الوطن العربي والإسلامي بتاريخه وجغرافيته وحدوده⁽¹⁾.

ومن خلال كتابات حمدان خوجة الوطنية نجده يشير إلى بعض مقومات الأمة الجزائرية التي تختلف عن مقومات الأمة الفرنسية، فيقول: «إنه من المؤلم أن نقول، بل أكثر إيلا ما أن نفكر، بأن الإدارة الفرنسية قد وقفت ثقيلة، كحمل الرصاص، على هذه البلاد (الجزائر)، فماذا كانت النتيجة؟ إن حاجزا لا يمكن اجتيازه قد أقيم في الجزائر بين الشعبين اللذين لا يمكن أن يتكلما نفس اللغة، ولا يعتنقا نفس الدين، ولا يلبسا نفس الثياب، ولا يمارسا نفس طريقة الحياة، ولا يمكن اليوم استرجاع الروح التي لم تزدها سنوات العناء إلا صلابة وقوة»⁽²⁾.

4- سياسة فرنسا وأهدافها نحو الشخصية الجزائرية:

إن تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر هو في الواقع تاريخ لمحاولات القضاء على الهوية الجزائرية التي تميز الإنسان الجزائري العربي المسلم عن الإنسان الفرنسي النصراني، وكل القوانين والأساليب التعسفية كانت تذهب في هذا الاتجاه لسلخ هذا الشعب عن هويته، وقبوله للاندماج في النظام الفرنسي⁽³⁾، وزاد تعسف المحتل الفرنسي لما أيقن أن هذا الشعب يتميز بصفات ومميزات لا يمكن تجاهلها، منها على الخصوص تمسكه بدينه و عدم التفريط فيه، واعتزازه بلغته العربية والحفاظ عليها، وحب لوطنه وغيته على عرضه وشرفه. ولأجل تحقيق هذا الهدف سلكت الإدارة الفرنسية عدة سياسات وآليات⁽⁴⁾ أبرزها:

(1) ينظر مثلا: التعليم القومي والشخصية الوطنية، تركي رابح، ص 52 وما بعدها.

(2) الحركة الوطنية الجزائرية، أبو القاسم سعد الله، 425/2.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 272/6.

(4) للتوسع أكثر في سياسة فرنسا نحو الهوية الوطنية ينظر: مذكرة السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1914، عثمان زقب، ص 272.

أ- استهداف الدين الإسلامي:

من التناقضات لدى الإدارة الفرنسية أنها أعطت عهداً باحترام دين الإسلام، ونقضته فور دخولها، ورغم أنها دولة تتبنى العلمانية، وسنت قانوناً ينص على فصل الدين عن الدولة إلا أنها حرصت على الإشراف على المؤسسات الدينية والتعليمية الخاصة بالمسلمين؛ بفرض رقابة صارمة وسن قوانين تعسفية؛ فانتهكت حرمة المؤسسات الدينية بهدم المساجد وتحويلها، والاستيلاء على الأوقاف وتعطيلها، وتجهيل شريحة كبيرة من الناس وإهمالها؛ كل هذا التضيق من أجل إقصاء الدين الإسلامي عن حياة المسلم.

ب- إقصاء القضاء الإسلامي:

أدركت الإدارة الفرنسية أهمية المؤسسات القضائية الإسلامية في الجزائر وخطرها، وأنها إحدى أهم الدعائم لتثبيت الشخصية الجزائرية المسلمة، ما جعلها تنتهج سياسة التدرج في الحد من صلاحيات القضاء الإسلامي بدءاً بدفع الأهالي المسلمين للاحتكام إلى المحاكم الفرنسية وقوانينها، وقد توالى القوانين التعسفية ضد القضاء حتى احتوت الإدارة الفرنسية على دور المحاكم وتقييد عمل القضاة.

فقد كانت السياسة الفرنسية نحو القضاء من التحديات الكبيرة التي واجهها الجزائريون من أجل الحفاظ على هويتهم العقائدية، وعاداتهم، وتقاليدهم⁽¹⁾.

ج- التنصير:

إذا كان المحتل الفرنسي يقر بأن حربه في الجزائر امتداد للحروب الصليبية، فلا شك أن تكون أولى الأهداف لتحقيقها هو تنصير المسلمين الجزائريين، والقضاء على شخصيته الجزائرية المسلمة؛ وهذا داخل ضمن أساليبه السياسية، وما تعاونهم وتسهيلهم الكبير للهيئات التنصيرية من مختلف أنحاء العالم، وتأبيدهم المادي والمعنوي، والتمكين للقساوسة والأساقفة إلا جزء من

(1) وللشيخ حمزة بوكوشة مقالان لطيفان في البصائر يصف فيهما حال القضاء الإسلامي في الجزائر في تلك الفترة وما

أصابه: عدد 1 السنة 1 من السلسلة 2 الجمعة 7 رمضان 1366هـ / 25 جويلية 1947م، ص 4-5.

عدد 2 السنة 1 من السلسلة 2، الجمعة 14 رمضان 1366هـ / 1 أوت 1947م، ص 2.

هذه السياسة، وأما قانون فصل الدين عن الدولة فقد طُبّق على النصرانية واليهودية دون الإسلام تحقيقاً لهذا الهدف.

د- استغلال المؤسسات التعليمية:

وهذا الأسلوب من أخطر الأساليب التي سلكته الإدارة الفرنسية؛ لأنه سلاح ظاهره الرقي والحضارة، وباطنه السم والهوان، فبه يمكن احتواء الجزائريين دينياً وثقافياً، ومن خلاله يتم تحريف الدين، ونبد العربية، وتزوير التاريخ، وتغيير جغرافية الجزائر، ومسح وطنيته وهويته. مع أن المحتل الفرنسي قد زعم أن قدومه للجزائر كان يهدف أساساً لنشر الرسالة الحضارية عن طريق تعميم التعليم الفرنسي في الجزائر، حتى يستوعبوا مبادئ الحضارة الغربية، ثم دمجهم بعد ذلك في الحضارة الفرنسية⁽¹⁾.

"ورغم أن سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر قد قامت على ثلاثة ركائز، هي الفرنسية والتنصير والإدماج إلا أنها في التطبيق العملي لم تفتح أبواب التعليم الفرنسي في وجه الجزائريين إلا في نطاق محدود جداً على خلاف ما يقضي به منطق الإدماج، لأن المستعمرين كانوا يرون أن الأعداء المستنيرين أخطر عليهم من الأعداء الذين يعيشون في حالة من الهمجية"⁽²⁾. ويمكن القول أن فرنسا حاولت استغلال المنهج التعليمي بكل السبل الممكنة في سبيل تحقيق أهدافها، من يوم دخولها إلى يوم خروجها.

(1) ينظر: مذكرة السياسة الفرنسية في الجزائر، عثمان زقب، ص 344

(2) التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 112 - 113.

المطلب الثاني:

الحفاظ على الهوية من خلال الرد على الاندماج والتجنيس

والمحافظة على التاريخ

1- الجهود العامة:

إذا كان تاريخ فرنسا في الجزائر كله محاولة لطمس الهوية الجزائرية، فإن تاريخ الجزائريين أيام الاحتلال الفرنسي كله دفاع عن هذه الهوية الجزائرية، في جميع مراحلها وبمختلف أساليبه وتنوع شرائحه؛ فقد دافع الجزائريون عن هويتهم من أول يوم وضع المحتل الفرنسي قدمه في الجزائر، بدءاً بالعرائض والشكاوى؛ وعلى رأسها عرائض وكتابات الشيخ حمدان خوجة التي كانت فيها روح الوطنية ظاهرة؛ ما أدت إلى نفيه واستبعاده عن أرض الوطن، وتزامناً مع هذه العرائض اندلعت المقاومات الشعبية الجهادية التي شملت أرجاء أرض الجزائر شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، والتي كان أساسها الدفاع عن العقيدة واللغة والعرض ومقاومة التنصير.

ومن محافظة القضاة ورجال الدين عموماً على الهوية الوطنية والعقيدة الإسلامية، تمسكهم بالتعاليم الإسلامية التي كانت مظهراً من مظاهر المقاومة للاحتلال، وقد عارض المكّي بن باديس⁽¹⁾ وابنه حميدة⁽²⁾ التجنس بقوة، واعتبر المكّي أن الاعتداء على الدين أقوى أنواع الاعتداء على الإنسان، وهو المبدأ الذي سلكه حفيده عبد الحميد فيما بعد. وغيرهم

(1) (1817-1899 م): يتصل نسبه بالمعزّ بن باديس، تولى القضاء فترة طويلة (1856 - 1876)، من رواد العمل السياسي المنظم، ساهم في تشكيل الوفود و تقدم العرائض، تولى مهام و مناصب عديدة، لعب دوراً بارزاً و مؤثراً في مواجهة التغيرات الاستعمارية، في سنة 1881 م خلفه ابنه الشريف في منصبه بالمجلس العام، كتب في جريدة المنتخب و نشر مجموعة من الكتيبات و العرائض ذات الطابع القانوني و الشرعي و السياسي، منها: تقرير الأحكام الشرعية التي تُناسب لُصوص البوادي في الأوطان الجزائرية. ينظر: المكّي بن باديس قاضي بلد قسنطينة، عبد المالك حداد

<http://www.natharatmouchrika.net/index.php/articles/tarikh/item/2766-1817-1899>

(2) (1846-1900 م) من أهل العلم وأصحاب الأملاك، اشتغل بالقضاء ما بين 1882-1891 م، و اشتهر كقائد عن مدينة قسنطينة و بدفاعه عن قضايا الجزائريين بشدة حتى اعتبر من أوائل ممثلي حركة الشباب الجزائريين. اشترك في رفع تقارير عن الحالة في الجزائر، من آثاره: (Quelqueidée sur la sécurité). المرجع نفسه.

كثير ممن عارض وأنكر أمثال بوشناق والمجاوي⁽¹⁾.

كما لعبت الزوايا والمعاهد التعليمية دورا عظيما في المحافظة على الهوية الجزائرية المسلمة بتعليم الدين وأحكامه، وترسيخ مبدأ العقيدة، والموالات والمعاداة فيه، وتعليم اللغة العربية، وأنها لغة دين وقرآن، قبل أن تكون لغة علم وثقافة.

وبدخول القرن العشرين، وظهرت الحركة الوطنية نجد تطورا للجهود المبذولة في الدفاع عن الهوية، حيث ظهرت الأحزاب السياسية الوطنية، والجرائد الوطنية الجزائرية المضادة للجرائد الفرنسية، وقد شارك أغلب الجزائريين بمختلف توجهاتهم وشرائحهم⁽²⁾ في الدفاع عن مختلف عناصر الهوية الوطنية.

وإذا كان قد تقدم ذكر جهود علماء الجزائر في الدفاع عن العقيدة، والرد على الطرقيين، ومحاربة التنصير، بقي الكلام على بعض المشاريع التي جاءت بها السياسة الاستعمارية لضرب الشخصية الجزائرية، وهي الإدماج والتجنيس والتاريخ، وأما اللغة فسيكون لها مبحث خاص.

2- الإدماج:

من الأساليب التي انتهجتها الإدارة الفرنسية لمحو الهوية الجزائرية سياسة دمج الجزائر في فرنسا وربطها سياسيا وإداريا بفرنسا، وهضمها ثقافيا وروحيا ولغويا في الشخصية القومية الفرنسية تدريجيا؛ وهو ما يسمى بالإدماج، والمقصود منه "إذابة الجزائريين في الكيان الفرنسي العام، وبذلك لن تقوم للجزائر كجزء لا يتجزأ من العالم العربي والإسلامي قائمة في يوم من الأيام، بعد أن يسلم الجزائريون من دينهم ولغتهم وجنسياتهم، وبالتالي من حضارتهم الإسلامية، ويحتثوا منها اجتثاثا كما وقع للعرب المسلمين في الأندلس منذ قرون"⁽³⁾.

وإذا كان لمفهوم الإدماج دلالات أخرى من النواحي القانونية والإدارية والسياسية، ولها بعض الميزات الإيجابية، لكنها لا تنطبق "في الجزائر إلا على الأرض ومن عليها من المستعمرين دون السكان الأصليين الجزائريين الذين تستهدف السياسة الاستعمارية إقصاءهم وإجلاءهم عن أراضيهم، فالذي يريده المستعمرون في الواقع هو دمج أرض الجزائر في فرنسا لا التسوية

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 4/471.

(2) يستثنى من ذلك بعض الأطراف مثل النخبة المفرنسة، وبعض الطرق الصوفية التي باعت وطنيتها للمحتل الفرنسي.

(3) التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 110.

بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات، كما يقضي بذلك منطق الإدماج، فهو إذن إدماج بالنسبة للمستعمرين، ولكنه إخضاع بالنسبة للسكان الأصليين الجزائريين⁽¹⁾.

أ- بداية نواة الإدماج والنخبة:

رغم ما علم عن الجزائريين من تمسكهم بمقوماتهم وثوابتهم بدءًا بعروبتهم ودينهم الإسلامي ووطنيتهم الجزائرية، إلا أن السلطة الفرنسية استطاعت بفضل مكرها الإداري وسياستها المعتمدة على قطف الثمار على المدى البعيد، أن تُكوّن فئة من الجزائريين ممن تأثروا بالحضارة الغربية، وتخبطوا في الثوابت والمقومات الوطنية؛ وهو ما يطلق عليهم بالنخبة الذين ظهوروا بداية القرن العشرين، وكانت السياسة الفرنسية بداية الاحتلال تعتمد إرسال بعض الشخصيات الجزائرية إلى فرنسا أثناء المناسبات المهمة تحت زيارات رسمية، وهؤلاء يقومون بالدعاية للحضارة الغربية الفرنسية عند رجوعهم للجزائر، كما أخذت بعض الأطفال الأسرى⁽²⁾ واليتامى إلى فرنسا، وأدخلتهم مدارسها، وأطعمتهم فكرها، حتى يعودوا جزائريين ظاهرا، فرنسيين فكرا، كما استغلت الفراغ الذي صنّعه بالقضاء على التعليم بكل صوره وأشكاله، وتعويضه بالمدارس الفرنسية -المسموحة لفئة قليلة من الجزائريين- حيث كانت تحت إشراف الإدارة الفرنسية وباللغة الفرنسية وبرامج فرنسية، هدفه المسخ والطمس بدل التعليم والتثقيف، وهؤلاء الذين علق عليهم الاحتلال آماله ليكونوا همزة وصل بينه وبين الأهالي؛ قال مدير رابطة التعليم: «تعليم السكان الأصليين يعد مهمة سياسية بدلا من أن يكون مهمة تعليمية»⁽³⁾.

وما أحسن عبارة أبي القاسم حين قال: «إن الفرنسيين كانوا يريدون تكوين عملاء لا علماء»⁽⁴⁾.

وهذه النخبة التي تعلمت في المدارس الفرنسية انقسمت إلى ثلاثة أقسام اتفقت لسانا واختلفت فكرا؛ فاتفقت في إتقانها اللغة الفرنسية، واختلفت في رؤيتها نحو الاندماج:

(1) المرجع نفسه، ص 112.

(2) مثل أحمد بن قدور بن رويلة، وعلي الشريف.

(3) ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص 111

(4) تاريخ الجزائر الثقافي، 6 / 208.

1- فئة ترى الاندماج التام في الكيان الفرنسي دون استثناءات، ولو على حساب التخلي عن الشريعة الإسلامية.

2- فئة تدعو إلى الاندماج دون التخلي عن قانون الأحوال الشخصية الذي يتعلق بأحكام الأسرة المسلمة من زواج وطلاق وميراث وغيره.

3- أما الفئة الثالثة فترى تعلم اللغة الفرنسية والعلوم الحديثة دون اندماج أو تنازل عن الإسلام ومبادئه⁽¹⁾.

والمطلع على النخبة الاندماجية يجد لهم منزلة علمية جيدة فمنهم المحامي والقاضي والطبيب والصيدلي والمهندس وغيرهم، لكن المنزلة الدينية والثقافية التاريخية ضعيفة إن لم تكن معدومة، باستثناء فئة قليلة منهم نجت من ضعف الشخصية الوطنية والإسلامية كالأمير خالد وغيره⁽²⁾.

وحول تقييم هذه الفئة يقول أبو القاسم سعد الله: «فإنهم كانوا على خطأ، ذلك أن التيار الذي سيحل المشاكل هو تيار الأمير خالد وحركة الإصلاح ونجم شمال إفريقية وحزب الشعب. وليس التيار الاندماجي الذي كان على رأسه: مرسللي وابن التهامي، وابن جلول، وسعدان، وفرحات عباس»⁽³⁾، ويقول: «ذلك أن الفئة المعروفة بالنخبة الاندماجية من أمثال ابن التهامي كانت تفتقر إلى الاتجاه الوطني والإسلامي معا، ولا يمكن أن تكون بديلا لحركة الأمير خالد إلا في نظر السلطات الاستعمارية»⁽⁴⁾.

فالميزة العامة لهذه الفئة أنهم لم تكن لهم منظمة فاعلة، ولا قيادة فعّالة، ولا تأثير على الشعب الجزائري، ولا قدرة على استيعابه، فقد ابتلعتهم الوظائف والمناصب عن الأمة الجزائرية، فضلا أنهم ليس لهم برنامج وطني خالص.

يقول مالك بن نبي: «أما المحدثون (النخبة) فقد انعدمت لديهم فكرة النهضة ذاتها، فأصبحت ثانوية، لأنهم لم يخالطوا حياة بلادهم إلا في الميدان السياسي.. فالمسألة في نظر المحدثين (النخبة) لم تكن مسألة تحديد العالم الإسلامي وبعثه، وإنما كان انتشاله من فوضاه

(1) ينظر: الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص 118.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 358.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، 7/271.

(4) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 3/21.

السياسية الراهنة، وهذه فكرة مستعارة لا ترى في الواقع مشكلة الفرد المسلم، بل ترى مشكلة النظم الأوروبية»⁽¹⁾.

ب- نماذج من المثقفين والاندماجيين:

برزت أسماء بعض الاندماجيين مطلع القرن العشرين مع أنهم "لم يكونوا جميعهم سواء في تطرفهم أو جهلهم وتنكرهم لماضيهم. ففيهم المتحمسون مثل ابن التهامي وعمر بوضربة وأحمد بوضربة، وابن حمودة. وفيهم المنادون بالاندماج التدريجي مثل إسماعيل حامد والطبيب مرسللي. وفيهم الخاملون الذين كانوا يأكلون الخبز وينتمون فقط إلى هذه الفئة. وفي وقت لاحق ظهر اندماجيون غلاة أيضا، أمثال الزناتي وابن الحاج، ومعتدلون، أمثال فرحات عباس (في المرحلة الأولى) وابن جلول... وكان محمد صوالح وتامزالي من فئة الاندماجيين الماسونيين"⁽²⁾.

وإذا ذكر هؤلاء على سبيل الذم والنقيصة، فإنه من الواجب الإشارة إلى فئة جمعت بين الثقافة الفرنسية والعربية، دون أن تتخلى عن أصولها وتراثها ومبادئها الوطنية والدينية، ودون أن تذوب في الثقافة الفرنسية أو تنبهر بالنظم والمخترعات الغربية؛ وهذه الفئة كانت تدعو إلى التطور وليس الاندماج.

ومن أبرز عناصر هذه الفئة الشيخ محمد بن رحال؛ الذي تحمل حياته جوانب عديدة، فهو رجل علم ودين، وهو قايد ونائب مالي (برلماني)، وهو مؤلف وباحث وأديب، إضافة إلى أنه صاحب زاوية، كما أنه رجل مدافع عن العربية والإسلام في وقت اعتقد فيه الفرنسيون أن أمثاله لن يدافع إلا عن الفرنسية والاندماج. ولد بمدينة ندرومة يوم 16 ماي 1857. وكان أبوه حمزة بن رحال من رجال القضاء للأمير، الذي عني بابنه ورياه تربية دينية وحصنه من الذوبان في المجتمع الفرنسي رغم دراسته في الكوليج المزدوج اللغة إلى تخرجه من الثانوية عام 1874، خلف أباه في وظيف القضاء تحت حكم الفرنسيين، ثم استقال منه، وتفرغ للحياة السياسية والدينية. ومنذ الثمانينات انطلق قلم وفكر محمد بن رحال في خدمة القضية الجزائرية والفكر العربي الإسلامي.

(1) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ص 71.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 6/ 227 - 228.

دافع عن حقوق الجزائريين في التعليم باللغة العربية، وفي التمثيل البرلماني، والمحافظة على تطبيق الشريعة الإسلامية، ومن أجل ذلك سافر مع زميله محمد بن العربي إلى فرنسا لتبليغ صوت الجزائريين إلى السلطات الفرنسية. وظهر ابن رحال سنة 1897 أمام مؤتمر المستشرقين مدافعا عن الإسلام وقدرته على التطور، ونشر سنة 1901 مقالة بالفرنسية عن (مستقبل الإسلام)، وبرز أيضا سنة 1912 حيث توجه إلى فرنسا على رأس وفد مطالبا بإلغاء فرض التجنيد الإجباري، كما طالب بإلغاء الأندجينا سنة 1921.

والملاحظ على محمد بن رحال أنه كان جسرا لمرحلة صعبة ظن الفرنسيون فيها أن الجزائر قد أصابها العياء والقنوط من كل مقاومة، كما أن جهوده رغم قيمتها وقوتها كانت فردية، مع أنه كان يمثل إلى حد كبير روح الشعب وتطلعاته، شارك في الجمعيات والنوادي ولكنه لم يؤسسها. ونصح وساهم في تحرير الجرائد ولكنه لم يرأس تحريرها. وحين ظهرت حركة الأمير خالد كان ابن رحال يدب إلى السبعين إذ توفي سنة 1928⁽¹⁾.

ومن المثقفين البارزين أيضا: المحامي آيت قاسي: المعروف في الأوساط الفرنسية والجزائرية بفصاحة وقوة عارضته في الدفاع عن حقوق الجزائريين حتى قال عنه ابن باديس: «إنه من الرجال القلائل الذين سيؤثرون في مجرى تاريخ الأحداث في الجزائر إذا مد الله في أجله، لأنه الرجل الجزائري الذي أراد الاستعمار أن يضربنا به وبأمثاله من متخرجي مدارسه فسبقناه وضربناه بهم جميعا»⁽²⁾.

"ومن هذا الجيل برز محمد بن رحال ومحمد بن العربي، وحيدة بن باديس، وكانت دروس المجاوي وأمثاله تكون جيلا آخر سيقف بالمرصاد ضد موجة التفرنس التي انطلقت مع فاتح القرن. وسيكون أصحاب هذه الموجة هم بلقاسم بن التهامي، وعلي بوضرة، وإسماعيل حامد، والطيب مرسلي"⁽³⁾.

ج- جهود العلماء في محاربة الإدماج:

إن المتأمل في السياسة التي انتهجتها الإدارة الفرنسية في قضية إدماج وتجنيس الأهالي في

(1) ينظر: المصدر نفسه، 224/6 - 226.

(2) مجلة الدراسات الإسلامية: الإمام ابن باديس ومواقفه من الاندماج، د. خالد بوهند، عدد: 4، ص 515.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، 223/6.

الجزائر، يجدها متناقضة، إذ أنها تريد منهم أن يكونوا مواطنين فرنسيين، يعتقدون اعتقادهم، ويتكلمون بألسنتهم، ويتبعون طريقتهم في المعيشة والانتماء، وفي نفس الوقت أهالي جزائريين منحطين عنهم في المنزلة، عليهم كل الواجبات وأكثر، وليس لهم من الحقوق إلاّ أحطّها، والنتيجة أنهم كوّنوا مجموعة لا هم فرنسيون أوروبيون، ولا هم جزائريون مسلمون.

وقد كان عامل الدين الإسلامي رغم الجهود التي مورست في استهدافه والقضاء عليه، هو الحبل الذي حافظ على نواة المجتمع من التفتت والانحلال؛ لذا كان الرد الطبيعي تجاه هذه السياسة ومحاربتها واضحا لكل جزائري وطني، وعلى رأسهم العلماء الذين تكلموا باسم الدين لا باسم السياسة، فجاءت كتاباتهم متنوعة المضمون، متفقه الهدف والنتيجة.

والملاحظ أن هذه المعضلة تبلورت في وقت تشكلت فيه الحركة الوطنية والإصلاحية، كما برزت فيه الصحافة بقوة، حيث كان لكل مشرب رواده، مما يعني نشوب صدام بين جبهة الفئة الاندماجية والإدارة الفرنسية، وبين جبهة الوطنيين والإصلاحيين، وهذا ما سطرت الصحف والمجلات كثيرا منه في ثناياها، فضلا عن كثير من المواقف والأعمال التي خلفها بعض الجزائريين الذين أخلصوا وطنيتهم، ولم يبدلوا تبديلا.

وإن شارك المصلحون في مجابهة هذا الداء إلا أن المؤرخين يتفقون أن أعضاء جمعية العلماء المسلمين قبل التأسيس وبعدها؛ كان لهم الدور الأكبر والجهد الأعظم في هذا الاشتراك، فقد وقفوا في صالح كيان جزائري منفصل عن كيان فرنسا، ودعوا إلى القومية الوطنية والجامعة الإسلامية، وعارضوا بشدة تجنيس ودمج الجزائر في فرنسا، باستعمال طريقة الإغراء والإقناع دون العنف والثورة⁽¹⁾.

وفي هذا يقول الإبراهيمي: «أما حين تمتدّ الأيدي الآثمة إلى حمى الدين أو حمى القومية العربية، أو حين يتساهل السياسيون في حقّهما، فإنّ للجمعية في ذلك كلمتها الصريحة التي لا جمجمة فيها، وموقفها المشرف الذي لا هوادة فيه.

حاربت سياسة الاندماج في جميع مظاهرها، فقاومت التجنيس، ونازلت أنصاره الخمس ودعائه المقاويل، حتى قهرتهم وأخرستهم، وقطعت الحبل في أيديهم، ثم أفتت فتواها الجريئة فيه، يوم كانت الجرأة في مثل هذه المسائل بابا من العذاب، فكان ذلك منها تحديا

(1) ينظر: الحركة الوطنية، أبو القاسم سعد الله، 396/2.

للاستعمار، وإبطاً لكيدته، وتعطياً لسحره، وأثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها». ثم يقول: «هذه هي الميادين التي تفردت فيها جمعية العلماء بالبطولة في حرب الاندماج ودعائه والمروّجين له، وهذه أعمالها فيه قائمة بشواهداها، داحضة لا فتراء المفترين، وأقويل المتقولين، بأنها أيّدت أو تؤيد سياسة الاندماج، ولو كانت الجمعية تحارب الاندماج باسم السياسة وبأسلوب السياسيين لجاز أن يقال: "قد بدا لها بداء"، وما أكثر البدوات في السياسة، ولكنها حاربت باسم الدين، والدين كلّ يقين لا يتزعزع، وبصائر لا تريغ»⁽¹⁾.

وقد كانت حملاتهم الموقظة لضمير الشعب الجزائري تركز على عدة جبهات منها: تأسيس المدارس العربية البعيدة عن سيطرة الفرنسيين، والمؤيدة بأموال الشعب، التي كانت برامجها دينية ووطنية في نفس الوقت⁽²⁾.

ومنها استغلال المساجد في الوعظ والإرشاد والتحفيز والتعليم وبعث الهمة وإيقاظ الضمير الجزائري؛ كما أنشأوا النوادي والمراكز الثقافية، التي تُعقد فيها المؤتمرات الثقافية والفكرية وتوجد بها الصحف العربية القادمة من الشرق، ويلتقي بها أصحاب الطبقة الجزائرية المثقفة.

وإذا كانت عمليات التعليم تجري في كل ما تقدم، فإن العلماء كانت لهم طرق خاصة تختلف عما كان عليه التعليم قديماً، فقد أدخلوا بيداغوجية وطنية جديدة في حملتهم التعليمية؛ فنجد ابن باديس مثلاً يعلم طلابه المحفوظات العربية والأناشيد الوطنية، التي تثير فيهم الروح الوطنية والتضامن الإسلامي والحرية، وقد اعترف بعض الفرنسيين بأنها طريقة في التعليم لم تكن معروفة قبل⁽³⁾.

وقد ذكرت بعض التقارير السرية لبعض المسؤولين الفرنسيين "أن العلماء كانوا يمثلون أكبر الخطر على الفكرة الفرنسية في الجزائر، فشُعب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية"⁽⁴⁾.

(1) آثار الإبراهيمي، 69/3 - 70

(2) من بين مدارس الجمعية الرائدة: مدرسة التربية والتعليم التي أنشأها ابن باديس في قسنطينة أوائل العشرينات وقد تخرج من هذه المدرسة جيل جزائري كامل تحت إرشاد ابن باديس. ينظر: الحركة الوطنية، أبو القاسم سعد الله، 398/2.

(3) ينظر: المرجع نفسه، 398/2 - 400.

(4) المرجع نفسه، 103/3.

وحتى الفتاوى كان لها نصيب في هذا كما سيأتي في فتوى التحنيس.

كما أن الصحافة كانت مظهرها هاما لحملة العلماء ضد هذا الفكر، وما منع السلطات الفرنسية لكثير من هذه الصحف وتعطيلها إلا دليل على الروح الوطنية التي كانت تناقض الأفكار الاستعمارية؛ منها ما جعله ابن باديس شعارا لجريدته المنتقد "الوطن قبل كل شيء"⁽¹⁾، وكذلك في جريدة الشهاب، ويضاف إليه شعار الجمعية الذي كان يمثل مبادئ الجمعية التي تناضل من أجلها، وكان يُكتب أيضا على غلاف بعض كتبها المدرسية: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا"، وهذا الشعار يعتبر رمزا من رموز الوطنية والدفاع عن مقومات الهوية الجزائرية، لذلك أقامت الجمعية الحرب ضد التنصير والفرنسة والتحنيس والإدماج.

ومن أبرز المواقف وأجلّها لرجال الجمعية، في محاربة الاندماج، ما كتبه رئيسها وزعيمها عبد الحميد بن باديس، وذلك حين كتب فرحات عباس⁽²⁾ مقالا بعنوان: "فرنسا هي أنا"، في إحدى الجرائد باللغة الفرنسية، أنكر فيها وجود الشخصية الجزائرية، قال فيها: «لو اكتشفت الأمة الجزائرية لغدوت إنسانا قوميا، ولن أخجل آنذاك من هذه الجريمة، ومع ذلك لن أموت دفاعا عن الوطن الجزائري لأن الوطن غير موجود، ولم أستطع أن أكتشفه، وقد سألت التاريخ، سألت الأحياء والأموات، وزرت المقابر، ولم يحدثني أحد عن هذا الوطن، وليس في وسع إنسان أن يقيم بناءً على الرياح»⁽³⁾، فرد عليه الشيخ ابن باديس بمقالة شهيرة في السنة نفسها، استعرض فيها حضور الأمة الجزائرية منذ أقدم العصور، مذكرا إياه بأن الاستعمار الفرنسي ما هو إلا حالة عابرة، وأن ظلام الاستعمار الكالح لا يلبث أن ينجلي لتعود الجزائر بعدها إلى حضنها الحضاري الطبيعي، وكان ذلك تحت عنوان: "كلمة صريحة"، ومما جاء فيها: «لا يا سادتي نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الأمة، بل إنني أدعي أننا نتكلم باسم أغلبية الأمة، فنقول لكم ولكل من يريد أن يسمعنا، ولكل من يجب عليه أن يسمعنا أو أراد

(1) وهذا لا يعني عنصرية أو تجاهلا أو إقصاء للعالم العربي والإسلامي، كما لا يعني تعارضا بين حب الوطن وحب العالم الإسلامي والعربي، إذ يقول ابن باديس: « فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف واجب الوطن الكبير، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصغير » آثار ابن باديس، 367/3.

(2) (1899-1985): أحد أعضاء النخبة الداعين إلى الاندماج في فرنسا -أول أمره- وذلك عام 1936م.

(3) عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 30.

أن يعرف الحقائق و لا يختفي وراء آكام الخيال: نقول لكم إنكم من هذه الناحية لا تمثلوننا ولا تتكلمون باسمنا، ولا تعبرون عن شعورنا و إحساسنا، إننا نحن ففتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، و لهذه الأمة تاريخها الحافل بجلال الأعمال ولها وحدتها الدينية والغوية، ولها ثقافتها الخاصة و عوائدها و أخلاقها، بما فيها من حسن و قبيح شأن كل أمة في الدنيا»، ثم يضيف رافضا كل محاولات الفرنسية و التجنيس للجزائر قائلا: « الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، و لا يمكن أن تكون فرنسا، و لا تريد أن تصبح فرنسا، و لا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وأخلاقها وفي عنصرها وفي دينها و لا تريد أن تندمج»⁽¹⁾. فصرّحت أنه رغم ارتباط الشخصية الجزائرية بفرنسا إلا أنها غير مقتزنة بها، و هنا يظهر الفرق بين التصور الإصلاحى للهوية والتصور الاندماجي لها، و الذي يجعل الطرح الإصلاحي أعمق بُعدا ومآلا لمشاكل الأمة الجزائرية.

كما نظم الشيخ سنة 1937 قصيدته المشهورة⁽²⁾، والتي أولها:

شعب الجزائر مسلم... وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله... أو قال مات فقد كذب

أو رام إدماجا لله... رام المحال من الطلب

وكان موقف أعضاء الجمعية واضحا من سياسة الإدماج، كما جاء في إحدى مقالاتها في جريدة البصائر، المعنونة بـ: "الاتحاد والاندماج"، حيث جاء فيها: "وثانيهما سياسة المزج والابتلاع، وهي التي تتبعها إيطاليا، وقد أفادنا التاريخ وفلسفة الاجتماع البشري أنها عقيمة النتيجة، لاستحالة امتزاج أمتين مختلفان نفسية وبيئة وعقلية ووسطا ووراثيا، وهذه كما لا يخفى مبادئ أساسية يستحيل مماثلتها، والتوفيق بينها وبين أمة وأخرى"⁽³⁾.

إضافة إلى العديد من المقالات في هذا الموضوع، مثل مقال: "المشكل الأعظم: الجنس

(1) آثار ابن باديس، 308/3 - 309.

(2) المصدر نفسه، 334/4.

(3) عدد 146، الجمعة 8 ذي القعدة 1357هـ / 30 ديسمبر 1938، ص3.

والجنسية والتجنس"، و"لماذا نقرأ التاريخ"، و"إدماج واندماج"، "خطر الاندماج في البلاد"، وغيرها⁽¹⁾.

ومما يدل على الأثر البالغ للجمعية في هذه القضية، هو ما شهدت به جريدة "صوت المتواضعين" "LAVOIX DES HUMBLÉS" لسان حال التيار الاندماجي: "إن أخطر تنظيم على سياسة الاندماج هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لأنها تحارب اللغة الفرنسية التي تعتبر الوسيلة الأساسية لتحقيق الاندماج"⁽²⁾.

ولما كانت النخبة المتعلمة في المدارس الفرنسية قد مُسخت وطُمست هويتها الجزائرية الأصيلة، ووقفت ضد حضارتها الإسلامية، مع الفراغ الذي صنّعه فرنسا بالقضاء على التعليم بكل صوره وأشكاله، سعت جمعية العلماء لأن ينال جميع أطفال الجزائر المسلمين حقهم في التعليم في مدارسها الخاصة، حتى يأمنوا الغزو الفكري والمسح الأخلاقي، وهو ما تجسد حقيقة عل أمر الواقع، فالشباب الذي نهل من معين هذه المدارس، واستكمل دراسته في المدارس الفرنسية، لم تؤثر فيه النزعة الاستعمارية، لأنه شب على حب الإسلام والوطنية⁽³⁾.

إضافة إلى ذلك أكترت الجمعية من "إلقاء محاضرات تكوينية وتوجيهية للشباب الفني والرياضي والكشفي والطلابي، في الأخلاق والثقافة والسياسة والاقتصاد، وتقديم مسرحيات مدرسية واجتماعية، تقوم بها فرق جزائرية وعربية لتنوير الرأي العام في حياته المادية والأدبية، وبذل مساع جادة للتقريب بين المثقفين بالعربية والفرنسية، وجلب النخبة السياسية العصرية المتأثرة بالإيديولوجية المعادية للإسلام، التي كانت تزهد في الدين باعتبار أنه مظهر للتخلف والجمود والتعصب، مما قد يقيم خندقا فاصلا بين شباب الأمة المتعلم، وبين جماهيرها المؤمنة...

كما اهتمت بالجالية الجزائرية في الخارج، وبالخصوص في فرنسا، حيث تقيم جالية جزائرية غفيرة، طلبا للرزق أو طلبا للعلم، فإن الجمعية أنشأت فيها مدارس وأندية ومصليات، لتعليم اللغة العربية، والتفقه في الدين، والارتباط بالوطن العزيز وقيمه الحضارية، حتى يعودوا إلى

(1) راجع أعدادها على الترتيب: عدد: 22، ص/ 2 عدد: 40، ص/ 7 عدد: 96، ص/ 3 عدد: 120، ص/ 7.

(2) البصائر: حق الله على العباد وحق العباد على الله، عبد الرحمن شيبان، عدد: 433، 5 ربيع 1 / 1430 / 7 مارس 2009، ص/ 2.

(3) ينظر: ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص/ 112 - 113.

بلادهم بعقول تفكر، وألسنة تنطق بالضاد، وأيد ماهرة، وجيوب عامرة بالمال، وطموح نحو التحرير والانعقاد"⁽¹⁾.

ولم تحمل مسألة الزواج المختلط، بل عارضته بشدة، ولما رأت المخاطر المترتبة عليه أصدرت فتوى بتحريم الزواج بالأجنبيات، التي أحدثت أثرها المطلوب، وفعلت فعلها في المجتمع الجزائري، حيث نقص الإقبال على هذا النوع من الزواج، وصار من يرغب في الزواج بالأجنبيات يشترط دخولها للإسلام⁽²⁾.

ورغم أن السلطة الفرنسية وظفت الطرق الصوفية لصالحها، إلا أننا نجد لبعضها نوع اهتمام بشؤون الجزائر السياسية والوطنية، وتأييد الجامعة الإسلامية، واليقظة الوطنية، مثل جريدة "لسان الدين"، و"البلاغ الجزائري"، حيث دافعت عن اللغة العربية، ووقفت ضد الاندماج والتجنس، وضد التقاليد والعادات الأوروبية، وضد الحركات المعادية للأديان كالشيوعية⁽³⁾.

ومن الاعتزاز بالحضارة العربية والإسلامية والهوية الجزائرية الحفاظ على اللباس الأصيل، كما هو مشهور عن الشيخ المجاوي⁽⁴⁾ والأستاذ بن أبي شنب، وعن هذا الأخير يقول أبو القاسم: «وقد نوه الجزائريون المعاصرون بآبن شنب أيضا ونظروا إليه نظرة المعجب المفتخر، لأنه تمكن من العلم وحافظ على هندامه الوطني ووصل إلى أعلى درجات الوظيفة الأكاديمية، ونشر كتب التراث مع تواضع ووقار»⁽⁵⁾.

وبفضل الله عز وجل ثم بفضل هذه الجهود؛ سرعان ما فقدت هذه الفئة الاندماجية - التي كانت أقلية - تأثيرها بعد انتشار التعليم في الأوساط المحرومة وظهور الوعي الوطني

(1) حقائق وأباطيل، عبد الرحمن شيبان، ص 117. وللتوسع فيما يخص الاهتمام بالجالية الجزائرية في فرنسا يراجع كتاب:

نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936 - 1956، سعيد بورنان، ص 49 - 52.

(2) ينظر: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936 - 1956، سعيد بورنان، ص 54 - 55.

(3) ينظر: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص 155 - 156.

(4) ينظر: الشيخ عبد القادر المجاوي، أعمال ملتقى وطني بتلمسان، "الشيخ عبد القادر المجاوي ونشاطه الإصلاحية"،

عبد القادر قوبع، ص 32،

(5) تاريخ الجزائر الثقافي، 8/172.

والإصلاح على يد العلماء عامة، وعلماء الجمعية خاصة⁽¹⁾.
ومن أفضل الأمثلة الواقعية، هو الأستاذ فرحات عباس، الذي أنكر وجود أمة جزائرية،
فاقتربت منه الجمعية واستمالته إليها، لينخوض النضال الوطني والسياسي جنباً إلى جنب مع
الحركة الوطنية الإصلاحية، لينتقل إلى نضال أكبر، وهو المشاركة في ثورة نوفمبر المباركة.
وانطلاقاً من هذه المعطيات، يصل المنصف إلى أن الإدارة الفرنسية، قد فشلت فشلاً
ذريعاً في تحقيق سياسة الاندماج، خاصة إذا قارنا بين عظمة الإمكانيات التي سخرتها،
والوسائل التي اتخذتها، في مقابل شعب مورس عليه أبشع الجرائم، وأعتى الأسلحة المادية
والمعنوية، طيلة قرن وثلث قرن؛ وهو ما يدل على قوة الذاتية والهوية الجزائرية الوطنية والدينية،
التي تكونت مع الزمن لدى الجزائريين.

3- التجنيس:

إذا كان الإدماج هو الهدف الأسمى للمحتل الفرنسي، فالتجنيس بعض وسائله، كما يراه
"شارل روبير أجرون"⁽²⁾.

وإذا كانت العلاقة وطيدة بين التجنس والمدرسة الفرنسية، وبين التجنس والزواج المختلط،
فإن العلاقة وطيدة أيضاً بين هذه جميعها وبين الاندماج؛ فالكلام على الاندماج يجر إلى
الكلام على التجنيس.

والمقصود بالتجنيس: "هو الدخول في جنسية جديدة هي جنسية العنصر الغالب
والاندماج فيها، مع التنازل عن القومية واللغة والتاريخ والتقاليد، وقبول ما تبع ذلك التجنيس
والاندماج من أخلاق جديدة ولغة جديدة، ويعتبر التنازل عن قانون أحوال الشخصية
الإسلامية شرطاً أساسياً في إعطاء الجنسية الفرنسية للمتجنس"⁽³⁾.

وبالنسبة لوضعية المسلم الجزائري بعد الاحتلال الفرنسي، فقد حدث نزاع شديد حوله
من حيث القانون وحال جنسيته، وحيث تغلبت المصالح الاستعمارية والأغراض السياسية،
اعتُبر المسلم الجزائري قانوناً فرنسياً؛ عليه كل ما على الفرنسيين وأكثر، وليس له من الحقوق

(1) ينظر: المصدر نفسه، 335/6.

(2) ينظر: الجزائريون المسلمون وفرنسا: 1871-1919، 636/1.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس: رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، تركي رابع، ص 268.

إلا أدناها، لتعلقه بأحكام الشريعة الإسلامية المنافي للقانون المدني الفرنسي، ونتيجة لقرار 4 نوفمبر 1848 الذي ينص بإلحاق الجزائر إلحاقا تاما بفرنسا صدر في 24 فيفري 1862 قرار بأن المسلم الجزائري فرنسي، لكن لا يمكن اعتباره وطنيا فرنسيا، بل هو رعية فرنسية لمحافظة على قانونه الخاص، ثم صدر قانون 14 جويلية 1865 مفاده أن المسلم الجزائري رعية فرنسية يقوم بالواجبات، ولا يتمتع بالحقوق الفرنسية إلا إذا رضي بالخروج عن أحكام الشريعة الإسلامية، وما يتعلق بالأحوال الشخصية، ودخل تحت القانون المدني الفرنسي.

وبهذا فتح باب التجنيس وهو ما يعرف عنه بالتمتع بالحقوق الفرنسية، وتوسع الأمر منذ قوانين فيفري 1919، حيث أصبح سهلا الحصول على الجنسية الفرنسية إذا تعلق الأمر بالخروج من أحكام الدين الإسلامي⁽¹⁾.

ويلاحظ أن الإقبال على التجنيس في بداياته كان ضعيفا، حيث لم تتجاوز معدل ثلاثين طلبا سنويا، فقد وصلت بين 1865 و1899 إلى 1131 تجنيسا بين الأهالي المسلمين، علما أن أغلب هؤلاء المتجنسين كانوا من الجنود، وأن الهدف من ذلك هو الترقى في الرتب العسكرية، الأمر الذي لم يكن له كبير أثر على العامة، وهذا سبب عدم وجود صدام مع الحركة الإصلاحية في القرن التاسع عشر، وبدخول القرن العشرين تغيرت بعض المعطيات، حيث بدأ تزايد المتجنسين، خاصة بعد قانون 4 فيفري 1919 الذي دفع عددا أكبر إلى التماس المواطنة الفرنسية، وبالأخص بعد 1930 الذي نشطت فيه فئة النخبة المطالبة بالتجنيس⁽²⁾.

وهذا جدول⁽³⁾ يبين تصاعد نسبة التجنيس في الجزائر من 1920 إلى 1938.

السنة	1920	1922	1924	1926	1928
عدد المتجنسين	17	56	29	67	38

(1) ينظر: كتاب الجزائر، توفيق المدني، ص 349 - 350.

(2) ينظر: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940، علي مراد، ص 491 - 492.

(3) المرجع نفسه، ص 492.

السنة	1930	1932	1934	1936	1938
عدد المتجنسين	152	127	155	142	190

وهذه الفئة على قلتها بالنسبة لعموم الجزائريين، إلا أنها نشطت في عقد الاجتماعات للمطالبة بتسهيل التجنيس، ووصل بهم الأمر إلى إصدار جريدة خاصة بهم: "الصوت الأهلي" سنة 1929 بقسنطينة، بزعامة الربيع الزناتي، فكانت لهم منبرا يهاجمون الفكرة الإصلاحية، والمبادئ الوطنية⁽¹⁾.

أ- جهود العلماء في محاربة التجنيس:

نظرا إلى هذا العدد المخيف، والتطور المريب، دفع دعاة الإصلاح للتدخل بقوة، والتصريح دون التلميح، ومحاربة هذه السياسة بكل حزم من خلال الجرائد والخطب والدروس ومختلف المكاتب الموزعة في أنحاء الوطن؛ مثل جريدة الحق الوهراني التي كانت تصدر بوهران، حيث دافعت عن حقوق الجزائريين، وأوضحت خطتها المعادي للتجنيس، وأنذرت المجتمع الجزائري بحنكة من فخ تقسيم الجزائريين بهذه السياسة، وحافظت على الهوية الوطنية الجزائرية بإصدارها مقالات ضد خطر التجنيس والزواج المختلط، وردّها على صحيفة "الإسلام" الحكومية⁽²⁾.

ومن أوائل الكتّاب الجزائريين الذين تصدوا لحركات الفرنسة والمسح، هو المصلح الاجتماعي عمر بن قدور سواء في الصحف العربية أو الوطنية، منذ سنة 1911، ومن هنا عُدت فكرته إرهابا للأفكار التي حاربت التجنيس بين 1927 و1931 في الصحف الإصلاحية الجزائرية، إلا أنه كان يعبر بكلمة "الاندماج الجنسي" بدل التجنيس. وقد كانت مقالاته⁽³⁾ تدل على نفس مؤمنة قوية، وروح وطنية صادقة⁽⁴⁾.

كما كان لأبي اليقظان مشاركة من خلال معارضته للتجنيس، واصفا المتجنسين بالكفر

(1) ينظر: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ص 137-138.

(2) ينظر: أطروحة دكتوراه: أعلام الحركة الإصلاحية بالغرب الجزائري، بلعربي عمر، ص 32-33.

(3) ينظر مثلا: جريدة الفاروق: طور جديد للجزائر والجزائريين، عدد: 49، 20-02-1914، ص 1.

(4) ينظر: المقالة الصحفية الجزائرية، محمد ناصر، 366/1.

والارتداد عن الدين معتقدا "أن الكلام على مسألة التحنيس وبيان فسادها وخطورتها من الوجهة الدينية والوطنية، كالكلام على ظلمة الليل، ومرارة الحنظل وسم العقرب، وفرقة الديناميت"⁽¹⁾.

وإلى هذا الرأي ذهب رئيس لجنة الإفتاء الشيخ العربي التبسي، حيث كتب في البصائر، افتتاحية بعنوان: "التحنس كفر وارتداد"⁽²⁾.

أما رائد النهضة بالجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس، فقد كانت له صولات وجولات مع هذه القضية من خلال مواقفه ومقالاته⁽³⁾، حيث ختمها بفتواه الشهيرة، التي صادقت عليها لجنة الإفتاء بالجمعية، ونشرتها في جريدة البصائر، وهذه الفتوى كان لها صدى كبير، ووقع عظيم، لا في الجزائر فحسب، بل خارجها أيضا، إذ كانت بمثابة الضربة القاضية على التحنيس والمتحنسين، في كامل أقطار المغرب العربي⁽⁴⁾، تضمن فحواها أن "التحنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكما من أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع، فالمتحنس مرتد بالإجماع. والمتحنس - بحكم القانون الفرنسي - يجري تحنسه على نسله، فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنائته"⁽⁵⁾، ثم عرض فيها كيفية التوبة منها وشرطها، كما تكلم عن حكم الزواج بامرأة من غير جنسية إسلامية.

ومآل هذه الفتوى يعني حرمان المتحنس من الصلاة عليه، ومن الميراث، ومن دفنه في مقابر المسلمين، ومن زواج المسلمة به، وغيرها من الأحكام.

وإذا كانت هذه الفتوى أحد السبل في محاربة سياسة التحنيس، فقد أضافت إليها الجمعية سبيلا آخر يتمثل في نشر الثقافة العربية والإسلامية، وبث روح الاعتزاز بالتراث العربي

(1) وادي ميزاب: رأينا في التحنيس، عدد: 70، 17-2-1928، ص 1.

(2) عدد: 95، 14 جانفي 1938.

(3) للتوسع في هذا ينظر: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ص 137 وما بعدها.

(4) ينظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، تركي رابع، ص 73.

(5) البصائر: عدد: 95، 14 كانون الثاني 1938.

الإسلامي⁽¹⁾.

ويضيف الباحث أن الثبات على هذا المبدأ، والصبر على تبعات هذه القضية، يعتبر سبيلا آخر في محاربة التجنيس، فقد ثارت ثورة الفرنسيين والراغبين في التجنيس ضد علماء الإصلاح، وأطلقوا العنان لأقلامهم وسفهاءهم ضدهم؛ فقد قام الحاكم العام "لوبو" عام 1937 بعزل إمام جامع دلس، لأنه رفض الصلاة على أحد المتجنسين، وأيد الحاكم رئيس جمعية المتجنسين المدعو: "سعدي أوأكلي"، والقضايا في هذا كثيرة⁽²⁾.

ولأهمية الدور الذي قام به علماء الإصلاح، قال شارل أندري جوليان: «كان العلماء هم الذين أيقظوا الرأي العام من سباته»⁽³⁾.

"ومهما كان الأمر فإن قانون التجنيس المشروط بالتخلي عن الشريعة الإسلامية قد ألغي سنة 1947، وجاء في القانون الجديد أن الجزائري مواطن فرنسي مع المحافظة على الحالة المدنية الإسلامية، وأصبح الجزائري منذ 1947 يدعى (فرنسي مسلم) بدل (رعية فرنسي). ولا شك أن ذلك يعتبر هزيمة لأنصار الاندماج عن طريق التجنيس وانتصارا لأنصار الهوية الوطنية والمحافظة على الذاتية الإسلامية، كما يسميها ابن باديس"⁽⁴⁾.

ومن أظهر الأدلة على هزيمة المتجنسين، هو اعتراف ربيع الزناتي رئيس تحرير جريدة "الصوت الأهلي" لسان حال المتجنسين، على حالة الدونية التي يعيشها المتجنسون، والهوان الذي يعانونه، وخيبة آمالهم في وعود السلطة الفرنسية الكاذبة، وذلك حين نشر مقالا بعنوان: "المتجنسون المساكين"، إذ عزّته الصحف العربية، وممن نشرته وعلّقت عليه "الشهاب"⁽⁵⁾.

وخلاصة القول أن مساهمة العلماء الجزائريين في قضية التجنيس كانت جادة وفعّالة في الحفاظ على كيان الأمة، والدفاع عن مقوماتها، فقد وظّفوا ما أسعفهم من إمكانيات في ظرف حضاري صعب تكالبت فيه قوى الاستعمار على الدول المستعمرة، ونشط فيه أصحاب المشاريع التغريبية الرامية إلى احتواء أوطان الشعوب بأكملها، ولكن الله قيّض لهذا الوطن رجالا

(1) ينظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص74.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 6/373.

(3) إفريقيا الشمالية تسير، ص133.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي، 6/376-377.

(5) مجلد6، ص634، أكتوبر 1930.

بذلوا الغالي والنفيس، فكانوا بحق سدا منيعا لحفظ للجزائر كيائها، وسلمت لها بفضلهم شخصيتها وهويتها⁽¹⁾.

4- التاريخ:

أ- تعريف التاريخ وأهميته:

هو "علم تعرف به أحوال الماضيين من الأمم الخالية من حيث معيشتهم، وسيرتهم، ولغتهم، وعاداتهم، ونظمهم، وسياستهم، واعتقاداتهم، وآدابهم، حتى يتم بذلك معرفة أسباب الرقي والانحطاط في كل أمة وجيل"⁽²⁾.

والتاريخ الوطني لأي بلد يعتبر من المكونات الأساسية للهوية الوطنية، فهو الرافد والمؤطر للتوجه الفكري والنفسي والإيديولوجي للأمم والشعوب، وهو ملاذ مهم بالنسبة للأمم التي تعيش أزمات واضطرابات حيث يوظفه الشعب في الرفع من معنوياته، أو الخروج من أزماته، أو محاربة أعدائه؛ فالتحكم في التاريخ يعني التحكم في مصادر ومستقبل الشعوب⁽³⁾.

فاعامل التاريخ من أهم العوامل في تكوين الشخصية القومية، وقد قيل: "إذا كانت اللغة هي روح الأمة، فإن التاريخ هو ضميرها". لأن التاريخ العام المشترك هو السجل الثابت لماضي الأمة، الذي يحمل ديوان مفاخرها، ومدخر ذكرياتها، ويحدد آمالها وأمانيتها، وبهذا تتميز كل جماعة تشترك في ماض واحد تنتسب إليه، وتعتز به، عن جماعة أخرى⁽⁴⁾.

ولما كان لأهل الجزائر تاريخهم العربي الإسلامي، المختلف تماما عن تاريخ الأمة الفرنسية، اعتُبر مُقَوِّمًا هامًا من مقومات الشخصية الجزائرية، فهو الذي ساعد في إحياء ضمير الشعب الجزائري، والارتباط بذكريات تاريخهم وأحداثه، والاعتزاز بها.

وفي هذا يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: «لا جرم في أن التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية، حتى ليصح لنا أن نقول بأن الوطن هو تاريخ الوطن، ولا حياة لأمة إلا بإحياء

(1) مجلة العلوم الإنسانية: مساهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على الهوية الوطنية، كمال عجالي، ص106. بتصرف.

(2) تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، 23/1.

(3) مجلة: بحوث ودراسات، سياسة فرنسا الممنهجة في القضاء على مقومات الهوية الوطنية في الجزائر، مجيد مسعودي، ص20، مع بعض التصرف.

(4) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 31-32.

ماضيها»⁽¹⁾.

1- الهدف من تعلّم التاريخ الوطني:

لقد كان هدف المصلحين والمربين والمعلمين من وراء تعليم النشئ لتاريخهم الوطني، هو "إعداد المواطن الصالح وتكوين الشخصية الاجتماعية ومساعدة التلميذ على اكتساب الثقة بنفسه وتكوين الذوق والحس التاريخي المشترك، ذلك أن للتاريخ أثرا كبيرا في تكوين البطولة لدى الفرد وغرس روح التضحية من أجل الوطن. ومن الخطأ أن يعلم المعلم التاريخ للتلاميذ لذاته أي بصفته أحداثا جرت وانتهت ثم يحشو بها عقل التلميذ، بل يجب على المعلم أن يقنع الطالب بأن (الوطن الجزائري مثلا ملك للأمة الجزائرية وممتد في أقدم العصور... وأنه جزء من الوطن العربي الأكبر الممتد من الخليج الفارسي شرقا إلى بوغاز جبل طارق غربا)، و على المعلم أن يكون هدفه من تعليم التاريخ هو إثارة حب التعاون في المتعلم من أجل (الدفاع عن الإرث العظيم) وأن نذكره بالحروب التي خاضها أجداده دفاعا عن الوطن، والتنويه له بالدعائم التي يقوم عليها التراث وهي (اللغة القومية والدين المتبع والعوائد الجارية)، بمعنى آخر فالتاريخ يجب أن يكون مادة للتربية الأخلاقية والسياسية والتاريخية وأن يخرج المواطن الصالح الذي يؤثر الدين والوطن واللغة على نفسه، ومن ثمة يكون مستعدا للتضحية في سبيل هذه الأركان التي لا يكون الوطن وطنا إلا بها ولا يكون المواطن صالحا إلا إذا عمل بها"⁽²⁾.

2- السياسة الفرنسية نحو تاريخ الجزائر:

ما من شك أن المحتل الفرنسي شنّ حربا عنيفة على عنصر التاريخ، لعلمه أن كيان فرنسا يبقى مهددا ما دام الشعب الجزائري معتزا بهذا المبدأ؛ لذا انتهجت الإدارة الفرنسية سبلا وطرقا لقتل هذا العنصر الحي في الأمة الجزائرية، من ذلك:

- تغييب تدريس التاريخ الجزائري والإسلامي في المدارس الرسمية الفرنسية، والاستعاضة عنه بتدريس تاريخ وجغرافية فرنسا فقط، واعتباره هو التاريخ القومي والوطني للجزائريين، مع ترديد التلاميذ أن أصول الجزائريين فرنسية من بلاد الغال. أما في الزوايا والمعاهد الحرة؛ فلم

(1) الشيخ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه، ذو القرن، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، "الشيخ

العلامة عبد الرحمن الجيلالي إرث من بركات العصر"، حسان موهوبي، ص 34.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 10/124-125

يسمح لها بتدريس التاريخ الجزائري ولا الإسلامي ولا السيرة النبوية والغزوات.

- استيلاء الضباط والمستشرقين على كثير من المخطوطات التاريخية بالسلب أو الاحتيا، واستثمارها في خططهم، وتضييع أغلبها، مما فُقد معه تاريخ الأشراف والمدن والعائلات الكبيرة والوقائع⁽¹⁾.

- بذل علماء التاريخ والآثار الفرنسيين محاولات مكشوفة من أجل تشويه تاريخ الجزائر في ظل الإسلام والعروبة، من ذلك أنهم حصروا جل اهتمامهم ودراساتهم بتاريخ الجزائر والآثار التاريخية الموجودة بها خلال عهدين فقط، هما العهد الروماني قبل الإسلام، وعهد الاستعمار الفرنسي بعد الاحتلال، متحاشين عمدا تاريخ الجزائر في ظل الإسلام والعروبة مدة أربعة عشر قرنا، وفي نفس الوقت ركزت على عظمة فرنسا، وعلى قوتها، وقوة حضورها التاريخي، وهذا حتى يغرسوا في نفوس الجزائريين قناعة أن بلادهم رومانية في ماضيها، وفرنسية في حاضرها ومستقبلها، ولا وجود لتاريخ قومي جزائري يمكن الاعتزاز به.

- اعتبار الفتح العربي الإسلامي للجزائر بمثابة استعمار عربي للجزائر، دام ثلاثة عشر قرنا، حتى جاءت فرنسا وحررت الجزائر من هذا الاستعمار الحديث⁽²⁾.

وجغرافية الجزائر مثلها مثل التاريخ تعرضت للتشويه والتزوير، لما لها من تأثير في تكوين الروح الوطنية والشخصية القومية. إضافة إلى منع تدريسها، زعم المحتل أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا.

وقد انخدع كثير من دعاة الإدماج الجزائريين بهذا التشويه والتزوير لتاريخ الجزائر وجغرافيته، حتى وصل الأمر ببعضهم - كما تقدم - إلى إنكار وجود الأمة الجزائرية، والشخصية الجزائرية.

3- نبذة عن الكتابة التاريخية الوطنية:

لقد كان الوعي بالكتابة التاريخية الوطنية والقومية ضعيفا قبل دخول الاحتلال الفرنسي، وزاد ضعفا بعد دخول الاحتلال، فلم تكن هناك محاولات جادة لكتابة تاريخ وطني على أسس المنظور التاريخي، في المقابل عملت الشخصيات والمؤسسات الفرنسية على كتابة تاريخ

(1) ينظر: المصدر نفسه، 310/7-311.

(2) التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص55-56، 193 بتصرف.

الجزائر ضمن تاريخ إفريقيا الشمالية، اعتمادا على الوثائق والنصوص التي جمعت في تلك الفترة.

وقد ارتبط الاهتمام بالتاريخ الوطني مع تشكل الوعي بالوطن الجزائري، عندما وظفته النخب الوطنية: العلمية والسياسية للدفاع عن عراقية الأمة الجزائرية في مواجهة المشروع الثقافي الاستعماري، ويحدد البعض أن هذا التطور يبدأ مع نهاية الحرب العالمية الأولى، الذي رفض الاندماج وتغيب الذاكرة الجماعية⁽¹⁾.

وهذا لا يعني عدم وجود محاولات وكتابات جزائرية، قبل الحرب العالمية الأولى، بل أمثلة ذلك كثيرة؛ منها كتابات بعض المؤلفين القسنطينيين الذين أرخوا لأواخر الفترة التركية وبداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهذا ما بين 1846-1852، حيث جعلوا من قسنطينة منطلقا لكتابة تواريخهم.

وكتاب الآغا عودة المازري في كتابه "طلع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا".

وكتاب "المرأة" لحمدان خوجة، الذي عرض فيه بعض المسائل التاريخية والجغرافية، وقارن بين العهد التركي قبل الاحتلال، وبعد الاحتلال الفرنسي، وهو كتاب يتدفق روحا وطنية عالية.

كما نجد محاولة تراثية مطلع القرن العشرين لأبي القاسم الحفناوي المفتي الرسمي للجزائر، في كتابه: "تعريف الخلف برجال السلف"، الصادر عام 1906، وقرضه الشيخ محمد الديسي، حيث أرخ للذاكرة العلمية الجزائرية، لما كانت الجزائر تفتقد بصفة قطعية لدراسة مرجعية حديثة⁽²⁾.

"ولعل أول كتاب تناول الجزائر في ماضيها وفي علاقتها بالمغرب العربي القديم ثم مرورا بمختلف العصور الإسلامية إلى الاحتلال، هو محمد ابن الأعرج السليماني صاحب (زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ) في آخر القرن الماضي، ثم جاء بعده بقليل محمد بن الأمير عبد القادر

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 302/7، والشيخ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه ذو القرن، "ملاحظات حول تاريخ

الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالي"، علاوة عمارة، ص 218-219.

(2) المرجع نفسه، ص 218

الذي أرخ للجزائر بصورة سريعة في مختلف العهود ثم تاريخها منذ الاحتلال وبالأخص أثناء مقاومة والده الطويلة. وكلا الكتابين يؤرخ للجزائر باعتبارها امتدادا في التاريخ عبر العصور المختلفة، خلافا لمعظم مؤرخي القرن التاسع عشر المحليين من الاكتفاء بناحية أو قبيلة أو مدينة، وبشكل مقطوع عن الماضي الجماعي⁽¹⁾.

وألّف بعضهم عملا يفيض بالوطنية لكنه خاص بالزواوة، مثل كتاب الزواوي: "تاريخ الزواوة"، وكتاب سعيد بوليفة: "جرجرة عبر التاريخ"⁽²⁾.

4- جهود علماء الجزائر في الحفاظ على التاريخ:

لقد كان ظهور الحركات الإصلاحية والوطنية، مع طغيان المدرسة الفرنسية في طمس تاريخ وشخصية المسلم الجزائري، سببا في دفع الروح الوطنية لدى أعيان المصلحين إلى إصلاح التاريخ، إلى جانب إصلاح العقيدة والمجتمع.

فمن الإصلاح الذي قاموا به، هو تصفية التاريخ مما شابّه من كثير من التحريف والتزييف، خاصة فترة العهد الإسلامي الذي تعرض للتشويه أكثر من غيره، فصُحّحت المفاهيم المغلوطة، والمصطلحات المدسوسة، مثل مفهوم "الفتح الإسلامي"، الذي أطلق عليه الكتاب الغربيون عموما، والفرنسيون خصوصا: "الغزو العربي"، وبعضهم يعبر بالنفوذ الأجنبي، أو عبارات محتملة للشك والريب، مثل: المؤسسات البربرية ونفوذ المسلمين، بل عبّر "أندري جوليان" عن الفتح الإسلامي في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" بأنه "فتح خرافي"، وكتب صنوه المؤرخ الفرنسي: "غوتيه" كتابا بعنوان: "ماضي إفريقيا الشمالية في القرون الغامضة"؛ فأطلق على العهد الإسلامي مصطلح القرون الغامضة.

وردا على هذا يقول العلامة الإبراهيمي: "وكذب وفجر كل من يسمّي الفتح الإسلامي استعمارًا. وإنما هو راحة من الهم الناصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض"⁽³⁾.

ومن إصلاحهم إبراز كيان الدولة الجزائرية مصطلحا ومحتوى، وذلك بالتفريق بين مصطلح

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، 302/7 - 303

(2) ينظر: المصدر نفسه، 304/7.

(3) آثار الإبراهيمي، 3 / 206.

الإمارة والدولة، وإطلاق اسم الدولة على الكيانات التي قامت في الجزائر بعد الفتح الإسلامي، ردا على المستشرقين والكتّاب الغربيين في اللعب بهذه المصطلحات، لإحداث هوة بين الشعب وتاريخه.

وأثبتوا زيادة على ما تقدم أن الجزائر لم تكن كيانا سياسيا وعسكريا فحسب، بل كيانا حضاريا أسهم في بناء وتطور الحضارة الإنسانية. ويظهر هذا واضحا في كتابات الشيخ الميلي، وعبد الجيلالي⁽¹⁾.

ومن جهودهم في هذا الميدان، اهتمامهم بالتاريخ الجزائري تأليفا وتدوينا، وكذلك تدريسا وإلقاء، فكان الأستاذ بمدارس الجمعية خاصة، يعتني بتدريس التاريخ عناية بالغة، ويكسر القيود المفروضة عليه من طرف الإدارة الفرنسية من منع تدريس مادة التاريخ الجزائري، فأحيانا يشير وأحيانا يصرح، وأحيانا يختار وقت الصباح لتدريسه، ويقول إن هذا الوقت تنام فيه الشياطين - ويقصد بهم الجواسيس -، وتستيقظ فيه الملائكة - ويقصد الطلبة -⁽²⁾.

وذكر د. تركي رابح بعض التحديات في هذا الشأن، فقال: «ورغم محاربة الاحتلال للتاريخ الجزائري وحرمان الجزائريين من تعلمه في المدارس والمعاهد الحرة، إلا أن المنظمات الوطنية التي كانت قائمة بالتعليم العربي الحر، عملت على تدريس التاريخ الجزائري والعربي الإسلامي لتلامذتها تحت عناوين مختلفة، مثل: "دراسة الموارث"، أو "دراسة مواقيت العبادات"، أو "دراسة تاريخ الإسلام"، أو "تاريخ التشريع"، إلى غير ذلك من العناوين، وكان هذا قبل الثلاثينات، وفي أثنائها، أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد أصبحت جمعية العلماء تدرس التاريخ الجزائري علانية وتوسع كبير في مدارسها، ومعاهدها، متحدية بذلك قرارات الاحتلال، وقوانينه في هذا المجال وغيره من المجالات المتصلة بالتعليم العربي والدين الإسلامي»⁽³⁾.

وكان تدريس التاريخ في المدارس الابتدائية يبدأ في السنة الثالثة، بواقع حصتين في الأسبوع: تاريخ الجزائر بصفة خاصة، وتاريخ العالم الإسلامي بوجه عام، ثم ينصبّ التركيز

(1) عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه ذو القرن، أوجه المقاومة والتأصيل في تاريخ الجزائر العام، إسماعيل سامعي، ص 236-238، 241.

(2) ينظر: ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص 461.

(3) التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 332-333.

بعدها على التاريخ الإسلامي، والسيرة النبوية، ثم تاريخ الجزائر في العصر الحديث إبان الاحتلال الفرنسي، ومقاومة الشعب الجزائري له⁽¹⁾.

أما في مجال التأليف والتدوين فقد برزت بعد الحرب العالمية الأولى كتب ثلاثة، كان لها شأن عظيم وأثر كبير في قلب موازين سياسة المستعمر تجاه تاريخ الجزائر، وذلك بإحيائه في نفوس الجزائريين، وبعث الروح الوطنية والقومية الجزائرية؛ أولها كتاب الشيخ مبارك الميلي: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، والذي ركّز في كثير من مقدمات كتابه على أن سبب تأليفه، هو الفراغ الذي يعيشه أبناء وطنه تجاه تاريخهم المجيد، فقد كان كتابا في التاريخ من جهة، ودرسا في السياسة والوطنية من جهة أخرى، ولعظم هذا الجهد، قرّظ ابن باديس هذا الكتاب، وقال فيه:

«أخي مبارك! سلام ورحمة، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم، وقفت على الجزء الأول من كتابك "تاريخ الجزائر في القديم والحديث". فقلت لو سميت "حياة الجزائر"، لكان بذلك خليقا... أخي مبارك من أحياء نفسا واحدة فكأثما أحياء الناس جميعا، فكيف بمن أحياء أمة كاملة ؟ أحياء ماضيها وحاضرها، وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها، فليس والله كفاء عملك أن تشكر الأفراد، ولكن كفاؤه أن تشكر الأجيال، وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيرا، وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلا»⁽²⁾.

وتلاه الأستاذ أحمد توفيق المدني بكتابه القيمين: "كتاب الجزائر"، و"هذه هي الجزائر"، ثم اقتفى أثرهما الشيخ المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي بكتابه الفريد: "تاريخ الجزائر العام". إضافة إلى المقالات المختلفة من العديد من الكتاب الذين تناولوا تاريخ الجزائر وأعلامها، في كثير من الجرائد والمجلات، التي كانت تصدر قبل الثورة.

إن مجموع هذه الجهود سواء التي كانت عن طريق التدريس والتعليم، أو عن طريق التأليف والتدوين، كان لها أثر عظيم على عموم الشعب الجزائري، مما يعد نجاحا باهرا، ونصرا مؤزرا، حقق المصلحون من خلاله بعث التاريخ الجزائري والحفاظ عليه، وقامت عليه شخصية المسلم

(1) ينظر: المرجع نفسه، 334.

(2) آثار ابن باديس، 10-9/1.

الجزائرية.

الخلاصة:

من خلال معطيات هذا المبحث يخلص القارئ المنصف، إلى أن مساهمة العلماء الجزائريين الوطنيين، كانت جادة وفعالة في الحفاظ على كيان الأمة الجزائرية، وهويتها والدفاع عن مقوماتها، حيث قدموا إسهامات جبارة، في ظرف استعماري صعب، رغم عدم تكافؤ القوى المادية والمعنوية، وبذلك تحقق فيهم قول الله عز وجل: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ فَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 247). وزيادة في الإنصاف كان لأعضاء جمعية العلماء المسلمين النصيب الأوفر، في هذه الجهود مقارنة بغيرهم. وساعد في هذا النجاح ثبات هوية المجتمع الجزائري وقوته، ولذا أُؤيد من يقول إنَّ "الإجراءات الفرنسية المطبقة في الجزائر، لضرب ركائز شخصية الجزائريين، لو استعملت مع شعب آخر، خارج العالم الإسلامي، ما بقي له سوى ظلال هوية"⁽¹⁾.

(1) الباحث عثمان زقب في مذكرته: السياسة الفرنسية في الجزائر، ص 359.

المبحث الثاني:

إحياء التعليم والحفاظ على اللغة العربية

وقد تناول هذا المبحث مطلبين: الأول في أهمية التعليم، وواقعه في الجزائر قبل الاحتلال وبعده، مع ذكر السياسة الفرنسية المنتهجة نحو التعليم، ثم جهود علمائنا في إحياء التعليم وإصلاحه، أما الثاني فتناول أهمية مقوم اللغة العربية، والسياسة الفرنسية المتبعة تجاه اللغة العربية، ثم جهود علمائنا في إحياء اللغة العربية.

المطلب الأول: الاهتمام بالتعليم

التعليم هو الوسيلة المثلى لإحياء الأمم، ومقاومة قابليتها للاستعمار، وهو أساس العمل الإصلاحي لتغيير واقع المجتمع لإصلاح العباد والبلاد. وهو إلى جانب أهميته في الجانب التربوي، فهو يُقَوِّم الأخلاق، ويُبَيِّر الأفكار، ويُكسِب القدرة على فهم الحياة وسلوك دروبها، وبه يحافظ على دين الأمة ولغتها وشخصيتها⁽¹⁾. كما يعتبر التعليم عاملا رئيسيا من عوامل تحقيق الشخصية القومية لأي أمة، لذا كان من وظائف المدرسة الأساسية في المجتمع الإنساني، هو المحافظة على التراث الثقافي لتلك الجماعة. ولأجل هذا الدور الخطير تُشرف الدول الواعية إشرافا كاملا على شؤون التعليم، حتى تحقق شخصيتها القومية كاملة غير محرفة ولا مشوهة؛ بل نجد أن القوميات المقهورة كانت تعتمد في نضالها من أجل استرجاع مقومات شخصيتها القومية على التربية والتعليم. ويفهم من هذا أنه كما يمكن أن يكون التعليم عامل بناء، ودعم لهوية الأمة، يمكن أن يكون عامل هدم وتخريب لهذه الهوية، إذا أسيء استعماله⁽²⁾.

1- واقع التعليم قبل الاحتلال:

رغم التخلف الحضاري الذي كان يعيشه الجزائريون أواخر الحكم العثماني، إلا أنه لم يكن عائقا أمام التعليم الذي كان منتشرا انتشارا كبيرا في البلاد، بل كان راقيا في مستوى المعاهد والمدارس في البلاد العربية الأخرى، كمصر وسوريا والعراق؛ حيث حوت على عدد ضخم من

(1) ينظر: ابن باديس ومنهجه في الدعوة، ص 176 - 177.

(2) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 44 - 49.

المعاهد العلمية المختلفة، وتوفرت على عدد هام من رجال العلم والأدب والفقهاء⁽¹⁾. وكانت طبيعة التعليم آنذاك تعليما عربيا إسلاميا يقوم أساسا على الدراسات الدينية واللغوية والأدبية وبعض الدراسات العلمية. وكان الممول الأكبر للتعليم هو المؤسسات الخيرية والأوقاف⁽²⁾.

وقد شهد بهذا بعض الأوروبيين أنفسهم بانتشار حركة التعليم، وازدهارها في الجزائر قبل الاحتلال، وتقلصها بعده، كما قال "أوجين كومس": «مما لا شك فيه أن التعليم في الجزائر كان خلال 1830 أكثر انتشارا وأحسن حالا مما هو عليه الآن... فقد كانت هناك أكثر من ألفي مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والعالي... هذا فضلا عن مئات المساجد التي كانت تُعنى بتلقين اللغة العربية لطلابها»⁽³⁾.

ويقول الرحالة الألماني "ويلهلم شمير": «لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه، في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا»⁽⁴⁾.

2- التعليم بعد الاحتلال:

بعد دخول المحتل الفرنسي أرض الجزائر تغير الوضع رأسا على عقب، وتبددت الادعاءات الفرنسية من أنها جاءت لشمال إفريقيا لتنشر الحضارة والرخاء، إذ توقف مسار التطور الفكري والحضاري للشعب الجزائري طيلة فترة الاستعمار.

ويمكن القول أن أهم العوامل التي أثرت على مسار التعليم بالجزائر أمران اثنان؛ الأول هو الحروب الكثيرة التي طالت أكثر من نصف قرن تقريبا، أثرت على الحياة المعيشية للسكان اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، وفي هذه الفترة استشهد كثير من حملة الثقافة الإسلامية الذين شاركوا في الدفاع عن حرية بلادهم، كما أن كثيرا منهم هاجر مضطرا خارج الجزائر إلى أقطار المشرق العربي أو المغرب، ومن بقي منهم عاش تحت سطوة القوانين الفرنسية. أما العامل الثاني وهو الذي كان له تأثير كبير في القضاء على مسار التعليم طيلة فترة

(1) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 147/ ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص 250.

(2) ينظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق، ص 124 - 125.

(3) المرجع نفسه.

(4) تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 147.

الاحتلال الفرنسي، فهو الاستيلاء على الأوقاف التي صدر بقرار مبكر في 8 سبتمبر 1830، وتبعته قرارات أخرى تنص على حق التصرف في الأملاك الدينية، فالأوقاف كان المصدر الأكبر الذي كان يعتمد عليه التعليم في التمويل والقيام بحقوقه.

وبوضع المحتل يده على الأوقاف تقلص التعليم شيئا فشيئا إلى أن اختفى في آخر الأمر، خصوصا في المدن الكبرى، وبقي محصورا في بعض المساجد، وبعض الزوايا الجبلية والصحراوية، وفي هذا يقول مستشار الدولة الفرنسي "ليون بيكي": «إن التعليم في الجزائر الآن (1891) قائم تحت إشراف الأهالي أنفسهم، والزواية حيث يتعلم فيها التلاميذ القرآن وتفسيره، هي المؤسسة التعليمية الوحيدة في المستعمرة»⁽¹⁾.

وقد طبقت السلطات الفرنسية السياسة العنصرية مع الجزائريين في جميع شؤونها حتى في التعليم ف«فرنسا لم تقم بأي شيء جدي لتعليم الجزائريين رغم أنها قد تسلطت عليهم منذ خمسين سنة. إن التعليم الابتدائي الفرنسي قد ازداد انتشارا بعد انتشار الاستعمار في البلاد وحصول الآلاف من الأوروبيين على الأرض الخصبة التي أقاموا عليها القرى وأقاموا بها واستثمروها لصالحهم... وبالقدر الذي أهملوا فيه التعليم الجزائري بالقدر الذي كرسوا فيه الجهود لتعليم أبنائهم وتوفير جميع المستويات لهم، من الابتدائي إلى العالي. وكانت البلديات (المدينة) تتنافس على بناء المدارس لأبناء الجالية الفرنسية (الكولون) وتوفر لهم المنح والقروض، بينما تعليم الأهالي ظل محل احتقار وتهاون... ويجب أن نعرف أيضا أن التعليم الابتدائي كان إجباريا لأبناء الفرنسيين ولكنه غير إجباري لأبناء الجزائريين»⁽²⁾.

ولما كانت الإدارة الفرنسية تنتهج سياسة تجهيل الأهالي، عملت على هدم معظم المدارس وإغلاق الكثير، ومراقبة الباقي، ومقاومة التحاق الأطفال الجزائريين بمدارس التعليم الفرنسية، وزاد الطين بلة معارضة المستوطنين لأي إصلاح تجاه تعليم الجزائريين، لأنهم يعتبرونهم جنسا منحطا لا يصلح إلا للأعمال الشاقة بدون أجر، فلا يصلحون للتعليم، كما فعلوا مع مدير التعليم "جان سير" حين حاربوا مشاريعه التعليمية حتى استقال؛ ثم أخذت الحكومة الفرنسية تفتح أبواب المدارس شيئا فشيئا أمام أبناء الجزائريين منذ سنة 1883، علما أنه كان تعليمًا

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق، ص 131-132.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 3/ 295-296.

فرنسيا لغة وتاريخنا ومنهجنا⁽¹⁾، والبعض الآخر مما يسمح فيه بتعلم العربية كان أشبه بمدارس محو الأمية.

في عام 1890 لم يبلغ عدد التلاميذ الجزائريين الذين ارتادوا المدرسة الابتدائية سوى 9,1% من مجموع الأطفال الجزائريين ممن هم في سن الدراسة، ليرتفع عام 1908 إلى 3,4%، ثم إلى 5% عام 1914، وفي عام 1922 بلغ عدد التلاميذ 60644 طفلا من بين 900 آلاف طفل في سن الدراسة، أي 6%⁽²⁾.

وفي عام 1944 بلغ عدد الأطفال الجزائريين الذين يتلقون التعليم في المدارس الابتدائية الفرنسية مئة ألف طفل يدرسون في 699 مدرسة، فيها 1908 فصول دراسية، أما عدد أطفال الفرنسيين فبلغ مئتا ألف طفل في 1400 مدرسة، فيها 4200 فصلا دراسيا، علما أن عدد السكان الجزائريين كان يقدر بثمانية ملايين نسمة، وعدد الأوروبيين حوالي 800 ألف نسمة، ونسبة الأطفال الأوروبيين المتعلمين هي 100%، بينما أبناء الجزائريين لا يتجاوزون 8% فقط.

وبالنسبة للجزائريين أصحاب الثقافة العالية، فقد وجدت عام 1949 النسب التالية:

- 82 طبيبا من مجموع 1559، أي: 2,5%.

- 10 أطباء أسنان من 317، أي: 1,3%.

- 35 صيدليا من 506، أي: 9,6%.

- 11 قابلة (مولدة) من 427، أي: 8,3%.

- 509 معلما في الابتدائي من 6227، أي 1,8%⁽³⁾.

"وتنحدر نسبة التعليم للمسلمين بارتفاع درجة التعليم، فالتعليم الثانوي بقطر الجزائر، وهو فرنسي كله، يزاوّل في 49 مدرسة ثانوية من درجة "ليسي" أو "كوليج" وهو يشمل: 34868 تلميذا بين فتيان وفتيات، منهم 5300 فقط من فتيان الجزائريين، و952 من فتيانهم.

(1) ينظر: هذه هي الجزائر، توفيق المدني، ص 140 - 141.

(2) ينظر: سياسة التسلط الاستعماري، ص 43.

(3) ينظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق، ص 146 - 147.

وإذا ازدادت صعودا في سلم التعليم العالي، رأيت الهوة السحيقة التي يرسب فيها أبناء الجزائريين: فمن بين 5146 طالبا في كليات الجامعة الجزائرية، لا يوجد يوم إعلان الثورة الكبرى إلا 557 طالبا ليس إلا... وهكذا يوجد طالب واحد لكل 227 نسمة من الأوروبيين بينما لا يوجد إلا طالب واحد لكل 15500 من المسلمين⁽¹⁾.

وهذه النسب مقارنة مع عدد الجزائريين تدل على الكارثة التعليمية التي أصابت الجزائر فقد انتشرت الأمية بين صفوف الجزائريين، حيث ذكر بعضهم أنها وصلت إلى 95% في صفوف الرجال، و99% في صفوف النساء⁽²⁾.

3- أهداف سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر:

"إن سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر كانت منذ الاحتلال في عام 1830 إلى عام 1880 تتأرجح بين فكرتين متعارضتين تمام التعارض تنادي إحداها بتعليم الجزائريين تمهيدا لفرنستهم وإدماجهم في فرنسا في الأمد البعيد... وتنادي الفكرة الأخرى بحرمانهم بتاتا من كل تعليم سواء باللغة الفرنسية أو باللغة العربية، بدعوى أن نشر التعليم بينهم سيترتب عليه خطر جسيم على الوجود الاستعماري في الجزائر في الأمد البعيد"⁽³⁾.

وقد تحمس للفكرة الأخيرة ودافع عنها المستوطنون الأوروبيون، واستقر رأي المسؤولين الفرنسيين على الفكرة الأولى مع أنهم أخذوا بها في نطاق سياسة التجهيل، ولم تكن إلا من قبل ذرّ الرماد في العيون، كل هذا لمصلحة المحتل الفرنسي، لا لمصلحة شعب يمثل الأمة الجزائرية.

أما أهداف السياسة الفرنسية في الجزائر عموما، وفي التعليم خصوصا فقد كانت ظاهرة في محاولة تحقيق سياسة الفرنسة والتنصير والإدماج، طوال فترة وجودها بالجزائر، ولما عجزت عن فرض هذه السياسة عن طريق القرارات والقوانين، ركزت على التعليم لتحقيق هذه الأهداف، وجعلته الوسيلة الأساسية.

وهذا السر في جعل التعليم الخاص بالجزائريين فرنسيا في جميع مراحله، إذ كان المقصود

(1) هذه هي الجزائر، ص 143.

(2) ينظر: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، مرجع سابق، ص 180.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح، مرجع سابق، ص 139.

إذابتهم وهدم شخصيتهم الوطنية والدينية، لا تثقيفهم ونشر الحضارة - كما زعموا-. وهذا لعلمهم أن المدرسة أقوى تأثيراً من استعمال القوة في هذا المجال، وهو ما صرح به كثير من ساستهم وقادتهم⁽¹⁾.

بعض العقوبات التي وضعتها السلطة الفرنسية في طريق التعليم: وهي كثيرة منها:

- تحطيم التعليم التقليدي: لما كانت المدرسة العربية التقليدية مصدراً لثبات الهوية الوطنية والدينية، سعت السلطة الفرنسية إلى قيام مدارسها الفرنسية على أنقاض المدارس العربية التقليدية، فقامت بتدمير الإرث الثقافي للمجتمع الجزائري بطرق ملتوية؛ بدءاً بمصادرة الأوقاف المُنحّبة على المؤسسات الخيرية والمراكز الدينية والتعليمية، إثر إصدار قرارات متدرجة ومتتابة، وأغلقت كثيراً من المدارس والزوايا والمساجد والمعاهد الدينية، وتحويل بعضها، وهدم البعض الآخر.

وبالنسبة للمدارس القرآنية والزوايا التي استمر نشاطها العلمي والتعليمي، فقد وُضعت لها قيود وشروط لا تخرج عن كونها قاسية أو تعجيزية للحد من فتح هذه المراكز التعليمية، إضافة إلى دخولها تحت رقابة وتفتيش السلطة الفرنسية.

- كيفية التعامل مع العلماء والمعلمين:

لما كان القرن التاسع عشر محطة للثورات، فقد استشهد بها كثير ممن تصدى للتعليم، وكثير منهم هاجر إلى خارج الجزائر للأوضاع المتردية آنذاك، وللضغوط والمضايقات التي تعرضوا لها، ومنهم من تمّ طرده ونفيه، ومن بقي منهم بقي تحت رحمة السلطة الفرنسية، وقد عملت استيعابهم وإدخالهم في وظائفها الفرنسية حتى تقتل فيهم الوطنية الجزائرية والقومية العربية.

ومن تحرر من وظائفها فرضت عليه قيوداً؛ تفرض عليه رخصة حيناً، وتمنعه من التعليم حيناً آخر، مما تسبب في سجن كثير منهم وتغريم البعض الآخر⁽²⁾.

- وضع العراقيل للدراسة والتدريس: من ذلك:

- "اقتصار التعليم على حفظ القرآن فقط.

- يمنع التدريس إلا برخصة من الإدارة الفرنسية.

(1) المرجع نفسه، ص 133.

(2) ينظر: ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، ص 255-258، 263-264.

- يمنع تدريس التاريخ الجزائري القديم والحديث، منعا باتا، وكذلك تفسير آيات القرآن التي تدعو إلى الجهاد والانتصار ضد الظلم والعدوان.
- لا تفتح المدارس ولا يقبل فيها التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن المدرسة الفرنسية.
- يفرض على المعلم في المدارس الحرة أن يكون عارفا باللغة الفرنسية⁽¹⁾.
- فرض رخصة مدرسية أصلية لكل طالب بعد أخذ موافقة الحاكم العسكري.
- منح الرخصة للمعلم باسمه لا ينوب عنه غيره بأي حال إلا بعد طلب رخصة جديدة.
- عدم السماح للمدارس القرآنية والمدارس الحرة للتعليم الابتدائي بالتدريس إلا في الأوقات الخارجة عن فترة الدراسة بالمدارس الفرنسية، وهذا يعني إلزام فتح المدارس في أوقات غير مناسبة - الصباح الباكر جدا أو في المساء - إضافة إلى كثرة ساعات الدراسة لمن كان يدرس بالمدارس الفرنسية، وأراد تعلم اللغة العربية والوطنية⁽²⁾.
- يضاف إلى ذلك وسائل أخرى يمكن إجمالها في النقاط التالية:
- تحديد عدد التلاميذ في كل مراحل التعليم.
- خفض ميزانية تعليم الجزائريين إلى أقل حد ممكن.
- الاهتمام بالتعليم النظري على حساب التعليم الفني والمهني.
- فصل تعليم الجزائريين عن تعليم الأوروبيين وإضعافه.
- تصعيب الامتحانات أمام الجزائريين، ووضع شروط قاسية.
- فرض مصاريف تعليمية باهضة بعد المرحلة الابتدائية تفوق إمكانيات معظم الجزائريين المحدودة⁽³⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 262

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 268.

(3) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 141.

4- جهود العلماء في إحياء التعليم وإصلاحه:

أ- خلال القرن التاسع عشر:

في هذه الفترة كانت المناطق التي لم يحتلها المستعمر الفرنسي؛ يواصل علماءها طريقتهم التعليمية التقليدية عن طريق المسجد والكتاب والزاوية بدءًا بحفظ القرآن الكريم وتعليم الكتابة والقراءة، ثم التدرج في العلوم الدينية مع بعض العلوم الدنيوية كالحساب.

من ذلك النظام الذي سار عليه الأمير عبد القادر الجزائري، فرغم الصراع الذي كان يعيشه مع المحتل الفرنسي، والحياة الجهادية التي تؤثر على الاستقرار المعيشي، فإن الأمير لم يغفل عن التعليم، بل واهتم به كثيرا، لأنه كان يرى أن لا قيام لدولة لا تهتم بالعلم والتعليم، فقد أسس في تلمسان وحدها خمسين مدرسة ابتدائية، ومعهدين كبيرين للتعليم الثانوي والعالي، كما اهتم بالكتب النفيسة وحرص على جمعها، واستفادة المسلمين منها⁽¹⁾.

ومن اهتمامه أنه "شجع الدروس بين المواطنين في المساجد وغيرها، وكان هو نفسه يقوم بإلقاء درس عمومي عندما لا يكون في حالة حرب مع العدو. وقد رتب في مختلف المدن علماء لهذا الغرض، وجعلهم طبقات وعين لكل طبقة راتبا عينيا أو نقديا. واستثنى العلماء من الضرائب. وكان يقوم هو نفسه باختبار المترشح، فكان يكرم الجيد ويعرض عن الجاهل. وكان التلاميذ يجدون المدرسين الجيدين والمكتبات للمطالعة ومحلات السكن. وقد عفا الأمير عدة مرات على مدرسين استحقوا عقوبة الموت، تقديرا للعلم. وكانت هذه السياسة سببا في ازدهار حركة التعليم في دولة الأمير وتنافس العلماء في تحصيل العلم وحفظ التراث، رغم ظروف الحرب القاسية، وكان معظم خلفائه من المدرسين والمتفقيين"⁽²⁾.

علما أن حركة التعليم قد تأثرت في آخر عهده الجهادي، إلا أن ما قام به يعتبر تحديا واضحا وصمودا قويا في وجه المحتل الفرنسي.

ومثله كذلك التعليم في ميزاب "حيث المساجد هي أساس التعليم الثانوي، ولا وجود للزوايا، نجد التلميذ ينتقل من التعليم القرآني الابتدائي إلى المتوسط والثانوي، وعادة كان التعليم يعطى في دار العلم أو دار التلاميذ تحت إشراف العزابة. وبرنامج هذه المرحلة غني

(1) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، بلاح، ص 175.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 61/3.

بالنسبة إلى غيره في أنحاء القطر. فهو يشمل العلوم الدينية من فقه وتوحيد وأصول الفقه، والتفسير والحديث والفرائض. ثم العلوم العربية والعقلية كالنحو والبلاغة والعروض والمنطق والحساب. وكانوا يعتنون بالحساب لعلاقته بالفرائض، وكذلك التجارة والمحاسبات. وكان التلاميذ يواظبون على الدروس في المساجد التي كانت مجانية لهم وكذلك بالنسبة للمعلمين. ولا يكاد يوجد رجل أُمِّي في ميزاب لعناية أهله بالتعليم العربي الإسلامي من الأساس. أما التعليم العالي فيتلقونه على بعض الشيوخ البارزين أمثال الشيخ أطفيش ثم تلاميذه في مرحلة لاحقة، أو يهاجرون من أجله إلى تونس والمشرق⁽¹⁾.

ولا يمكن إغفال الدور الفعّال الذي قام به الشيخ محمد بن يوسف أطفيش باني النهضة العلمية في المنطقة - والذي صادف طغيان الاحتلال الفرنسي بدءًا بالحماية سنة 1853 ثم الاحتلال الكامل سنة 1882 - حيث اضطر إلى الخروج من بني يسقن، والتنقل في مدن ميزاب وغيرها، دون توقف مسيرته في التأليف والتعليم.

ومن أهم إنجازاته التعليمية بناؤه معهد بني يسقن حوالي 1850، الذي ظل يسيره ويسهر عليه إلى وفاته عام 1914؛ حيث كان للشيخ ثلاثة منازل، خصص كل واحد منها لمهمة، ووحد حوله لمعهد وبه عرف، وقد ورد عليه التلاميذ من مختلف أنحاء ميزاب وحتى خارج الجزائر، وجُعل لقبول التلاميذ شروط أولها حفظ القرآن الكريم، كما تم تقسيم الطلاب إلى طبقات: طبقة المبتدئين، وطبقة المتوسطين، وأخيرا طبقة كبار التلاميذ. لقد كانت جهود هذا الرجل إشعاعا أضاء منطقة ميزاب في عهد كاد ظلام الجهل يطمس كل معالمها⁽²⁾.

وبعد إخضاع أغلب مناطق الجزائر، تأزّم وضع التعليم أكثر، وفي هذه الظروف ظهرت زوايا جديدة نصّبت نفسها للتعليم العربي والإسلامي رغم المراقبة والمضايقة الفرنسية، والقيود القانونية، وجفاف الموارد؛ من ذلك زاوية أولاد الأكراد بتيارت، كما استمرت بعض الزوايا في أداء مهمتها التعليمية، كبعض مناطق الجنوب و زاوية والأوراس.

ومن أمثلة المعلمين الكبار في المدن الكبرى، الذين كانت لهم بصمة على التعليم، الشيخ

(1) المصدر نفسه ، 62/3.

(2) ينظر: المصدر نفسه، 272/3.

عبد القادر المجاوي، فرغم أن الإدارة الفرنسية هي التي عينته في أحد مساجدها ووظفته بعد ذلك في مدارسها الشرعية⁽¹⁾، إلا أنه لم يتخل عن مبادئه الدينية والوطنية، وانتقد المناهج التعليمية، ودعا إلى تطويرها؛ فقد ألف في وقت مبكر من عمره وهو لم يتجاوز 29 عاما، كُتِيباً قيماً طبع بالقاهرة، بعنوان: "إرشاد المتعلمين"، سبب ضجة عظيمة في الأوساط الجزائرية، إذ رأت الإدارة الفرنسية فيه خطرا تجاه سياستها التعليمية الخاصة بالمسلمين، التي طبقتها في الجزائر ما يقارب الأربعين عاما، أي ما يعادل اندثار جيل بأكمله، حيث أشار في مقدمة كتابه إلى المستوى التعليمي للجزائريين الناتج عن السياسة التعليمية الاستعمارية، دون التصريح بالاستعمار، كما أبرز أهمية التعليم، والطرق الحديثة المعتمدة على التعليم الشامل، وإثراء البرامج التعليمية، فكان كتابه هذا دعوة للجزائريين بالاستيقاظ من سباتهم المخطط من طرف الاحتلال⁽²⁾.

ب- خلال القرن العشرين:

بدخول القرن العشرين تغير وضع التعليم قليلا، إذ بدأت الأصوات المطالبة بتحسين حالة التعليم للجزائريين ترتفع وتقوى، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، حين برزت الأحزاب السياسية الوطنية والحركات الإصلاحية، ودخل كثير من الجزائريين عالم الصحافة. لقد علم كل جزائري له حب لهذا الوطن ودين الإسلام، أن التعليم لا يمكن التنازل فيه للمستعمر بحال من الأحوال، فهو وسيلة وهدف في يد المستعمر في آن واحد، والتنازل عنه يعني فناء أمة كانت تسمى الجزائر، بيد أنه يمكن الصبر على الفقر والجوع، وعن بعض الحقوق السياسية والتعسف الاستعماري، لذا نجد أن المجتمع الجزائري بجميع طبقاته ومكوناته، شارك في المطالبة بتحسين حالة التعليم للجزائريين، سواء كان ذلك بحاله أو بمقاله، وسواء كانوا أفرادا أو جماعات، أحزابا أو منظمات، علماء أو سياسيين، أحرارا أو موظفين عند الفرنسيين. ولما كانت الدراسة محصورة على علماء الجزائر، فإن البحث سيقصر على بعض النماذج الدالة على جهود أهل العلم في هذا المجال، والتي شملت الإصلاحيين بما فيهم بني ميزاب،

(1) وقد نشط في قسنطينة أواخر القرن التاسع عشر، ونشط بالعاصمة فاتح القرن العشرين.

(2) ينظر: دور الشيخ المجاوي عبد القادر، وكتابه "إرشاد المتعلمين" في الصمود الفكري بالجزائر، سومية أولمان، ص 6 وما بعدها.

وبعض أصحاب الطرق الصوفية، وبعض من اشتغل لدى الإدارة الفرنسية، وقد تقدم مثال هذا الأخير، المتمثل في شخصية الشيخ عبد القادر المجاوي⁽¹⁾، الذي واصل نضاله التعليمي بقسنطينة، ثم حولته الإدارة الفرنسية مطلع القرن العشرين إلى العاصمة لينشط هناك، وتظهر جهوده الفعالة داخل المسجد والمدرسة، وأثرها على الطلاب خصوصا، والمجتمع عموما في نشر الوعي الديني والوطني، خاصة أنه كان ضمن ثلّة من العلماء في نفس المجال، أمثال عبد الحليم بن سماية، وابن زكري⁽²⁾.

أما الطرق الصوفية فكان من الملامح البارزة لها ارتباطها بالزوايا، ومن الإنصاف ذكر ما لهذه الزوايا من جانب سلمي وآخر إيجابي، فأما السلمي فيتمثل في الأعمال المنكرة التي تجري داخلها من الرقص والشطح، والبدع والخرافات والاعتقادات الشريكة، زيادة على الولاء للسلطة الفرنسية وهو الذي حاربت جمعية العلماء المسلمين ووقفت ضده.

أما الجانب الإيجابي فيتمثل في نشاطها التعليمي، بدءًا بتحفيظ القرآن، وتدريس العلوم اللغوية والشرعية والتاريخية والفلسفية، وهي بهذا تعتبر مدارس ابتدائية وثانوية ومعاهد عالية، حفظت بذلك جزءًا كبيرًا من اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وكونت طبقة فاضلة من العلماء والفقهاء، رغم الجانب السلبي الذي تخلل بعضها، وعدم تطور البرامج والطرق التعليمية للبعض الآخر⁽³⁾.

يقول توفيق المدني: «لبعض الطرق الصوفية بقطرنا هذا مزية تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى المكابر، تلك هي أنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات وعمل رجالها الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل ويقومون بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال، ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها والتي نقف أمامها موقف المعترف المعجب، لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا

(1) من المفارقات التاريخية هي أن السنة التي ولد فيها (1847) هي سنة نهاية مقاومة الأمير عبد القادر ونفيه، والسنة التي توفي فيها (1914) هي السنة نفسها التي ابتدأ عبد الحميد بن باديس حركته التعليمية، فكان بحق حلقة تواصل بين الأجيال الوطنية والدينية الكبرى في الجزائر.

(2) للتوسع في بعض جهود الشيخ المجاوي ينظر: الشيخ عبد القادر المجاوي، أعمال الملتقى الوطني بتلمسان.

(3) ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 244-245.

لعلوم الدين فالزوايا الكبرى أمثال معهد الهامل ومعهد اليلولي ومعهد سيدي منصور»⁽¹⁾.
ومن أمثلة رجال الزوايا البارزين في مجال التعليم؛ شيخ الزاوية السحنونية، الشيخ محمد السعيد السحنوني⁽²⁾، وتولى بعده شؤون الزاوية تلاميذه أبرزهم "أبو القاسم بن طعيوج"، وقد تطورت في القرن العشرين، حيث أصبحت تستقبل بعض الطلاب من خارج الجزائر، كما أنها وجهت بعثات إلى تونس للتعليم، بل وجلبت بعض الشيوخ من تونس للتدريس بها.

وسلك هذه السياسة في التعليم ابنه محمد الشريف السحنوني (1905م)، والذي تتلمذ على ابن باديس، وقصد تونس بنصيحة منه، وقد اشتهرت هذه الزاوية بالعلم والكفاح في حوض الصومام، وقد كان لها في عهد الشيخ محمد السعيد، ومحمد الشريف نشاط كبير، وجهد مشكور، ظهر أثره في نواحي سطيف والبرج وثنية بني عائشة وسكيكدة⁽³⁾.

كما "جمع الشيخ محمد الشريف مكتبة غنية بالمطبوعات والمخطوطات بحيث بلغت المخطوطات حوالي ثلاثمائة كان قد اقتنى معظمها من تونس من مكاتبات الشيوخ المتوفين والتي تباع عادة في المزاد، كما اشترى بعضها من المشرق أثناء رحلاته، وكان يتردد على المكتبات المعروفة عندئذ مثل مكتبة رودوسي في الجزائر، والشميني والعسلي والأمين في تونس. وبالإضافة إلى ذلك هناك الدوريات التي كان الشيخ يجتهد في اقتنائها والاشتراك فيها، هذه المكتبة الغنية كان مصيرها مصير الزاوية، فقد نُهبت وأُلفت ولم ينقذ منها إلا النادر، فغضب الاستعمار على صاحب الزاوية يطال الزاوية ومكتبتها أيضا"⁽⁴⁾.

إن الزوايا التي خدمت الثقافة العربية، ونشرت التعليم كثيرة جدا، من أشهرها ببلاد الزاوية: زاوية شلاطة بالقرب من مدينة آقبو، وبالجنوب زاوية الهامل بالقرب من مدينة بوسعادة، وبوسط البلاد زاوية سيدي عبد الرحمن الحمالوي بالتلاغمة قرب قسنطينة، وزاوية

(1) كتاب الجزائر، ص 375.

(2) (1839-1914): التحق والده السعيد أمقران بجيش الأمير واستشهد في المقاومة، وابنه جنين في بطن أمه، وتولى تربيته ابن عمه محمد وعلي، ودرس على شيوخ آخرين أمثال البوجليلي، انتصب للتدريس في بعض الزوايا ثم أسس زاوية خاصة به أيام ضعف التعليم وتوغل الإدارة الفرنسية في البلاد. تاريخ الجزائر الثقافي، 197/3 - 198.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 198/3 - 199.

(4) المصدر نفسه، 10/ 605 - 606.

مازونة وغيرها⁽¹⁾.

ومن أجل المحافظة على اللغة العربية والتراث الإسلامي بشكل أوسع وأفضل، كثر الحديث مطلع هذا القرن عن إصلاح الزوايا، وجعل تعليمها يتماشى مع التطور المنهجي والنفسي، مثلما فعل "المختار بن الحاج السعيد"⁽²⁾ حيث ألقى بحثا حول إصلاح الزوايا بمؤتمر المستشرقين بالجزائر عام 1905، وتمنى من الإدارة الفرنسية أن تنظمها تنظيما جيدا، كما كتب الشيخ أبو يعلى الزواوي، خلال الحرب العالمية الأولى، في كتابه: "تاريخ الزاوية" حول نقد الزوايا، وإصلاح مناهجها ومتابعة تلاميذها وتطويرها، وقبله الشيخ السعيد بن زكري في كتابه: "أوضح الدلائل" عام 1903⁽³⁾.

وقد ذكر يحي بوعزيز عائلة البعازيز نموذجا "للعائلات العلمية التي توارثت العلم والثقافة ومهنة التعليم، أبا عن جد لعدة قرون، وسخر مثقفوها أنفسهم لمهنة التعليم والتدريس، وتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، سنوات طويلة بل وعقود، وكتابة العقود والوثائق والصلح بين الناس وتوزيع الموارث"⁽⁴⁾.

1- جهود بني ميزاب في التعليم:

بعد وفاة الشيخ أطفيش مطلع القرن العشرين تبني تلاميذه مسيرته العلمية، كما ظهرت جمعيات ثقافية أسسها العلماء لنشر التعليم العربي والإصلاح الديني والاجتماعي، فتأسست عام 1928 جمعية "الإصلاح" بغرداية، وفتحت بها مدرسة، وأخرى بـ"ريان"، وثالثة بـ"العطف"، ثم توالى تكوين المدارس من طرف هيئات أخرى، لعبت دورا هاما في تكوين ورعاية حركة التعليم العربي الحر، الذي كان له أثره الإيجابي في نجاح الإصلاح الديني والاجتماعي، واستطاعت أن تنهض بعبء التعليم في هذه المنطقة، وتؤسس المدارس والمعاهد والمكتبات والنوادي الثقافية والمساجد التي تُعنى بالتعليم. وتعتبر جمعية الحياة بـ"القرارة" من أهم الجمعيات الخيرية في وادي ميزاب، وكان القائم

(1) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، 247-248.

للتوسع راجع أيضا: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص 46-51.

(2) لم أجد له ترجمة.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 178/3-180.

(4) أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ص 51.

على تكوينها وتولى رئاستها الشيخ إبراهيم بيوض، الذي يعتبر أهم شخصية عملت بانتظام، وبصورة متواصلة أكثر من نصف قرن في المجال التعليمي والإصلاح، وقد كان عضوا في مجلس إدارة جمعية العلماء المسلمين لعدة سنوات.

وهو الذي تولى إنشاء معهد الحياة وإدارته والتدريس به، وصار خلال سنوات قليلة من أهم معاهد التعليم العربي في منطقة الصحراء الجزائرية.

لقد أقام علماء منطقة وادي ميزاب نهضة ثقافية عربية إسلامية كبيرة، دافعوا بها عن مقومات الشخصية الجزائرية، وأنقذوا المنطقة من خطر الفرنسية والانحلال الاجتماعي والاندماج والتنصير الذي سعت السلطة الفرنسية لتحقيقه بكل الوسائل⁽¹⁾.

2- المدارس الحرة:

نشأت منذ أوائل هذا القرن مؤسسات تعليمية، على يد أفراد أو جماعات لنشر التعليم العربي الإسلامي في الجزائر، دون تمويل من السلطة الفرنسية، وهي التي تعرف بالمدارس الحرة، وقد انتشرت أكثر بعد الحرب العالمية الأولى، خاصة بعد ضغط أصحاب الحركة الوطنية على الإدارة الفرنسية بفتح المدارس الحرة، بعد تنكّر هذه الأخيرة عن فتح المدارس لأبناء البلاد.

ومن أوائل المدارس القرآنية العصرية الحرة مدرسة تبسة سنة 1913 برئاسة السيد عباس بن حمّانة⁽²⁾؛ حيث اهتمت بالقرآن والتربية الإسلامية والأخلاق والتاريخ الإسلامي والجغرافية، إضافة إلى المواد الرياضية واللغة الفرنسية والرياضة، وكانت مدة الدراسة ثمان سنوات، والهدف منها هو إحياء التعليم واللغة العربية بتبسة، لكن صدر الأمر بغلق المدرسة بعد بضعة أشهر، وحلّت الجمعية، ونُفي المعلمون، وشُرد التلاميذ، وُرُجّ بابن حمّانة في السجن.

واعتبره مالك بن نبي أول من دافع عن اللغة العربية في تبسة، وعمل على نشرها، وروى دبور "عن الشيخ بكير العنق الذي كان يعرف ابن حمّانة شخصا: بأن هذا كان شخصا

(1) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 250 - 255.

(2) (.. - 1332 هـ / .. - 1419 م): من رواد الحركة الوطنية في الجزائر. رافق الوفد الجزائري إلى باريس (1912 م) ليطالب بإلغاء التجنيد الإجباري. وأنشأ في تبسة (1913 م) الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي، كما أنشأ مدرسة قرآنية فلم يرق ذلك لغلاة الاستعمار، وحلوا الجمعية، وأغلقوا المدرسة بعد ستة أشهر من تأسيسها. ثم دسوا إلى صاحب الترجمة من اغتاله بضرية فأس. معجم أعلام الجزائر، ص 123.

جديرا بأن يكون رجل دولة وأنه كان نظير الشيخ الثعالبي في تونس لو وافته الظروف"⁽¹⁾. وهذا ما جعل بعض الكتاب⁽²⁾ يرى أن هذا النموذج أوحى لغيره بالتعليم، والاستفادة منها بطريقة أكثر نجاحا، ومنهم الشيخ العربي التبسي، حين أنشأ بعد رجوعه من مصر مدرسة البنين والبنات في تبسة.

وأهم مدرسة للتعليم العربي الحر ظهرت في العاصمة، هي مدرسة الشبيبة الإسلامية، وترجع أهميتها إلى نتائجها وطول مدتها واندماجها في الحركة الإصلاحية عام 1927. شارك في إدارتها والتدريس بها مجموعة من ألمع رجالات الفكر والأدب، وكان نشاطها كله موجها لنشر التعليم العربي الحر، وبث الوعي القومي، واليقظة الفكرية في طلابها، ولما كان نشاطها قويا أزعج ذلك الإدارة الفرنسية، لذلك استولت على إدارة المدرسة، وأطفأت شعاعها الذي دام 15 عاما⁽³⁾.

3- جهود جمعية العلماء المسلمين:

إن جهود جمعية العلماء المسلمين في نشر التعليم العربي والدفاع عنه، تعتبر من أهم الجهود الوطنية، بذلا وتطبيقا وتطويرا وأثرا من دون منازع، ولئن كانت الجمعية قد برزت في ميادين كثيرة، وكان لها السبق، فإن ميدان التعليم كان لها فيه سبق السبق، فكانت المنظمة الرائدة التي لا يشق لها غبار، علما أن جهودها في نشر التعليم الحر، هو امتداد طبيعي لجهود رئيسها الأول الإمام عبد الحميد بن باديس التي ابتدأها عام 1913 بقسنطينة، ولئن كانت جهود بني ميزاب لها ثقلها ووزنها إلا أنها قاصرة على بني ميزاب، وجهود الجمعية شملت الجزائر من أديانها إلى أقصاها، حيث استطاعت بعد سنوات قليلة أن تحقق إنجازات ضخمة على مستوى الوطن كله، أثار الإعجاب والانبهار لدى المحبين والمنصفين، والفرح والخوف لدى الشائئين والمحتلين⁽⁴⁾.

ويلاحظ أن هذه الجهود مرت بثلاث مراحل بارزة: الأولى من (1931-1939)،

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، 3/ 245.

(2) مثل أبي القاسم سعد الله في تاريخه الثقافي، 3/ 246.

(3) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، 239-241م/ تاريخ الجزائر الثقافي، 3/ 249.

(4) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 207.

الثانية (1939-1944)، الثالثة (1944-1956)؛ وقد كان النشاط الكبير في المرحلة الأولى والثالثة، وضعيفا في الثانية بسبب ظروف الحرب، فأُسست عددا من المدارس والمساجد والنوادي في أهم المدن والقرى الجزائرية التي وصلت إليها دعوتها، بل وصل نشاطها في فرنسا نفسها، بهدف وصول التعليم القومي لأبناء الجزائر بفرنسا حفاظا على شخصيتهم ولغتهم ودينهم، حيث أوفدت مجموعة طيبة بقيادة المجاهد الأستاذ الفضيل الورثاني⁽¹⁾.

يقول البشير الإبراهيمي: « كانت جمعية العلماء فكرت في هذه القضية الخطيرة وتدبرت عواقبها، قبل أن يبلغ العدد إلى هذا الحد، فرأت من الواجب عليها، ومن الأشبه بها، ومن جنس عملها، أن تلتفت إلى هذه الطائفة وتهتم بها، وأن تتخذ الوسائل لإنقاذها من الكفر والذوبان والانسلاخ عن العروبة والإسلام، وبدأت عملها التجريبي سنة 1936 على يد الأستاذ الفضيل الورثاني⁽²⁾ ».

لكن النشاط الأكبر كان في المرحلة الثالثة، ففي عام 1944 أسست الجمعية 73 مدرسة في أرجاء القطر الجزائري، وبلغ عدد مدارسها عام 1948 حوالي 140 مدرسة، ليلعب عدد مدارسها قبل الثورة أكثر من 150 مدرسة، ولم تكن الجهود بارزة من حيث الكم فقط بل كانت كما ونوعا، فها هي الجمعية في عام 1947 تفتح المعهد الثانوي بقسنطينة، يحمل اسم عبد الحميد بن باديس، حتى يكون نواة لغيره، وهكذا فُتح معهد الجزائر وتلمسان.

وأولى المدارس التي أسستها الجمعية هي مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، برئاسة عبد الحميد بن باديس، وأنشأت بالعاصمة مدرسة الشبيبة الإسلامية، تحت إشراف الأستاذ الطيب العقبي، وتأسست بعدها مدرسة دار الحديث بتلمسان، تحت إشراف البشير الإبراهيمي، ثم تتابع سيل إنشاء المدارس الابتدائية⁽³⁾.

(1) (.. - 1378هـ / 1959م): خطيب، من رجال السياسة، كان عنيفا في خطابته وكتابته، مندفعاً فيما يدعو إليه أو يعمل من أجله، ولد في قبيلة بني ورثيلان، من دائرة سطيف، واستكمل دراسته على الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة. وأقام سنتين (1936 - 1938م) في باريس يث روح الوطنية في العمال الجزائريين بها. ثم انتقل إلى القاهرة، دعا إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي في أفطار المغرب العربي. وتوجه إلى اليمن وشارك في مقتل الإمام يحيى. ثم فرّ إلى لبنان، ثم سافر إلى اسطنبول ومات بها. من آثاره "الجزائر الثائرة". معجم أعلام الجزائر، ص341.

(2) آثار الإبراهيمي، 442/4.

(3) ينظر: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر، محمد حسن فضلاء، 25/1.

كما كان من جهودها عام 1951 أن بعثت أول بعثة لها خارج نطاق المغرب العربي لأجل الدراسة بمصر، توزعوا على مختلف أقسام الكليات، ثم توالى البعثات لتشمل العراق وسوريا والكويت والسعودية⁽¹⁾.

كما أسست الجمعية لجنة مستقلة خاصة بالتعليم عام 1948، والتي قررت تعيين مدرسة التهذيب العربية بالأبيار، لتكوين المعلمين وتدريبهم على أساليب التعليم وصناعته، وتحقيق ذلك عام 1954.

ومن الجهود الفردية لبعض أعضائها ذات النقلة النوعية والآفاق المستقبلية في المحافظة على الثوابت الوطنية؛ ما ذكره الشيخ محمد حسن فضلاء⁽²⁾ عن نفسه، حيث قال: «أذكر أنني حينما كنت معلما ومديرا لمدرسة التربية والتعليم فرع باتنة في سنة 1937 كنت أتردد على أصدقائي المعلمين الرسميين العرب في المدارس العمومية الفرنسية، وأحضر دروسهم لأخذ منهم طريقة التبليغ في المحادثة والقراءة والمطالعة والإنشاء والحساب والأشغال اليدوية. أسمع الدرس بالفرنسية وأنقل طريقته ومراحلته إلى العربية، فالبرنامج موجود، والمواد مقرر، لكن روح المنهاج العام المستمد من الثقافة الوطنية الأصيلة لمحاربة مخططات الاستعمار هو الذي كان يهيمن ويغذي ويوجه بحسب ما تتطلبه ظروف الحياة الأليمة، التي كنا نعيشها ويعيشها الشعب الجزائري بمدارسه ومعاقله الحصينة في كنف الاستعمار البغيض وضراوته، ولولا تلك المعاني القيمة من منهاجنا العام، لكنا ما نزال نغط في سبات عميق، أو اندمجنا واندثرنا وصرنا مقحمين في الكيان الفرنسي»⁽³⁾.

هذا وقد أحدثت المدرسة الباديسية خصوصا، والإصلاحية عموما ثورة في أساليب التعليم التقليدية، ومجمل الانتقادات⁽⁴⁾ التي حاولوا إصلاحها وتطبيقها على أرض الواقع هي:

(1) ينظر التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 208-215.

(2) محمد الحسن فضلاء: (1914-1997): حفظ القرآن وتعلم على يد والده الشيخ السعيد فضلاء، درس على ابن باديس وعُيِّن مدرسا ومديرا بمدرسة التربية والتعليم 1937، أدار مدرسة الشبيبة الإسلامية عام 1949، ومدرسة الفلاح بوهراة عام 1953، ومدرسة التهذيب بالأبيار عام 1954، وعين مفتشا للتعليم الابتدائي والمتوسط من 1962 إلى 1982، له مؤلفات نافعة. ينظر: مقدمة المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر، بالجزائر للمؤلف نفسه.

(3) المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، 30/1-31.

(4) ينظر: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، مرجع سابق، ص 192-193.

- طرق التدريس المتبعة القائمة على الفلسفة اللفظية، والمناقشات العقيمة التي لا تؤدي إلى تحقيق الغرض التربوي.

- ابتعاد تلك المناهج والأساليب عن الهدف الحقيقي، وهو فهم أحكام الشريعة.

- اقتصار طرق التعليم على الفروع العلمية دون استدلال ولا تعليل.

كما نجد عنصر التشاور والمناقشة الذي كان له دور في تطور الحركة التعليمية، فقد دعا ابن باديس سنة 1937 إلى عقد مؤتمر للمعلمين الأحرار يقوم على خلاصة آرائهم في وسائل توحيد التعليم وأسلوبه، وخلاصة تجاربهم في التربية والتعليم، والكتب المقررة هل تكون مصرية أم تؤلف كتب جزائرية تتفق مع الروح الوطنية، ورأيهم في تعليم البنات ووسائل ذلك، والتعليم المسجدي وتطويره، ودرجة إقبال الأمة على التعليم⁽¹⁾.

أ- التعليم المسجدي⁽²⁾:

لما كان المسجد أهم المراكز الثقافية الدينية، استغلت الجمعية هذا الصرح في بدء دعوتها منهو فحولت المساجد - مع الحفاظ على نشاطها الديني - إلى مدارس ومعاهد تعقد فيها الدروس العلمية والدينية، وتنشر فيها اللغة العربية، وتبعث الثقافة العربية، ولهذا نشطت في بناء الجوامع والمساجد مثلما نشطت في بناء المدارس، خاصة لما منعت دولة الاحتلال رجال الجمعية من إلقاء الدروس في المساجد الخاضعة لها عام 1933.

وفي هذا يقول ابن باديس: «فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة، كذلك لا مسجد بدون تعليم»⁽³⁾، ومنه نفهم سبب وقوف الجمعية ضد السلطة الفرنسية، والمطالبة بحرية التعليم في المساجد كما هو الشأن في مطالبتها في المؤتمر الإسلامي سنة 1936.

ومن المساجد التي كانت تعتبر مركزا علميا للوطن الجزائري بأكمله؛ الجامع الأخضر بقسنطينة.

(1) ينظر: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، 8/2-9.

(2) ينظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، 227.

(3) آثار ابن باديس، 225/3.

ب- الصحافة والتعليم:

تعددت الموضوعات لدى كُتّاب المقالة الصحفية، لكن من أبرز القضايا التي تناولوها في جميع المراحل هي قضية التعليم، ويلاحظ تشتت الأقلام والآراء حول التعليم، من ابتداء الصحافة الجزائرية إلى الحرب العالمية الأولى، من ذلك اختلاف الآراء في الإقبال على التعليم الحكومي، وبعد الحرب العالمية الأولى نجدها تتلمس الطريق نحو هدف قومي وطني موحد، لإيمان الجميع أن لا نخبضة للأمة الجزائرية ما لم تسلك طريق التعليم⁽¹⁾.

وقد كانت مقالات الكتاب تدور حول مصير الأمة الجزائرية مع التعليم، ونقد الأساليب والمناهج التعليمية التي كانت في الكتاتيب والزوايا، أو المناهج المقررة في المدارس الفرنسية. فكانت بدايته دعوة إلى التعليم، وضرورة تعميمه، واعتباره قاعدة الانطلاق نحو غد أفضل، ثم تجسد على أرض الواقع عملاً محسوساً، عمّ أرجاء الجزائر؛ بفتح المدارس الحرة واستغلال المساجد. ويمكن حصر هذه الأفكار في النقاط التالية:

- "وصف للحالة التعليمية المتدهورة.
- بحث عن أسباب تأخر الأمة في هذا المجال الحيوي.
- تحريض للأمة لتعمل بصفة جماعية لإنقاذ الأجيال الصاعدة.
- نقد وتوجيه للأساليب العتيقة المتبعة في الكتاتيب والزوايا والكتب الفرنسية.
- دعوة حارة إلى تأسيس المدارس الحرة، وضرورة الوقوف أمام الغزو الفكري برفع مستوى الثقافة العربية الإسلامية"⁽²⁾.

ويفيد الدكتور محمد ناصر أن كُتّاب المقالة الصحفية الذين عالجوا قضية التعليم من جميع أطرافها، وجسدوا العلة وأسبابها، واقترحوا لها الأدوية الناجعة؛ ثلاثة وهم: المولود الحافظي الأزهري، وأبو اليقظان، وابن باديس⁽³⁾.

الخلاصة:

إن السياسة التعليمية التي انتهجتها فرنسا نحو الجزائريين تجعل الناظر يدرك الصورة

(1) ينظر: المقالة الصحفية الجزائرية، محمد ناصر، 12/2 - 18.

(2) المرجع نفسه، 18/2.

(3) المرجع نفسه، ص 21/2.

المساوية للتعليم العربي ، وحتى الفرنسي لدى الجزائريين، الذي لا يمكن أن يُبنى عليه صرح ثقافي لأمة جزائرية، وكما أنها تعطي صورة الأرضية التي انطلق منها المشروع الإصلاحي في ميدان التعليم، الذي قد يحكم عليه البعض بالاستحالة بدل الصعوبة، إذا قُورن بين الإمكانيات المادية والبشرية التي سخرتها دولة الاحتلال الفرنسي، وبين إمكانيات أفراد لا حول لهم ولا قوة، ومع ذلك يكتب التاريخ هذه النتائج المبهرة التي تعد نجاحا عظيما في سجل الجزائريين، وبالأخص الدور الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين، وأكبر دليل على هذا النجاح، هو اعتراف قادة الاحتلال على اختلاف نزعاتهم السياسية بهذه الجهود، من ذلك ما قاله الوزير السابق ورئيس الوفد الفرنسي إلى الجزائر عام 1954: "ميتران": «رأينا التعليم الحر الذي تقوم بنشره جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلمنا أن هذه الجمعية تشرف على ما يزيد على 150 مدرسة وأنها تعلم قرابة 45 ألفا من البنات والبنين تنتشلهم من بين أيدي الجهل والإهمال، فنحن لا يسعنا إلا أن نشي الثناء الحار على هذا الجهد الصالح الذي تقوم به الجمعية... لقد خرجنا بحقيقة لا غبار عليها ألا وهي أن الدولة (فرنسا) تعمل على قتل اللغة العربية، وعلى تحطيم الدين الإسلامي، وعلى تجهيل الأمة، والعلماء المسلمون يعملون في خط مناقض للخط الحكومي، فهم يقومون بالجهود المحمودة، لإحياء الإسلام وتطهيره من الخرافات، ونشر اللغة العربية، ورفع الأمية عن الأمة غير مبالين بالعقبات ووسائل الزجر والتنكيل»⁽¹⁾.

ولولا هذه الجهود الفردية والجماعية بعد توفيق الله عز وجل التي حافظت على الإسلام واللغة العربية، وأحيت الشخصية الوطنية الجزائرية، لَمَا قامت فيهم روح المقاومة، و لَمَا تحققت ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 التي قضت على الاستعمار البغيض.

(1) البصائر، عدد 270، 7 ماي 1954، ص8.

المطلب الثاني: الحفاظ على اللغة العربية

يعتبر مقوم اللغة أحد أبرز مظاهر الخصوصية الحضارية وأهمّ المعبرّات الرئيسة لمسألة الهوية، ورافد أساس النهضة الفكرية والارتقاء المعرفي والعلمي، وإذا كانت اللغة صمام الأمن القومي، وعنوان الاستقرار الحضاري، فنسف هذه اللغة هو نسف للهوية، وتدمير لباقي المقومات من أساسها⁽¹⁾.

وقد لعبت اللغة العربية - وهي اللغة الوطنية والقومية للمجتمع الجزائري - طوال قرون عديدة دورا كبيرا في التماسك الاجتماعي والقومي للمجتمع الجزائري؛ لكونها لغة قومية تربطهم بالجزائريين خاصة وبالمجتمع العربي عامة، ولكونها لغة القرآن والإسلام الذي يدين به الجزائريون⁽²⁾.

يقول ابن باديس: «ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة»⁽³⁾. وهو الأمر الذي لم يغفل عنه المستعمر الفرنسي، إذ سعى جاهدا في محاولة طمس الهوية الجزائرية عن طريق القضاء على اللغة العربية وفرنسة المجتمع الجزائري بشتى الوسائل والأساليب، ومن ذلك:

- الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية التي كانت تقوم بالإنفاق على التعليم والشؤون الاجتماعية.

- مصادرة وهدم كثير من مدارس التعليم والمساجد التي كانت قبل الاحتلال، وتحويل الباقي إلى مدارس للتعليم الفرنسي.

- منع تدريس اللغة العربية لأبناء الجزائر، وجعل التعليم باللغة الفرنسية في جميع مراحله.

- فرنسة الإدارة فرنسة كاملة.

- إصدار قانون رسمي عام 1938 يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

(1) ينظر: مجلّة الواحات للبحوث و الدراسات: إسهامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعليم اللغة العربية وصون مكانتها، عبد الرّحمان بوزنون، المجلد 12 العدد2، ص 25.

(2) ينظر: التعليم القومي، ص 52.

(3) آثار ابن باديس، 265/3.

- محاربة حركة التعليم العربي الحر، ووضع شروط تعسفية على منح رخص التعليم، ما نتج عنه غلق كثير من المدارس والمساجد والنوادي بهدف محو اللغة العربية ونشر الأمية.

- إضعاف اللغة العربية بتقسيمها إلى عربية فصحي، وعربية عامية، وعربية حديثة.

- استغلال جماعة النخبة الجزائرية الذين تعلموا في مدارسها وتشبعوا بأفكارها، للتأثير على الشعب الجزائري بالتخلي عن مقوماته الشخصية، ومن ذلك اللغة العربية⁽¹⁾.

و لهذا كان عنصر الفرنسية في الجزائر، تعتبره السلطة الفرنسية وسيلة وهدفا في نفس الوقت.

وقد تجاوز التضييق على اللغة العربية بعد ذلك أبعد الحدود حين كان معلم اللغة العربية يقف في قفص الاتهام مع اللصوص والسفاكين وتجرى عليه العقوبات مثلهم بالسجن والتغريم⁽²⁾.

1- جهود العلماء في إحياء اللغة العربية:

لعل المقاومة التي خاضها الشعب الجزائري من أجل الحفاظ على لغته ضد طوفان "الفرنسة" لم تقل عنفا وضراوة عن مقاومته من أجل الأرض. فإنه بقدر ما كانت زوابع التعرية والتجريد من طرف السلطات الاستعمارية ضده هوجاء عنيفة، بقدر ما كانت نزعة التشبث بلغة القرآن من طرف المسلمين مصرة وعنيدة؛ وهذا منذ السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي، التي راحت السلطات الفرنسية تنفذ مخططاتها الجهنمي، من أجل القضاء على الشخصية الجزائرية⁽³⁾.

ويمكن القول أن مجمل الجهود الجزائرية في الحفاظ على اللغة العربية، ترجع إلى جهودهم في إحياء التعليم ونشره. ففي الفترة الممتدة من دخول الاحتلال إلى ظهور الحركة الإصلاحية لا ينكر فضل الزوايا في هذا المجال، لأنها قاومت وبذلت جهدا عظيما في سبيل الحفاظ على لغة القرآن لا سيما بعض تلك الزوايا الكبيرة التي كانت تقدم العلوم النافعة بدل الشطحات

(1) ينظر: التعليم القومي، ص 101-102

(2) مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، خطوط عريضة لجهود التعريب بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي - جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين أنموذجا (1931م-1956م)، معيوش إبراهيم، المجلد 5، العدد 10، ص 215

(3) ينظر: المقالة الصحفية، ص 35

الصوفية، وقد تقدم ذكر بعضها.

يضاف إلى ذلك بعض الجهود الفردية التي كان لها بمجموعها أثر كبير، وصدى واسع على الوسط الذي كانوا يعيشونه وقد يمتد خارجة، كما تقدم الحال بالنسبة للمصلح عبد القادر المجاوي الذي كان من المدافعين عن اللغة العربية، ولا يرضى أن ينال منها أحد، مستخدماً لغة الحجة والإقناع في إفحام الخصوم و المعادين لها، متصدياً للمستشرقين الطاعنين في ثوابت الأمة ولسانها، إما بالجدال المباشر، أو شرحه لسمومهم في دروسه ومجالسه، مستعملاً الحكمة دون أن يخاف لومة لائم، ولا سطوة ظالم⁽¹⁾.

ولا شك أن انتشار هؤلاء الأفراد الأعلام في ربوع الجزائر؛ مثل الشيخ أطفيش في بني ميزاب، ومحمد بن بلقاسم الهاملي⁽²⁾ في نواحي بوسعادة، وحمدان الونيسي، ومحمد الصالح المهنا، وعبد الحليم بن سماية، وغيرهم قد كان له الأثر الكبير في إحياء اللغة العربية وانتشارها. وبظهور الحركة الإصلاحية، ظهرت جهود كثير من الهيئات والجمعيات والأفراد، الذي كان عملها في هذا الميدان عملاً خالداً، حيث استطاعت بجهود جبارة فتح المدارس الحرة، التي انطلقت منها شعارات: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا".

ويُجمع المؤرخون المنصفون أن جمعية العلماء المسلمين (1931-1956) كانت بحق أهم منظمة وطنية قادت حركة النضال من أجل حرية التعليم باللغة العربية، وجعلها لغة رسمية في الإدارة والتعليم؛ من ذلك جملة المطالب التي تقدمت بها الجمعية في اجتماعها العام سنة 1944، وقدمتها إلى حكومة الاحتلال بخصوص وضعية المساجد والتعليم العربي والقضاء الإسلامي، ومما جاء فيه:

- إلغاء جميع القرارات السابقة المتعلقة بالتعليم إلغاءً صريحاً سواء كانت إدارية أو وزارية.

- نسخ جميع تلك القرارات بقانون صريح يقرر حرية التعليم العربي وعدم تقييده.

(1) ينظر: الشيخ عبد القادر المجاوي، أعمال الملتقى الوطني بتلمسان، ص 60.

(2) (1239 - 1315 هـ / 1823 - 1897 م): فقيه، له مشاركة في علوم الحديث والكلام والتاريخ والأخلاق والتفسير، ولد قرب حاسي بحبح بالحامدية. تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن في بلده، ثم انتقل إلى (زاوية علي الطيار) ثم قصد زاوية ابن أبي داود في (زاوية). وفي سنة 1863م أسس زاويته المعروفة بزاوية الهامل. توفي في بوية الصحارى في طريق عودته من الجزائر العاصمة إلى زاويته بالهامل. له " منظومة الأسمائية". معجم أعلام الجزائر، ص 335.

إضافة إلى جملة من المسائل المتعلقة بهذا الشأن.

فضلا عن الجهود التي تقدمت في إحياء التعليم بالجزائر من إنشاء المدارس والمساجد وإصلاح المناهج، وغير ذلك.

وبتواصل النضال في حق اللغة العربية، وثبات أصحابها، اضطرت الإدارة الفرنسية للتراجع عن قراراتها التعسفية ضد اللغة العربية، حيث صدر القانون الأساسي في 20 سبتمبر 1947 وجاء فيه الاعتراف باللغة العربية كلغة تعليم بجانب اللغة الفرنسية⁽¹⁾.

وإن كان هذا القانون بقي حبرا على ورق، ولم يطبق على أرض الواقع، لكن مجرد الاعتراف والتراجع يُعدّ نصرا لعلمائنا ضد تعسفات إدارة الاحتلال.

ومن جهودهم أنهم قاوموا التفرقة العنصرية بين العرب والبربر في الجزائر التي زرعتها فرنسا لضرب اللغة العربية، فها هو ابن باديس يقول في مقاله: "كيف صارت الجزائر عربية": «دخل الأمازيغ الإسلام وتعلّموا لغة الإسلام العربية طائعين، ووجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتوحة في وجوههم، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة ونافسوهم في مجالس العلم والأدب، وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش. وقاسموهم كل مرافق الحياة، فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية، يعربون عنها وينشرون لواءها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة، فاتّحدوا في العقيدة والنّحلة. كما اتّحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعبا واحدا عربيا متّحدا غاية الاتحاد، ممتزجا غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتّحد الفؤاد واتّحد اللسان»⁽²⁾.

وفيما يخص الصحافة فقد كان العلماء الجزائريون في طليعة الصفوف المدافعة باستماتة عن حرمة اللغة العربية ومكانتها في الجزائر، وقد لعبت الصحافة هذا الدور الريادي من خلال جانبين مهمين؛ أولهما يتمثل فيما تضمنته المقالات العديدة من أهمية اللغة العربية ومحاسنها، والردود العلمية والمنهجية حول مسار اللغة العربية، والاستنكار الفردي والجماعي حول التعسفات الفرنسية، والرد على خصومها وأعدائها، إضافة إلى طرح الحلول وإيجاد الوسائل في سبيل النهوض بها، وثانيهما أن انتشار المقالة الصحفية نفسها بين الجزائريين كان عاملا قويا في نمو اللغة العربية وتحسينها وانتشارها، نظرا للقوة البيانية، والأساليب الراقية، والأشعار المرهفة

(1) ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، مرجع سابق ص 131 - 132

(2) مجلة الشهاب الجزء 12 العدد 13، ذي الحجة 1356 / فيفري 1938، ص 510.

التي حملتها هذه المقالات في طياتها، فقد كانت متنفسا للخطباء والأدباء، أعطت للغة مرونة وحيوية.

وإلى الفضل الكبير للصحافة، يقول ابن باديس: «والشعور بهذا الواجب يُعزى الفضل فيه إلى ما قام به نبغاء الجزائر ودهماؤها من الدعوة والإرشاد، فظلوا ينافحون عن اللغة والدين مظهرين ما لهما من الروعة والجلال، وإلى ما قامت به الصحافة الجزائرية الفتية من ضروب التعضيد والتأييد والإذاعة، فتوصلت بعد جهاد طويل إلى غرس ملكة الذوق العربي في النفوس، فتذوق العموم من ثم حلاوة اللغة العربية، وطلاوة أساليبها الرشيقة»⁽¹⁾.

وفي تكليل جهود الجمعية بالنجاح، وأثرها في ازدهار العربية، يقول البشير الإبراهيمي: «وقد أشرفت هذه اللغة الشريفة على الاضمحلال بهذه الديار لولا أن تداركتها جمعية العلماء، وأخذت بيدها وانتشلتها من الحضيض الذي وصلت إليه، فاستعادت على يدها شبابها، ووصلت بسبب الدين الحنيف أسبابها، وأصبحت الجزائر في مدة قليلة تفاخر أمصار العربية الكبرى ومنابتها الأصلية، بأدبائها وكتّابها وشعرائها وخطبائها»⁽²⁾.

ويقول ابن باديس: «حورت فيكم العروبة حتى ظنّ أن قد مات منكم عرقها، ومسح فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بابل بكم بأشعارها، فتثير الشعور والمشاعر وتهدر خطبائكم بشقاشقها، فتدكّ الحصون والمعازل، ويهزّ كتّابكم أقلامها، فتصيب الكلى والمفاصل»⁽³⁾.

ولا ننسى الجهود الخاصة المتمثلة في الدروس والكتابة والتأليف، فالمتتبع لسيرة علماء الجزائر يجد أنهم قد أبلوا بلاء حسنا في هذا الباب، فدروسهم ومؤلفاتهم، كانت غنية في مادتها، قوية في مضمونها؛ ومن أبرز نجوم علماء الجزائر في هذا المضمار الشيخ البشير الإبراهيمي، والذي يقول عن نفسه:

«... فقد ساهمت بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعدني الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلها مسودات في مكتبي بالجزائر. فمن أجلّ ما كتبت:

(1) مجلة الشهاب: مستقبل اللغة العربية بالجزائر، ج8، م5، سبتمبر 1929، ص 29.

(2) آثار البشير الإبراهيمي، 1/286. علما أن الأقوال في هذا الشأن كثيرة.

(3) آثار ابن باديس، 3/555.

[عيون البصائر]: وهي من المقالات التي كتبتها بقلمني في جريدة «البصائر» في سلسلتها الثانية.

كتاب [بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر]، (والتزمت فيها اللهجة السائدة اليوم في مواطن هلال بن عامر).

كتاب [النقايات والنفايات في لغة العرب]: جمعت فيه كل ما جاء على وزن فعالة (من مختار الشيء أو مرذوله).

كتاب [أسرار الضمائر في العربية]. كتاب [التسمية بالمصدر]..

كتاب [الصفات التي جاءت على وزن فعل]: بفتح العين. كتاب [نظام العربية في موازين كلماتها]..

كتاب [الاطراد والشذوذ في العربية]: (رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك). كتاب [ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة]..

[رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان]..

رواية: [كاهنة أوراس]. بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال.

[رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية] «⁽¹⁾».

أما دروسه التي يصعب عدّها وحصرها فقد كان للغة العربية حظ كبير منها، من ذلك شروحه في النحو كألّفية ابن معطي، وقطر الندى، وغيرها.

ولعل أقوى آثار هذه الجهود هو ذاك الجليل الذي أنجبته الجزائر، وشمل عددا كبيرا من الأدباء والكتّاب والخطباء والشعراء واللغويين الكبار، الذين يضرب بهم المثل لا في الجزائر فحسب، بل في العالم الإسلامي والعربي أجمع، فأين لنا اليوم بمثل ابن باديس والإبراهيمي والتبسي ومحمد الميلي ومحمد العيد آل خليفة وأبي اليقظان والزواوي والزاهري وتوفيق المدني ومفدي زكريا وغيرهم كثير.

ويرى الباحث أن الهجمة على اللغة العربية لما كانت كبيرة، وكان الداعي والوقوف لمواجهتها أكبر؛ أنتجت لنا هذه النماذج الفريدة، ولما ضعف هذا الداعي في عصرنا افتقرت الجزائر إلى تلك النماذج النيرة.

(1) آثار البشير الإبراهيمي، 5/ 288 - 289.

المبحث الثالث: معالجة الانحرافات والمشاكل الاجتماعية

المطلب الأول: الاهتمام بالمرأة

تمهيد:

لقد كان ولا يزال موضوع المرأة من المواضيع الحساسة، والقضايا المطروحة للنقاش عبر حقب التاريخ الإنساني، حيث كان الحكم دائرا بين الإفراط والتفريط، ورغم أن الإسلام كرمها وأنصفها إلا أن القضية لا تزال تُطرح بأشكال مختلفة.

وإذا كان الكلام عن فترة الاحتلال الفرنسي في الجزائر فإنه من الإنصاف أن يُقال إن مكانة المرأة الجزائرية خصوصا والعربية عموما، كانت تعاني جانبا كبيرا من التفريط بدءا بازدياد مكانتها وعدم الاهتمام بتعليمها وسلبها كثيرا من حقوقها، في مقابل المرأة الغربية التي كانت تعاني جانبا كبيرا من الإفراط الذي أخرجها عن أنوثتها وضيّع لها وظيفتها الاجتماعية.

لقد كانت المرأة الجزائرية تعيش تهميشا اجتماعيا، خاصة مع ضغوط العادات والتقاليد، والنظرة الدينية الخاطئة للرجل العربي نحو الحفاظ على عرض المرأة وشرفها، ونظرته السلبية للقوامة الذكورية في البيت. فإذا كانت نسب الأمية مرتفعة بين الرجال، فهي بين النساء أشد ارتفاعا، وقد كانت تعيش المرأة الجزائرية بين رفض الرجل المثقف لها، فإن هي تعلمت تعليما فرنسيا رفضها أهلها⁽¹⁾، فإذا انضاف إلى ذلك تدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للشعب الجزائري عموما؛ فكيف سيكون حال المرأة الجزائرية خصوصا؟ وقد تساءل الشيخ توفيق المدني عن هذا السؤال وأجاب عنه في كتابه "كتاب الجزائر".

وأضاف أن المرأة الجزائرية تمتاز بسجيا طيبة كونها محافظة متينة الإيمان، وزوجة وقيّة أمينة صبورة، "وأغلبية النساء في الجزائر تقاسي من المهد إلى اللحد آلام الفاقة والاحتياج والعمل الشاق ولا تكاد تعرف للحياة معنى ولا لذّة العيش سبيلا"⁽²⁾.

1- موقف السياسة الفرنسية من المرأة الجزائرية:

شكّلت المرأة الجزائرية محور اهتمام لدى الفرنسيين، لا لأنهم أرادوا تطويرها وتثقيفها؛ بل

(1) ينظر: مذكرة: قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية: 1925 - 1954، زهير بن علي، ص: ح.

(2) ص 362 - 363.

حاولوا توظيفها في تحقيق أهدافهم الاستعمارية، واستغلال مكانتها في الأسرة لضرب المجتمع الجزائري، ومن ذلك الفرنسية والاندماج والتنصير، لذا اعتمدت دراساتهم على بعض الأعلام الفرنسية المتحاملة، التي ركزت على أوضاعها المتدهورة، ومعاناتها وظلم الرجل والمجتمع لها، وذلك لتبرير سياستها المتبعة.

ومن هنا بدأت فكرة إنشاء مدارس خاصة للفتيات المسلمات، وتسهيل مزاولتها التعليم المهني؛ وكان الهدف محاولة نشر اللغة والثقافة الفرنسية، وتفتيت العادات والتقاليد الجزائرية والدينية، ومن ثمّ تحلل المرأة وتحررها، وممن نشط وكرّس حياته في تحقيق هذا المشروع الاستعماري المربّيّة الفرنسية المدعوة: "أليكس"؛ ومع ذلك تعترف بأن تجربتها باءت بالفشل⁽¹⁾.

كما كان للتنصير مكان هام في السياسة الفرنسية، حيث سعى المنصّر "لافيجري" لتأسيس فرقة خاصة بالتنصير وسط العنصر النسوي⁽²⁾.

ومن خلال هذه المعطيات يتبيّن أن المرأة الجزائرية كانت وسيلةً وهدفًا في منظومة السياسة الفرنسية.

2- جهود العلماء في إصلاح شأن المرأة:

رغم أن نشاط دعاة تحرّر المرأة في الأوساط العربية ظهر في أواخر القرن الثامن عشر كمصر، إلا أنه لم يجد تجاوبا في الجزائر إلا في أوائل القرن العشرين؛ حيث تلقّفه بعض أصحاب التوجه الغربي والثقافة الفرنسية من فئة النخبة، وازداد نشاطهم بعد الحرب العالمية الأولى، حيث دعوا إلى وجوب تعلم المرأة ودخولها المدارس الفرنسية، ولو على حساب عقّتها ودينها، وحققها في تبوؤ المناصب، ولو باختلاط الرجال مع النساء دون ضوابط شرعية. في المقابل عارض أصحاب النظرة الجمودية، خاصة أصحاب الطرق والمرابطين؛ الذين رأوا منع المرأة من الخروج من بيتها، لأنها ضعيفة يخشى عليها الفتنة، وقد خلقت لخدمة بيتها وتربية أبنائها⁽³⁾. وبظهور هذه التيارات حول المرأة مع التحديات الفرنسية؛ ظهر تيار إصلاحية وسط

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 3/442/ السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1914، مرجع سابق ص 241-250.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 253.

(3) ينظر: المقالة الصحفية الجزائرية، محمد ناصر، 1/229.

أوائل القرن العشرين يحاول الجمع بين تعليم المرأة وإصلاحها، والتمكين من حقوقها، وبين الحفاظ على شخصيتها وكرامتها وعفتها⁽¹⁾.

وهذا لا يعني أن العقود الأولى للاحتلال كانت خالية من جهود إصلاح المرأة، لكنها لا تعدو أن تكون جهودا فردية تقليدية؛ كما هو الشأن بالنسبة للأمير عبد القادر من خلال اهتمامه بمكانة أمه "لالة زهرة"، وزوجته "لالة خديجة" والأخذ بمشورتهم في قضايا مهمة⁽²⁾.

ومن خلال أجوبته على أسئلة الجنرال دوماس، حيث بين فيها الأمير وجهة نظر العرب والمسلمين في زمنه حول المرأة المسلمة طبقا لتعاليم الدين الإسلامي، وهذا بعد اختلاط الفرنسيين بالجزائريين وسوء الظن بالشرعية وبالمرأة⁽³⁾.

ومن الجهود البارزة للعلماء أواخر القرن التاسع عشر لإصلاح المرأة؛ جهود الشيخ عبد القادر المجاوي، الذي اهتم بالحالة المزرية التي كانت تعيشها المرأة الجزائرية، فدعا إلى النهوض بها والسعي في تعليمها، والأخذ بنصيحتها من التربية والمعارف حتى تؤدي وظيفتها في المجتمع على أكمل وجه، بعد أن تُعدّ إعدادا صحيحا للحياة، وهذا ما يعكس بُعد نظره في معالجة قضية المرأة التي تمثل نصف المجتمع⁽⁴⁾. في وقت كان الجزائريون قد امتنعوا من إدخال أولادهم المدارس الفرنسية، خاصة البنات منهم خوفا عليهم من الانحلال والتنصير لعدم وجود مدارس بديلة.

كما طالب أن يكون التعليم وافيا متكاملا، لأن التعليم الناقص لا يفيدها بل يُخلّ

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 6/349.

(2) ينظر: قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية، ص 19.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 7/182. وقد ذكر هذه الأجوبة ابنه محمد في تحفة الزائر، ص 161-185.

ومن مواقف الأمير عبد القادر التي ينبه لها أنه اتخذ موقفا معارضا لتعليم المرأة الكتابة حيث كتب في نفس الأجوبة "اعلم أن الكتابة مثل السيف من وظائف الرجال لا من لوازم النساء... فقد تكون المرأة لا تقدر على لقاء من تهواه، ولا تقدر على أن تتكلم معه بحضرة الغير. وكذلك الرجل، فقد لا يجد سبيلا إلى لقاء من يهواه والكلام معها بحضرة غيره. فإذا كانت المرأة عارفة بالكتابة سهل طريق الزنى بينهما بسبب الكتابة. فلهذا نحى شرع الإسلام عن تعليم النساء الكتابة. وهو حق لا ينكره عاقل. فتعليم الكتابة واجب على الرجال في حق النساء. قال بعض حكماء العرب ليس للنساء الكتابة والخطابة، بل هما وما مثلهما للرجال". تحفة الزائر: ص 178.

(4) ينظر: الشيخ عبد القادر المجاوي، ملتقى تلمسان، دعوة عبد القادر المجاوي إلى نهضة أصيلة وعصرية، عبد المجيد بن عدة، ص 44-47.

بقوانين التربية والتوجيه داخل الأسرة، إضافة إلى تدابير الصحة النفسية والبدنية. فضلا عن محاربه للبدع والشركات المنتشرة في أوساط النساء خاصة⁽¹⁾.

ولا شك أن دعوة المجاوي إلى تعليم المرأة كان لها تأثير كبير على الأوساط الجزائرية التي كانت تحجر على المرأة الخروج من بيتها فضلا عن تعليمها⁽²⁾.

ولم يقتصر الأمر على المجاوي بل كثير من معاصريه أولوا قضية التعليم عموما أهمية كبيرة، أمثال عبد الحليم بن سماية، ومحمد ابن أبي شنب وغيرهما.

ومع مطلع القرن العشرين تطوّرت الكتابة حول المرأة الجزائرية، خاصة بعد زيارة الشيخ محمد عبده (1903)، وانعقاد مؤتمر المستشرقين (1905). ومن هذه الكتابات⁽³⁾:

- "الإكتراث بحقوق الإناث": ألفه محمد بن مصطفى الكامل سنة 1895. وقد بادر الفرنسيون إلى ترجمته إلى الفرنسية والتنويه به وإرساله إلى القنصليات لترويجه، وتعليق الصحف عليه وعلى صاحبه و مترجمه.

وقد تحدث الكمال عن حالة المرأة المسلمة في العائلة، وعن حقوقها وواجباتها، والآداب التي تجب مراعاتها على المسلمين وعلى من يرغب في معرفة ما عليه الأمة العربية من الأحوال المعنوية. وقد انتصر المؤلف لمبدأ تعدد الزوجات ودافع عنه بدلائل مسلم بها، وذكر ما يجب على الزوجين نحو بعضهما. وبنى أفكاره على ما جاء في القرآن والسنة. وقد نصح بعدم الطلاق إلا عند الضرورة القصوى.

- "العلاقة بين الدين والفلسفة": ألفه عبد الحليم بن سماية، وفيه فصول عن تعدد الزوجات والطلاق والحجاب والميراث. وقد قدم الكتاب إلى مؤتمر المستشرقين سنة 1905.

- "الحياة المدنية الإسلامية في مدينة الجزائر ووضع المرأة طبقا للقرآن والسنة وأعمال المرأة المسلمة": وهو بحث نشره محمد بن أبي شنب سنوات 1907 - 1909.

عالج نفس القضايا (المدنية) التي تخص المرأة من زواج وطلاق وميراث وتقاليده وحياة اجتماعية وتعليم وأخلاق وأعمال.

(1) ينظر: مجموع ذاكرة الجزائر: اللمع على نظم البدع، عبد القادر المجاوي، ج3: ص115-119.

(2) ينظر: قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية، ص 153.

(3) وقد ذكرها أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي مع شيء من التفصيل، ينظر: 181/7-194.

- "الباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب": ألفه محمد بن مصطفى سنة 1907، دار على عدة محاور. فعرض لقواعد وأصول الزينة، و أنواع اللباس. والفصل الذي أطل فيه المؤلف هو الحجاب.

- "مسلمات شمال إفريقية": لإسماعيل حامد. اهتم هذا الكتاب بعدة مواضيع اجتماعية، ومنها المرأة المسلمة.

- مرآة المرأة المسلمة: تأليف أبو يعلى الزواوي. وقد ذكر أنه يقع في حدود 200 صفحة، ولكنه مفقود.

وعالج الزواوي أيضا موضوع تعدد الزوجات بشيء من الإسهاب في موضوع منشور في البلاغ والشهاب. وقد ذكر أبو القاسم أنه ما من شك أنه قد عالج نفس الموضوع في كتابه (مرآة المرأة المسلمة) الذي لم يطلع عليه.

كما كان للأستاذ مالك بن نبي طرحٌ مميز حول قضية المرأة، سطره في كتابه: "النهضة" بعنوان "مشكلة المرأة" حيث اقترح عقد مؤتمر يحضره الفقهاء والمفكرون والأطباء وعلماء النفس وعلماء الاجتماع، لمدارسة قضية المرأة دراسة نقدية عادلة، مع اعتباره مشكلة الرجل ومشكلة المرأة واحدة، إذ كلاهما فرد من المجتمع، كما جعل من تعقيد المشكلة تقليد المرأة المسلمة للمرأة الأوروبية⁽¹⁾.

أ- جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

تطور الاهتمام بالمرأة بعد الحرب العالمية الأولى بتطور الأفكار لانتشار التعليم بين الجنسين، وظهور المدارس الحرة، علما أن تحفظ الجزائريين من التعليم الفرنسي في البداية كان خوفا على مصير أبنائهم جميعا لا سيما البنات. وهنا برز دور الإصلاحيين في هذا المجال، وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين التي كانت جهودها جهودًا مميزة عن غيرها بلا منازع، فإذا كانت جهود غيرهم فردية فجهودهم كانت جماعية، وإذا كانت جهود غيرهم تنظيرية فقد كانت جهودهم تنظيرية وتطبيقية، فضلا عن تنوع الوسائل والأساليب في هذا الباب.

وهذه بعض النقاط العامة التي تصدّوا لها فيما يخص الاهتمام بالمرأة:

- عدم التفريق بين الرجل والمرأة في الإصلاح:

(1) ينظر: ص 117.

من خلال المواضيع التي طرحها علماء الجمعية لإصلاح الفرد ليصلح به المجتمع، نجد أنهم لم يهتموا جانب المرأة في أي مجال من مجال الإصلاح، لعلمهم أن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسين معا الرجل والمرأة؛ فلم يهتموا إصلاح المرأة في تقرير العقيدة والنهي عن الشرك، ولا في الرد على البدع والانحرافات، ولا في تقويم الأخلاق، ولا في تعليم العبادات وتصحيحها، ولا في الرد على التنصير والمذاهب الهدامة، وهذا جانب مهم في الاعتناء بشأن المرأة⁽¹⁾.

- التصدي للإدارة الفرنسية ودعاة التحرر:

لقد كان الجانب الدفاعي ضد خصوم المرأة حاضرا بقوة، وتمثل ذلك في ردهم على السياسة الفرنسية التي انتهجتها نحو المرأة؛ حيث زعمت أن المرأة مظلومة مقهورة، وقد وُقرت لها الإدارة الفرنسية المدرسة الفرنسية لتخرج منها نموذجاً متحرراً متطوراً⁽²⁾، وهو الذي اغتر به دعاة التحرر وبعض أصحاب النخبة الجزائريين الذين تأثروا بإخوانهم من دعاة التحرر في المشرق وحركة الكمالين وأحكامهم الجديدة عن المرأة وسفورها وحجابها، فضلاً عن تشجيع طائفة من الكتاب الفرنسيين لهذا التيار تماشياً مع قيمهم الاستعمارية.

وهذا ما أثار دعاة الإصلاح للرد على هذه الشبه وبيان نفاق الداعين إلى تعليم المرأة في المدرسة الفرنسية، ناسين الدعوة إلى تعليم الرجل، وفي نفس الوقت الرد على خطط الاستعمار ونقد برامجها التي تهدف إلى مسخ هوية المرأة الجزائرية وشخصيتها الممتد إلى الأجيال بعدها؛ بل جعلوا بقاءها على أميتها وفطرتها دون هذا التعليم الذي هو جهل بسيط، أفضل من التعليم الذي يسلب منها دينها وفطرتها إذ هو جهل مركب⁽³⁾.

(1) ينظر: مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية: جهود جمعية العلماء المسلمين في تعليم المرأة: 1931-1956، سمير أبيش، العدد السادس: 2 ديسمبر 2017، ص 125.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 181/7.

(3) ينظر: المقالة الصحفية الجزائرية، 1/ 236-237/ عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 136/ جهود جمعية العلماء المسلمين في تعليم المرأة، ص 130، 132.

وراجع مثلاً مقال ابن باديس: "الرجل المسلم الجزائري"، آثار ابن باديس، 4/464.

كما نجد للشيوخ بوكوشة ثلاث مقالات مجريدة البصائر متعلقة بالحجاب ناقش فيها من يقول أنه عادة لا عبادة:

عدد 57، 22 ذو الحجة 1355هـ / 5 مارس 1937م، ص 4-5.

عدد 58، 29 ذو الحجة 1355هـ / 12 مارس 1937م، ص 4-5.

عدد 62، 27 محرم 1356هـ / 9 أبريل 1937م، ص 4-6.

كما أنهم تصدوا للجانب الآخر الداعي إلى منع تعليم المرأة، وإبطال ذلك بالدليل والحجج العلمية⁽¹⁾.

ب- إسهاماتهم في تعليم المرأة:

تقدم أن جهود الجمعية في مجال التعليم تعتبر من أهم الجهود الوطنية، وكانت المنظمة الرائدة التي لا يشق لها غبار، ولئن كان تعليم المرأة داخلا في هذه الجهود فإن دور الجمعية في هذا الشأن كان جهداً نوعياً فريداً، لصعوبة التحديات والعقبات التي واجهتها، فقد شهد التاريخ أن أول من بدأ بإحياء تعليم المرأة الجزائرية تعليماً حقيقياً على أرض الواقع فترة الاحتلال الفرنسي هي جمعية العلماء المسلمين⁽²⁾.

كما كان لجريدتها البصائر نصيب كبير من ذلك، حيث كانت رائدة في هذا المجال أنارت عقول كثير من رواد الإصلاح على هذه المسألة الحساسة، وتجاوزت حدود الجمود والانغلاق⁽³⁾.

وإذا كان من العسير جدا إحصاء جهود الجمعية في مجال تعليم المرأة في هذه الأسطر القليلة، فحسبنا أن نشير إلى بعض الجهود بمجملتها لنموذج من أبرز أعضائها؛ ألا وهو رائد النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس.

فقد أولى ابن باديس تعليم المرأة الجزائرية اهتماما كبيرا، بل ومنقطع النظير؛ وذلك ظاهر من خلال دروسه ومحاضراته ومقالاته، لإدراكه الخطر المحدق بالأمة إذا أهملت المرأة دون تعليم، أو تعلمت على أيدي أعدائها.

فكان من أولى جهوده نداء الشعب الجزائري بضرورة تعليم البنات مع تهيئة المكان

(1) ينظر: جهود جمعية العلماء المسلمين في تعليم المرأة، ص 126 - 127.

(2) ينظر: مجلة المعيار، الفكر الاجتماعي والإصلاحي عند جمعية العلماء المسلمين، بوسعيد سمية، مجلد 23، عدد 45، 2019، ص 678.

(3) ينظر: رسالة الماجستير: جريدة البصائر الجزائرية الثانية وموقفها من قضايا معاصرة 1947 - 1956، عبد الكريم بلبالي، ص 95.

ومن أمثلة مقالات البصائر في هذا المجال: أنصار الحرية، عدد 30، جويلية 1936، ص 4/ تعليم المرأة، عدد 86، نوفمبر 1937، ص 8/ المرأة بالجزائر، عدد 167، ماي 1939، ص 4/ مسألة الحجاب، عدد 58 من السنة الثانية، نوفمبر 1948، ص 7/ بناتنا في المكاتب الفرنسية، عدد 80 السنة الثانية، ماي 1949، ص 3.

المناسب لهن دون اختلاط مع الذكور، وذلك بسرد حجج الإقناع عن أهمية ذلك، وأن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسين معا الرجل والمرأة، وزاد أن المرأة تتحمل العبء الأكبر من الحياة فهي الحامل والمرضع والحاضن والملازم للأولاد في مختلف أطوارهم، فتكوين الرجال عند الشيخ مبني على تكوين النساء، ولا سبيل لذلك إلا بالتعليم والتربية الصحيحة⁽¹⁾.

وكان من فقهه أنه أعطى نماذج للمرأة المجاهدة والطبيبة والمرضة، الشجاعة والصابرة، العاملة والأدبية والشاعرة، ليحذو النساء حذوهن.

كما خصّص دروسا في المسجد للنساء بجامع الأخضر، عرفت إقبالا كبيرا، تناول فيها واجبات المرأة المسلمة في جميع الميادين.

وحمل مسؤولية جهل المرأة الأولياء والعلماء الذين تحملوا تعليم الأمة، وأعطى روحا جديدة للتعليم في عصره لم يسبق إليها؛ وذلك عندما فتح أبواب مدرسة جمعية التربية والتعليم لتعليم البنات سنة 1931، حيث وصل عدد الطالبات سنة 1939 إلى 130 تلميذة من مجموع 900 تلميذ، علما أن قانونها نص على الحفاظ على شخصية الجزائرية المسلمة، مع تعليمها العلم باللسانين العربي والفرنسي، وتعليمها الصنائع والفنون التي تحتاجها المرأة⁽²⁾.

ومن مبادراته الحكيمة أن جعل تعليم البنات مجانيا حتى لا يتعلل الآباء بتكاليف الدراسة. وتطورت جهود الشيخ حين شرع سنة 1938 في التخطيط والإعداد لإرسال المتفوقات منهن إلى الكليات والمعامل الكبرى خارج الوطن، حتى يتسنى للبنات اللاتي أتممن مرحلة التعليم الابتدائي مواصلة التعليم الثانوي والعالي، وقد تحقق طلب الموافقة على إذن إرسال بعثة للأزهر بإشراف الشيخ الفضيل الورثلائي، كما حصل على موافقة مديرة مدرسة البنات بسوريا لاستقبال بعض البنات لمواصلة تعليمهن، لكن اندلاع الحرب العالمية الثانية، وموت ابن باديس بعدها حال دون تحقق إرسال البعثتين⁽³⁾.

ولم تتوقف هذه المسيرة بموت ابن باديس بل واصل رفقاؤه بعده حمل هذا الشعاع، على

(1) ينظر مثلا مقال في الشهاب: الفتاة أو المرأة الجزائرية، ذي القعدة 1349، ص161: وراجع أيضا آثار ابن باديس: 211/2.

(2) ينظر: جهود جمعية العلماء المسلمين في تعليم المرأة، ص133-135/ الشيخ ابن باديس رائد تعليم البنات ونصير حق المرأة، عبد المالك حداد: <https://binbadis.net/archives/1921>

(3) ينظر: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميدانو، ص 149-152.

رأسهم الإبراهيمي والتبسي والعمودي والزاهري والزواوي وغيرهم⁽¹⁾.

وكان من نتائج ذلك أن أنشئت مدارس للجمعية عبر التراب الوطني تضم الجنسين، ففي سنة 1951 بلغ عددهن 5696 تلميذة موزعة على 125 مدرسة، كما كان التدريس خاصا بالمعلمين ليفتح المجال أمام المعلمات - اللاتي كنّ طالبات وتخرجن بنجاح من قبل - ، لتُفتح بعد ذلك مدارس خاصة بالبنات، ومن أشهر تلك المدارس: مدرسة عائشة بتلمسان⁽²⁾، وتهذيب البنات بالبيدة، وشريفة الأعمال بالجزائر⁽³⁾.

ومن الجهود المشكورة، تشجيع المرأة الكاتبة، وذلك بفتح المجال أمامها فكانت الكاتبة في جريدة البصائر دون غيرها⁽⁴⁾.

الخلاصة:

لقد كانت المرأة الجزائرية بعد دخول الاحتلال الفرنسي تعيش حالة مزرية، عانت فيها من قيود البؤس والجهل الكثير، نتيجة الأوضاع السائدة مع انتشار الأفكار الجامدة في ذلك الوقت، مما حرم المرأة من التعليم والتهذيب، فكانت أسوأ حالا مما هي عليه في الدول العربية الأخرى، وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت بعض الصيحات المنادية بتعليم المرأة، وبدخول القرن العشرين تنازع المرأة تياران متناقضان؛ الأول تقليدي يمنع من خروج المرأة وتعلمها، والثاني يدعو لتعلمها في المدارس الفرنسية، ولو على حساب دينها وعفتها، وهنا ظهر تيار إصلاحية وسط بينهما يدعو لتعلم المرأة دون الذوبان في الثقافة الفرنسية، والتخلي عن عفتها ودينها، وتمثل هذا التيار في جمعية العلماء المسلمين التي جمعت بين التنظير والتطبيق، وتمكنت من تحقيق كثير من أهدافها رغم الصعوبات التي واجهتها؛ فضمنت التعليم لكثير من بنات الجزائر،

(1) للاطلاع على بعض جهودهم في هذا المجال يرجع مثلاً إلى: جهود جمعية العلماء المسلمين في تعليم المرأة/ قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية، مبحث: العلماء الجزائريون وقضايا المرأة المسلمة/ الشيخ أبو يعلى الزواوي وجهوده في الفقه والأصول.

(2) راجع بمناسبة افتتاح هذه المدرسة، مقال الأديب الأريب حمزة بوكوشة: أول مدرسة عربية للمرأة المسلمة: البصائر: عدد 191، 26 ماي 1952، ص8.

(3) ينظر: نساء في رحاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مولود عويمر:

<https://www.oulamadz.org/2016/03/01/%D9%86%D8%B3>

(4) ومن أمثلة النساء البارزات في العلم والتعليم، ومن شاركن في البصائر: ليلي بن دياب، وزليخة عثمان إبراهيم، وزهور ونيسي. وللتوسع أكثر في هذا الباب ينظر: المرجع نفسه.

وخرّجت كثيرا من المعلمات والمديرات، بل والكاتبات والمثقفات ثقافة إسلامية. وهذه النتائج تدل بشكل واضح على فشل السياسة الفرنسية في الجزائر تجاه المرأة المسلمة، وأيضا على حصانة المجتمع الجزائري المسلم رغم الأوضاع الصعبة التي كان يعيشها.

المطلب الثاني: الآفات الاجتماعية

تمهيد: عن واقع الجزائريين مع الآفات الاجتماعية وأسبابها:

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من وجود أخلاقيات سيئة وآفات اجتماعية، لكنها تقل وتكثر بين مجتمع وآخر، فإذا انتشرت وتطورت أصبحت مرضا ينخر الأمة ويهدّد تماسكها ووحدتها، وإذا كانت الأمة الجزائرية أواخر العهد العثماني قد أصابتها بعض الأمراض والآفات الاجتماعية نظرا لبعدها عن دينها القويم، فإنها بعد دخول المحتل الفرنسي قد زادت بعدا، وزادت مرضا على مرض ؛ وهو ما يعطي صورة حقيقية لحالتها وقد بلغت أعلى الدرجات لكن في الجهل والفقر والمرض.

أما الجهل والفقر فهو نتيجة سياسة سارت عليها الإدارة الفرنسية بإحكام؛ فمنعها التعليم مع هدم المساجد والمدارس والتضييق على المعلمين، حل معه الجهل وارتفعت به نسبة الأمية - كما تقدم-، ومصادرة الأراضي وتشتيت الأعراس، وفرض الغرامات والضرائب الباهضة وتحطيم الأسواق الجزائرية، تحققت معه سياسة التفتير إلى حد لا يمكن وصفه.

«فكانت مشكلة الجزائر في بلاده تكمن في عدم السماح له أن يعمل أو ينشط، سواء في الميدان الاقتصادي أو الثقافي أو السياسي، لأن الأوروبيين ضيّقوا الخناق عليه إلى درجة أنه وجد نفسه دائما مضطرا إلى الاختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى، وبالتالي لا يكون مفيدا لشعبه ولا يستطيع أن يخدمه، أو يبقى في الجزائر لكي يعاقب ويعيش في زنزانة مغلقة»⁽¹⁾.

وأما الأمراض الاجتماعية فالحق أن مردّ هذه الآفات يرجع إلى عاملين أساسيين ؛ أما الأول منهما فيعود إلى ابتعاد أبناء الجزائر عن القيم النبيلة و المبادئ الإسلامية و الأخلاق السامية التي جاء بها الإسلام، مع تعلق الناس بشيوخ الطرق والأشباح والممارسات الشيطانية، وارتبط ذلك كله بظهور موجة من البدع والخرافات الغريبة عن الدين والعلم والعقل.

أما ثانيهما فراجع إلى تلك الهمجية الاستعمارية التي عملت على تفكيك الروابط الاجتماعية وفقا لسياسة "فرق تسد"، وتعطيل السلطة الفرنسية للعمل الديني ومنعها العلماء

(1) التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، مرجع نفسه، ص 208.

من النشاط، وفتحها أبواب الفساد والسقوط الأخلاقي وتشجيعها لوسائله. لعلمها أن القيم والعادات تنهار بتفكيك القبيلة والأرض المعبرة عن التماسك والتضامن الاجتماعي؛ فكلما غرق الناس عندهم في البدع والرزائل والسحر والتعلق بالشيوخ كلما هدأت الأوضاع واستقرت البلاد في نظرهم. وكان علماء الاجتماع الفرنسيين ينشرون فكرة جديدة أوائل القرن العشرين، وهي أن المجتمع الجزائري سيتحلل من الداخل بنفسه وينتهي أجله عما قريب؛ فانتشرت الآفات الاجتماعية في المجتمع الجزائري، وضعف انسجام وتلاحم أفراد، وكثرت المشاكل الأسرية، و ساءت أحوال الشباب الجزائري، وتدهورت وضعية المرأة، وعمت الفوضى و كثر الانحلال الاجتماعي والأخلاقي، واستفحلت العادات والتقاليد البدعية، كل ذلك مع سياسة متعمدة من السلطة الفرنسية مع غياب المنقذ والمرشد والمصلح لهذه الأمة⁽¹⁾.

وبسبب الاختلاط بين الجزائريين والفرنسيين وغلبة مظاهر الحضارة المزيفة، مع تسلط الفرنسيين وفرض السياسة المستبدية على الأمة الضعيفة، والميل للتشبه بالغالب، قلّت الغيرة الدينية والوطنية، وضعف الوازع الديني، وفي هذا يقول "شارل رويير أجرون": «لقد زالت التحذيرات من البلدة الأوروبية ومن القبعة بصفة خاصة، فحيثما اتجهنا نجد المسلمين لا يحلقون رؤوسهم ولا يحتفظون بلحاهم ولا يتخرجون من تدخين التبغ، وبعضهم يتعاطى الخمر ومختلف المشروبات الكحولية القوية، وحتى الذين صاروا يأكلون في عزّ الصيام لم يتعرضوا للرجم ولا للمقاطعة، مثلهم في ذلك مثل المتهاونين بصلاتهم أو مثل الذين نشأوا في المدارس الفرنسية فصاروا يجهلون حتى المبادئ الأولية لدينهم»⁽²⁾.

كما شهد شاهد من أهلها، وهو الدكتور "بيتراند" حين اهتمّ "باستعمال المخدرات عند الناس وانتشار الفساد الذي جاء مع الفرنسيين بعد أن كانت البلاد (الجزائر) محافظة على قواعد الصحة والأخلاق. فقد تعرض لآثار الحشيش والكيف والتكروي. وكان الحشيش أكثرها انتشارا حسب قوله. كما تحدث عن انتشار الدعارة وعن كون الإسلام قد أباح تعدد الزوجات والتسري، فبعد أن كان عدد النساء المسجلات رسميا، 175 سنة 1833 ازداد سنة

(1) ينظر: رسالة الماجستير: ملامح الاتجاه الإسلامي في أدب المقال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محمد درق، ص 24/ جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر 1830 - 1954، محفوظ قداش، ص 227 - 229/ تاريخ الجزائر الثقافي، 250/7.

(2) الجزائريون المسلمون وفرنسا: 1871 - 1919، 492/2 - 493.

1838 حتى وصل إلى 375 امرأة، بينهن 94 أوروبية. أما سنة 1856 فقد بلغ عدد البغايا 508 منهن 319 أوروبية. وهو الأمر الذي ترتب عليه انتشار مرض الزهري⁽¹⁾.

وفيما يخص الخمر فيقول الدوق "دورليان" إن الخمر كانت من بين الوسائل التي استخدمها الفرنسيون بنجاح. وقد تحدث أكثر من واحد عن نشر الجيش الفرنسي الخمر بين الجزائريين، ولا سيما الشبان والأغرار⁽²⁾.

علما أن السلطة الفرنسية وكذلك المستوطنون اهتموا بزراعة الكروم لأنها زراعة تجارية مربحة، وكان ذلك على حساب الزراعات الأساسية كالقمح وسائر الحبوب الغذائية، وعلى حساب أكثر الأرض خصبا وأطيبها مناخا؛ حيث خصصت حوالي نصف مليون هكتار لذلك، وأصبحت تحتل المرتبة الأولى في قائمة الصادرات⁽³⁾.

كما تشير بعض التقارير لسنة 1878 و1879 عن تعامل الأوروبيين مع الأهالي بالربا بشكل ملفت، مما شكّل قرحة اجتماعية وخطرا جديا على المستعمرة الفرنسية، وأنه أحد أسباب الثورة⁽⁴⁾.

1- جهود العلماء في محاربة الآفات الاجتماعية:

إن الناظر في الآفات التي أصابت المجتمع الجزائري بعد دخول المحتل الفرنسي، يدرك أنها لم تظهر فجأة، ولكن كانت تتطور وتستفحل شيئا فشيئا بمرور الوقت، إلى أن دخل القرن العشرين والأمر في تزايد، بتزايد تسلط السياسة الفرنسية.

وبدخول الجزائريين عالم السياسة، وظهور الحركة الإصلاحية، وانفتاح الصحافة الجزائرية، ارتفعت الأصوات المنادية بمحاربة هذه الأمراض والآفات، وظهرت جهود طيبة في هذا الشأن؛ وهذا لا يعني عدم وجود جهود في محاربة هذه الآفات في القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، لكن تبقى الميزة على هذه الجهود أنها فردية، وتقليدية، وضيقة النطاق. وبالنسبة للمناطق التي لم تكن خاضعة للسلطة الفرنسية في العقود الأولى بعد الاحتلال

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، 7/ 243.

(2) المصدر نفسه، 17/8 - 18.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، الزيربي، 1/ 18.

(4) نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، 1830 - 1900، ص 121.

الفرنسي، مثل الأقاليم التي كان يسيطر عليها الأمير عبد القادر، أو القائد أحمد باي، أو المناطق الصحراوية التي كانت تحت حكم القبائل؛ فإنه لا يمكن ذكر الجهود في هذا المجال لأن الدستور السائد هو الدين، ولا يجتمع الدين الإسلامي مع انتشار المسكرات والزنا والفواحش، إلا ما يستثنى من بعض العادات والتقاليد حول المرأة والزواج و المتبعة باسم الدين، أو بعض البدع والخرافات بسبب بعض مشايخ الطرق.

وبعد التوسع الفرنسي في أرض الجزائر، لعبت الزوايا التعليمية البعيدة عن الشطحات الطرقية، والخرافات الصوفية دورا كبيرا في نشر العلم والأخلاق، والتصدي لانتشار الرذائل والآفات؛ مثل الزاوية الناصرية، بجامعها الكبير ومدرستها ومعلميها، بخنقة سيدي ناجي، التي كانت موئل علماء الزاب والصحراء والأوراس وقسنطينة وزواوة، وزاوية الشيخ عبد الرحمن اللولي بزواوة، التي ضمت عددا لا بأس به من العلماء البارزين⁽¹⁾.

ومن ظهر بقوة في محاربة المشاكل الاجتماعية بعلمه وقلمه، الشيخ عبد القادر المجاوي، حيث حارب جملة من المظاهر السيئة؛ مثل الخمر والقمار والربا وبعض الأخلاق المنحطة كالكذب والخيانة والحسد وغيرها.

فأما الخمر فقد أشار إلى سببه الرئيسي وهو الجهل المنتشر في الأوساط الجزائرية، وأن طريقه هو الشرب صدفة أو مصاحبة رفاق السوء، كما حذر من خطر الإدمان عليها حتى تصبح عادة، يذهب معه ماله وعقله ويصرفه عن ذكر الله وعن الصلاة.

مع ذكره الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم ذلك، كما نقر من الخمر بذكر أضراره في الدنيا والآخرة؛ من ذلك أن صاحبه يصيبه الجنون حتى يذمه العقلاء، ويتلف ماله ويذهب عقله ويسبب العداوة والبغضاء، وهي باب كل شر، ومفتاح للزنا وباقي المحرمات، وصاحبه يستحق الجلد في الدنيا، والخزي في الآخرة⁽²⁾.

وأما القمار فقد حذر منه وذكر أنه من الكبائر، لأنه قرين الخمر في القرآن، كما حذر من ضرره في المجتمع وما يؤول إليه، ليس على شخص المقامر فحسب بل يتعدى إلى من

(1) فيما يخص هذه الزوايا ودورها التربوي ينظر: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص 48-49.

(2) ينظر: مجموع ذاكرة الجزائر، اللمع على نظم البدع، ج3 ص 131 - 133.

يعولهم من أهله وأولاده، فيصبح عالة على المجتمع⁽¹⁾.

وأما الربا فذكر الأدلة على تحريمه ودمه، والعواقب الوخيمة لمن يتعامل به، مبتغيا الربح السريع دون جهد مع استغلال حاجة الطرف الآخر، وهو ما يؤدي إلى هلاك أموالهم وأعراضهم، لذا نبّه التجار خاصة للاحتياط حتى يحول ذلك عن وقوعهم في الربا، ودعاهم إلى تعلم أحكام البيع الذي ينجيهم من أكل الربا خاصة والحرام عامة، كما نصح المخطئ بالتوبة⁽²⁾.

كما حارب البطالة بالحث على العمل ونبد الكسل، وذكر أهمية الصنائع والحرف ومكانتها في المجتمع⁽³⁾.

كما كان لتلميذه مفتي قسنطينة الشيخ المولود بن الموهوب موقفا صارما من القمار، حين عزم المجلس البلدي على إحداث كازينو للقمار بقسنطينة، وتوجه العامة للمفتي لأجل القيام بالواجب تجاه هذا المنكر.

فما كان من المفتي إلا أن استدعى بعض الوجهاء في مقدمتهم العلماء والأئمة ونواب البلدية لإدارة الجمعية الخيرية، وألقى عليهم خطبة بليغة، لقيت قبولا من السامعين، وعند تمام الخطاب قام الإمام عبد الحميد بن باديس وأيد خطبته ضد القمار.

وتوجه المفتي بالخطاب لبلدية قسنطينة وشيخها المحترم، ثم توجه بالخطاب إلى النواب، وقد اتفق جميع النواب البلديون على عدم التصويت لتحقيق مشروع القمار⁽⁴⁾.

ومن الأعلام الذين رفعوا أصواتهم لمحاربة المشاكل الاجتماعية، الأستاذ محمد بن رحال حين تحدث إلى العلماء الفرنسيين وغيرهم عن الإسلام في الجزائر، ووصف المسلمين بالتخلف التقني والتعليمي، و انتقد فرنسا والغرب على فساد الأخلاق وانتشار الخمر والزنا، وذلك عند انعقاد مؤتمر المستشرقين في باريس سنة 1897م⁽⁵⁾.

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص 142 - 143 / مذكرة قضايا الإصلاح عند الشيخ عبد القادر الجاوي، زهيرة جرموني-جميلة بحرية، ص 80.

(2) ينظر: اللع على نظم البدع، ص 145 - 146.

(3) ينظر: الشيخ عبد القادر الجاوي، "دعوة عبد القادر الجاوي إلى نخضة أصيلة وعصرية"، مرجع سابق، ص 48.

(4) ينظر: الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ص 102.

(5) تاريخ الجزائر الثقافي، 6/ 426.

2- جهود الحركة الإصلاحية:

يعتبر ظهور الحركة الإصلاحية بالجزائر نقطة تحول في حياة الجزائريين، ومع أنها لم تهتم بالتأليف كثيرا، إلا أنها ركزت على التعليم العربي وتحديد الدين ومحاربة الآفات الاجتماعية. وقد انبرى العلماء بكل ما تيسر لهم من إمكانات ينافحون ويناضلون من أجل إصلاح اجتماعي حقيقي حتى يسمو المجتمع الجزائري إلى حظيرة المجتمعات الراقية.

وقد ركزت دروسهم وأقلامهم في المجال الاجتماعي على قضايا مهمة استدرجت فكرهم، كالدعوة إلى الوحدة والتكافل الاجتماعي، ومحو الأمية، و قضايا الأسرة و مشكلاتها، و نظرهـم إلى المرأة وقضاياها، والشباب وآفاته وآلامه، وغيرها⁽¹⁾.

ومن أشد الكتاب الجزائريين المعروفين بصدق لهجتهم وجرأة أفكارهم، الناقد الاجتماعي عمر راسم، فعلى سبيل المثال إذا استقرأنا جريدته "ذو الفقار" نجده لم يغفل لحظة عن ملاحقة الأغنياء الأشحاء، مدافعا عن الفقراء المعوزين، كما أنه يهتز طربا للأعمال الخيرية، ولو في بلد غير الجزائر⁽²⁾.

ومن شارك في هذا المجال الشيخ بوعروق⁽³⁾ الذي استقر بتلمسان سنة 1918 وقد التقى بالشيخ محمد مرزوق وحملها الفكرة الإصلاحية وساهما في نشرها وسط الشباب بتلمسان، فسارع الشيخ محمد مرزوق إلى تأسيس رابطة ضد إدمان الخمر والفساد اللذين انتشرا بالمدينة، وقد صنف في هذا الإطار كتابين عنوان أحدهما "الخمر والتقوى" والآخر "القلم و الكتاب"، وكانت غايته أن ينشر الكتابين في المدينة لكي يطلع عليه الشباب إلا أنهما بقيا في عداد المخطوطات⁽⁴⁾.

أما جمعية العلماء فقد كان نص قانونها الأساسي واضحا تجاه الآفات الاجتماعية، إذ

(1) ينظر: مذكرات: ملامح الاتجاه الإسلامي في أدب المقال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 24.

(2) ينظر: المقالة الصحفية الجزائرية، 209/1.

(3) من مواليد مدينة سبدو سنة 1880 تقريبا، أصله من قرية أولاد سيدي الحاج من ناحية تلمسان، درس بالأزهر، و تحصل على إجازة علمية، ترك عدة بصمات في الفكر الديني قبل ظهور الجمعية بتلمسان، اكتفى بتعليم القرآن الكريم ونشر الأفكار الإصلاحية بين الناس. نقلا عن مذكرات: أعلام الحركة الإصلاحية بالغرب الجزائري، مرجع سابق، ص 147.

(4) المرجع نفسه.

تعتبر من أكثر الحركات المنخرطة في الحياة الاجتماعية، فقد جاء في نص الفصل الرابع: "القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور، فكل ما يفسد على الناس عقولهم أو يضيع عليهم أموالهم فهو من الآفات. ولهذا حاربت الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل، وحاربت كل واقف في طريق التعلم والتعليم أي نوع من أنواع التعلم والتعليم، وحاربت (الزردات والوعيدات والغدوات) وبدعة المآثم ومنكرات الولائم وكل وجوه السرف وأكل أموال الناس بالباطل، وحاربت أثرة ذوي المال بما جعلهم الله مستخلفين فيه، وقعودهم عن تأسيس المشاريع الاقتصادية وقبض أيديهم عن المشاريع العلمية والخيرية لأن ذلك من أسباب البطالة والفجور"⁽¹⁾.

أما على الساحة العملية فجاء حديثهم متنوعا بتنوع المشاكل الاجتماعية، إما بنقدها عموما، أو التطرق إلى كل قضية على حدة، وكانت بدايتهم بنقد الأوضاع الاجتماعية المزرية، من ذلك ما ذكره محمد الزاهري أثناء معالجته لهذا الموضوع: «ثم جاءتنا هذه المدنية، فأكثر من ضروريات الناس، وأكثر من نفقاتهم، وفتحت في وجوه المسلمين أبواب الحانات والمخامر، ونصبت لهم المواخير ودور القامر، وأباح لهم ذلك كله إباحة حرة وجعلت تمح وتثني على من يقع في شراكها بأنه متمدن "سيفيليزي" وبأنه حر "ليبر"، وتزين لهم هذه الرذائل بمثل هذه الأوهام التي تلقيها في رؤوس الناس وهم جاهلون أميون لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون مركزهم من الحياة، فتساقطوا على تلك المفاسد وتهالكوا عليها حتى باعوا فيها كل ما تملكه أيديهم من عقار وماشية...»⁽²⁾.

ولمحصرة الرذائل والمفاسد الأخلاقية واستقطاب الشباب وإبعادهم عن مسالكها؛ جندت الجمعية علماءها لإلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد والنوادي والمقاهي ومناسبات الأفراح والمآثم.

وقد ذكرت إحدى الباحثات مثالا واقعيا لتحول الخطاب الديني للجمعية من المستوى النظري إلى التطبيقي والتأثيري على المجتمع، وذلك في تقرير لتفاعل سكان قصبة مدينة الجزائر

(1) آثار ابن باديس، 546/3.

(2) البرق: عدد 21، 3 صفر 1346 / 1 أوت 1927، ص1، نقلا عن رسالة الماجستير: أدب المقاومة عند محمد السعيد الزاهري من خلال جريدة البرق، محمد العيد تاورته، ص36.

مع دروس الشيخ العقبي خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث سجلت تقارير الشرطة الفرنسية على سبيل المثال تناقص عدد مدمني الخمر وبيوت الدعارة، ولُقب عمال ميناء الجزائر بـ"الجيش الأزرق" الموالي للشيخ العقبي. وتجاوز هذا الخطاب حدود مقاطعة الجزائر إلى ما جاورها مثل البلدية، ومقاطعة تيزي وزو⁽¹⁾.

كما سنّرت الجمعية صحافتها وأقلامها في محاربة هذه الأمراض، ومن بين الآفات التي عالجتها، مشكلة الخمر حيث بيّنت مضاره على الصحة والعقل، وما يحتويه من سموم قاتلة، وذكروا الأدلة من الكتاب والسنة على تحريمه، وحذّروا ممن يُرغّب في الخمر بذكر شبه لا أساس لها عن منافعه⁽²⁾. وطالب بعضهم بتأسيس لجان تقوم بالطواف على المقاهي، للاطلاع على ما يتناوله المسلمون، ومن تم زجر كل من وجدوا بين يديه خمر⁽³⁾.

كما نفّروا من الخمر بالإشارة إلى أن الأمم الغربية نفسها، أدركت خطر الخمر على صحة الإنسان وعلى المجتمع، فأنشأت جمعيات لمحاربة هذه الآفة. ونشروا إحصائيات عن عدد المرضى في المستشفيات الأوروبية من جراء هذا المسكر، فمثلا ارتفع عدد المصابين بالأمراض الناتجة عن تعاطي الكحول إلى 7 آلاف مصاب، وهذا بعد أن عادت تجارة الخمر إلى الراج، كما أن من أسباب الموت المبكر هو الخمر⁽⁴⁾.

كما فصلّوا في أضرار الخمر العقلية والنفسية والجسدية. ولم يهملوا الجانب الاجتماعي للخمر، حيث ذكروا النتائج العكسية على المجتمع، مما يسببه من شجار وخصوم، وإفشاء للأسرار الشخصية، وتفكك أسري واجتماعي، وللوقوف ضد هذه الآفة طالبوا إقرار قوانين وتشريعات تحدّ منها، وعلى الدولة السهر على تطبيقه وفرضه على التجار، مع تأسيس جمعيات توعوية وتحسيسية بمخاطر هذه الآفة⁽⁵⁾.

(1) مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: نشأة وتطور الإصلاح وهياكله بعمالة الجزائر 1931-1956، عفاف زقور، ص 228-229.

(2) الخمر وخطره العظيم، البصائر، عدد 19، 31 جمادى الأولى 1355 / 7 أوت 1936، ص 6.

(3) حديث عن الخمر، البصائر، عدد 85، 1 رمضان 1356 / 5 نوفمبر 1937، ص 7.

(4) مقاومة آفة الكحول أو المشروبات الكحولية، البصائر، عدد 294، س 7، 30 ربيع 1 1374 / 26 نوفمبر 1954، ص 3.

(5) أخطار الخمر، عبد الرحمن الجيلالي، الشهاب، ج 7، م 9، 1 صفر 1352 / جوان 1933، ص 304-307.

وقد كان لصيحات العلماء صدى إيجابي على كثير من الواقعين في هذه الآفة، فهجروا أمّ الخبائث وأعرضوا عنها، وتعلت أصوات تجار الخمر بالتذمر من ذلك⁽¹⁾.
ونفس الأمر كان بالنسبة للبغياء⁽²⁾، والإعراض عن الزواج⁽³⁾، وآفة الطلاق⁽⁴⁾، والاختلاط المحرم⁽⁵⁾، ومنع المرأة من الميراث⁽⁶⁾، ومحاربة الشح وحث الأغنياء على البذل⁽⁷⁾، وقضايا الشباب⁽⁸⁾، ومشكلة الإسراف⁽⁹⁾ وغيرها.

كما كان للشعر في هذا المجال نصيب من هذه الجهود؛ فالموضوعات التي عالجها ابن قدور والزريبي وابن الموهوب قبل الحرب العالمية الأولى ظهرت بقوة في شعر محمد العيد وأبي اليقظان والعقبي والزاهري وأضرابهم بعد هذه الحرب. وقد احتل الشعر الإسلامي والإصلاحي جانبا كبيرا من شعر محمد العيد. وقد أخذت موضوعات المرأة والأطفال المشردين والفقراء والأغنياء والمآسي الاجتماعية حظا وافرا عند الشاعر محمد العيد⁽¹⁰⁾.

ولا بأس بذكر بعض مقتطفات من شعره في هذا الميدان:

فمن شعره في قضية المرأة:

ما بال سر فتاة العصر منحرفا... يهوي بها في مهاوي الإفك والزور
إن الجزائر أمست بنتها غرضا... لكل رام بسهم الغي مأجور
ما بالها هجرت آداب ملتها... ما بالها أعرضت عن خير دستور
إن الذي برأ الجنس من خوّلها... حقوقها في كتاب منه مسطور

(1) ينظر: شروط النهضة، ص 34.

(2) راجع مثلا: البغاء ومفاسده، البصائر، عدد 21، الجمعة 8 ربيع الأول 1355 / 29 ماي 1936، ص 7.

(3) راجع مثلا: الشبان والزواج، البصائر، عدد 6، 27 شوال 1366 / 12 سبتمبر 1947، ص 1.

(4) راجع مثلا: الطلاق، البصائر، عدد 7، الجمعة 4 ذو القعدة 1366 / 19 سبتمبر 1947، ص 3.

(5) راجع مثلا: بدعة كبرى، الشهاب، الخميس 10 ماي 1346 / 10 ماي 1928، ص 7.

(6) راجع مثلا: تاريخ الزواوة، أبو يعلى الزواوي، ص 129.

(7) راجع مثلا: عاطفة الإحسان، الشهاب، ذي الحجة 1348 / ماي 1930، ج 4، م 6، ص 241.

(8) راجع مثلا: إلى الشباب، البصائر، عدد 36، الجمعة 9 رجب 1355 / 25 سبتمبر 1936، ص 4.

(9) راجع مثلا: محاضرة في السرف المالي، للشيخ مبارك المليي، سجل مؤتمر الجمعية، 122.

(10) تاريخ الجزائر الثقافي، 260/8.

لو أنها اقتبست من نوره وجنت... من روضه التحقت في الطهر بالخور⁽¹⁾
وفي البذل وعدم الشح قال:
تعالوا بني الإسلام للبذل كلما... دعيتم إليه في اليسار وفي العدم
ولا تجعلوا الآفات للشح حجة... فذلك عنوان التسخط والشؤم
إذا دامت الأعمال أسفر صدقها... وإن لم تدم لم تنكشف عن سوى الزعم⁽²⁾
ومن شعره في الخمر:

الخمر شرية رجس أم أرجاس... الخمر صاعقة تهوي على الرأس
الخمر مخنة سوء من أصيب بها... أصيب في كل وعي منه حساس
الخمر فاس خراب هدمت أسرا... مصونة عاث فيها صاحب الفاس
يا شارب الخمر ما ترجوه من دون... للعرض غول عقول لص أكياس
ما الخمر إلا ظلام للنفوس فلا... يغرك منها شعاع لاح في الكاس⁽³⁾
ومن شعره في انتشار الفساد وبعض الآفات:

وغدا البغي ظافرا حوله الجن... مد عزيزا تظله الأعلام
وفشا الزور والقمار على الأر... ض وراج الخنا بها والمدام
واستطار الفساد واستفحل الش... روعم الأذى وطمّ الخصام
هذه الأرض للقوي سماط... ليس فيها غير الضعيف طعام
أكثر الناس يوزعون عليها... بالهراوي كأنهم أنعام
هذه أنفس البرايا مرايا... أصدأها الذنوب والآثام⁽⁴⁾

إلى غير ذلك من المواضيع التي تطرق إليها والأبيات التي نثرها، ولكثرة جهوده في الدفاع بشعره عن المواقف الدينية والوطنية استحق أن يلقب بـ "حسان الجزائر" نسبة إلى حسان بن ثابت.

وخارجا عن الشعر يلاحظ أن أعضاء الجمعية لم يغفلوا عن أمر مهم في محاربة الآفات

(1) ديوان محمد العيد آل خليفة، مكتب الدراسات، ص 254.

(2) المصدر نفسه، ص 188

(3) المصدر نفسه، ص 256

(4) المصدر نفسه، ص 164 - 165

الاجتماعية، وهو أن أغلب المنغمسين فيها هم من أهل الشهوات الذين لا يرتادون المساجد ولا المدارس التربوية، فكان من الحكمة استقطاب هؤلاء بوسائل أخرى، لذلك أسسوا النوادي الرياضية والجمعيات الكشفية والفرق المسرحية، التي كانت تجمع الشباب من مختلف الطبقات ومن شتى جهات الوطن تحت راية واحدة، حتى ينقذوهم مما هم فيه، ويوجهوا طاقاتهم لمصلحة العباد والبلاد.

ويلاحظ أن النوادي والفرق المسرحية التي كانت تخدم الاتجاه الإصلاحية، كان دورها هو التركيز على محافظة الأسرة والأخلاق والعلاقات الاجتماعية السليمة. وقد كانت لمواضيع الخمر ومضارّها، والجهل، وتأثر المرأة بالحياة الأوروبية، والمخدرات، مكانة بارزة في عدد من المسرحيات⁽¹⁾.

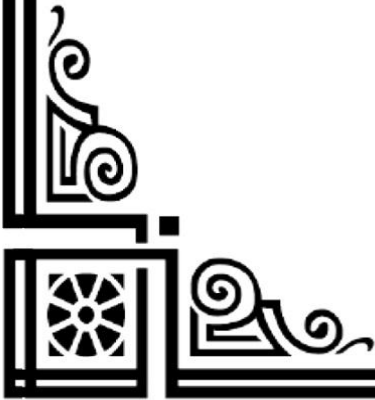
الخلاصة:

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من بعض الآفات الاجتماعية؛ وإذا كان المجتمع الجزائري واحدا من هؤلاء، فإن دخول المحتل الفرنسي أرض الجزائر وبسط هيمنته على الجزائريين، قد حوّل وضع الأهالي من السوء إلى الأسوأ، وكان مرور أقل من قرن على الاحتلال كافٍ لانتشار أغلب الآفات والأمراض الاجتماعية وتطورها تطورا مريعا، بسبب الجهل والأمية، والتعلق بالخرافات والبدع، وغياب الوازع الديني من جهة، وبسبب السياسة الفرنسية المتعمدة تطبيقها على السكان من جهة أخرى، إلا أن هذه الظروف ولّدت همّة في نفوس أبنائها المخلصين للنهوض بهذه الأمة من غفلتها وللحاق بركب الأمم الراقية، فقيّض الله لهذه الأمة علماء بررة، بذلوا كل طاقاتهم وجهدهم لمحاربة هذه الآفات، وقد كان النجاح حليفهم مقارنة بالوسائل والإمكانات التي بذلتها السلطة الفرنسية في الاتجاه المعاكس، ومقارنة بالوضع المزري الذي كان يعيشه الجزائريون.

(1) ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، فصل الروايات والقصص والمسرحيات، 135/8.

الفصل الثالث:
وسائل الدعوة والإصلاح وآفاقها وتحدياتها
من 1830 إلى 1954م

المبحث الأول: وسائل الدعوة والإصلاح الاجتماعي
المبحث الثاني: مآخذ الحركة الدعوية والإصلاحية فترة الاحتلال
الفرنسي
المبحث الثالث: استثمار آثار الدعوة والإصلاح في واقعنا المعاصر



المبحث الأول:

وسائل الدعوة والإصلاح الاجتماعي

ما من شك أن تحقيق الأهداف يسبقه بسط الوسائل المناسبة لبلوغ الغايات، وكلما حسن اختيار الوسائل الملائمة واستغلالها كلما نجح أصحابها في تحقيق أهدافهم، وإذا كان الحديث عن المشروع الإصلاحى والدينى، فإن الوسائل يشترط فيها أن تكون مشروعة؛ سواء كان ذلك عتيقا ومما سبق الناس إليه، أو مما استحدثه الناس وكان وليد العصر والحاجة. والمطلع في أحوال العلماء الدعوية والإصلاحية - في مجموعهم - يلاحظ أنهم استغلوا أغلب الوسائل الممكنة في عصرهم مع العلم أن المحتل الفرنسي بقي في الجزائر مدة طويلة زهاء قرن وثلث قرن، هيمن فيها على جميع الإمكانيات الموجودة، وسخرها لخدمة مشروعه التخريبي، وهذه الفترة عرفت تغيرات حضارية وتحولات جذرية خاصة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

كما أن تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية استلزم تغير طرق المطالبة بالتغيير، وتنوع وسائله؛ لذا سنعرض فيما يأتي بشيء من التفصيل لبعض وسائل علمائنا خلال هذه الحقبة التاريخية، مقسمين الوسائل إلى تقليدية وعصرية.

المطلب الأول: الوسائل التقليدية:

الفرع الأول: التعليم

لما كان التعليم هو الطريقة المثلى لإحياء الأمم، وأساس أي عمل إصلاحى يستهدف تغيير واقع المجتمع، بإعادة صياغة الإنسان عن طريق التعليم؛ تنازعه كلٌّ من غاصب الأرض، ومغصوب الأرض الجزائرية، وكل فريق يحاول استغلاله لتحقيق أهدافه؛ نبيلة كانت أو وضعية، فهذا يريد استغلاله لفرنسة الجزائريين، وتنصيرهم وإدماجهم وفرض الهيمنة الفرنسية عليهم، وهذا يريد استغلاله للدفاع عن مقوماته وإحياء شخصيته الدينية والوطنية، وحتى لا يذوب في مجتمع غير مجتمعه⁽¹⁾؛ وإذا كان التعليم هدفا للجزائريين يبغيون تحقيقه فقد كان وسيلة لأهداف

(1) مع العلم أن هذا الاختيار الذي انتهجه العلماء لمكافحة الجهل كان نقطة خلاف حاد في الحركة الوطنية بين قادة الإصلاح وزعماء الأحزاب الوطنية الأخرى، إذ رأى ابن باديس وأنصاره أن التعليم أهم سلاح للوقوف في وجه

أخرى، لذا نجد الجزائريين قد تضافرت جهودهم في تحقيق وسائل متنوعة لإنجاح التعليم، ومن أهمها:

أ- المسجد:

يعتبر المسجد في الإسلام من أهم المؤسسات الدينية، وهو من وسائل البناء الحضاري، فضلا عما كان له عبر تاريخ الإسلام الطويل من دور اجتماعي وسياسي وقضائي وثقافي وغيره، كما أنه مثل القلعة الروحية التي ينطلق منها المجاهدون لمقاومة الغزاة⁽¹⁾.

والمسجد وإن كان مبنى مخصصا بالدرجة الأولى لأداء الصلوات والجمعة والتعبّد، فهو لم يقتصر على ذلك، فقد كان مكانا لتعليم الناس وتحفيظ القرآن، وعقد الزواج والنظر في المسائل القضائية والمسؤول عن تنفيذ الحد وإقامة العقوبات كالنفى أو الجلد وغير ذلك.

والعلاقة بين التعليم والمسجد هو أن التعليم وظيفة أساسية من وظائف المسجد، وقد جاء في تقرير ابن باديس: " المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم استقر في دار الإسلام، بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة، فلا إسلام بدون تعليم"⁽²⁾.

وبناء على هذه الأهمية للمساجد، ودورها في المجتمع المسلم، فإن علماء الجزائر اتخذوا من المسجد أداة فعّالة لتربية العامة وتعليمها، ونقطة التقاء بين العالم ومختلف الطبقات الجزائرية المتعلمة، إلا أن هذا الاستغلال كان يختلف من عالم لآخر ومن منطقة لأخرى ومن زمن لآخر؛ فالمساجد في القرن العشرين مقارنة بالقرن التاسع عشر عرفت انفتاحا وتطورا واستغلالا أكبر كما سيأتي.

المستعمر، بينما كان يعتقد مصالي الحاج ورفقاؤه أن النضال السياسي هو أقرب طريق لاسترجاع الوطن من قبضة المحتلب. ينظر: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931 - 1945، عبد الكريم بو الصفصاف، ص 149 - 150.

(1) ينظر: موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الحضارة الغربية، يوسف بوعابة، ص 207 - 208.

(2) آثار ابن باديس، 225/3.

علما أن سياسة الاحتلال الفرنسي نحو المساجد كانت واضحة منذ دخولها الجزائر، حيث اعتدت على المساجد بهدم بعضها⁽¹⁾، وتحويل البعض الآخر إلى كنائس أو مخازن أو أغراض أخرى، واستمر ذلك إلى فاتح القرن العشرين، وما بقي ضيق عليه وفُرج من محتواه، إلا ما خرج عن سيطرتها؛ فقد كان في الجزائر العامة مثلا 122 مسجدا بين صغير وكبير، أشارت بعض التقارير أنه لم يبق منها إلا ستة بعد ربع قرن⁽²⁾.

وقد كان الفرق واضحا بين المساجد الرسمية التي هي تحت رقابة الإدارة الفرنسية، وبين المساجد المستقلة فيما يخص الدور الديني والوطني الذي تقدمه المساجد⁽³⁾. وكذلك الفرق بين المساجد التي سلكت سبلا تقليدية ونظرة انطوائية في التعليم، وبين من سلكت نهضة حديثة ورؤية شمولية.

ويبقى هذا حكما أغلبا إذ برز علماء كبار في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين استغلوا الوظيفة لدى الإدارة الفرنسية، وفعلوا دور المسجد بنشر العلم وإلقاء الدروس على العامة والخاصة، ونفث الروح الوطنية والدينية، ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر المجاوي وابن الموهوب وعبد الحليم بن سماية وابن زكري وغيرهم.

ومن الملاحظات المهمة⁽⁴⁾ أن سبر أحوال علماء الجزائر أنفسهم في تكوينهم العلمي فترة الاحتلال الفرنسي؛ هو إشادة بدور المسجد في هذه الفترة، ذلك أنه لا يخلو عالم أثناء تعلمه وتفقهه من مسجد تفقه وطلب العلم فيه، وكذلك تعليمهم وتدريسهم لا يخلو من حلقات علم عقدوها في المسجد، وهي أماكن أنجبت طلبة أبرارا أصبحوا فيما بعد علماء كبارا.

وكنموذج لدور المساجد في نشر العلم ونبوغ العلماء، المسيرة العلمية للشيخ عبد الرحمن الجيلالي؛ فقد تلقى تعليمه في أعرق مساجد العاصمة، منها الجامع الكبير، وجامع سيدي رمضان، ومسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي كانت روضات للعلم والتفقه في الدين الإسلامي، وكذلك الجامع الجديد الذي أخذ فيه الفقه وأصوله، ودرس على الشيخ عبد الحليم بن سماية، وبمسجد قرية بوفاريك تلقى الفقه وعلومه على الشيخ المولود الزريبي، كما لازم

(1) وأول مسجد تم هدمه هو مسجد السيدة سنة 1830م.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 5/ 10-13، وفيما يخص التقرير يراجع 72/5.

(3) المصدر نفسه، 8/ 112.

(4) وهي لفظة لطيفة لم أجد من نبه لها.

الأستاذ محمد بن أبي شنب يتتبع دروسه في عدد من مساجد العاصمة، وهذا التكوين العلمي والفقهى أهله لأن يتولى التدريس في عدد من المساجد والمدارس، ممّا عمّق تكوينه الفقهي وتمرسه على الإفتاء، ومن أهم هذه الجوامع: الجامع الكبير، ومسجد سيدي رمضان، ومسجد السفير، والجامع الجديد⁽¹⁾.

وكتقييم لاستغلال وسيلة المسجد يلاحظ أن الجمعية أحسن من فعل دور المسجد، واستغله أحسن استغلال؛ والذي يعتبر امتدادا لجهود ابن باديس في التعليم، الذي اتخذ من "الجامع الأخضر" بقسنطينة مركزا لنشر العلم واللغة العربية والحضارة الإسلامية، طوال ربع قرن (1913-1940)، وقد أصبح الجامع الأخضر بعد وفاة الشيخ مركزا علميا للوطن الجزائري⁽²⁾.

بل يلاحظ أن الجمعية قد خطت خطوة مباركة تجاه المسجد بعد نجاح العلماء في استغلال المساجد لمكافحة الأمية، وبث فكرة الإصلاح، وتوجيه المسلمين إلى ما يصلح به دينهم وديانهم، مع إصلاح طرق التعليم التي طوّرت ملكة الخطابة والثقافة لدى الشباب الجزائريين، وهو ما أزعج السلطة الفرنسية التي سارعت للتضييق على العلماء وفرض الرقابة عليهم وسن القوانين الجائرة، فأغلقت بعض المساجد ومنعت العلماء المصلحين من مزاوله نشاطهم في التدريس والخطب من على المنابر الخاضعة لإشرافها⁽³⁾، لعلها مدى أهمية هذه المؤسسات في ميدان المقاومة، فثارت ثائرة الأمة حسب قول الإبراهيمي: «فأنشأت بما لها بضعة وتسعين مسجدا في سنة واحدة في أمهات المدن والقرى»⁽⁴⁾، وهذا يفسر الدافع وراء إقدام الجمعية لبناء المساجد، ويرجع إلى سببين:

- 1- حاجة العمل الإصلاحي المعتمد على التعليم إلى بنية تحتية ممثلة في هياكل قارة.
- 2- المضايقات التي تعرضت لها المساجد عموما وعلماء الجمعية خصوصا من طرف

(1) ينظر: الشيخ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه ذو القرن: الشيخ العلامة عبد الرحمن الجيلالي فقيهها رحمه الله، كمال لدرج، ص 301-302.

(2) التعليم القومي، مرجع سابق، ص 227-228 بتصرف.

(3) ينظر: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، ص 148.

(4) آثار الإبراهيمي: 283/5.

السلطة الاستعمارية⁽¹⁾.

كما دأبت الجمعية على المطالبة باستخلاص المساجد الواقعة تحت إشراف السلطة الفرنسية⁽²⁾، باتخاذ أساليب عدة، منها التقرير الذي نقله الشيخ خير الدين في مذكراته، عن إدارة الجمعية للحكومة الفرنسية حيث يقول: «ونعلم أن الحكم القاطع في الإسلام في مسألة المساجد هو أن التصرف فيها لجماعة المسلمين دون سواهم، وأن أئمة المساجد، ومن جرى مجراهم يجب أن يكون أمرهم راجعا إلى جماعة المسلمين دون سواهم في الاختيار والتولية والعزل والمراقبة وتقدير الحريات»⁽³⁾.

والمسجد قد حوى أنواعا ثلاثة من التعليم المسجدي⁽⁴⁾:

أ-1- الدروس:

من وسائل الإصلاح لدى العلماء قديما وحديثا دروس المساجد في شتى العلوم؛ سواء في التفسير أو الحديث، أو الفقه، أو سائر العلوم، ورغم الضعف الذي ساد المساجد في القرن 19، والتضييق على مهام المسجد وعلى نوع الدروس؛ كتحریم تدريس التاريخ، وبعض أبواب الفقه كالجهد إلا أن بعض المساجد استطاعت أن تقوم بدورها التعليمي بعد أن تحررت من رقابة السلطة الفرنسية خاصة التي كانت تقع في البوادي والصحراء⁽⁵⁾، بخلاف دروس المساجد في القرن العشرين فقد عرفت تطورا وتميزا خاصة عند علماء الجمعية؛ فقد كانت الدروس المنظمة تجري في كثير من جوامع القطر الجزائري حيث يتعلم فيها الطلبة في مستوى عال على الطريقة والكتب والأسلوب المعروف في الجوامع الإسلامية الكبرى كالأزهر والزيتونة والقرويين⁽⁶⁾.

(1) ينظر: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 184 - 185.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 185.

(3) 131/1. ومنها أيضا المقال الذي كتبه الزاهري تحت عنوان: "مساجدنا تباع ونوابنا سكوت"، الشهاب، ع: 160.

(4) وقد اقتصر المؤلف تركي رابع في كتابه التعليم القومي، ص 228، على ذكر نوعين فقط وهما الدروس والوعظ، وأضافت الخطب لأنه نوع قائم بذاته.

تنبيه: لا تقتصر الخطابة ودروس العلم ودروس الوعظ والإرشاد على المسجد، بل يحتضنها غير المسجد من مراكز العلم كالنواصي والزوايا، ولكن المسجد ألصق بهذه الثلاث من غيرها، وهي من وظائفه الأساسية.

(5) ينظر: كتاب الجزائر، توفيق المدني، ص 94.

(6) وعن دروس الجمعية وتميزها ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص 228.

ومن النماذج الناجحة لدروس المسجد برنامج جامع الأخضر بقسنطينة الذي كان يشرف عليه الإمام عبد الحميد بن باديس؛ فكان أول ما عالجته أثناء مباشرته للتعليم المسجدي ضم فئة صغار الكتاتيب القرآنية، ثم تعددت فئات المنخرطين في هذا التعليم ووزعت على ثلاث فئات:

1- فئة الطلاب المتفرغين.

2- فئة الشباب المحتاج للتوعية والتكوين.

3- عامة المواطنين الجزائريين من الرجال والنساء.

وقد تكفل للطلبة الدائمين بالإيواء وبعض المساعدات الغذائية، وشملت مواد التدريس: التفسير والحديث والفقه والعقائد واللغة والمنطق والتاريخ والفرائض⁽¹⁾.

أ-2- الخطب:

مع أن الخطبة قد تكون داخل المسجد وخارجه، إلا أنها إذا أطلقت يرتبط اسمها بالمسجد، كما أنها تبقى وسيلة فعّالة من وسائل التعليم؛ يعلم فيها الخطيب الناس دينهم، فيرشدهم إلى سلامة العقيدة، وتصحيح عباداتهم ومعاملاتهم، والواقع يثبت أن أهل المساجد هم أكثر الناس اتباعا للشرع وأقلهم جرما، ولم تقتصر الخطبة على هذه الوظيفة فقد كانت الخطبة من وسائل الدعوة إلى الجهاد والدفاع عن الدين والوطن، كما هو حال أغلب الثورات التي قامت في القرن 19، كما أن الخطب كانت وسائل فعّالة في الإصلاح الاجتماعي، مثلما حدث مع الشيخ ابن الموهوب صاحب الخطب الإصلاحية حين خطب في الناس عن مشكلة إحداث كازينو القمار بقسنطينة⁽²⁾.

ومن العلماء الذين ارتبطت أسماءهم بالخطابة الصالح بن المهنا، الذي طوّر الخطابة في نظره وجعل لها أسلوبا ونماذج⁽³⁾، فضلا عن خطب شيخه المجاوي التي عرفت تأثيرا كبيرا في أوساط الناس، أما عن خطب الجمعية فهي أكبر من أن تحصر أو تسطر لكثرتها وتنوعها، كما أن الجمعية أنجبت خطباء بلغاء أمثال أبي يعلى الزواوي⁽⁴⁾،

(1) ينظر: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 185 - 186.

(2) وقد تقدم في مبحث جهود العلماء في محاربة الآفات الاجتماعية.

(3) ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، 117/8.

(4) يراجع شهادة الأستاذ توفيق المدني لمكانة الزواوي وخطبه في كتاب الجزائر، ص 98. والشاهد نفسه من كبار الخطباء.

والطيب العقبي⁽¹⁾، وعبد القادر الياجوري⁽²⁾، وغيرهم.

كما أن الخطابة كانت الوسيلة الناجحة لإصلاح بعض أصناف الناس الذين لا تنفعهم الكتابة، لأنهم يقبلون المشافهة، ومخاطبتهم باللغة التي يفهمونها، كما هو الشأن بالنسبة للشيخ الخطيب العربي التبسي الذي ارتكز نشاطه على الخطاب الشفهي في دعوة جماهير الأرياف⁽³⁾.

أ- 3- الوعظ والإرشاد:

لم تقتصر المساجد على الدروس الخاصة والخطب، بل كانت مرتعا لدروس الوعظ والإرشاد لعموم الناس التي استغلها العلماء في تعليم الناس، وبعث الحمية الدينية والنزعة الوطنية.

مثلا كان الشأن بالنسبة للشيخ عبد القادر المجاوي في مسجد قسنطينة، أو مسجد العاصمة.

أما الجمعية فقد استغلت دروس الوعظ والإرشاد لتوجيهها إلى عامة المواطنين، وغالبا ما كانت تُلقى بين صلاة المغرب والعشاء، وأيام الجمعة، كما كانت تكثف من نشاطها أثناء العطل الصيفية، وخاصة شهر رمضان الذي كان له برنامج خاص به⁽⁴⁾، حيث تعمر المساجد

(1) وقد وصفه توفيق المدني في مذكراته: حياة كفاح، بقوله: «كان خطيبا مصقعا من خطباء الجماهير، عالي الصوت، سريع الكلام، حاد العبارة، يطلق القول على عواهنه كجواد جامع دون ترتيب أو مقدمة أو تبويب أو خاتمة. وموضوعه المفضل هو الدين الصافي النقي، ومحاربة الطرقية ونسف خرافاتها والدعوة السافرة لمحاربتها ومحقها». ص 271-272.

(2) (1912-12 أوت 1991): وُلد بقرية قمار بوادي سوف درس القرآن الكريم على يد والده، ثم انتقل إلى مدينة توزر التونسية، وعن مشايخ المنطقة أخذ مبادئ العلوم الشرعية. في سنة 1925 التحق بجامعة الزيتونة، وحصل على شهادة التطويع سنة 1934. انخرط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتولّى عدة مهام. والشيخ نزيل سجون ومعتقلات المستعمر مرات، في سنة استقرّ بمدينة وهران 1954. وأُلقي عليه القبض 1956م وما أُفرج عنه إلا بوقف إطلاق النار 1962م. بعد الاستقلال التحق بوزارة الأوقاف إلى 1964م ثم التحق بسلك التعليم إلى غاية تقاعده سنة 1977م.. لكنه واصل التدريس، والعطاء الفكري إلى وفاته بوهران. "الشيخ العلامة عبد القادر الياجوري.. رجل الوطنية والفكر والاجتهاد"، بقلم: بشير خلف: <https://binbadis.net/archives/8820> وقال عنه أبو القاسم: "كان... من أبرز خطباء هذه المرحلة وقد جمع بين الخطاب السياسي والإصلاحي، وكان محركا للجماهير وموقظا للنفوس بطريقة مؤثرة". تاريخ الجزائر الثقافي، 8/ 108.

(3) ينظر: الشيخ العربي التبسي، خالد أقيس، ص 95.

(4) وقد ذكر الشيخ خير الدين في مذكراته تفصيلا دقيقا لقائمة الوعاظ في شهر رمضان حسب العمالات الإدارية،

بتلاوة القرآن، وحضور الاحتفالات الدينية، وكانت هذه الدروس توجه إلى مختلف مساجد القطر الجزائري طوال أيام شهر رمضان⁽¹⁾.

وخلاصة القول أن المسجد بقي صرحا شامخا في نفوس الجزائريين، رغم محاولة سلطة الاحتلال الفرنسي لمحو أثره بالهدم أو التحويل أو التضييق، ورغم العطاء المحتشم الذي كانت تقدمه هذه المساجد في ظل هذه التحديات أول الأمر، إلا أن مجموعه كان وسيلة من وسائل التعليم والتثقيف وبعث الوعي واليقظة في نفوس الجزائريين، وحصنا للدفاع عن المقومات الذاتية الجزائرية، ليتطور هذا الجهد ويصبح التعليم المسجدي من أهم وسائل النهضة التعليمية بإزاء التعليم المدرسي؛ خاصة بعد ظهور الحركة الإصلاحية في القرن العشرين، وهو ما أثر نجاحا باهرا ونصرا عزيزا على أرض الواقع.

ب- المدرسة:

وهو المكان المخصص للتعليم دون غيره من التعبد ونحوه، وذلك بإلقاء الدروس على مستوى عال، وتنتشر في المدن خاصة، وغالبا ما ترتبط المدرسة بالسلطة الحاكمة⁽²⁾. ولقد كانت عناية الأمم بتشيد المدارس وتربية النشء فيها كبيرة جدا بقدر ما لها من شعور بالحاجة إليها، خاصة وأنها أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة التي لا تقل أهمية عن الغذاء واللباس، ومقياس رقي الأمة وانحطاطها⁽³⁾.

ولئن سارع المحتل الفرنسي فور دخوله الجزائر لاستغلال هذه الوسيلة من أجل تحقيق أهدافه بدمدم بعضها وتحويل بعضها وتدجين البعض الآخر، وفتح مدارس موازية للمدارس الإسلامية؛ فإن علماء الجزائر كانت لهم جولات مع هذه الوسيلة طيلة فترة الاحتلال، علما أن القرن التاسع عشر كان مختلفا كثيرا عن القرن العشرين، فبعد الرقابة على المدارس والاستيلاء على الأوقاف كاد التعليم أن تجف منابعه؛ فالمناطق التي لم تكن خاضعة للسلطة الفرنسية

ينظر 265/1-269. كما خص الإبراهيمي "البصائر" بمقال تحت عنوان: دروس الوعظ والإرشاد في رمضان، عدد

86، 11 جويلية 1949، ص1؛ تحدث فيه عن رمضان وإحيائه بالوعظ، وذكر قائمة الوعاظ لتلك السنة.

(1) ينظر التعليم القومي والشخصية الجزائرية، 228-229.

(2) ينظر: الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر، ص 137.

(3) ينظر: موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الحضارة الغربية، ص 214.

كدولة الأمير عبد القادر، ومنطقة أحمد باي⁽¹⁾، والمناطق الصحراوية خصوصا بني ميزاب، فقد استمر فيها التعليم الجزائري على طريقته التقليدية الأصيلة، وبعد أن سيطر المستعمر على كامل التراب الجزائري، استغل كثير من العلماء المدرسين الجزائريين المدرسة الفرنسية لنشر العلم وبعث الوعي لدى الجزائريين دون الدخول في مواجهة مع السلطة الفرنسية، أمثال الشيخ المجاوي وعبد الحليم بن سماية وغيرهم.

وبفتح المجال أمام المدارس الحرة مطلع القرن العشرين -مع القيود الصارمة التي صاحبته- سارع العلماء الجزائريون، إلى فتح المدارس في مختلف الأماكن من القطر الجزائري، وهذا ما أدخلهم في صراعات ضارية مع الحكومة الفرنسية، لعلمها أن تحقيق أهداف علماء الإصلاح الجزائريين عن طريق المدرسة هو نفسه تحطيم للمشروع الفرنسي الاستعماري؛ وهو ما نتج عنه إصدار قوانين تعسفية لمنع التعليم والتضييق على المدارس والمدرّس.

ورغم كل هذه العقبات أثبتت جمعية العلماء أنها الرائدة في هذا المجال، وقد تقدم أنه بلغ عدد مدارسها مطلع الخمسينات 150 مدرسة، مع تطوير مناهجها وطرائق تدريسها وتوحيد مسارها وشمول مدارسها⁽²⁾.

بل تعدى الاهتمام بهذه الوسائل إلى أن تنشئ الجمعية مدارس للمهاجرين الجزائريين بفرنسا، حيث يمثلون جالية كبيرة، لأجل استقطابهم والحفاظ عليهم من خطر الذوبان في الحضارة الغربية والبعد عن أصول دينهم ووطنهم⁽³⁾.

ج- الزاوية:

الزاوية تطلق في الأصل على ركن البناء، وأصبح معناها يطلق على ذلك البناء الذي يجمع بين المسجد الصغير أو المصلى وبين المدرسة، مع استقلالها عن السلطة، وهي خاصة بالمرابطين وأصحاب الطرق الصوفية⁽⁴⁾.

(1) يلاحظ عدم ذكر أي جهد من جهود الباي أحمد، لأن البحث خاص بعلماء الجزائر دون الزعماء والسياسيين وغيرهم إلا أن يأتي الحديث عنهم عرضا.

(2) للتوسع أكثر في تفاصيل المدارس العربية الحرة ونظامها والمشرفين عليها ينظر كتاب: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، للشيخ محمد حسن فضلاء.

(3) ينظر: صراع بين السنة والبدعة، 106/1.

(4) ينظر نحو من هذا التعريف: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص 13.

ويلاحظ في أواخر العهد العثماني في الجزائر أن عدد الزوايا والأضرحة كان يفوق عدد المساجد والمدارس، علما أن الزاوية في الريف كان عطاؤها العملي أكبر منه في الزاوية داخل المدن، خاصة في مجال التعليم، فمعظم الزوايا في المدن كانت معطلة عن التعليم لوجود الكتاتيب من جهة، ووجود المساجد والمدارس من جهة أخرى⁽¹⁾.

ولئن اختلف مفهوم الزاوية بين محمود ومذموم لاختلاف الأدوار التي قام بها أصحابها⁽²⁾، فإن المقصود هنا هو الزوايا التي كان لها دور إيجابي في التربية والتعليم، والمحافظة على الهوية الدينية والوطنية.

وهذه الأخيرة ولا شك كان توجهها دينيا بالدرجة الأولى؛ جمعت بين المدرسة والمسجد، وجمعت بيت التعب والتعليم، وزاد بعضها إعلان الحرب والسلام، والإصلاح بين الناس وغير ذلك، فضلا عن كونها ملجأ ومأوى ومستوصفا.

ولما كانت الزاوية تعتمد اعتمادا كبيرا على الأوقاف توقف عدد كبير منها عن أداء الرسالة التربوية والاجتماعية، وأغلقت أبوابها وشُرد طلابها بعد استيلاء الاحتلال الفرنسي على الأوقاف الإسلامية بعدما كانت مصدر حياة لهذه الزوايا، ولم تصمد إلا الزوايا التي كان لها موارد شعبية أو أملاك خاصة استطاعت أن تواصل مسيرتها في نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن وعلوم الدين⁽³⁾.

لم تكن محاربة المحتل الفرنسي للزوايا بالغلق والهدم والتضييق ومحاولة التدجين عبثا، بل لعلمها أن استغلال العلماء لهذه الوسيلة في المحافظة على المبادئ الدينية والوطنية مضاد لأهدافها الاستعمارية⁽⁴⁾.

ولئن كان علماء الإصلاح قد استغنوا بالمسجد والمدرسة عن الزاوية في عملية الإصلاح، فإن كثيرا منهم تلقى تكوينه العلمي أوائل مراحل طلبه العلم في إحدى هذه الزوايا العلمية. ولا يمكن حصر عدد الزوايا لكثرتها، فقد شملت الشمال والجنوب والشرق والغرب، لكن

(1) ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، 1/266-269

(2) تقدم في مبحث التعليم حين الكلام عن جهود الزوايا التعليمية ذكر بعض الجوانب الإيجابية والسلبية.

(3) ينظر: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص 249.

(4) عن كيفية محاربة المحتل الفرنسي للزوايا يراجع: تاريخ الجزائر الثقافي، 3/173، ولتفاصيل أكثر عن بعض الزوايا التي هدمها المحتل ينظر: 5/111-138.

يمكن الإشارة لبعض الزوايا التي أدت دورا رائدا للدين الإسلامي واللغة والثقافة العربية والإسلامية⁽¹⁾، رغم الصعوبات والعراقيل، مثل: معمرات زوايا جبال البيان وما جاورها⁽²⁾، ومعمرات وزوايا جبال جرجرة وحوض الصومام⁽³⁾.

الفرع الثاني: الكتابة والتأليف:

إن الحديث عن حركة الكتابة والتأليف في هذه الفترة ليس المقصود منه هو رصد الواقع الثقافي للأمة الجزائرية رغم أنها فترة تاريخية صعبة أثرت فيها الظروف المادية والاجتماعية والسياسية، وإنما المقصود بيان كيف كانت الكتابة والتأليف وسيلة من وسائل علماء الجزائر في الدعوة والإصلاح، رغم الظروف القاسية التي خضع لها الشعب الجزائري لاحتلال مستبد غصب أرضه وماله، ونهب خزائن المخطوطات، ودمّر المكتبات، وحاصر العلماء ثقافيا، وفرض الرقابة على العلماء القادمين إلى الجزائر، وضيق على علماء الداخل ليهاجروا إلى خارج الجزائر، إلى غير ذلك من سياسة التعسف والتضييق.

ومعلوم أن وسيلة العلماء في الكتابة والتأليف في هذا البحث داخلية في العلوم النقلية التي تشمل العلوم الدينية والأدبية، دون العلوم العقلية كالطب والرياضيات. ومعلوم أيضا أن التأليف يبقى أثره بعد موت صاحبه أكثر من الدرس المباشر، كما أن انتشار معلومة الكتاب أوسع من معلومة الدرس، وفي كل خير، لكن أنى لهمة الكاتب أن يكتب وللكاتب أن يطبع في تلك الظروف، لولا توفيق الله ثم الحرص وبذل الجهد.

إن التأليف فترة الاحتلال الفرنسي في العلوم الدينية تميز بالتراجع مقارنة بالعهد العثماني خاصة في تفسير القرآن وشروح الحديث مع أن كثيرا من المساجد والمدارس والزوايا كانت تقوم

(1) وقد تقدم ذكر بعضها وبعض رجالها البارزين في مبحث جهود العلماء في إحياء التعليم. وللتوسع ينظر التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص 245-248، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ص 46-51.

(2) ينظر معمرات وزوايا هذه المنطقة بالتفصيل إضافة إلى المدارس: أعلام الفكر والثقافة، ص 39-41

(3) ينظر معمرات وزوايا هذه المنطقة بالتفصيل: المرجع نفسه، ص 319.

تنبيه: دروس التفسير وشروح الحديث وتدرّس العلوم كان مشتركا بين المسجد والمدرسة والزوايا.

بهذا الدور لكنها كانت وسيلة شفوية لا كتابية⁽¹⁾.

وإذا كان إحصاء الكتابات في هذه الفترة عسيرا ، فضلا أن كثيرا منها مفقود، فلا بأس بذكر نماذج لأغلب الأقسام من هذه العلوم⁽²⁾.

ولعل أول ما نستعرضه هو كتاب "المرآة" لحمدان خوجة، الذي وصف حالة الجزائريين، وحالة البؤس والظلم الذي نالهم جراء دخول المحتل الفرنسي، ورفع بذلك صوتهم عاليا، وفضح به الحكومة الفرنسية نفسها، وأسمع به العالم العربي والغربي؛ فكانت وسيلة فعالة وهذا في أوائل فترة الاحتلال.

وإذا كان البدء بكتب التفسير وشروح الحديث هو الغالب، فذلك لأهميته وشموله أبواب الدين كله فقها وسلوكا ومنهجيا وعقيدة، وغير ذلك من أنواع المعارف؛ وحسب بعض كتب التاريخ⁽³⁾ فإن التفسير بقي مقتصرًا على الدرس الشفوي إلى غاية 1880 أين ألف الشيخ محمد بن يوسف أطفيش تفسيرًا كاملاً للقرآن شفويا وكتابيا، والذي طبع بعنوان: "التيسير في التفسير"، وله تفسيران آخران: الأول غير كامل بعنوان: "داعي الأمل ليوم العمل"، والثاني كامل بعنوان: "هميان الزاد ليوم المعاد".

وقد كانت هذه الكتب تحديا كبيرا للمخطط الاستعماري نحو الثقافة الإسلامية، ولم يظهر بعده تأليف في التفسير إلا ما كان يلقيه الشيخ ابن باديس في دروسه وينشره تباعا في مجلته "الشهاب" تحت عنوان: "محال التذكير من كلام الحكيم الخبير وحديث البشير النذير" إلى أن ختمه سنة 1939، وُجِّع وطُبِع بعد الاستقلال، ولا تكمن قيمته في حجمه وسعته بل في مضمونه وطريقته، حيث ربط بين القرآن والحياة المعاصرة، حيث اعتُبر مصدرا أساسيا

(1) يقول أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثقافي: «إذا رجعت إلى فصول التعليم والثقافة ستكتشف أن ما خططه الفرنسيون منذ الاحتلال كان يرمي إلى قتل هذه الدراسات العربية والإسلامية وما ينجر عنها من تأليف وإنتاج وبحث. وقد تحقق هدفهم في ذلك إلى حد بعيد بالنسبة للتأليف في علوم التفسير والحديث والفقه والعلوم الدينية عموما... وقد لاحظنا أن التأليف في العلوم القرآنية كان ضعيفا حتى في العهد العثماني 7/7. وهذا يشمل حتى علماء الإصلاح الذين أثار عليهم ظرف الاحتلال وشغلهم تكوين الجيل والتلاميذ ومحاربة خصوم الإصلاح والتمهيد للنهضة الوطنية.

(2) وقد ذكر أغلب هذه الكتب أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي في الفصل الأول والثاني من الجزء السابع.

(3) ينظر مثلا: المرجع نفسه، 15/7.

للفكر الإصلاحى الحديث.

ومن الكتابات التى جمعت بين التفسير والدراسة القرآنية كتاب: "الظاهرة القرآنية" للأستاذ مالك بن نبي، الذى صدر بالفرنسية عام 1946، وترجم للعربية، وقد ذكر مقدم كتاب "شروط النهضة"⁽¹⁾ أن كتاب "الظاهرة القرآنية" جاء بطريقة جديدة طبقها المؤلف على تفسير القرآن الكريم.

ومن شروح السنة شرح صحيح البخارى لعلي الوئيسي، وأما الفقه⁽²⁾ فمنه ما يتعلق بالنوازل، ومنه ما يتعلق بشرح متن فقهي⁽³⁾ كشروح خليل، أو مسائل جزئية، أو منظومات فقهية.

وأما التأليف فى مجال العقيدة، فكان المنتشر آنذاك هو عقيدة السنوسى المعروفة بـ "أم البراهين" والتي أشبعت شرحاً وتحشية، وكذلك مقدمة ابن عاشر⁽⁴⁾، ثم ظهرت كتابات أخرى كالقواعد الكلامية للمجاوي وغيرها، وبظهور الحركة الإصلاحية مطلع القرن العشرين، ظهرت كتابات على النهج السلفي؛ وأبرز هذه الكتب التى كان لها أكبر الأثر فى الأوساط الجزائرية هو كتاب: "الشرك ومظاهره" للشيخ مبارك الميلي.

ومن الكتابات المهمة التى كانت الكتابة فيها ضرورة عصرية، هو مجال التاريخ الذى سبق وتقرر أن فرنسا سلكت نحوه سياسة خطيرة لمحو شخصية الجزائريين، وقد ظهرت فى هذا الشأن كتابات لكن أهمها ثلاثة؛ أحيت ضمائر الأمة الجزائرية نحو تاريخها ووطنها، وهي: كتاب "تاريخ الجزائر فى القديم والحديث" للمبارك الميلي، وكتاب الأستاذ أحمد توفيق المدني: "كتاب الجزائر"، ويضاف إليه كتابه: "هذه هي الجزائر"، والثالث كتاب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: "تاريخ الجزائر العام".

وإذا أردنا أن نذكر نماذج لأبرز المؤلفين فترة الاحتلال الفرنسي، فمنهم: حمدان خوجة، والمجاوي، وأطفيش، وتوفيق المدني، والمولود الزريبي.

(1) عبد العزيز الخالدي، ص 7

(2) وقد تقدم ذكر كثير من المؤلفات فى الفقه فيما سبق فى مبحث خدمة الفقه والفتوى.

(3) كان لكتب الشيخ أطفيش الفقهية دور فى تثبيت الفقه الإباضي.

(4) لعل أشهرها كتاب المولود الزريبي، "بدور الأفهام وشموع الأحلام على عقائد ابن عاشر الحبر المهام".

الفرع الثالث: الرحلات والزيارات

قد ينظر البعض إلى هذه الوسيلة على أنها عنصر ثانوي هامشي، فضلا عما يظن أنها رحلات استحمام وإرخاء الزمام، والمتأمل في رحلات علمائنا الجزائريين وزياراتهم في ميدان الدعوة والإصلاح، يقف متعجبا من عظم الجهد الذي بذلوه، مع عظم الأثر الذي تركوه بهذه الرحلات، مع استحضار أن زمنهم غير زمننا؛ الذي انفتحت فيه وتطورت وسائل التواصل والاتصال والتنقل الحديثة.

وإذا كان التعليم من أهم أسس الدعوة والإصلاح، فإن كثيرا منه كان بسبب رحلة عالم استقر، أو عالم مَرَّ زرع فكرة ومضى.

إن الرحلات و "الزيارات الميدانية كانت أشبه بالغيث الذي يحيي الأرض الموات، وكان رجال الإصلاح أشبه بالفلاحين الكادحين يحرثون ويبدرون في كل مكان، وكان الشعب أشبه بالأرض الطيبة التي تحتضن البذرة وترعاها"⁽¹⁾.

إن استقصاء الرحلات التي اعتمدها العلماء في الدعوة والإصلاح في مختلف المجالات أمر متعذر، خاصة وأنها فترة دامت قرنا وثلث قرن، لكن نشير إلى بعض النماذج المميزة في هذا المجال، منها:

رحلات الأستاذ حمدان خوجة الذي عرف بكثرة تنقلاته، وتعدد رحلاته، من أجل القضية الجزائرية؛ حفاظا على مقومات الأمة الجزائرية، ودفاعا عن حقوقها، فكان أول الأمر مكلفا لدى السلطة الفرنسية بالتفاوض مع بعض الأعيان الجزائرية، وهو ما تطلب التنقل بين المدن الجزائرية، ولما تيقن همجية المحتل الفرنسي، غيّر طريقته ووجهته، لكنه بقي مستغلا كل وسيلة متاحة لنشر فكرته، من ذلك رحلاته إلى فرنسا للدفاع عن القضية الجزائرية، ولأجل وطنيته نفاه المحتل الفرنسي إلى اسطنبول⁽²⁾.

وفي الجانب الإباضي برزت شخصية بارزة لعبت دورا كبيرا في النشاط الإصلاحي والعلمي، وكان لرحلاته وزياراته جانب مهم في مساره الدعوي؛ ألا وهو الشيخ محمد بن يوسف أطفيش —باني النهضة العلمية في المنطقة الميزابية— وحول تنقلاته يقول أبو القاسم

(1) عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 219.

(2) ينظر: تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن 19، العربي منور، ص 191.

سعد الله:

«كان الشيخ أطفيش ينكر على الناس البدع التي ليست من الدين في شيء. وقد شدد عليهم في ذلك فهددوه حتى بالقتل وأتهموه بالزندقة... واضطر إلى الخروج من بني يسقن، فأخذ ينتقل في مدن ميزاب الأخرى، واستقر في البداية في بونورة حيث رحب به عزابتها... وبعد غيبة عن بني يسقن دامت سنوات، رجع إليها وتولى بها العزابة... وكان لا ينفك أثناء ذلك عن الكتابة والتدريس. ولكنه ليس ابن بني يسقن وحدها، ولذلك أحس أن عليه واجبا نحو المدن الأخرى في ميزاب فأخذ يزورها الواحدة تلو الأخرى: بريان، القرارة، الخ... وكان في زيارته يتصل بالعزابة ويلقي الدروس العامة على الرجال والنساء في الوعظ والإرشاد، وكان له درس خاص بالنساء.

كما زار غير مدن ميزاب في المناطق القريبة والبعيدة. زار ورقلة وجال خلال آثار سدراته. وكذلك زار بو سعادة وتوقف بزواية الهامل وألقى بها بعض الدروس... وعرج على سطيف والبرج والجلفة، وعنابة، وقصر البخاري. وكان يلقي دروسا في هذه الأماكن. وقد أدى فريضة الحج مرتين... وقد ركب البحر من عنابة إلى تونس، وأقام في هذه المدينة أياما في ضيافة أهل ميزاب... وفي الحجاز التقى ببعض العلماء منهم الشيخ الزيني دحلان، وتعرف على أحوال العالم الإسلامي، وألقى دروسا في المسجد النبوي»⁽¹⁾.

والنموذج الآخر هو أعضاء جمعية العلماء المسلمين، وقد كانت زياراتهم ورحلاتهم مثالا يحتذى به، وتؤخذ منه العبر والفكر، "فقد كانت مسحا ميدانيا لواقع الأمة بكل تفاصيله من جهة ونشرا للفكر الإصلاحية من جهة أخرى"⁽²⁾.

والنظرة الإجمالية لهذه الرحلات أن طبيعتها كان للتعارف والتذكير، ودوافعها كانت رغبة في الوقوف على واقع المجتمع دينيا واجتماعيا وثقافيا حتى يمكن تشخيص الداء ومن ثم وصف الدواء، أما أهدافها فكانت واضحة مختصرة في أهداف الجمعية ممثلة في الإصلاح والتجديد والنهضة⁽³⁾.

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، 267/3. وعلى منوال الشيخ أطفيش سار الشيخ بيوض.

(2) عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 218.

(3) المرجع نفسه، ص 219-220، بتصرف.

وفي هذا يقول الشيخ خير الدين في مذكراته: «من الأساليب التي سلكتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نشر مبادئها الإصلاحية: إرسال وفود من أعضائها تجوب البلاد شرقا وغربا ، تلتقي بمختلف طوائف الشعب، وتزور المساجد والمؤسسات التعليمية والفرق الكشفية وتنشئ الشعب والفروع التي تمثل الجمعية في المدن والقرى وتستجلب إلى دعوتها طوائف الشعب وأفراده من الذين تتوسم فيهم القدرة على العمل من أجل نصرة الدين ورفعة البلاد، إلى جانب ما تقوم به من وعظ وإرشاد، ودعوة إلى الخير، وإصلاح ذات البين وفتوى وغيرها»⁽¹⁾.

فابن باديس وأنصاره "خلال سنة واحدة قاموا بزيارة أكثر من خمسين مدينة، أما المشاركة في التجمعات العامة وإرسال الوفود فيتضح من حركة المؤتمر الإسلامي. فقد شارك فيها العلماء بنشاط كبير"⁽²⁾.

ولما كان لكل عضو من أعضاء الجمعية البارزين مسيرة مع الرحلات، فإن ابن باديس ضرب بحظ وافر في هذا الباب، خاصة وأنه دون بضع رحلات له داخل الوطن وخارجه - وهي أكثر من ذلك-، جاب خلالها معظم مدن الجزائر وكثيرا من قرأها⁽³⁾.

والمطلع على مذكرات ابن باديس يرى أنه كان يهتم بمسائل الدعوة والإصلاح والمساجد دون التفاصيل الأخرى، وكان يركز في رحلاته على إقامة الدروس في المساجد غالبا، انطلاقا من آية أو حديث، كما قال: «وكانت مادة الدرس دائما آية من كتاب الله مشفوعة بحديث رسوله ﷺ»⁽⁴⁾. وكان أكثر ما يزور قبل كل شيء المسجد، "لأن البداءة به هي السنة، و[ليلفت] نظر الأمة إلى حرمة المسجد وفضله"⁽⁵⁾، وهذا لا يعني عدم ذكر انطباعاته مثل كرم الشعب وإقباله على العلم، كما في قوله: «لقد تنازع الناس على ضيافتنا كتراحمهم على دروسنا ومجالسنا، وكان تسارعهم إلى إكرامنا يضاهي تسارعهم إلى مقابلتنا، وقد كان أكثر

(1) 1/ 270.

(2) الحركة الوطنية، سعد الله، 90/3.

(3) ينظر: آثار ابن باديس، 295/4.

(4) الشهاب: رحلتنا إلى العمالة الوهرانية، ربيع الثاني 1351/ أوت 1932، ج8، م8، ص402.

(5) المصدر نفسه، ص402.

البلدان يتلقانا قبل الوصول إليها»⁽¹⁾.

ومن الزيارات الهامة التي حرص ابن باديس على تحقيقها والدعوة إلى حضورها، الاجتماع بالحجيج توديعا واستقبالا، مع استغلال الفرصة لنشر مبادئ الإصلاح والدعوة⁽²⁾.

ومن خلال مطالعتي لبعض الرحلات والزيارات التي قام بها العلماء شذني الوصف العظيم للشيخ خير الدين في مذكراته، وهو يصف زيارة الشيخ ابن باديس لمدينة بسكرة، وهو وصف ينبئ عن مدى أثر هذه الوسيلة وحسن استغلالها -وقراءتها تغني عن التعليق عليها-، حيث قال: «كان يوما عظيما تليت فيه آيات من القرآن وألقيت فيه دروس وخطب، أعاد إلى الأذهان جهاد الفاتح والصحابي الجليل عقبة بن نافع وتحريره للشمال الإفريقي من الحكم الصليبي والاستعمار الروماني الذي دام قرابة ستة قرون. ثم رجع الشيخ وصحبه إلى قسنطينة فرحين مستبشرين بما لقوا من نصر وتأييد، وما تركته هذه الرحلة من صدى في نفوسهم بأن حركة الإصلاح تحققت وازدهرت آثارها البعيدة المدى في مستقبل الشعب وحياته، وعمت الفرحة قلوب المسلمين في سائر الصحراء»⁽³⁾.

المطلب الثاني: الوسائل المعاصرة:

الفرع الأول: الصحافة

كانت وسائل الاتصال والإعلام تعتمد على الأسلوب التقليدي، حتى جاء منتصف القرن 15، والذي ظهرت فيه الطباعة وساهمت بشكل كبير في ظهور أولى وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة، ألا وهي الطباعة المكتوبة، وأول ما انتشرت هذه الأخيرة في الدول الغربية، ثم انتقلت إلى الدول العربية مع دخول الاستعمار الغربي، والذي اجتهد في استغلال هذه الوسيلة لأجل احتلال العقول والأفكار، بعد احتلال الأرض والأملاك، وإذا كان الكلام عن الجزائر، فإن هذا الهجوم كان له ردة فعل من طرف الجزائريين بنفس الوسيلة، وإن اختلفت مآربهم ومشاربهم؛ بإنشاء صحف مختلفة ردا على الاحتلال ومحاربته فكريا، استعدادا لمحاربته

(1) المصدر نفسه، ص406.

(2) ينظر: مذكرات خير الدين، 1/254.

(3) المصدر نفسه، 1/97-98.

عسكرياً⁽¹⁾.

وقد كان للصحافة العربية الوافدة من المشرق العربي دور في تطور الصحافة الجزائرية، وكانت بدايتها الفعلية مطلع القرن العشرين، بعد أن ظلت الصحافة الاستعمارية على الخط فترة طويلة.

وهذا لا يعني أنها وجدت "الطريق ذلولا والمسيرة سهلة، بل إن جهاد الصحافة الوطنية الجزائرية في هذا المضمار طبع تاريخ حياتها، ورسم واقعها بطابع المقاومة المستمرة، لأنها صدمت منذ البداية بعدو استعماري لدود، غير أنها استطاعت أن تقاوم في دأب وصبر، مما جعل تاريخها حافلا بالصراع والمقاومة، زائرا بآيات التصميم والتحدي"⁽²⁾.

فالجو الذي نشأت فيه الصحافة الجزائرية جو غالبت فيه عوامل العلة والوهن، وهي لا تزال في المهده، عرفت فيها الآلام بشتى أنواعها، وقاست المحن بجميع صنوفها، فبعض الصحف كانت تموت أحيانا بفقر الدم، لأن الأمة لم تسعفها بالمدد المادي إبان الحاجة، وبعضها الآخر يموت بفقر الهواء مختنقة لأن الاحتلال حرّمها من حرية التنفس، وهي في أكثر الأحيان تعصف بها العواصف السياسية فتتساقط واحدة تلو الأخرى، تساقط أوراق الخريف⁽³⁾.

ويقول المدني: «ومن عرف أن الجريدة العربية في أرض الجزائر تعتبر كأنها جريدة ألمانية أو شيوعية أو غيرها من الجرائد الأجنبية، يستطيع الوالي العام معتمدا على سلطة وزير الداخلية إغلاقها متى أراد، علم أن الصحافة الجزائرية العربية يجب أن تتلقى أوصاف البطولة لا أوصاف الانتقاد... فإقبال الشعب على الصحف والصحافة أمر لا يحتاج بعد هذا إلى دليل، فلو كانت قوانين 1881 تشمل الصحف العربية كما تشمل الصحف الفرنسية لكان للصحافة الجزائرية شأن وأي شأن»⁽⁴⁾.

ومن تناقض الحكومة الفرنسية، إصدارها لقانون يكفل حرية الصحافة، ويوزع على الجمهور بدون رخصة مسبقة أو كفالة مادية، لكن ذلك يختلف إذا تعلق الأمر بجريدة عربية

(1) مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، تاريخ الصحافة المكتوبة في بلدان شمال إفريقيا، إلياس طلحة، عدد 14، ص170، بتصرف.

(2) الصحف العربية قبل الثورة، محمد ناصر، ص10.

(3) المقالة الصحفية، 41/1، مع تصرف يسير.

(4) كتاب الجزائر، ص372-373.

غير حكومية تدعو لبعض حقوق الأهالي، ولو كان صاحبها فرنسيا، وكان التعامل السريع والسهل هو المصادرة، لأنها تُعتبر صحيفة أجنبية⁽¹⁾.

وإذا كانت المدارس والمساجد من أهم الوسائل الدعوية، فإن الصحافة لم تكن أقل شأنا من سابقها، لما لها من مزايا وفضائل لا تتحقق في المدرسة والمسجد، وهي كما قيل في وصفها: "الجرائد مدارس متجولة ليست محصورة بين جدران، ولا يختص بها مكان دون مكان، وهي أوسع دائرة الإرشاد من كل دوائر التعليم، تھذب العامة، وترتب أفكار الخاصة، وتنهض الھمم القاعدة، وتصلح الألسن الفاسدة، وتقرب الأمم المتباعدة، وهي سجل الأخبار ووعاء التاريخ وتقويم الزمن"⁽²⁾.

بل اعتبرها الشيخ العقبي من ضرورات العصر يقول: «ونظري الخاص في الجرائد أنها من الضروريات في هذا الوقت وهي من الأمور التي أدعو إليها دائما، وأرغب الناس في قراءتها، وأرجو من الله على ذلك أجرا وثوبا»⁽³⁾.

وأما أبو اليقظان فيقول: «بناء على ذلك نقول إن الجرائد في هذا العصر من الفروض الكفائية لأن للوسائل حكم المقاصد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»⁽⁴⁾.
لذا كان اهتمام العلماء بالصحافة كبيرا، وعدم الدخول إليها مبكرا لم يكن عن غفلة، ولكن كان عن عجز عن إنشائها.

وقد توالى الصحف في الصدور بكثرة مع تأثير التوجه السياسي العام للإدارة الفرنسية في الجزائر، زيادة ونقصا، والمقصود هنا هو استعراض الصحافة وتطورها واستغلالها كوسيلة للدعوة والإصلاح، وليس القصد استعراض ذات تاريخ الصحافة الجزائرية، ويمكن تقسيم الصحافة المكتوبة فترة الاحتلال إلى: صحافة استعمارية، وصحافة أحباب الأهالي، وصحافة أهلية، وصحافة إصلاحية، وصحافة محافظة، وصحافة وطنية، وصحافة ثورية⁽⁵⁾.

(1) ينظر: الصحف العربية قبل الثورة، محمد ناصر، ص 12-14.

(2) جريدة الأمة، ع 106، الصحافة الأهلية في القطر الجزائري، أبو اليقظان، 19 جانفي 1937، ص 3، نقلا عن جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، ص 139.

(3) جريدة الإصلاح: ماذا ينتقدون عليّ، ع 7، 7 نوفمبر 1929، ص 1.

(4) وادي ميزاب: الصحافة والدين، ج 4، ع 6، الجمعة 28 ربيع 2 / 1345 / 5 نوفمبر 1926، ص 1.

(5) ينظر هذا التقسيم: الصحافة الجزائرية المكتوبة أثناء الاستعمار الفرنسي، عمار بوزير، ص 9.

وإذا كان قسم الصحافة الإصلاحية أول ما يدخل في وسائل الإصلاح، لأنه الأساس الذي أنشأت من أجله، فإنه لا يمنع كون باقي الأقسام وسائل كذلك للعلماء، ذلك أن الصحافة الاستعمارية⁽¹⁾، وصحافة أحباب الأهالي⁽²⁾ قد شارك فيها بعض العلماء؛ أول ما فُتح باب الصحافة أمام الجزائريين، وأدلو بدلوهم في المجال الديني والإصلاحي والوطني، كما هو الحال بالنسبة للشيخ عبد القادر المجاوي، وعبد الحليم بن سماية، وابن زكري، وغيرهم من المثقفين الذين عرفوا بالاتجاه الإصلاحي⁽³⁾. فقد شاركوا مثلاً في جريدة "المبشر" (1847)، وجريدة "الأخبار" (1902)، وجريدة "كوكب إفريقيا" (1907).

وكذلك الحال بالنسبة للمشاركة في الصحافة الأهلية⁽⁴⁾، مثل جريدة "الحق" (1894). أما الصحافة المحافظة فهي خاصة بالطرق الصوفية المناهضة للطريقة الإصلاحية، ومع ذلك كانت وسيلة لنشر بعض الجوانب الأخلاقية والدينية والوطنية، ومن هذه الصحف: لسان الدين (1923)، البلاغ الجزائري⁽⁵⁾ (1926)، الرشاد (1938).

(1) والمقصود بها الصحافة التي تشرف عليها الحكومة الفرنسية بواسطة ممثلها في الجزائر، وقد يكون مباشراً مثل جريدة "المبشر"، وقد يكون غير مباشر مثل جريدة "كوكب إفريقيا". الصحافة المكتوبة في الجزائر: زهير إحدادن، ص 27.

(2) ويقصد بها صحافة جماعة من الفرنسيين الذين استاءوا من السياسة الاستعمارية، وأرادوا أن يقدموا يد المعونة إلى نخبة معينة من المسلمين الجزائريين، حتى لا يأسوا من الوجود الفرنسي في الجزائر، مثل جريدة "المنتخب". المرجع نفسه، ص 29.

(3) علماً أن بعض الجرائد الجزائرية عُرفت بتبعيتها وإخلاصها للإدارة الفرنسية، أمثال جريدة "كوكب إفريقيا" التي كان يرأسها الشيخ كحول.

(4) وهي الصحافة التي قام عليها جزائريون من أصحاب النخبة، وضمنت صحفها القضايا الإسلامية، وشؤونهم العامة في علاقتهم مع الوجود الاستعماري، مع إيمان بعضهم بالوجود المطلق الفرنسي. ينظر: المرجع نفسه، ص 32.

(5) وصفها أبو القاسم بقوله: «البلاغ لم تكن فقط جريدة طريقة، بل كانت أيضاً جريدة إخبارية عامة تناولت مختلف القضايا الجزائرية، وقد وقفت ضد التنصير ودافعت عن اللغة العربية، واهتمت بالحياة العامة، بما فيها السياسة. ويقول الشيخ المدني إن (لها برنامج ديني إسلامي وطني)، ولكنها دافعت أيضاً عن التصوف والطريقة». تاريخ الجزائر الثقافي، 5/260.

كما انتقد الشيخ أحمد حماني في كتابه: "صراع بين السنة والبدعة" جريدة البلاغ، وخصص لها مبحثاً خاصاً، ومما قاله عنها: "قال عنها أصحابها أنها جريدة علمية، إرشادية، دفاعية... قرأناها ففهمنا معنى علمية إرشادية، ولم نستطع فهم معنى دفاعية لأول مرة لذهاب الذهن في ذلك مذاهب شتى، غير أننا بعد مطالعتنا للعدد الثاني منها أدركنا الغرض الذي من أجله أسست هذه الجريدة وفهمنا جيداً معنى دفاعية". 1/112.

أما الصحافة الوطنية⁽¹⁾ فقد كان اتجاهها سياسيا أكثر منه دينيا، مثل جريدة "الإقدام" (1919)، وجريدة "الأمة" (1930).

وأما الصحافة الثورية فهي التي واكبت الثورة، لكنها خارج نطاق الدراسة. ويلاحظ تطور الصحافة الجزائرية بشكل عام بعد الحرب العالمية الأولى، وبظهور الأحزاب والجمعيات تبلورت المواقف، وأصبح لكل حزب أو جمعية أو تيار جرائده⁽²⁾؛ حيث صدر عدد كبير من الصحف بلغ أكثر من 30 جريدة عربية في مختلف الاتجاهات والنزعات، وكان الغالب عليها الجانب الإصلاحي والوطني⁽³⁾.

وعودًا على الصحافة الإصلاحية⁽⁴⁾ - التي تمهنا في محل الدراسة - فهي المرتع الذي وجد فيه العلماء بغيتهم، حيث نثروا كنانتهم، وأصابوا فيها كثيرا من أهدافهم، رغم العنت والضيق الذي لحقهم.

ومن أولى الجرائد في طلائع الصحافة العربية الإصلاحية: "ذو الفقار" و"الجزائر" لعمر راسم، و"الفاروق" لعمر بن قدور، وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت بشكل جدي وواقعي جرائد ابن باديس وزملائه في الجمعية؛ قبل وبعد تأسيسها⁽⁵⁾؛ في وقت كانت الأمة محتاجة أشد الحاجة إلى رجال الإصلاح بحجم رجال الجمعية، وفي وقت كانت الوسيلة المفضلة التي تجمعهم مع الجماهير العريضة هي الصحافة.

ففي سنة 1925 شهدت الصحافة الإصلاحية انبعاثا جديدا تحت زعامة الشيخ ابن باديس، حيث توحدت الأهواء المشتتة، وتضافرت الجهود المبعثرة، وكان افتتاح العدد الأول من جريدة "المنتقد" بقوله: «باسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين

(1) وهي الصحافة التي لم تعترف بالوجود الاستعماري، وحارته وركزت على الوعي السياسي. الصحافة المكتوبة في الجزائر، المرجع السابق، ص 40.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 5/250.

(3) ينظر الصحف العربية قبل الثورة، ص 18.

(4) ولا تكاد توجد جريدة من هذا النوع لا تسمي نفسها في صفحتها الأولى: جريدة دينية أو إسلامية أو إصلاحية، وهذا لا يعني خلوها من مجالات أخرى سياسية أو علمية أو إخبارية تُذكر تبعا.

(5) والدراسات في هذا الباب فيما يخص صحف ابن باديس والجمعية كثيرة ومتنوعة، ومع ذلك لا تزال بعض الجوانب تحتاج إلى تحليلية وبحث ودراسة.

بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون»، وقد كانت جريدة أسبوعية متحررة وداعية للنهضة والوطنية بأسلوب واضح وحماس، ولكن الإدارة لم ترض عن لهجتها فأوقفتها بعد حوالي ثمانية عشر عددا. ثم أصدر ابن باديس بعدها جريدة (الشهاب)، ثم تحولت إلى مجلة، إلى أن توقفت من تلقاء نفسها قبل الحرب، حتى لا تضطر إلى نشر ما لا ترضى عنه تحت قوانين الحرب. وتعتبر الشهاب مجلة وطنية إصلاحية، أيقظت الرقود ونهت الغافلين ودعت إلى جمع الشمل والوحدة، كما دافعت عن الإسلام واللغة العربية، والعدالة والحرية، وشاركت برأيها في قضايا المغرب العربي والمشرق، وكانت تعبر عن رأي ابن باديس شخصيا، وكانت الصحيفة الأولى التي اهتمت بالتعبير عن جمعية العلماء والتعريف والتثويه بها وبنشاطها. ومنذ 1933 قررت جمعية العلماء خوض ميدان الصحافة، فأنشأت ثلاث صحف تعبر عن اتجاه الجمعية في التعليم العربي والنهضة الإسلامية ومحاربة البدع والطرقية المرتبطة بالإدارة الفرنسية. وهي (الشرعية) و (الصراط) و (السنة) على الترتيب، وكلها صدر قرار بتوقيفها من الإدارة الفرنسية تباعا، ثم خلفتها (البصائر)؛ وهي من أهم وأكبر الصحف العربية في الجزائر شهرة وانتشارا لما تركته من أثر عميق على الساحة الوطنية والدينية والتوعوية، وبلغت ما لم تبلغه أية جريدة عربية في الجزائر⁽¹⁾؛ حيث ظهرت على فترتين؛ الأولى مدة خمس سنوات، تحت إدارة الشيخ العقبي ثم الشيخ المبارك الميلي -ممن عرفوا بالخبرة في الميدان الصحفي-، لتتوقف تلقائيا كحال الشهاب سنة 1939. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أحييت الجمعية جريدتها البصائر في سلسلة ثانية، بإشراف وإدارة الشيخ البشير الإبراهيمي، حيث استمرت قرابة عشر سنوات (1947-1956)، لتتوقف بعد أن طلبت جبهة التحرير من جميع المنظمات والأحزاب التوقف والانضمام إليها. ومن الأوفياء للشيخ ابن باديس وحركته الشيخ بوكوشة، الذي أنشأ جريدة (المغرب العربي) سنة 1937.

وتعتبر صحف: الليالي وأبو العجائب والوفاق والجزائر والمغرب العربي والدفاع والحارس من

(1) ينظر: الصحف العربية قبل الثورة، ص 212/ ويقول عنها محمد ناصر في موضع آخر: "والواقع أن من حق هذه الجريدة الرائدة دراسة تحليلية مستفيضة، لأنها تعد من أهم المصادر المؤرخة للفكر الجزائري الوطني الإسلامي في مرحلة ما قبل الثورة". ص 268. والدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالبصائر في السنوات الأخيرة عدد لا بأس به.

الجرائد المساندة للاتجاه الوطني الإصلاحى.

ومن صحف الاتجاه الإصلاحى أيضا، جريدة (لاديفانس) (الدفاع) الناطقة بالفرنسية. أسسها محمد الأمين العمودي سنة 1935، لتنافح عن الحركة الإصلاحية وتعرف بها الأوساط المثقفة بالفرنسية. وقد استمرت إلى سنة 1939⁽¹⁾.

وإذا كان الكلام عن وسيلة الصحافة فإنه من المناسب الإشارة إلى أبرز أعيان الصحافة العربية في هذه الفترة؛ فيذهب أبو القاسم إلى أن أعيان الصحافة كثر أمثال ابن باديس، لكن أعيان الصحافة العربية الإسلامية في الجزائر الذين ناضلوا في الميدان الصحفى بوسائلهم إلى أن حفرُوا اسمهم على تمثال الخلود ثلاثة؛ وهم عمر بن قدور وعمر راسم وأبو اليقظان⁽²⁾.

فقد كان عمر راسم، هو الذي يحرر جريدته (الجزائر) ويطبّعها على الحجر ويصورها بالرسومات الساخرة بنفسه. واعتبرها الشيخ المدني من أول الجرائد الشعبية أو الحرة، إذ ظهرت في العاصمة سنة 1908، ولكنها لم تعيش طويلا، لعجز صاحبها عن تغطية التكاليف. وفي سنة 1913 أصدر جريدة (ذو الفقار). وصدر منها ثلاثة أعداد فقط. وكان عمر راسم يقظ الذهن مطلعا على أحوال العالم، وأدرك هو وزميله عمر بن قدور ما يحاك لفلسطين والقدس والمخططات الصهيونية في الوطن العربي. وقد نبها إلى ذلك مبكرا⁽³⁾.

أما ابن قدور فأنشأ جريدة (الفاروق) باسمه أوائل سنة 1913 واستمرت إلى 1915. وهي تعتبر من الصحف الوطنية الناجحة والمناضلة، لأن صاحبها قد تمرس على فن الصحافة ولأن روحه كانت متقدة، وكان مؤمنا بالقضية العربية الإسلامية بحماس أورثه غضب الإدارة عليه. ثم أصدر جريدة (الصدى) مع محمد بن بكير سنة 1920⁽⁴⁾.

أما الشيخ أبو اليقظان فأنشأ مجموعة من الصحف المتتالية بين 1926 و 1938. وكان من زعماء المدرسة الإصلاحية ومن كبار الصحفيين الذين ههوا الصحافة ومارسوها، وعانوا في سبيلها أشد المعاناة ماليا وإداريا. وكان من المدافعين الأقوياء عن القضايا العربية والإسلامية والوطنية، وكان عضوا في جمعية العلماء عندما تأسست. وقد تبنى أيضا الدفاع عن الوحدة

(1) ينظر تاريخ الجزائر الثقافى، 253/5 - 259، مذكرات خير الدين، 296/1 - 299.

(2) تاريخ الجزائر الثقافى، 276/5.

(3) المرجع نفسه، 247/5.

(4) المرجع نفسه، 245/5 - 246.

الوطنية والتصالح المذهبي، وهو من أتباع المذهب الإباضي، وكان ينشر عن الحركات الوطنية والعربية في تونس ومصر وسورية وفلسطين وغيرها، ومعجبا بالأبطال الإسلاميين أمثال سليمان الباروني وشكيب أرسلان.

ولذلك فإن صحافته كانت صدى لكل هذه الأحداث. بدءاً بجريدة "وادي ميزاب" التي صدرت في العاصمة في أكتوبر 1926. وعطلتها الإدارة الفرنسية بعد أربعة أشهر، وبعد ذلك أصدر جريدة "ميزاب" سنة 1930، ثم توالى تعطيل صحفه المتتالية، مع استماتة في المبادئ، وتضحية في سبيل الوطن والصحافة.

وأسماء هذه الصحف على التوالي بعد ميزاب: المغرب 1930، صدر منها 38 عدداً، والنور 1931، صدر منها 78 عدداً، والبستان 1933 صدر منها عشرة أعداد، والنيراس 1933، صدر منها ستة أعداد فقط؛ والأمة 1933، صدر منها 170 عدداً؛ والفرقان 1938، صدر منها ستة أعداد فقط. كما أنشأ لصحفه مطبعة في العاصمة.

وعن أبي اليقظان يقول أبو القاسم سعد الله: «ولا ندري من كافح مثله من أجل رسوخ الصحافة في ذلك العهد، وكدنا نقارنه بعمر بن قدور وعمر راسم، ولكن خصوبة فكر أبي اليقظان وقدرته على التطور مع الأحداث جعلتنا نعدل عن هذه المقارنة»⁽¹⁾.

وفي الجانب الآخر نجد أن بعض المناطق لعبت دوراً ريادياً في الصحافة، مثل منطقة بسكرة؛ ومن أشهر صحفها: "صدى الصحراء" لمحمد العقبي (1925)، جريدة "الحق" لعلي العقبي (1926)، "الإصلاح" للطيب العقبي (1927-1948)⁽²⁾.

كما يلاحظ أن كثيراً من رواد الصحافة الجزائرية ينتمون إلى هذه المنطقة المعطاءة، ومن

(1) المرجع نفسه، 263/5 - 265/ ومن الدراسات الأكاديمية التي اهتمت ببعض التفاصيل عن هذه الصحف: الصحافة العربية بين التيار الإصلاحي والتقليدي، ص 42 - 51.

(2) وهذه الجريدة "كانت بحق إحدى جرائد الانبعاث الفكري والنهضة الإصلاحية والثورة القلمية، فأضحت تحتطف من الأكشاك ويتنافس القراء للاشتراك فيها". تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة من 1900 - 1956، فوزي مصمودي، ص 53.

وقال عنها الإبراهيمي عام 1935: "ثم أسست جريدة الإصلاح ببسكرة فكان اسمها أخف وقعاً، وإن كانت مقالاتها أشد مرمى وأشد لدغاً". آثار الإبراهيمي، 1/184.

هؤلاء: عبد الحفيظ الهاشمي صاحب جريدة النجاح⁽¹⁾، المولود الزريبي محرر جريدة الصديق (1920)، محمد السعيد الزاهري مؤسس جريدة الجزائر (1925)، محمد عباسية مؤسس جريدة المرصاد (1931)، محمد العابد الجيلالي مؤسس جريدة أبو العجائب (1934)، ويلحق بهم الأمين العمودي صاحب جريدة الدفاع بالفرنسية (1934)، إلى غير ذلك من الأعلام البارزين الذين أنجبتهم هذه المنطقة⁽²⁾.

وخلاصة لما تقدم فإن هذا الكم الهائل من الصحف والمجلات ذات الطابع الديني والإصلاحي، قد أدت دورا أساسيا وفعّالا ورائدا، شمل جميع شرائح الجزائريين، وتعدى ربوع الجزائر. وقد كان أثرها ضد الأهداف الاستعمارية والمحافظة على الهوية الدينية والوطنية، أنكى من ضربة السيف في أرض المعركة؛ فقد اتخذ العلماء هذه الوسيلة متحدّين جميع الصعوبات والعقبات، وبتوفيق الله أصبح علماء الإصلاح قادة الرأي العام الجزائري، إلى جانب جهودهم الموازية في التربية والتعليم، فضلا عن تطوير الحركة الأدبية والعلمية في الجزائر.

ولئن تعجب المرء من سطوة سلطة الاحتلال الفرنسي تجاه الصحافة الجزائرية، فالأعجب منه هو إصرار علماء الصحافة الجزائريين الذين اتسم موقفهم بالمقاومة المستمرة، والتحدي الصامد.

فقد أثبت التاريخ الجزائري أن ميدان الصحافة من أهم التجارب العلمية وأنجع الوسائل الفكرية والقلمية؛ ف" لا يستطيع أحد أن ينكر الدور العظيم الذي لعبته الصحف العربية الوطنية في بلورة الاتجاه الإصلاحي، وتكوين الرأي العام الوطني ومحاربة سياسة الفرنسية والتنصير والإدماج، وإنقاذ الجزائريين من براثن الطرقية، ومحاربة البدع والمعتقدات البالية، والتعريف بالإسلام الصحيح في بساطته ويسره، وإحياء اللغة العربية، ونشر الثقافة الإسلامية الأصيلة، ودفع الحركة الوطنية قدما إلى الأمام"⁽³⁾.

" ويكفيها فخارا أن تكون لها اليد الطولى في تحرير الوطن الجزائري يوم كان التحرير فكرة

(1) تعد أطول جريدة عربية جزائرية (1919-1956)، وقد كان اتجاهها إصلاحيا لتتحول بعد ذلك وتحسب على الجانب الحكومي الفرنسي.

(2) ينظر: تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة من 1900-1956، ص74 وما بعدها. وقد ذكر أعلاما آخرين.

(3) مجلة الموافقات: من معالم التغيير الحضاري عند ابن باديس، محمد رزمان، ص457.

متحمسة في رؤوس الوطنيين، وأمنية عزيزة في أعين المحرومين"⁽¹⁾.

الفرع الثاني: النوادي والجمعيات

تعرف النوادي والجمعيات بأنها "مراكز وهيئات تأطير وتعليم وتربية وملتقيات فكرية واجتماعية ورياضية، ونشاط سياسي أحيانا. بدأ ظهورها منذ أواخر القرن التاسع عشر، وازدهرت في مطلع القرن العشرين. وقد مثلت النوادي والجمعيات منبعا روحيا وفكريا، وخط دفاع ضد سياسة التجهيل الفرنسية، وساهمت في تربية الشعب وتأطير الشباب"⁽²⁾.

وهي ظاهرة اجتماعية تدل على النضج والاستجابة لمتطلبات الحياة المدنية الحديثة، وقد كان السبق فيها للمبادرات الفرنسية، ثم تلتها المبادرات الجزائرية، خاصة بعد قانون يوليو 1901، والتي لم تخل من مضايقات فرنسية، لأنهم رعايا لا يمكنهم إنشاد الحرية أو الحقوق المدنية والسياسة كاملة⁽³⁾.

وقد كانت الجمعيات الدينية تحت إشراف السلطة الفرنسية مباشرة، ولما صدر قانون 9 ديسمبر 1905 مهّد لاستقلال هذه الجمعيات في الإشراف على المساجد وأمور الدين، وعن هذه الجمعيات الدينية يقول أحمد توفيق المدني: «وأغلب الجمعيات الدينية في القطر لا تستحق اسم الجمعيات إلا مع التسامح الكبير فهي في الحقيقة هيئات تابعة للإدارة، لا تعمل إلا باسمها ولا تتكلم إلا برضاها، ولا تسعى إلا بإشارتها»⁽⁴⁾.

وإذا كانت طبيعة الوسائل أنه تستخدم في الخير والشر، فقد تستخدم لمصالح استعمارية، وقد تستخدم لمصالح دينية ووطنية، وهذا الأخير كان شأن العلماء في اتخاذ هذه الوسيلة؛ وكان أول ما ظهرت النوادي عاجلت فيها المواضيع المتعلقة بميدان التعليم والتوعية وتنشيط الشباب وحمايته من الانحراف وحثه على العمل، وعاجلت فيه قضايا الفكر المعاصر من تراث وطب واختراعات وأدب وتاريخ، وقد شارك في هذا الجانب بقسط وافر الاتجاه الإندماجي.

ومع توسع نشاط الحركة الإصلاحية وظهور الأحزاب السياسية وجمعية النواب؛ ظهرت

(1) المقالة الصحفية الجزائرية، 41/1.

(2) تاريخ الجزائر المعاصر، بشير بلاح، ص 332.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، 5/ 313.

(4) كتاب الجزائر، ص 374.

عدة جمعيات ونواد في القطر الجزائري، وقد أدرك علماء الإصلاح أهمية النوادي فسارعوا إلى استغلالها، وفي هذا يقول الإبراهيمي: «إن جمعية العلماء ترى أن النوادي الإسلامية التي تؤسسها أو تشرف عليها هي وسط بين المدرسة وبين الجامع، لأن هناك طائفة عظيمة من شباب الأمة لا تجد الجمعية وسيلة لتبليغهم دعوة الدين والعلم إلا في تلك النوادي»⁽¹⁾.

فقد ساعدت النوادي الشباب خاصة على تكوين علاقات جديدة بينهم، وساعدت على نشر الوعي والثقافة وتبادل الآراء، ومناقشة القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية، فضلا عن المحاضرات والدروس وما يعقد فيها من ندوات واجتماعات ومؤتمرات، "وقد كان المصدر المادي الذي تعتمد عليه النوادي في أداء رسالتها الثقافية والتربوية وتوعية الجيل الجديد على الاشتراكات التي يدفعها أعضاؤها من ناحية أرباح بيع المشروبات لروادها من ناحية أخرى"⁽²⁾. ويرى الأستاذ علي مراد أنّ الدور المنوط بالنوادي الثقافية الإصلاحية مباين لدور المدارس العربية من نفس النزعة، فهدفها لم يقيم تحديدا على إعطاء الشبان تكوينا إسلاميا، بل تزويدهم بإطار اجتماعي يجدون فيه جوا ثقافيا وأخلاقيا مفعما بالإسلام والعروبة. وأصبح تردد الشباب وحتى الكهول على النوادي الإصلاحية دون الخشية من الخضوع إلى فرائض العبادات. وكان أمل الإصلاحيين من وراء النوادي هو أن يعي الشباب شخصيتهم الجزائرية، والتطلع إلى التبع بالثقافة العربية والإسلامية⁽³⁾.

فالنوادي كانت منبرا يوجه منه المصلحون سهامهم ضد تعنت الإدارة الاستعمارية وضد الفساد الأخلاقي والديني، وفضاء لإحياء اللغة العربية، فقد كانت منابر لإلقاء الشعر والخطب، و"كانت معظم الجمعيات إن لم نقل كلها مؤسسات للتضامن والصدقة، وكانت تنظم محاضرات للتحسيس بمضار الخمر والقمار ومحاربة الخرافات والتعصب"⁽⁴⁾.

ونظرا لتزايد الجمعيات والنوادي وتطور نشاطاتها⁽⁵⁾ وتغلغل الأفكار الوطنية والدينية بين

(1) البصائر: استهلال، عدد1، 25 جويلية 1947، ص3.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، ص 163-164.

(3) الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، ص 378.

(4) الجزائريون المسلمون وفرنسا، شارل أجرون، 711/2.

(5) فمثلا نجد جمعية العلماء وحدها قد أسست وأشرفت على العديد من الجمعيات والهيئات منها: الجمعيات الدينية لبناء المساجد- الجمعيات الرياضية- الجمعيات الثقافية- الجمعيات الفنية- الكشف الإسلامية- مكاتب الجمعية

الجزائريين؛ لم يرق ذلك للمحتل الفرنسي فأخذ يقاومها بشتى الإجراءات والقوانين التعسفية شأنها شأن كل ما يخدم الهوية الجزائرية، مثل المساجد والمدارس والصحافة وغيرها.

وقد ذكر الأستاذ الفضيل الورثاني شيئا من هذه المضايقات فقال: «ولما ظهرت جمعية العلماء إلى الوجود، ورأت أن أكثر طبقات الأمة وأهمها من الشباب، لا تستطيع أن تلقاهم في المساجد، حتى لو كانت حرة مباحة، فشرعت في فتح الأندية، بكل مدينة وبكل قرية مستجيبة للدعوة، يجتمع فيها الشباب وغير الشباب، يسمعون العلم، ويذكرون بالحياة وبالحرية. فلم يمض إلا قليل من الزمن، حتى أصبحت هذه الأندية تعد بالعشرات ثم بالمئات، فشعرت الحكومة بخطر جديد اسمه (الأندية) فأخذت تحاربها بكل الوسائل، حتى الحقيق منها، فسنت لها قوانين خاصة تستهدف إما منعها بتاتا، أو تعجيزها عن أداء رسالتها كاملة على الأقل، مثال ذلك: تحريمها لبيع جميع المشروبات فيها، حتى القهوة والشاي، لأنها هي موردها الأساسي الذي تحيا عليه. واشترطت هذه القوانين أن يكون النادي مستكملا لشروط صحة وغير صحة، قد لا تتوفر في قصر الحاكم العام الفرنسي. والغرض من ذلك مفهوم، هو التعجيز، ومع ذلك كله استمرت الأندية في أداء رسالتها، ضمن معركة شديدة دائمة، حتى غزت حركتها فرنسا وباريس نفسها»⁽¹⁾.

"ومن أبرز الجمعيات غير الفنية والنوادي بالعاصمة، جمعية الشبيبة الإسلامية ونادي الترقى. وجمعية التربية والتعليم في قسنطينة ونادي السعادة في تلمسان وفي قسنطينة أيضا (تأسس سنة 1926)، ونادي الاتحاد الأدبي الإسلامي في مستغانم. وقد شهدت مدينة

التنفيذية - الجمعيات الخيرية كإيتام - جمعيات المدارس - جمعيات تعليم الحرف، وكثير من النوادي. ينظر: موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الحضارة الغربية، ص 219 - 220.

(1) الجزائر الثائرة، ص 144.

كما ردت البصائر على هذا القرار لوزير الداخلية الصادر في 20 يناير 1938، والذي يمنع تقديم المشروبات لأعضاء النادي إلا بإذن الوالي، بأن المقصود من ورائه هو العلق أو تقليص من يغشاها على الأقل، حيث اعتبرت هذا القرار اعتداء على مقدسات الأمة العربية المسلمة في إسلامها ولغتها ومقاومة عنيدة للنهضة بكافة الوسائل وفي جميع النواحي. البصائر: آخر سهم مسدد للقضاء على النهضة الجزائرية، ع 108، 14 صفر 1357/ 15 أفريل 1938، ص 3.

قسنطينة وحدها ميلاد حوالي 26 جمعية مدنية قبل الحرب العالمية الثانية. وقل مثل ذلك في غيرها من أنحاء القطر.

وكان نادي الترقى قد نظم بين 1927 - 1929 حوالي ثلاثين محاضرة بالعربية وعشرة بالفرنسية. وبلغ أعضاؤه 270 عضوا... وكان بعض هذه الجمعيات قد أسس لدفع حركة التعريب... وهناك من أسس الجمعيات لأغراض اجتماعية في إطار ما تسمح به القوانين الفرنسية ومماشاة للتيار التجديدي أو العصري، بينما تأسست جمعيات ونواد تابعة لجمعية العلماء لخدمة الاتجاه الإصلاحى على العموم. وقد تنافست في ذلك الأحزاب أيضا بعد أن سمحت لها الإدارة بالنشاط، ولا سيما بعد 1946⁽¹⁾.

ومن الجمعيات والنوادي المشهورة التي حققت أهدافا مميزة:

الجمعية الرشيدية⁽²⁾، الجمعية التوفيقية⁽³⁾، نادي صالح باي⁽⁴⁾، نادي الترقى⁽⁵⁾.

ولا يمكن إغفال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ التي لا يقال إنها من أعظم الجمعيات في الجزائر في العهد الاستعماري فحسب، بل يقال دون مبالغة إنها احتلت مكانة عظيمة في جميع أقطار العالم الإسلامي والعربي، بل وفي تاريخ العالم الإسلامي، نظرا للجهود العظيمة التي بذلتها والنتائج التي حققتها في مقابل التحديات التي واجهتها.

خلاصة البحث:

في الأخير يصل المتأمل لطبيعة الوسائل الحديثة أنها لعبت دورا بارزا في تحقيق أهداف العلماء، من ذلك تثبيت اللغة العربية الفصحى؛ سواء في ذلك وسائل الحركة الإصلاحية، أو الطرق الصوفية، أو الحركة المستقلة. ولهذا يصف "ديارمي" دور الصحافة والنوادي بأنه ليس قيادة الرأي العام فقط، ولكن إنشاء لغة المستقبل، وهي حسب تعبيره لغة قريش القديمة، أو اللغة المقدسة⁽⁶⁾.

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، 315/5 - 320.

(2) لأخذ نبذة عنها ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر، بشير بلاح، ص 332.

(3) ينظر: المرجع نفسه/ الحركة الوطنية، سعد الله، 137/2 - 138.

(4) ينظر: الحركة الوطنية، سعد الله، 138/2 - 140، الجزائريون المسلمون وفرنسا، شارل أجرون، 710/1.

(5) ينظر: نادي الترقى ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية: 1927 - 1954، الوناس الحواس، ص 132 وما بعده.

(6) تاريخ الجزائر الثقافي، 29/8.

كما يلاحظ ارتباط هذه الوسائل ببعضها، ودور العمل الجماعي فيها، ودورها في ظهور كوكبة من العلماء والخطباء والأدباء من الطراز العالي.

أما تقييم الوسائل في الجملة قديمها وحديثها؛ فإنها ظلت في جوهرها واحدة، رغم خضوعها للظروف، وهي المسجد والمدرسة والنادي والصحافة؛ فالمسجد كان للوعظ والإرشاد بطريقة العلماء الجديدة في فهم الدين ودوره في الحياة، والمدرسة كانت لتربية وتعليم النشء الجديد وتخرج إطارات الثقافة العربية الإسلامية، والنادي كان للتوعية والتوجيه الوطني بالخطب والمحاضرات والمسامرات والمسرحيات والأشعار والأنشيد، والصحافة كانت لنشر المبادئ والأهداف والدعوة إلى اليقظة، والدفاع عن مبادئ العلماء ضد خصومهم سواء كانوا من الإدارة الفرنسية أو من مختلف قطاعات المجتمع.

ولم تقتصر وسائل العلماء على هذه الأربعة فقط، بل ظهرت وسائل أخرى هي في الواقع بنت المناسبات؛ من ذلك الاحتجاج، والمقابلات وإرسال الوفود، والرحلات والمشاركة في التجمعات العامة ونحوها⁽¹⁾.

(1) الحركة الوطنية، أبو القاسم سعد الله ، 90/3، مع بعض التصرف.

المبحث الثاني:

مآخذ الحركة الدعوية والإصلاحية فترة الاحتلال الفرنسي

ما من شك أن تتبع فئة من المسلمين في كل جيل لآثار علمائهم وسيرهم وطريقة دعوتهم وتنوع مناهجهم وذكر مآثرهم من الأمر المحمود الذي تفخر به الأمة، بل كلما زاد ذلك وعظم دلّ على نوع من الرقي والتحضر، وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء فلا يبعد أن يكون المقتفي لهذه الآثار له نصيب من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: 21)، إلا أن العصمة لبنينا ﷺ ثابتة ولغيره منفية، وإذا كان هذا هو الشأن فإن أي فكرة أو تجربة بشرية غير معصومة قابلة للنقد والمراجعة والمناقشة.

ومن هذا المنطلق فإن الحركة الدعوية طيلة فترة الاحتلال التي تعرضت لتحديات وصعوبات كبيرة، واحدة من هذه التجارب والأفكار التي لم تخل من هفوات وتقصير وتفريط وسوء تقدير - رغم الآثار الحميدة والإنجازات العظيمة التي حققها علمائنا في هذه الفترة العصيبة - ؛ وإذ نحاول في هذا المبحث أن نشير إلى بعض المآخذ التي أفرزتها المسيرة الدعوية لعلماء الجزائر في هذه الفترة ، فإنما "نؤكد على أن النقد البناء لتجارب الغير لا يعدّ محاكمة تترتب عليها الإدانة أو البراءة ، بقدر ما هي دراسة علمية موضوعية تهدف إلى كشف مواطن القوة والضعف، والصواب والخطأ، والنجاح والفشل، بغرض الاستفادة من كل ذلك في واقعنا المعاصر"⁽¹⁾.

المطلب الأول: التنافس والعداوات:

إن العمل الجماعي الذي يستهدف تحقيق أهداف معينة يتوقف نجاحه غالبا على مقدار التفاهم والتواصل بين أفراد هذه المجموعة، ويكون التنافس فيها محمودا إذا كان تنافسا مبنيا على زيادة البذل والعطاء والارتقاء إلى الكمال، مع صفاء السريرة وطهارة القلب، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (سورة المطففين: 26)، ويكون مذموما إذا كان منشؤه التنافس على الدنيا واتباع الأهواء وحب التسلط المؤدي غالبا إلى

(1) عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص257.

القطيعة والخصومة، ولا يستثنى من هذا الشق المذموم العلماء والدعاة في مسيرتهم العلمية والدعوية، وهو ما سُجِّل على صفحات بعض علماء الجزائر فترة الاحتلال؛ من النماذج⁽¹⁾ على ذلك:

الشيخ مولود الحافظي:

أحد علماء الفلك البارزين ومن خريجي الأزهر، وكان في أول أمره من أنصار الحركة الإصلاحية وساهم في تأسيس جمعية العلماء (سنة 1931)، والتي كانت تضم أول أمرها عناصر إصلاحية وعناصر مرابطية، وعندما تعلق الأمر بتجديد اللجنة المديرية لجمعية العلماء المسلمين، أدت الانتخابات في اللجنة المديرية في ماي 1932 إلى الانشطار النهائي بين العناصر الإصلاحية والعناصر المرابطية؛ وحينها بادر الممثلون المرابطون والعناصر المستبعدة من اللجنة المديرية إلى إشعال فتيل المعارضة والعداء حيال الحركة الإصلاحية الباديسية، وتجلّى هذا العداء في تشكيل جمعية مناوئة لجمعية العلماء، وبتقارب مع الإدارة الفرنسية، قصد حمل هذه الأخيرة على كبح توسعها الإصلاحي؛ وكان الناطق الأساس باسم المصالح المرابطية، مولود الحافظي، وهو المنظم الأساس للمعارضة ضد الحركة الإصلاحية. فلما تعذر عليه وعلى أصدقائه - لا سيما ولي نعمة الجمعية القديم عمر إسماعيل - الاستئثار بمراقبة اللجنة المديرية لجمعية العلماء ووفق في إنشاء جمعية منافسة؛ كانت تأمل في جمع المعارضين للحركة الباديسية، وكان ذلك منشأ جمعية علماء السنة الجزائريين التي تكونت في العاصمة: 15 سبتمبر 1932⁽²⁾.

وقد دام على رئاستها حوالي سنتين، ثم فشل المشروع كله، وبقيت في الساحة جمعية العلماء الأصلية، وكان الحافظي قد كسبته بعض الزوايا مثل زاوية عمر بن الحمالوي، وقد نافس الحافظي ابن باديس وعارض العقبي، وتحالف مع عاشور الخنقي. وخلال وجوده في الحركة الإصلاحية كتب مقالات طويلة في شؤون الاجتماع والدين والأخلاق والفلك في الصحف. وقد عاش إلى 3 فبراير 1948، ومع ذلك كان إنتاجه قليلا ومساهمته أقل من

(1) والملاحظ أن هذا الداء لم تسلم منه طائفة معينة، من ذلك النزاع الواقع بين أتباع الأمير عبد القادر، أو النزاع على تزعم بعض الزوايا، أو ما حدث للشيخ أطفيش من تهديد واتهام من قبل منازعيه، أو ما حدث للزاهري وغيرهم.

(2) الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، مرجع سابق، ص 172-173، مع بعض التصرف.

علمه. ولعل تردده بين الإصلاح وعدمه أو بين الإصلاح التحرري المتيسر والإصلاح الطرقي الراكد، هو الذي كان وراء أفوله⁽¹⁾. فالطموح الشخصي وربما الميول الاجتماعية والضغط جعلته يتبنى الاتجاه المعارض للإصلاح.

كما يلاحظ أن هذا التوجه من الحافظي أوقعه في بعض التناقضات قبل وبعد ترأسه جمعية علماء السنة؛ من ذلك قوله بإبطال التوسل والاستغاثة بالأولياء⁽²⁾ ثم إباحة ذلك⁽³⁾.

ويقول عنه الشيخ أحمد حماني: «وهو عالم كبير، وكاتب شهير، ولكنه كان شاذاً في العلماء، متهاكاً على الشهرة والرئاسة، من كتاب الشهاب، نشبت بينه وبين كتابه المصلحين معارك قلمية، كالميلي والعمودي والزاهري والزواوي وابن عمار، ولا شك أنهم -خصوصاً- الإصلاح- كانوا يعدونه ليخلف ابن باديس في رئاسة الجمعية.

وهكذا عادت الحرب كأشد ما تكون عنفاً، وكشفت الإدارة الاستعمارية عن وجهها الكريه بتدخلاتها الوقحة»⁽⁴⁾.

وبسبب هذا التنافس البغيض نشأت عداوات حادة، وحدثت مهارات ذميمة، ونقاشات عقيمة بين أعضاء جمعية علماء المسلمين وجمعية علماء السنة أضرت بالرأي العام والقضية الوطنية أكثر مما أفادته أو خدمته⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: الوظيفة الفرنسي:

لا يختلف اثنان على علو مرتبة العالم ورفعته، فهو الهادي إذا ضل الناس، والمعلم إذا جهل الناس، والثابت العزيمة إذا تردد الناس، وهو الذي يقف في وجه الباطل ولا يخاف في الله لومة لائم فإن عجز عن المواجهة لجأ إلى المداراة دون المداينة؛ والتي تعني ترك دينه لصالح

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، 282/7، مع بعض التصرف. ووصفه أبو القاسم بقوله: "وربما كان الحافظي آلة فقط في ذلك الصراع بين أنصار الإصلاح والتحرر وبين أنصار الانتماء الطرقي والتبعية"، 261/5.

(2) ينظر مقال الحافظي: "تحرير القول في إبطال التوسل والاستغاثة بالأولياء"، الشهاب، ج12، م7، ص820.

(3) ينظر مثلاً: جريدة السنة، "الشيخ الحافظي قبل التأسيس وبعد التأسيس"، الاثنين 30 محرم 1352 / 15 ماي 1933، ص3، وعن مسائل أخرى يراجع: السنة: بنفس العنوان، الاثنين 11 صفر 1352 / 5 جوان 1933، ص5.

(4) صراع بين السنة والبدعة، 363/1.

(5) المرجع نفسه، 261/5. ويرى الباحث أن الإضرار ليس على إطلاقه بل في جوانب محدودة.

دنياه⁽¹⁾، أو تقديم المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، وهذا الأخير كان موقفا لبعض من انتسب للعلم، علما أنه تفاوتت بين هذا الصنف نسبة بيع الضمائر، وجبن النفوس، وضعف العزائم، وهذا الضعف نجده غالبا بمن ارتبطت وظائفهم بالإدارة الفرنسية، لأنه كما يصرح بعضهم أنه تحت رحمة الفرنسيين الذين يدفعون لهم الأجور، فأصبح بعضهم بذلك أدوات في يد السلطة الفرنسية تقوّلهم ما تشاء، وينطقون باسمها ما تريد، ولم يكن يشاطروهم في سمعتهم ومكانتهم سوى رجال التصوف والمرابطين⁽²⁾.

ويقول الإبراهيمي: «عرفنا هذا من الإدارة الاستعمارية حتى ما يغالطنا فيه أحد؛ وعرفنا من هذه الطائفة أنها كانت في تاريخ الاستعمار طلائع لجنوده، وأعمدة لبنوده، وشباكا لصيده، وحبائل لكيده، وأنها كانت وما زالت، في المواقف الوطنية والأزمات القومية، داعية هزيمة ووسيلة تخذيل، وأنّ من المخجل أن نسمي أفرادها أناسيّ تعقل وتعي وتشعر؛ وإنما هي آلات وأدوات تسخر وتسير⁽³⁾».

وإنصافا لهؤلاء الموظفين يقول أبو القاسم سعد الله: «...هذه هي الخطوات الأولى في توظيف رجال الدين في الجزائر من قبل الفرنسيين، وقد استمر هذا الدور لهم مدة العهد الاستعماري، وكان منهم من استقال من وظيفه واختار العافية، ومنهم من هاجر تاركا وطنه وذكرياته، ومنهم من انتبه ضميره ولكن بعد حين، وأغليبتهم رضيت بالحياة الذليلة وعاشت على الأجر القليل، سيما بعد أن تقدم العهد وانقطعت الصلات بالماضي ورجاله، فالهيئة الدينية كانت خليطا من الغث والسمين، وكان لبعضهم ظروفهم التي أملت عليهم هذا الوضع المخرج⁽⁴⁾».

فبدل أن تتصالح النفوس وتجتمع الكلمة وتتوحد الصفوف والجهود في مناكفة المستعمر الباغي، وقف هؤلاء في خدمة أهداف المستعمر وتثبيت جذوره على أرض الجزائر، والوقوف ضد ثوابت إخوانهم، وهذا ما يلاحظ على كثير ممن تقلد مناصب الإفتاء خاصة عند الأزمات والقضايا الكبرى؛ مثل قضية التجنيد الإجباري، وقضايا التعليم، والمشاركة في الحرب العالمية

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 454/10.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 352/4.

(3) آثار الإبراهيمي، 392/3.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق، 361/4.

الأولى والثانية، ومُنَّ عرف بالعلم والفكر الإصلاحى، لكنه غلب المصلحة الفرنسية على المصلحة الوطنية بعد تقلده الوظيفة الفرنسي، الشيخ ابن الموهوب، والشيخ كحول⁽¹⁾، والشيخ محمد العاصمي⁽²⁾.

ولأجل هذه الآثار السلبية كان موقف ابن باديس تجاه الوظيفة الفرنسي واضحاً، حيث قال في معرض ثنائه على شيخه "حمدان الويسي": « وإني لأذكر للأول (حمدان) وصية أوصاني بها، وعهداً عهد به إليّ. وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله، فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنّة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد عليّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أأخذ علمي مطية لها، كما كان يفعل أمثالي في ذلك الوقت»⁽³⁾.

المطلب الثالث: الوسائل التقليدية

إن الدعوة إلى الله منهج وسبيل يسلكه الدعاة والعلماء، وهو يحتاج إلى وسائل مشروعة ومناسبة للزمن الذي هم فيه. وذلك لإيصال هذه الدعوة إلى عموم الناس؛ والمتأمل في تاريخ الدعوة يجد أن الوسائل تتطور وتتجدد بمرور الزمن، وإذا كان الجزائريون قد سيطر عليهم مستعمر مستبد حرمهم من أدنى مقومات المعيشة فضلاً عن امتلاك الوسائل الحديثة، ومع ذلك فقد بذل الجزائريون جهوداً عظيمة في مواكبة وسائل المحتل الفرنسي من أجل رد الاعتبار

(1) يقول أحمد حماني: «ولم يكن الشيخ محمود كحول خاملاً ولا جامداً ولا أبهله فهو مثل الشيخ مولود ابن الموهوب مفتي قسنطينة الذي أعلن الأفكار الإصلاحية في الوسط القسنطيني وحارب أنواعاً من البدع، لكن داء الرجلين إنهما كانا من أطوع الناس للإدارة الاستعمارية في تنفيذ أغراضها، والتهالك على عتبتها، وتقديم رضاها على رضى الله، وعدم المبالاة باتجاه الشعب فكان أمرهما عجيباً». صراع بين السنة والبدعة، 390/1.

(2) تقدم قول أبي القاسم أنه: « انخرط إلى خدمة أغراض غير وطنية. ولم يبق على ذلك التيار الفكري بعد أن أصبح من الموظفين الرسميين. وكان يشرف على تحرير جريدة أسبوعية (الرشاد) وهي من الجرائد المضادة للإصلاح»، تاريخ الجزائر الثقافي 27/7. وله كلام آخر نحوه: 26/5.

(3) آثار ابن باديس، 78/1.

وأشد من ذلك أن أحد كبار تلاميذ الإبراهيمي النجباء، وأحد أركان الإصلاح بمدينته -الأستاذ المطاعي مزعاش الطيب-، قدّم طلباً لمنصب الإفتاء بمدينة سطيف، واستعد له -وكان كفوّاً له- لكنه في آخر لحظة عرض الأمر على ابن باديس يستشير به في ذلك، فغلظ عليه في الجواب، وقال ما فحواه: "لأن تتكسب بحماية مومس خير لك من التكسب بمثل هذه الوظيفة"، فكانت كلمة حاسمة للموضوع. ينظر: صراع بين السنة والبدعة، 335/1.

الإنساني أولاً، ومواجهة المد الاستعماري ثانياً، والحق يُقال أن الجزائريين كانوا قبل الاحتلال يعتمدون على وسائل إعلام تقليدية في غالب شؤونهم، ولم يطلعوا على كثير منها إلا بعدما جلبها المستعمر الفرنسي، مثل الصحافة ووسائل التعليم الحديثة وغيرها، فالجزائريون لم ينخرطوا في عالم الصحافة المستقلة إلا بعد أكثر من خمسين عاماً⁽¹⁾ من دخول الفرنسيين الذين جلبوا معهم سلاح الصحافة إلى الجزائر بمجرد دخولهم، وتمثل في إنشاء جريدة: "ليستافيت دو سيدي فرج" "l'estafette de sidi ferrage"⁽²⁾.

وشيثاً فشيئاً تكونت صحافة استعمارية ذات طابع حكومي؛ ورغم تطور الصحافة الجزائرية إلا أن ظهورها كان متأخراً واستغلالها كان تقليدياً في كثير منها لعدم توفر المطابع، ووسائل النشر، مع العلم أن الصحف الوطنية لم تسلم واحدة منها من المضايقات الفرنسية، مما حذى بها إلى التوقف.

وعلى سبيل المثال يعد الشيخ عمر راسم من رواد الصحافة الجزائرية، الذي كان يعالج جريدته بنفسه؛ فهو الذي يحرر ويطبّع على الحجر، ويصور رسوماتها، ومع ذلك لم تعيش جرائده طويلاً⁽³⁾.

وهكذا يقاس عليها إنشاء النوادي والجمعيات، أما الراديو فلم يعرف رواجاً إلا بعد الاستقلال، رغم ظهوره قبل ذلك.

وقد تدخل في هذا عدم تنوع وسائل الدعوة، مثل اقتصار علماء الجزائر في دعوتهم على اللغة العربية في جرائدهم الدينية والوطنية التي كانت تخاطب جمهوراً معيناً من المتابعين، وهذا ما تفتنت له جريدة "الدفاع" "la defence" الناطقة بالفرنسية، والتي أسسها محمد الأمين العمودي (1935)، لتتأفف عن الحركة الإصلاحية، وتعرف بها الأوساط المثقفة⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: الطرق الصوفية المنحرفة

والمقصود بالطرق الصوفية المنحرفة التي أثرت على التجربة الدعوية فترة الاحتلال؛ أولئك

(1) من أوائل الجرائد الأهلية الجزائرية جريدة الحق (1894).

(2) ينظر: الصحافة المكتوبة في الجزائر، زهير إحدادن، ص 25.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 247/5.

(4) ينظر: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، مرجع سابق، ص 130 - 131.

القوم الذين انحرفوا عن العلم والتعليم، وعن الجهاد والاجتهاد، وانطرحوا بين أحضان المحتل الفرنسي، يخدمون أهدافه، وينصاعون لأوامره، ويقفون حجر عثرة أمام إصلاح المجتمع الجزائري، وتمايزه عن المحتل الفرنسي، وإن ادعوا العلم والمعرفة، واحتلوا المناصب والمراكز العليا؛ ففي القرن التاسع عشر الذي عرف انتشار الثورات الجهادية بقيادة الطرق الصوفية، عرفت هذه المرحلة صراعاً بين الطرق نفسها، كما هو الشأن بالنسبة للتجانبة التي وقفت مع فرنسا، وحاربت الأمير عبد القادر - المنتمي إلى الطريقة القادرية -، وحاربت كذلك العليوية الرحمانية، لأنها أخرجت الشيخ ابن حداد وولده⁽¹⁾.

وأما بعد مرحلة التدجين مطلع القرن العشرين فقد توحدت جهودها لكن ضد الفكر الإصلاحى وبالأخص بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين؛ أين وصل بهم الأمر أن طلبوا من فرنسا طلباً حثيثاً لمنع علماء الإصلاح من دخول المساجد للتعليم والإرشاد، وصدر بذلك قرار 8 مارس 1933 بمنع العلماء من استعمال المساجد واستغلالها في التعليم والدعوة.

وقد نقل الإبراهيمي عن قائد عسكري فرنسي معروف أنه قال: "إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيش لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ، على أن الخضوع لقوتنا لا تؤمن عواقبه لأنه ليس من القلب، أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب والأبدان والأموال أيضاً"⁽²⁾.

ولهذا كان من حكمة ابن باديس والإبراهيمي البداءة بمحاربة الاستعمار الروحي الداخلي - كما سماه الإبراهيمي - قبل الاستعمار العسكري الخارجى⁽³⁾.

فالمأتمل في حركة الدعوة الإصلاحية في الجزائر فترة الاحتلال يظهر له شؤم الطرق الصوفية ذات الميول السلبي على الدعوة والدعاة المصلحين، إذ حققوا أهداف المستعمر، يوم كانت الحاجة إلى توحيد الجهود، وصرفها لمواجهة مستعمر الأرض، فتغيرت المعادلة وتفرقت الجهود بين مستعمر الأرض الخارجى، ومستعمر الروح الداخلى.

(1) ينظر: صراع بين السنة والبدعة، 1/ 62.

(2) آثار الإبراهيمي، 143/5.

(3) المرجع نفسه.

وإنصافاً للفريقين فإن الأمر كان يتجاوز ذلك أحياناً زيادة على رد حق أو باطل، إلى السبب والشتم، كما حصل بين جريدة "الحكيم" الإصلاحية، وجريدة "الإخلاص" الطرقية⁽¹⁾، بل وصل الحال إلى محاولة التصفية الجسدية، كما هي الحادثة المشهورة لمحاولة اغتيال الشيخ ابن باديس⁽²⁾.

كما يلاحظ أن اختلاف الأفكار والأيديولوجيات عموماً، كان له أثر على الدعوة والإصلاح لعدم توحيد الأهداف، واختلاف الأفكار الجذرية، ومجرد الاتحاد بالأبدان دون الأفكار والأرواح لا يفتأ أن يعود إلى سابقه أو أشد، بمجرد ظهور عدم توافق على بعض المبادئ والتوجهات، لأن الأصل في الاجتماع أن يكون على الحق مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (سورة النساء: 59)، وهذا الاختلاف يبرز في النزاع الحاصل بين الفكر الإصلاحية والصوفي والشيوعي وأصحاب النخبة الاندماجين، بل إن فرنسا كانت تجدها فرصة سانحة لتغذي طائفة على أخرى.

المطلب الخامس: الدعوة والأفكار الفردية

من المعلوم أن الدعوة تحتاج إلى آليات تنفيذ تقوم على إيصال مضامينها وموضوعاتها وإرشاداتها للناس، ومجمل هذه الآليات ينحصر في الجهود الفردية والجهود الجماعية، فالعمل الفردي باعتبار الداعية يطلق أحياناً على عمل الشخص منفرداً عن الجماعة مستقلاً بآرائه⁽³⁾. أما العمل الجماعي فيقوم على تبليغ الدعوة عن طريق جماعة أو هيئة مبنية على أسس من التنظيم والتخطيط⁽⁴⁾.

(1) ينظر مثلاً: تاريخ الجزائر الثقافي، 261/5.

(2) ينظر تفاصيل ذلك: صراع بين السنة والبدعة، 65/1. ويرى الباحث أن ما ينقله بعض الكتاب - وإن كانوا من الوطنيين - من أفكار مضمونها أن الجمعية أخطأت في مواجهتها للصوفية، ودخولها معها في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل؛ قول مجانب للصواب لاعتبارات عدة، منها أن المسائل التي تتعلق بالقضايا الجوهرية والمصيرية للأمة الجزائرية، لا يمكن التغاضي والتغافل عنها ولا عن أصحابها ولو كانوا أقرب الناس نسباً.

(3) ينظر هذا التعريف: الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 384.

(4) المرجع نفسه، ص 355.

وإذا كان لكل منهما مجاله ومميزاته وإيجابياته وسلبياته، فإنه لا يستغنى بأحدهما عن الآخر، خاصة إذا كان العمل الدعوي في فترة مثل فترة الاحتلال الفرنسي، إلا أنها أشد حاجة إلى العمل الجماعي منه إلى العمل الفردي لمواجهة خطر الاستعمار وآلياته المتطورة، وأساليبه القذرة.

والملاحظ على القرن التاسع عشر زيادة على استعمال الوسائل التقليدية، عدم التنبه إلى العمل الجماعي إلا في حالات محدودة، فكان العالم في الغالب يعتمد على درس يلقيه أو خطبة يسمعها أو كتاب يؤلفه، بخلاف القرن العشرين الذي عرف استغلالاً لهذه الآلية متمثلاً في جمعية العلماء المسلمين التي كانت تسير ضمن تنظيم محكم، وأهداف واضحة، وتغلغلت أفكارها في ربوع الوطن، وهيأت الشعب الجزائري للاستعداد للثورة.

المبحث الثالث:

استثمار آثار الدعوة والإصلاح في واقعنا المعاصر

تمهيد:

إن المقصود من وراء سبر أحوال العلماء والدعاة، وتتبع مسارهم الدعوي، وتحليل الفترات الزمنية التي عاشوا فيها ، لا يعني سرد الأحداث التاريخية ومعرفة أحوالهم النظرية؛ بل المقصود أجلّ من ذلك ألا وهو الاستفادة من مناهج علمائنا في الدعوة، الاستفادة عملية في واقعنا المعاصر، ربطا لحاضرنا بالماضي، ولا يتحقق إلا بالأخذ من إيجابياتها والحذر من سلبياتها، فـ"مشكلة أية أمة تنبع من عدم قراءة أبنائها لتاريخ وطنهم، وعدم قدرتهم على الاستفادة من ماضيهم"⁽¹⁾.

والناظر في فترة الاحتلال الفرنسي - رغم قساوة الظروف التي عاشها علمائنا وبشاعة المستعمر، وقلة الإمكانيات في التصدي لهذه التحديات -⁽²⁾، يجد مادة علمية غزيرة كمّا ونوعاً، تمثل آفاق الدعوة في واقعنا المعاصر، وحسبنا في هذا المبحث الإشارة إلى نقاط منها، تكون مفتاحاً لمن أراد القياس عليها.

المطلب الأول: الاهتمام بالثوابت الدينية والوطنية:

رغم أن الجزائريين كانوا يعيشون فترة الاحتلال تحت لبيب الاستعمار، ونحن نعيش اليوم تحت ظل الاستقلال، إلا أن التحديات لزعة ثوابتنا الدينية والوطنية، والمتمثلة خصوصاً في الدين واللغة والوطن لا تزال قائمة، بل قد تكون أشدّ، لأنها إن كانت من عدو ظاهر فإن استعداد الخصم يكون دائماً يقظاً حذراً، أما إن كانت ممن هو مندرس في الصفوف وهو من بني جلدتنا، فهو الذي ينخر في جسد الأمة دون أن يؤبه له ولا يحسب له حساب.

"وإذا كان الجناح الاستقلالي قد رفع راية الاستقلال بهدف إعادة الدولة الجزائرية إلى الوجود، فإن جمعية العلماء قد وضعت الأسس التي يقوم عليها هذا الاستقلال، وهو إحياء وبعث الشعب الجزائري في إطاره العربي الإسلامي، وهي المرحلة والخطوة الأصعب والأهم...

(1) الجزائر منطلقات وآفاق، ناصر سعيدوني، تصدير الكتاب.

(2) بل إنّ هذه الظروف العصيبة هي التي تولد لنا مثل هذه الجهود العظيمة، وتحدث لنا آفاقاً مستقبلية محكمة.

لأن الشعوب لا تتطور ولا تنمو خارج مقوماتها الحضارية من إحساس بالماضي وأمل بالمستقبل وانتماء إلى معتقد وثقافة... فمن السهل إقامة دول ولكن من الصعب إحياء أمم⁽¹⁾.

وهذا ما حدا بالإمام ابن باديس إلى أن يحدد مقومات الشعب الجزائري التي يجب إحيائها بقوله:

شعب الجزائر مسلم... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا لله... رام المحال من الطلب

وهذا ما يجب أن نستثمره اليوم، ونجعله أهم الأهداف التي يجب تحقيقها، حتى نحافظ على هويتنا ونسلم ويسلم أبنائنا من انسلاخ لهويتنا الجزائرية؛ وذلك بالمحافظة على الأسس الحضارية لهذه الأمة المتمثلة في دين الإسلام، واللغة العربية، ووطن الجزائر بتاريخه وجغرافيته وثقافته، والوقوف في وجه كل من تسول له نفسه المساس بهذه الأصول شخصاً كان أو حزباً أو هيئة أو فكرياً أو دولة أو غيرها.

وهو ما يجر إلى استثمار عنصر آخر وهو:

المطلب الثاني: محاربة الأحزاب الداخلية الموالية لأعداء الجزائر:

لم يكن جهاد العلماء في الجزائر فترة الاحتلال قاصراً على المحتل الفرنسي فقط، بل تعدى إلى عملائه وأعوانه من الجزائريين، سواء كانوا من الموظفين الرسميين أو الصوفية الطريقين أو النخبة الإندماجين، بله قد يكون مقدماً في بعض الأحيان، وهو ما نحتاجه اليوم لاستغلال هذه الجهود من أجل استقلال الجزائر فكراً بعد الانتصار واستقلال الأرض عسكرياً، لأن النخبة التي تركتها فرنسا وعلمتها مناهجها وغدتها بأفكارها وعلقت عليها آمالها، هي التي تحكمت في كثير من قضايا الأمة المصيرية ولا تزال، وهذا التيار يستمد قيمه من مظاهر الحضارة الغربية في نسختها الفرنسية، ما يصطدم سلباً مع مقومات الأمة الجزائرية، وعليه فإن آفاق الدراسة من وراء هذا العنصر هو إخماد نار هذا التيار؛ بكشف عوارده، واستغلال الإعلام الكتابي والسمعي والبصري والإلكتروني، وإصدار الفتاوى، وغير ذلك من الوسائل المناسبة لهذا المقام، وفي نفس الوقت إعداد جيل متمسك بمقوماته الأصيلة.

(1) المرجع نفسه، ص 222 - 223.

المطلب الثالث: تحقيق التوافق بين الانتماء الشرعي ومواكبة الحضارة:

لقد سعى المستعمر الفرنسي على أرض الجزائر إلى محاولة دمج الجزائر في فرنسا وربطها سياسيا وإداريا بفرنسا، وهضمها ثقافيا وروحيا ولغويا في الشخصية القومية الفرنسية تدريجيا، زاعما أن وجوده بالجزائر يهدف إلى نشر الرسالة الحضارية التي تقوم مبادئها على الحضارة الغربية، ما جعل هذا الواقع يُسفر عن اتجاهين متضادين: قسم يدعو إلى الارتقاء في أحضان الحضارة الغربية بـعُجرها وبُجرها ولو على حساب الثوابت الدينية والوطنية، زعما منهم أنه السبيل الوحيد لرقى المجتمع وخروجه من ظلمة الجهل والفقر، وقسم مقابل يدعو إلى مقاطعة ومفاصلة كل ما هو فرنسي، زاعما أن السلامة مرهونة بالبعد عن هذا العدو، وخوفا منهم على مصيرهم ومصير أبنائهم، وتوسط فريق ثالث، ومثله علماء الإصلاح، الذين دعوا إلى التطور، وحاربوا الاندماج، ودعوا إلى الثبات على المبادئ الدينية والوطنية مع الاستفادة من الحضارة الغربية دون الذوبان في ثقافتها.

فابن باديس مثلا يقرر المصلحة فيقول: «المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر ديناهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة»⁽¹⁾. كما قرر سبب تأخر المسلمين، وأن الاختصار على العلوم الدينية لا يكفي، فقال: «فلا يُفْتَنَنَّ المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم. فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف إيمانهم. ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة»⁽²⁾.

وفي نفس الوقت نبّه العلماء أن هذا الانفتاح ليس على إطلاقه، وفي هذا يقول الشيخ العقبي: «وليس التمدن عندنا بتلك المظاهر البراقة والصور الرائعة الخلافة في حال تُرتكب فيها الأفعال المخزية والأعمال المردية كلا، ولكنه علم وعمل صالح في سعادة، ونظام، وأمن، وسلام...مرحبا بالتمدن الذي يحفظ مصالح بني البشر المشتركة مرحبا»⁽³⁾، أما عن سيئات هذا التمدن فيقول: «نعم نرى في تمدننا اليوم رغم حسناته الكثيرة مساوئ لا يحسن السكوت

(1) آثار ابن باديس، 132/3.

(2) المصدر نفسه، 202/1.

(3) جريدة السنة: الإسلام والتمدن العصري، عدد 1، الاثنين 8 ذي الحجة 1351، ص 5.

عليها ولا يسوغ للمتشبع بالعقلية الإسلامية قبولها والموافقة عليها بحال من الأحوال، ذلك لما فيها من ضرر محقق وفساد للأخلاق تبرأ منه وتتنزه عنه شرائع الأخلاق»⁽¹⁾.

وهذا الفكر الوسطي في عصرنا الحاضر وفي هذه الظروف الراهنة، هو الذي نحتاجه على أرض الواقع مع الانفجار المعلوماتي، وكثرة وسائل الإعلام والاتصال الحديثة التي سيطرت على عقول شبابنا وأبنائنا، وسرت إليهم أفكار وتوجهات الحضارة الغربية بسلبياتها قبل إيجابياتها، وحينئذ وجب الدعوة إلى استغلال هذه الحضارة لكن بحذر، عن طريق الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، والانفتاح على العالم المعاصر دون الذوبان، مع انفتاح حضاري معتدل يأخذ ما أفرزته الحضارة من علوم ومبتكرات نافعة، ويستفيد من الإنجازات العلمية والفنية والتنظيمات الإدارية والوسائل والخبرات العامة الحديثة التي أبدعتها الحضارة الغربية، كل ذلك شريطة ألا يتصادم مع العقيدة والشريعة من انحلال في الأخلاق وتشويش في الأفكار وتحريف للأحكام، مع الاعتقاد الجازم أن الإسلام عنصر فعال في تطوير الأمة وتعبئة الجماهير نحو الرقي و التطور والتجديد⁽²⁾.

وإذا كان اليابانيون -وهم مشركون- حافظوا على الروح اليابانية في مجالات الأخلاق والأمانة والاقتصاد ولم يتهافتوا على كماليات الغرب بل طرحوا شعار (التكنولوجيا الغربية والروح اليابانية)⁽³⁾ ، فإن الجزائريين -وهم مسلمون- أولى بهذا الحفاظ وإحياء التراث الجزائري والمحافظة على الذات الإسلامية.

المطلب الرابع: استغلال الوسائل الدعوية المستجدة

إذا تأملنا أحوال علمائنا تجاه الوسائل الدعوية التي اتخذوها نجدهم صنفين: صنف اقتصر على الوسائل التقليدية؛ كبعض العلماء الذين اقتصروا على التعليم في المساجد والزوايا، وقد يزيد بعضهم على ذلك ببعض التأليف والكتابة، وصنف استعمل كل وسيلة ممكنة مشروعة في ذلك العهد ، -فجدهم زيادة على الوسائل التقليدية- دخلوا عالم الصحافة بقوة، وأنشأوا

(1) المصدر نفسه.

(2) - مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من العلوم و المعارف المعاصرة (أو الدعوة إلى الانفتاح)، عجلي كمال ، عدد1، المجلد 18، ص 157- 159.

(3) مجلة الصراط: الدعوة الإسلامية وآفاق المستقبل في ظل العولمة، منى حسب الرسول، عدد: 25، ص385.

كذلك النوادي والجمعيات رغم الضغوطات التي مورست عليهم من قبل الإدارة الفرنسية، وكان الفرق واضحا بين هؤلاء وهؤلاء من حيث تأثير الدعوة كمّا ونوعا.

ومن هذا المنطلق، ونحن نشهد اليوم في واقعنا المعاصر "انفجارا في وسائل الاتصال والتقنية الحديثة، وحربا في الأفكار والآراء والاتجاهات، ومحاولات مستميتة في غزو المجتمعات والتأثير عليها وقيادتها ولو بصورة غير مباشرة من خلال تقنيات ووسائل والاتصال والإعلام"⁽¹⁾؛ فإنه يلزم العلماء في هذا العصر الاهتمام بوسائل الدعوة وإيلاؤها العناية اللائقة بها وعدم الاقتصار على القديم، مقتفين آثار من سبق من العلماء في طريقتهم وجهادهم وصبرهم لأجل تحقيق الوسائل الممكنة، دون ترك المجال فارغا أمام أعداء الإصلاح الذين قد يفسدون والحالة هذه، في ساعة ما يصلحه العلماء في سنين عددا.

ومن هذه الوسائل الحديثة الشبكة الإلكترونية بما تحمله من مواقع دعوية وحسابات متنوعة، وكذلك القنوات الفضائية وما شاكلها من وسائل عصرية⁽²⁾.

المطلب الخامس: الزهد في المناصب السياسية:

كان العلماء الوطنيون يأنفون من الدخول في الوظيف الفرنسي، بل ويحذرون منه، والشواهد التاريخية أثبتت أن من تقلد الوظيف الفرنسي وكان يملك نصيبا من الحمية الوطنية، فإنه يقع في حرج كبير، لأنهم كانوا يمثلون الإدارة الفرنسية، فإن هم أيّدوا المواقف الجزائرية التي تحاربها فرنسا سخطت عليهم فرنسا وعاقبتهم، وإن هم أرضوا فرنسا عل حساب الثوابت الجزائرية أسخطوا الله والشعب الجزائري؛ وقد صدرت الفتوى من بعض علماء الإصلاح ببطلان الصلاة خلف الأئمة الذين تعينهم فرنسا.

كما نجد العلماء قد زهدوا في المنافسة على الأعراس الدنيوية الزائلة مثل طرق أبواب الانتخابات التي كانت تنظمها سلطة الاحتلال، إظهارا للعمل الإصلاحي مجردا عن كل منفعة شخصية أو حزبية، بحيث تثمّن الإخلاص وتجلي صدق هذه الدعوة⁽³⁾.

وقد يقال كيف يستثمر هذا الأمر في واقعنا المعاصر والفرق بيننا وبينهم كبير جدا، فقد

(1) الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، ص 128.

(2) للتوسع أكثر في أنواع الوسائل المعاصرة، ينظر مثلا: المرجع نفسه ص 815.

(3) ينظر: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 300.

كانوا تحت حكم استعماري كافر، ونحن اليوم تحت حكم مستقل يدين بدين الإسلام؛ والجواب أن الفرق المذكور صحيح لكن الإشكال في مآل هذه الأعمال وهو التنافس المذموم على الأعراض الدنيوية التي تؤثر على الدعوة والإصلاح أكثر مما تخدمه، فإن الضغوط تمارس عليه، والمواقف تُحَرَّف باسم الدين، والأفكار تتغلب عليها حظوظ النفس والأهواء، والتاريخ الإسلامي شاهد على كثير من هذه المواقف.

"وللأسف الشديد نجد جل تجارب الحركات الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين تتجاهل هذا المعطى تجاهلا تاما، بل تجعل الوصول إلى السلطة هدفا أساسيا - غير معلن - في برامجها مما يجعل الأنظمة تتوجس منها خيفة وتناصبها العدا، وتعمل على تقويض أركانها بكل الوسائل، فينشأ بذلك الصدام الذي قد يتطور إلى مواجهات مسلحة تزعزع الأمن وتعطل عجلة النمو وتشيع أجواء التنافر والعداء بين مكونات المجتمع، وكان من المفروض أن تكون السلطة الصالحة الرشيدة نتيجة حتمية لتشبع المجتمع بالأفكار الإصلاحية"⁽¹⁾.

فإذا كانت مهمة العالم والمصلح إصلاح المجتمع بتكوين المعلم المسلم والطبيب المسلم، فكذلك مهمته تكوين الإداري المسلم والسياسي المسلم والقائد المسلم.

والمنهج النبوي قد تركز على بناء الإنسان وإرساء العقيدة وتركيز النفس، فلما استقرت هذه المرتكزات قامت دولة الإسلام بالمدينة النبوية دون منازعة أهلها.

ويمكن أن نضيف فرعا آخر انطلاقا من هذا المنهج النبوي الذي ينطلق من قاعدة الأفراد، والذي سلكه علماؤنا فترة الاحتلال، ونجحوا فيه نجاحا عظيما مقارنة بالتحديات التي واجهوها، فإنه يمكن استثمار سلوك الأفراد وقناعاتهم في عصرنا الحاضر في تطور الشعب ونهضة الأمة، بدل الاعتماد على مبادرات الحكام والسياسات الإصلاحية والبرامج الحكومية⁽²⁾.

المطلب السادس: الاهتمام بالعامل الاقتصادي في سير المشاريع الدعوية:

لا ينكر دور الأوقاف العظيم قبل استيلاء الاحتلال الفرنسي عليها، إذ كانت هي الراعي والممون الرئيسي للنشاطات الدينية والتعليمية، وبمصادرة الأوقاف تعثرت كثير من المساجد

(1) المرجع نفسه: ص 302

(2) الجزائر منطلقات وآفاق، سعيدوني، ص 232 - 235.

والمدارس وشُرد كثير من المعلمين والمتعلمين، وانقطعت كثير من المساعدات عن الفقراء والمحتاجين. وفي القرن العشرين كانت كثير من المشاريع الدعوية متوقفة على التمويل المالي، ومن أبرز النماذج على ذلك، ما نتج عنه -زيادة على تعسف الإدارة الفرنسية- عجز كثير من أبناء الجزائريين على مواصلة التعليم، وكذلك تعطيل كثير من الجرائد لعجز أصحابها عن تسديد مستحقّاتها؛ وقد تفتنت جمعية العلماء لهذا الأمر حين احتاجت لبناء المساجد والمدارس الخاصة بها، ودفع مستحقّات المعلمين، حيث شرعت في العمل على تغيير الواقع الاقتصادي بجملة من التدابير، من ذلك تغيير نمط الاستهلاك، وإنشاء شركات الاستثمار؛ ففي سنة 1942 عهدت الجمعية إلى الشيخ البشير الإبراهيمي "بالعمل على توجيه جهود المسلمين لإنشاء مؤسسة اقتصادية يساهم فيها المسلمون من تجار وغيرهم برؤوس أموال إسلامية تكون نواة لانطلاق اقتصاد إسلامي كبير في الجزائر يصير بديلا عن الاقتصاد الاستعماري الذي يسيطر عليه كبار التجار من نصارى ويهود. وقد لبّى الدعوة جمهور كبير من كبار التجار المسلمين يمثلون عمالات الجزائر الثلاث آنذاك، وتمخض عن ذلك تأسيس "شركة آمال للشمال الإفريقي" لتكون لبنة لإقامة جوانب أخرى في الاقتصاد... وقد اجتمع مساهموها وانتخبوا مجلسا لإدارتها... كما وضعوا قانونها الأساسي الذي صادقت عليه الجمعية العامة المشكّلة من كل المساهمين، كما صادقت أيضا على مكتب التسيير وشرعوا بالفعل بعد ذلك في تهيئة المقرات والموظفين من الكتاب والعمال"⁽¹⁾.

وإذا كانت جمعية العلماء سبقت في هذا المجال كثيرا من الحركات الإسلامية التي لم تنتبه إلى أهمية العامل الاقتصادي إلا في عقود متأخرة، فإنه يتحتم علينا اقتفاء هذا السبيل بإحياء الأوقاف، وبناء مشاريع خيرية خاصة بالجمعيات الدينية والهيئات الدعوية التي هي من مستلزمات العصر؛ فتحرر العمل الدعوي من تبعية أي سلطة مادية هو الأسلم والأولى.

المطلب السابع: تفعيل دور العلماء في حلّ مشاكل الأمة:

لقد كان للعلماء الصادقين في دعوتهم طيلة فترة الاحتلال الفرنسي دور بارز لا ينكره إلا جاهل أو متجاهل، وتكرّس هذا الدور في المحافظة على ثوابت الأمة الجزائرية، إضافة إلى الوقوف في وجه المخططات الاستعمارية، ما دعا الإدارة الفرنسية إلى التضيق على هذه الفئة

(1) مذكرات خير الدين، 364/1.

بالتهميش والإقصاء من جهة، وبتقريب عملائها وأعوانها من جهة أخرى، والعجيب أن هذا التهميش استمر بعد الاستقلال خوفاً من تعارض المصالح الشخصية وتقديم آمال وهمية، من قبل أطراف حاكمة أو ناقمة أو خائفة من فسح المجال لهؤلاء النخبة.

والمأمل في تاريخ الجزائر فترة الاحتلال يصل إلى نتيجة حتمية، وهي أن العلماء لا يمكن الاستغناء عنهم في حل مشاكل الشعب، وقد أثبتت الأمة الإسلامية أنها تستجيب لداعي الإصلاح باسم الإسلام أكثر من غيره، "فطبيعة الأمة لا تتحد إلا بموحد، ولا تنهض إلا بمصلح، ولا تقاد إلا بقيادة، ولا يكون ذلك إلا بنخبة واعية مدركة عاقلة متزنة قادرة على السير بالسفينة إلى مبتغاه"⁽¹⁾، "لذلك لا بد من إعادة تشكيل وبناء المنظومة الفكرية للنخبة المسلمة وتغذيتها بالإنتاج الفكري المأمول الذي يمكنها من وضع الأوعية الفكرية لحركة الأمة وبعثها من (مرقدها الحضاري) و(موتها الفكري) فالنخبة هي عقل الأمة الموجه والمرشد لحركتها"⁽²⁾.

وهذه النخبة تتحقق بوجود العالم المصلح، فشرط العلم يحقق الكفاءة، وشرط الإيمان بالفكر الإصلاحي يحقق الانسجام في المواقف، وهما أهم ما تتطلبها القيادة الناجحة⁽³⁾.

ويضيف البعض أن إهمال الكفاءات سمة بارزة لدى النظم الفاشلة الذي أدى بها هذا السلوك إلى التعثر والاضطراب والاستقرار، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على تخلف هذه الشعوب أو بالأحرى هذه النظم.

ومهما قيل عن مبررات التهميش فإن هذه الفئة ستظل وحدها التي تحمل المشعل الذي يستمد نوره من كتاب الإنسانية ورسول الإنسانية⁽⁴⁾.

(1) عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 294.

(2) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، تصدير الكتاب، ص:ف.

(3) ينظر: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 295.

(4) مذكرات حياة وذكريات أحداث، عمار مطاطلة، 141/1. مع بعض التصرف.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة العلمية مع هذا البحث من خلال مصادر ومراجع درست أحوال الجزائر واستخلصت جهود علمائها في هذه الفترة العvisية من الاحتلال خلص الباحث إلى بعض النتائج المهمة ، مع تعقيب ذلك ببعض التوصيات والمقترحات، وكان عرضها في النقاط التالية:

النتائج:

- مشاركة جميع أصناف العلماء بمختلف توجهاتهم في الدعوة والإصلاح فترة الاحتلال الفرنسي، لكنها قد تقل أو تكثر عند جهة دون أخرى، وفي جانب دون آخر.

- ضعف الزاد المعرفي والمعلوماتي فترة الاحتلال في القرن 19، وأهمية الأرشيف الفرنسي في هذه الفترة.

- أهمية الاجتماع وتكاثف الجهود في الدعوة والإصلاح، الذي برز واضحا في الفرق بين القرن 19 و 20 حين ظهرت الأحزاب والجمعيات والنوادي والهيئات، وبصورة أوضح في عمل الجمعية، ويمكن القول بأن الفرق بين العمل الفردي والجماعي في الدعوة والإصلاح في الجزائر كالفرق بين الثورات الشعبية المتفرقة في القرن 19 وبين الثورة المباركة فاتح أول نوفمبر؛ وهذا لا يعني إغفال الجهود الفردية بالنظر إلى مجموعها، أو إغفال أهمية العمل الفردي في بعض الظروف الخاصة.

- كثرة وعظمة علمائنا وفقهائنا الجزائريين، ومكانتهم بين فقهاء وعلماء العالم الإسلامي رغم الظروف التي كانت تعيشها الجزائر.

- الدور الفعال الذي لعبته جمعية العلماء الجزائريين في أغلب الميادين، ومن خلال استقراء الجهود الجزائرية، نجد أن جمعية العلماء قد أخذت بالخط الأوفر في أغلب الجهود إن لم نقل كلها.

- الجهود الجبارة التي بذلتها الجمعية في مجال التعليم والوسائل التي انتهجتها والنتائج الإيجابية التي حققتها.

- من خلال جهود العلماء تبرز قيادة ابن باديس في جميع المستويات ، وأنه رائد النهضة الجزائرية بدون منازع.

- أثر الوظيف الفرنسي على العلماء في أداء مهمتهم الدعوية والوطنية.

- الأثر السلبي الذي لعبته بعض الطرق الصوفية وأصحاب الوظيف الفرنسي في تمثيل العالم القدوة، وفي أداء مهمته الدعوية وفي تغيير المبادئ الوطنية.

- أعظم الجهود التي كان لها أثر على الشعب الجزائري هو ما كان له علاقة بمقومات الشخصية الجزائرية المسلمة.

- الدور الكبير الذي قام به العلماء الجزائريون الذين درسوا خارج الجزائر ورجعوا إلى بلادهم، حيث يصدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (سورة التوبة: 122)

- من درس جهود علماء الجزائر فترة الاحتلال تيقن أن الدعوة إلى الله لا يعتذر لها بقلة الوسائل والإمكانات، مادام أن الداعي مخلص لله له عزيمة وثبات على المبادئ الدينية والوطنية.

- عظمة العلماء والفقهاء والأدباء الكبار الذين أنجبتهم الجزائر في تلك الفترة التي تؤكد مقولة أن الظروف الصعبة تولد الرجال الكبار، والظروف السهلة غالبا ما تولد الرجال الصغار.

- لا يمكن تقييم جهود العلماء الجزائريين في مختلف الميادين فترة الاحتلال دون استعراض الأساليب والوسائل والسياسات التي انتهجها المحتل الفرنسي ثم المقارنة بينهما.

- جهود علمائنا الأبرار مع قلة عددهم وعدتهم مقارنة بما سخرته السلطة الفرنسية من إمكانيات ينطبق عليها قول الله عز وجل: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 247)

التوصيات والمقترحات:

- يجب أن يكون ميدان ومجال التربية والتعليم من أولى اهتمامات العلماء والقادة والساسة، وأن يبذلوا فيه ما أمكنهم من جهد في سبيل تطويره واستغلاله في المحافظة على هوية الأمة الجزائرية؛ ولا يكون ذلك إلا بإشراك أهل الاختصاص من العلماء والدكاترة المختصين.

- العمل على جمع الجرائد الوطنية الكبرى وأخص منها جرائد جمعية العلماء المسلمين، - والتي حوت علوما جمة وفوائد تاريخية وعلمية وأدبية - ، ورقمنتها وتحويلها إلى وورد تسهيلا لعملية البحث والاستقراء الصحيح، وفتحها لمشاريع بحثية متنوعة.

- خدمة الفتاوى فترة الاحتلال بجمعها مفردة ثم تقسيمها اجتهادا حسب الأقاليم أو المواضيع لتكون مرجعا مستقلا.
- الاعتناء بكتب أبي القاسم سعد الله خاصة تاريخ الجزائر الثقافي، وتخصيص بحوث ودراسات تتعلق بمباحثه ومواضيعه، لما يحمله من مادة غنية حول الجزائر لا تزال تحتاج إلى بحث وتنقيب واستدراك.
- الحاجة الملحة لتكثير وتنوع الدراسات والبحوث حول الإعلام الجزائرية والأقاليم المهمة، والمواضيع الوطنية، مما له علاقة بتراث الجزائر.
- أفراد بحوث خاصة وموسعة لكل جهد من جهود علمائنا على حدة طيلة فترة الاحتلال الفرنسي.
- وفي الختام أكرر ما سبق من أن هذا البحث لا يمكن لأكبر المؤرخين أن يحيط بجوانبه وتفصيله فضلا عن خدمة هذه الأطروحة من عبد ضعيف مثلي، إضافة إلى أنها جهد مقل يعتريه النقص والخطأ؛ فما كان من صواب فمن الله وحده وما كان فيه من تقصير فمن نفسي والشيطان.

والحمد لله رب العالمين

الفهارس

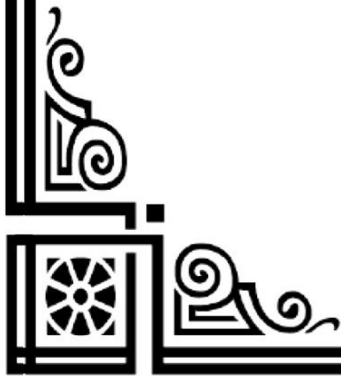
قائمة المصادر والمراجع:

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات



قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم: برواية ورش عن نافع.

الكتب العامة:

- 1- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، ج2: ط2 (دار البصائر، الجزائر، 2007)، ج3: ط1 (دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1990م).
- 2- آثار ابن باديس، عبد الحميد بن باديس، تحقيق: عمار طالي، ط1 (دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر: 1388 هـ - 1968م).
- 3- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله د. أحمد طالب الإبراهيمي. ط1 (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997).
- 4- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ)، ط8 (دار القلم - دمشق، 1420 هـ - 2000 م).
- 5- أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، تحقيق: عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، ط1 (دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1996).
- 6- الأخلاق في الإسلام، المؤلف: -، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات، الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع
- 7- الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية: دراسة تأصيلية على ضوء الواقع المعاصر، أ.د. عبد الرحيم بن محمد المغذوي، ط2 (دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، 1431هـ - 2010م)
- 8- الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، محمد السعيد الزاهري، ط2 (دار الكتب، الجزائر، د.ت)
- 9- أصول الدعوة ومناهجها دراسة تأصيلية في الجانب النظري، د. رمضان محمد مطايريد، جامعة قطر: كلية الشريعة، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، برنامج الدعوة والإعلام، 2015.
- 10- أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ط9 (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421هـ - 2001م)
- 11- أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، يحيى بوعزيز، ط1 (دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1995).

- 12- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، ط1 (دار الكتب العلمية - بيروت، 1411هـ - 1991م).
- 13- الإعلام بأعلام الجزائر من كتاب الأعلام، عبد الغني عيساوي، ط1 (أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، جيجل، 2016).
- 14- إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان، أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (ت: 751)، تحقيق: محمد عزيز شمس، خرج أحايته: مصطفى بن سعيد إيتيم، ط1 (دار عالم الفوائد، مكة، 1432 هـ).
- 15- إفريقيا الشمالية تسير: القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، شارل أندري جوليان، ترجمة: المنجي سليم وآخرون، ط3، (الدار التونسية للنشر، تونس، 1396هـ - 1976م).
- 16- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، خالد السبت، ط1 (المنتدى الإسلامي، السعودية، 1415هـ - 1995).
- 17- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ط1 (وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، 1418هـ).
- 18- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني، مرتضى الزبيدي، ت: مجموعة من المحققين، د. ط (دار الهداية).
- 19- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، 3، 4، 5، 6، 7، 8، ط1 (دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1998) / ج10، طبعة خاصة (دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر: 2007).
- 20- تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ج1، ط2 (مكتبة دار الحياة، بيروت، 1384هـ - 1965م).
- 21- تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ج4، ط4 (دار الثقافة، بيروت، 1400هـ - 1980م).
- 22- تاريخ الجزائر المعاصر1، العربي الزبيري، د. ط (منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، 1999).
- 23- تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989، بشير بلاح، د. ط (دار المعرفة، الجزائر، 2006م).
- 24- تاريخ الجزائر المعاصرة، شارل أجيرون، ترجمة عيسى عصفور، ط1 (منشورات عويدات، بيروت - باريس، 1982).
- 25- تاريخ الزاوة، أبو يعلى الزواوي، ط1، (منشورات وزارة الثقافة، الجزائر: 2005).

- 26- التاريخ السياسي من البداية ولغاية 1962، عمار بوحوش، ط1 (دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1997)
- 27- تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة من 1900-1956، فوزي مصمودي، د.ط (دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2006).
- 28- تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، العربي منور، د.ط (دار المعرفة، الجزائر، 2006م).
- 29- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، محمد بن الأمير عبد القادر الحسني، د.ط (مطبعة غرزوزي وجاويش، الاسكندرية، 1903).
- 30- تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، د.ط (مطبعة بيبير فونتانة الشرقية بالجزائر، 1324-1906).
- 31- التعليم القومي والشخصية الوطنية: 1931-1956، تركي رابح، د.ط (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1395هـ - 1975م).
- 32- تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح العثيمين (ت: 1421هـ)، ط1 (دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1423 هـ).
- 33- تَكْمَلَة مُعْجَم المؤلفين، وَفَيَات (1397 - 1415 هـ) = (1977 - 1995 م)، محمد خير بن رمضان يوسف، ط1 (دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، 1418هـ - 1997 م).
- 34- تيسير التفسير، الحاج بن محمد يوسف أطفيش، تحقيق: إبراهيم بن محمد طلاي، بمساعدة لجنة من الأساتذة، ط1، 2004 .
- 35- جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر 1830-1954، محفوظ قداش، ترجمة محمد معراجي، د.ط، منشورات ANEP، 2008.
- 36- الجزائر المفكرة وتاريخية: أبعاد ومعالم، محمد العربي ولد خليفة، د.ط (دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر: 2007).
- 37- الجزائر حتف الاستعمار، ليون فيكس، ترجمة محمد عيتاني، د.ط (منشورات مكتبة المعارف، بيروت، د.ت).
- 38- الجزائر منطلقات وآفاق: مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، ناصر الدين

- سعيدوني، ط1 (عالم المعرفة، الجزائر: 2000).
- 39- الجزائريون المسلمون وفرنسا: 1871-1919، شارل روبير أجرون، نقله للعربية: حاج مسعود، بكلي، د.ط، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007.
- 40- جغرافية القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، أحمد توفيق المدني، المطبعة العربية، الجزائر، 1948.
- 41- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية: 1931-1945، بو الصففاف عبد الكريم، ط1 (دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1401-1981)
- 42- جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، جمع: محمد الطاهر الميساوي، ط1 (دار النفائس، عمان، 1436-2015).
- 43- جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر: 1913-1940، عبد الرشيد زروقة، ط1 (دار الشهاب، بيروت، 1420هـ-1999م).
- 44- الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940، علي مرّاد، ترجمة محمد يحياتن، ط2 (دار الحكمة، الجزائر، 2007)
- 45- الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر: 1830-1871، خديجة بقطاش، د.ط (منشورات دحلب، الجزائر: 2007).
- 46- الحركة الوطنية الجزائرية: 1900-1930، أبو القاسم سعد الله، ط4 (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992)، ج2.
- 47- حقائق وأباطيل، عبد الرحمن شيبان، ط2 (منشورات ثالة، الجزائر، 2009).
- 48- حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، ط1 (دار غريب للطباعة، القاهرة: مصر، 1401هـ-1981).
- 49- حياة كفاح: مذكرات، أحمد توفيق المدني، د.ط (دار البصائر، الجزائر: 2009). ج2.
- 50- الخطاب الإصلاحي في المغرب، عبدالله، بلقزيز، ط1 (دار المنتخب، بيروت، 1997م).
- 51- الدعوة الإصلاحية في بلاد نجد على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب وأعلامها من بعده، عبد الله بن محمد المطوع، ط3 (دار التدمرية، السعودية، 1424هـ/2004م)
- 52- دعوة العاملين المنزليات إلى الله تعالى، عبير بنت خالد الشلهوب، ط1 (دار كنوز إشبيليا للنشر

والتوزيع، السعودية، 1434 هـ - 2013 م)

53- الدور الإصلاحية والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي على نهج جمعية علماء المسلمين الجزائريين 1931-1944، د. إبراهيم مهديد، ط1 (دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر: 1433 هـ-2011 م)

54- دور الشيخ المجاوي عبد القادر وكتابه "إرشاد المتعلمين" في الصمود الفكري بالجزائر، سومية أولمان، د.ط (الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، 2013).

55- ديوان محمد العيد آل خليفة، مكتب الدراسات، د.ط، دار الهدى، الجزائر، 2010.

56- رائد التجديد الإسلامي: محمد بن العنابي، أبو القاسم سعد الله، ط2 (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990)

57- رسالة: جواب سؤال عن سوء مقال، عبد الحميد بن باديس، ط1 (المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، د.ت).

58- الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، د.عبد العزيز شهبي، د.ط (دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007).

59- سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (دار المعرفة، الجزائر، 2009).

60- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني، ط1 (مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض: 1415 هـ - 1995 م)

61- سلسلة جهاد شعب الجزائر، بسام العسلي، ط3 (دار النفائس، بيروت: 1411 هـ - 1990 م).

62- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى (ت: 279 هـ)، ت: بشار عواد معروف، د.ط (دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1998 م)

63- سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830-1954، يحيى بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

64- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين، د.ط (دار الوطن للنشر، الرياض: 1426 هـ).

65- الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد المليي، تحقيق أبي عبد الرحمن محمود، ط1 (دار الراية للنشر والتوزيع،

السعودية، 1422هـ - 2001م)

66- شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1 (دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق: 1986)

67- الشيخ أبو يعلى الزواوي مصلحا ومجددا: د. بلقاسم شتوان، ط1 (مؤسسة حسين رأس الجبل، قسنطينة، الجزائر: 2017).

68- الشيخ عبد الحميد بن باديس: رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، تركي رابح، ط3 (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981).

69- صالح بن مهنا: "حياته، تراثه"، سليمان الصيد، (دار البعث، قسنطينة: 1404 - 1983).

70- الصحافة الجزائرية المكتوبة أثناء الاستعمار الفرنسي، عمار بوزير، دار الألوكة، دون بقية المعلومات.

71- الصحافة المكتوبة في الجزائر: زهير إحدادن، د. ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012م.

72- الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، د. محمد بن صالح ناصر، ط2 (ألفا ديزاين،

الجزائر: 1427هـ - 2006م)

73- صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه

وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت: محمد زهير الناصر، ط1 (دار طوق النجاة

(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد عبد الباقي، 1422هـ)

74- صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، د. ط (دار إحياء التراث

العربي - بيروت: د. ت)

75- الصراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، أحمد

حماني، اعتنى بع عادل سعيدي، ط2 (عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015).

76- صفحات تاريخية خالدة من الكفاح الجزائري المسلح ضد جبروت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني:

1500 - 1962، أحمد محمد عاشوراكس، ط1 (منشورات المؤسسة العامة للثقافة، ليبيا، 2009).

77- عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، ط1 (وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية، قطر، 1997)

- 78- عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، عمار بن مزوز، ط2 (دار الأمل، الجزائر، 2010)
- 79- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، عبد الحميد بن باديس، رواية وتعليق: محمد الصالح رمضان، ط1 (دار الفتح، الشارقة، 1416-1995).
- 80- العقيدة الوسطى وشرحها، أبو عبد الله محمد السنوسي، ت: السيد يوسف أحمد، د.ط (دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت).
- 81- فتاوى علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين واختياراتهم الفقهية، مصطفى صابر، تقديم فضيلة الشيخ محمد سكحال المجاحي، ط1 (دار ابن حزم، بيروت، 2020).
- 82- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر أبو الفضل العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط (دار المعرفة - بيروت، 1379).
- 83- الفتوى: أهميتها، ضوابطها، آثارها، د. محمد يسري إبراهيم، ط1 (دون ذكر الناشر ومكان النشر، 1428هـ/2007م).
- 84- فقه النوازل للأقليات المسلمة «تأصيلا وتطبيقا»، الدكتور محمد يسري إبراهيم، ط1 (دار اليسر، القاهرة- مصر: 1434 هـ - 2013 م)
- 85- الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، عدون جهلان، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، عمان، د.م.
- 86- فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم، محمود، علي عبد الحليم، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1994م.
- 87- في مرآة التاريخ، عبد الله شريط و محمد المليي، ط1 (مكتبة البعث، قسنطينة، 1965).
- 88- القاموس المحيط، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8 (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1426 هـ - 2005 م)
- 89- قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، د. جمال قنان، د.ط (المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، الجزائر، 1994).
- 90- كتاب التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف

- الناشر، ط1 (دار الكتب العلمية بيروت - لبنان: 1403 هـ - 1983 م).
- 91- كتاب الجزائر، توفيق المدني، بدون معلومات نشر.
- 92- لسان العرب، أبو الفضل محمد ابن منظور الأنصاري، ط3 (دار صادر - بيروت، 1414 هـ)
- 93- ليل الاستعمار، فرحات عباس، نقله إلى العربية: أبو بكر رحال، نقح الترجمة: عبد العزيز بوباكير، د.ط (دار القصة للنشر، الجزائر، 2005).
- 94- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: تفسير ابن باديس، عبد الحميد بن باديس، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط1 (دار الكتب العلمية، بيروت، 1416 هـ - 1995 م)
- 95- المجتمع والإسلام والنخب الإصلاحية في تونس والجزائر: دراسة مقارنة من منظور علم الاجتماع التاريخي، عبد اللطيف المرماسي، ط1 (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2018)
- 96- مجموع ذاكرة الجزائر، دار كرادة: الجزائر، 2011، طبعة خاصة.
- ج3: اللمع على نظم البدع، عبد القادر المجاوي، تحقيق: عبد الرحمن دويب / تنبيه المغتربين في الرد على إخوان الشياطين، صالح بن مهنا، علق عليه: هارون آل باشا الجزائري.
- ج4: تحفة الخليل في حل مشكلة من مختصر خليل، الشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن السلطاني الزيتوني، تحقيق: عبد الرحمن دويب
- ج6: مسائل عبد الله بن أبي مدين التمنيطي، تحقيق: زهير قزان.
- 97- مجموعة الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي: ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، ط1 (عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر: 2013)
- 98- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، أبو القاسم سعد الله، ط3 (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1982).
- 99- المدخل إلى علم الدعوة، أبو الفتح البيانوني، ط3 (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422-2001).
- 100- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، ط2 (مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، 1417 هـ - 1996 م).
- 101- مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضرية، تعريب محمد العربي الزبيري، د.ط (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1981)

- 102- مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج1، د.ط (دار دحلب - الجزائر: 1985م)
- 103- مذكرات حياة وذكريات أحداث، عمار مطاطلة، ط1 (الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، 2012).
- 104- مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ترجمة وتقديم: محمد خير محمود البقاعي، ط1 (جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011).
- 105- المرأة ، حمدان خوجة، تعريب وتحقيق د. محمد العربي الزيري، د.ط (المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر: 2006)
- 106- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط1 (دار الكتب العلمية - بيروت: 1411 - 1990)
- 107- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ت: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1 (مؤسسة الرسالة، 1421هـ -2001م)
- 108- مسند الموطأ: أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَافِيُّ، ت: لطفي الصغير، طه بُو سريح، ط1 (دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1997 م).
- 109- المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر ، محمد حسن فضلاء، ط2 (دار الأمة، الجزائر، 1999).
- 110- مطبوعة أصول الدعوة وطرقها 1، مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية، دون معلومات نشر.
- 111- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ط2 (مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت: لبنان، 1400هـ-1980م).
- 112- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار، بمساعدة فريق عمل، ط1(عالم الكتب، 1429هـ - 2008 م).
- 113- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض، تقديم: مُفْتِي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، ط3 (مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان،

- 1409 هـ - 1988 م).
 114- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، ت: عبد السلام هارون، (دار الفكر، 1399 هـ - 1979 م).
 115- معركة الاسلام والصليبية في الجزائر، صالح عوض، د.ط، الزيتونة للإعلام والنشر، 1989.
 116- مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي القحطاني، د.ط (مطبعة سفير، الرياض، د.ت).
 117- المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها، تطورها، أعلامها: من 1903-1931، محمد ناصر، د.ط (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398 هـ - 1978 م)
 118- من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 830-1954، د. شاوش حباسي، د.ط، (دار هومة، الجزائر، 1998)
 119- منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ط1 (عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1424 هـ/2004 م).
 120- موجز في تاريخ الجزائر: عمورة عمار، ط2 (دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002).
 121- الموجز في تاريخ الجزائر، يحي بوعزيز، ط2 (ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009)، ج2.
 122- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، ط2 (دار السلاسل - الكويت: من 1404 - 1427 هـ).
 123- موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، ط2 (مؤسسة الدار السننية، السعودية، 1435-2014).
 124- الموسوعة التاريخية للشباب: محمد البشير الإبراهيمي، د. عبد المالك مرتاض، ب.ط (طبع المؤسسة الوطنية للفنون، وحدة الرغبة، 1984)
 125- موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين، مجموعة من الأساتذة: إشراف رابع خدوسي، ط1 (منشورات الحضارة، الجزائر: 2014)
 126- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، ط4 (دار الندوة العالمية، 1420 هـ)

- 127- الموطأ، مالك بن أنس الأصبحي، ت: محمد الأعظمي، ط1 (مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان- أبو ظبي - الإمارات، 1425هـ - 2004م).
- 128- موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الحضارة الغربية، يوسف بوغابة، ط1 (عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018).
- 129- ميادين الصراع بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، يوسف بوغابة، ط1 (دار المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2018).
- 130- نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1956، سعيد بورنان، تصدير: أبو القاسم سعد الله، تقديم: محمد الصالح الصديق، د.ط (دار هومو للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011).
- 131- نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، عبد الحميد زوزو، د.ط (المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، 2009).
- 132- هذه هي الجزائر، أحمد توفيق المدني، بدون معلومات
- 133- وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط5 (دار الفكر، دمشق: 1406-1986)
- الدوريات:**
- 1- الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، د. عبد المالك خلف التميمي، عالم المعرفة، عدد: 71، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983.
- 2- إسهامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعليم اللغة العربية وصون مكانتها، عبد الرحمن بوزنون، مجلّة الواحات للبحوث و الدراسات المجلد 12 العدد 2: 2019.
- 3- أضواء على التنصير والمنصرين في الجزائر 1830-1892م، أ.حميد قرنتلي، مجلّة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، العدد: 15 و16، 2012-2013م.
- 4- الإمام ابن باديس ومواقفه من الاندماج، خالد بوهند، مجلّة الدراسات الإسلامية: عدد: 4، 2014.

- 5- تاريخ الصحافة المكتوبة في بلدان شمال إفريقيا، إلياس طلحة، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، عدد 14، 2015.
- 6- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: نشأة وتطور الإصلاح وهياكله بعمالة الجزائر 1931-1956، عفاف زقور، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد 49، 2018.
- 7- جهود الشيخ أطفيش الإصلاحية ومواقفه الوطنية، بالحاج أوزايد، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، عدد 12، 2011.
- 8- جهود جمعية العلماء المسلمين في تعليم المرأة: 1931-1956، سمير أبيش، مجلة الساوره للدراسات الإنسانية والاجتماعية: العدد السادس: 2 ديسمبر 2017.
- 9- جهود فقهاء الجزائر في خدمة الفقه المالكي، د. ماحي قندوز، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر-1، بن يوسف بن خدة، العدد السابع.
- 10- "حسن بولحبال مفتي وهران"، عبد القادر خليف، مجلة الإنسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا و العلوم الاجتماعية، عدد 23-24، 2004.
- 11- خصائص الفقه الباديسي، محمد عيسى؛ من معالم التغيير الحضاري عند ابن باديس، محمد رزمان، مجلة الموافقات: المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، ع6، السنة 6، 97-1998.
- 12- خطوط عريضة لجهود التعريب بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا (1931م-1956م)، معيوش إبراهيم، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المجلد 5، العدد 10، (جوان 2017).
- 13- الدعوة الإسلامية وآفاق المستقبل في ظل العولمة، منى حسب الرسول، مجلة الصراط: السنة 14، عدد: 25، شعبان 1433، يوليو 2012.
- 14- رسالة خاصة إلى محمد السعيد الهلالي، الإبراهيمي، مجلة الموافقات: المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، العدد 4، السنة 4، جوان 1995.
- 15- سياسة فرنسا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر 1930-1954، د. بلقاسم ميسوم، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، عدد: 6.
- 16- الشيخ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه، ذو القرن، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،

قسنطينة، د.ط (1432-2011).

- 17- الشيخ عبد القادر المجاوي، أعمال الملتقى الوطني بتلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011.
- 18- الفكر الاجتماعي الإصلاحي عند جمعية العلماء المسلمين، بوسعيد سمية، مجلة المعيار، مجلد 23، عدد 45، 2019.
- 19- القيم الاجتماعية بإقليم توات من خلال أدب النوازل -نوازل عبد الرحمن الجنتوري أمودجا، د. خير الدين شترة، مجلة التراث، المجلد 5، العدد 17.
- 20- لافيحري والتنصير في الجزائر، ضخامة الإمكانيات والجهود وضآلة النتائج والمردود. قرى العرب النصارى أمودجا، عبد القادر بوتشيشة، مجلة آفاق علمية، م: 11 العدد: 2 السنة 2019.
- 21- المذهب الحنفي ومشيخة الإسلام الحنفية في الجزائر من فتح شمال إفريقيا إلى غاية الاستقلال، فارس زاهر، سونر دومان مجلة جامعة إرجيس كلية الإلهيات، Bilimname، الإصدار: 37، قيصري، تركيا، 2019.
- 22- مساهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على الهوية الوطنية، كمال عجالي، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 16، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر: 2001.
- 23- موقف الطرق الصوفية من نشاط الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بتلمسان 1932-1939، أ. عبد الرحمن بن بوزيان، مجلة المعارف للمعارف والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، مجلد 1، عدد 3، نوفمبر 2015.
- 24- موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من العلوم و المعارف المعاصرة ، عجالي كمال ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 1، المجلد 18، 2003.

المذكرات والرسائل الجامعية:

- 1- أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية من عهد التأسيس إلى عهد التعددية، حياة عمار، أطروحة دكتوراه في الأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013-2014.
- 2- أعلام الحركة الإصلاحية بالغرب الجزائري: دراسة في السير والمواقف، بلعربي عمر، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب العربي المعاصر، قسم التاريخ، جامعة بلقايد، تلمسان، 2017-2018.

- 3- الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي 1830-1962، ملاح الهواري، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة- وهران1، 2015-2016.
- 4- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالقطاع الوهراني: 1929-1954، تابتي حياة، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة بلقايد، تلمسان، 2010-2011.
- 5- التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904، دراسة تاريخية تحليلية، وعلي محمد الطاهر، رسالة ماجستير في علوم التربية، جامعة الجزائر، 1988-1989م.
- 6- جريدة البصائر الجزائرية الثانية وموقفها من قضايا معاصرة 1947-1956، عبد الكريم بلبالي، مذكرة ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، الجامعة الإفريقية أحمد دراية؛ أدرار، 2012.
- 7- جهود أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تقرير توحيد العبادة والرد على المخالفين فيه، سليم مجوبي، رسالة ماجستير، قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1428-1429هـ.
- 8- جهود علماء الجزائر في الرد على التنصير إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962م، عبد الرؤوف قرناوب، رسالة ماجستير: مقارنة أديان، قسم العقيدة والأديان، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1، 2014-2015م.
- 9- الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي ١٩٥٤ و ١٩٢٠، عبد القادر قوبع، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008.
- 10- الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر: 1880-1914، عبد الحميد عومري، أطروحة دكتوراه في تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، قسم العلوم الإنسانية: تاريخ، جامعة الجيلالي الياوس، سيدي بلعباس، 2017.
- 11- الدولة والمجتمع في برنامج الحركة الوطنية: 1919-1962، مراد بوعباش، أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية، قسم العلوم السياسية، جامعة الجزائر3، 2010-2011.
- 12- السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1914: دراسة في أساليب السياسة الإدارية، عثمان

زقب، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر - باتنة، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، 2014 - 2015.

- 13- الشيخ أبو يعلى الزواوي وجهوده في الفقه والأصول، بوبكر صديقي، دكتوراه في العلوم الإسلامية، فقه وأصول، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة 1، 2016 - 2017.
- 14- الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي مصلحا، أحمد عيساوي، أطروحة دكتوراه في أصول الدين، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر، 2000 - 2001،

- 15- قضايا الإصلاح عند الشيخ عبد القادر المجاوي: 1848 - 1914، زهيرة جرموني - جميلة بحرية، مذكرة ماستر ظاهرة استعمارية في الوطن العربي، قسم التاريخ، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، 2016 - 2017.

- 16- قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية: 1925 - 1954، زهير بن علي، مذكرة ماستر: قسم العلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر - باتنة، 2014 - 2015.

- 17- ملامح الاتجاه الإسلامي في أدب المقال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محمد درق، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2009 - 2010.

- 18- منهج الشيخ أطفيش في التعامل مع السنة النبوية، فتحي دادي بابا، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص أصول الدين الحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2015 - 2016.

الجرائد:

1- البصائر

2- البلاغ الجزائري

3- السنّة

4- الشريعة

5- الشهاب

6- الصراط

7- لسان الدين

8- المنتقد

9- وادي ميزاب

المواقع الالكترونية:

- الإصلاح الاجتماعي وأثره في تحقيق الأمن الاجتماعي، د. بكر مصطفى بني ارشيد، مقال
مقدم للمؤتمر الثاني لكلية الشريعة بعنوان الأمن الاجتماعي في التصور الاسلامي

<https://web2.aabu.edu.jo/ShariaConfreance/doc/3-4.doc>

- الإصلاح العقدي في دعوة ابن باديس وأثره على المجتمع الجزائري، د. محمد حاج عيسى.

<https://binbadis.net/archives/3821>

- كتاب "رسالة الشرك ومظاهره" للأستاذ الشيخ محمد مبارك الملي: دراسة تحليلية دعوية،

بقلم: د. مفيدة بلهامل <https://binbadis.net/archives/9030>

- "الشيخ العلامة عبد القادر الياجوري.. رجل الوطنية والفكر والاجتهاد"، بشير خلف:

<https://binbadis.net/archives/8820>

- "أحمد بوشمال المناضل المجاهد المثقف الشهيد"، محمد الطيب.

<https://binbadis.net/archives/11612>

- "المرحوم الشيخ محمد الصالح رمضان: وجهوده في خدمة الدين والوطن والعلم"، محمد بن

سمينة. <https://binbadis.net/archives/2361>

- موضوع وخصائص الدعوة الإسلامية، د. هند بنت مصطفى شريف:

<https://www.alukah.net/sharia/0/68785/#ixzz5jSJT6biQ>

- منهج الإسلام في الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، أحمد حلمي سيف النصر،

<http://www.alkhaleej.ae/supplements/page/db12ac0a-ba45-4ce9-abf9-55fd7d5d6d4b>

- الإصلاح الاجتماعي،

<http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/Mnfsia15/Soci>

[alRefo/sec01.doc_cvt.htm](http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/Mnfsia15/SocialRefo/sec01.doc_cvt.htm)

- الإصلاح السياسي والحركات الإصلاحية في المنطقة العربية، د. محمد تركي،

<https://www.politics->

[dz.com/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%](https://www.politics-dz.com/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%)

- معالم الإصلاح الاجتماعي عند علال الفاسي، د. عثمان كضوار،

22:16، 23- 6 -2020،<http://maqassed.ma/article/detail/493>

– أهمية الدعوة إلى الله تعالى، ناصر بن سعيد السيف،

<http://saaid.net/Doat/naseralsaif/69.htm>

– نساء في رحاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مولود عويمر:

www.oulamadz.org/2016/03/01/%D9%86%D8%B3

– "من أعلام الجزائر: الشيخ محمد شارف رحمه الله"، عبد الحليم توميّات:

<https://web.archive.org/web/20201207113016>

– المكّي بن باديس قاضي بلد قُسْنَطِينَة (1817-1899 م)، عبد المالك حداد

<http://www.natharatmouchrika.net/index.php/articles/tarik>

[h/item/2766-1817-1899](http://www.natharatmouchrika.net/index.php/articles/tarik/h/item/2766-1817-1899)

– مفهوم الهوية الوطنية: محاولة في التعريف الوظيفي، باقر جاسم محمد.

<https://www.politics-dz.com/%D9%85%D9%81>

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	السورة	
104	119	البقرة	1
36	193	//	2
299/202	247	//	3
6	102	آل عمران	4
24	104	//	5
29	159	//	6
6	1	النساء	7
288	59	//	8
32-31	146 - 145	//	9
33	3	المائدة	10
30	67	//	11
103	58	الأعراف	12
30	158	//	13
28	119	التوبة	14
299	122	//	15
30	128	//	16
29/24/20	(3) 88	هود	17
27	108	يوسف	18
104	11	الرعد	19
36/27/6	(3) 125	النحل	20
153 - 152	7	مريم	21
28	12	//	22

6	71 - 70	الأحزاب	23
281 / 38	21	//	24
104	13	الحجرات	25
29	3-2	الصف	26
19	2	الجمعة	27
281	26	المطففين	28
27	5	البينة	29

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث	
21	«قل آمنت بالله، ثم استقم»	1
24	«إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، «	2
29-28	«الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»	3
29	«إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ»	4
29	«مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ، يُحَرِّمِ الْخَيْرَ»	5
37	«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ»	6
104	«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»	7
105	«مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»	8

فهرس الأعلام

81.....	إبراهيم أبو اليقظان
78.....	إبراهيم بن عامر السوفي
164.....	إبراهيم بيوض
74	ابن العنابي
117.....	أبو راشد القسنطيني
78.....	أبو يعلى الزواوي
46.....	أحمد باي
99	أحمد بوشمال
54.....	أحمد توفيق المدني
45.....	الأمير عبد القادر الهاشمي
75.....	البشير الإبراهيمي
144.....	الحاج عبد الرحمن بوعزيز
137.....	حسن بولحبال
91.....	الحفناوي
44.....	حمدان خوجة
178.....	حميدة بن المكي بن باديس
134	حميدة بن محمد العمالي
73	شعيب بن علي الجليلي
214.....	الشيخ محمد السعيد السحنوني
120.....	الصالح بن العابد القسنطيني
93.....	صالح بن مهنا
76	الطيب العقبي
116.....	عاشور الخنقي
216	عباس بن حمانة

107.....	عبد الحفيظ الخنقي الونجلي
79.....	عبد الحليم سماية
51.....	عبد الحميد بن باديس
121.....	عبد السلام بن عبد الرحمن السلطاني الزيتوني
143.....	عبد العزيز البلبالي
78	عبد القادر المجاوي
257	عبد القادر الياجوري
25.....	العربي التبسي
134	علي بن الحفاف
81.....	عمر بن قدور
81.....	عمر راسم
186.....	فرحات عباس
218.....	الفضيل الورثلاني
120.....	قدور بن سليمان المستغامي
75.....	مالك بن نبي
76.....	المبارك الميلي
99	محمد السعيد الزاهري
137.....	محمد السعيد بن زكري
214.....	محمد السعيد السحنوني
80.....	محمد الصالح رمضان
111.....	محمد العابد الجيلالي
111.....	محمد العاصمي
77	محمد العيد آل خليفة
143.....	محمد بن أحمد البدوي البكري
225.....	محمد بن بلقاسم الهاملي
109	محمد بن رجال

72	محمد بن عبد الرحمن الديسي
73	محمد بن علي الونيسي
79	محمد بن مصطفى الخوجة
72	محمد بن يوسف أطفيش
219	محمد حسن فضلاء
169	محمد خير الدين
126	محمد شارف
91	محمد مزيان بن الحداد
215	المختار بن الحاج السعيد
133	مصطفى بن الكبابطي
126	مصطفى بن عبد القادر بن فريجة
108	مصطفى باش تارزي
107	المكي بن الصديق الخنقي
178	المكي بن باديس
90	المهدي البوعبدلي
79	المولود الزريبي
78	المولود بن الموهوب
92	رين
65	لافيجري
131	ليون روش

فهرس الطرق الصوفية:

88.....	التجانية.....
92.....	الحنصالية.....
89.....	الدرقاوية.....
88	الرحمانية.....
88.....	السنوسية.....
87.....	الشاذلية.....
88.....	العلوية.....
92.....	العیساوية.....
87.....	القادرية.....

فهرس الموضوعات

الإهداء.....	3
الشكر والتقدير.....	4
المقدمة.....	5
إشكالية البحث:.....	8
أهداف الدراسة:.....	8
أسباب اختيار الموضوع:.....	9
الدراسات السابقة:.....	10
منهج البحث:.....	12
صعوبات البحث:.....	13
خطة البحث:.....	14
الفصل التمهيدي.....	17
المبحث الأول: مفاهيم الدعوة والإصلاح والعلاقة بينهما.....	18
المطلب الأول: الدعوة لغة واصطلاحاً.....	18
المطلب الثاني: الإصلاح الاجتماعي.....	20
الإصلاح لغة.....	20
اصطلاحاً:.....	20
المطلب الثالث: العلاقة بين الدعوة والإصلاح الاجتماعي في المفهوم والتطبيق العملي.....	24
المبحث الثاني: أركان الدعوة والإصلاح الاجتماعي.....	26
المطلب الأول: الداعي والمصلح الاجتماعي.....	26
المطلب الثاني: المدعو والمجتمع محل الإصلاح.....	30

- المطلب الثالث: موضوع الدعوة والإصلاح.....33
- المطلب الرابع: الأساليب والوسائل في الدعوة والإصلاح.....36
- المبحث الثالث: أوضاع الجزائر من: 1830 إلى 1954.....39
- تمهيد:.....40
- المطلب الأول: أوضاع الجزائر السياسية.....42
- المطلب الثاني: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.....54
- الفرع الأول: الأوضاع الاجتماعية.....53
- الفرع الثاني: الأوضاع الاقتصادية.....59
- المطلب الثالث: الأوضاع الدينية والثقافية.....63
- الفرع الأول: الأوضاع الدينية.....63
- الفرع الثاني: الأوضاع الثقافية.....66
- الفصل الأول: جهود علماء الجزائر الدعوية : 1830 – 1954 م.. 69**
- المبحث الأول: تصحيح العقيدة وتقوية الإيمان.....70
- تمهيد:.....70
- 1-الواقع العقدي قبل الاحتلال الفرنسي:.....70
- 2-بعد الاحتلال:.....71
- المطلب الأول: تقرير التوحيد وإبطال الشرك ومحاربة البدع والخرافات:.....71
- 1-الفترة من 1830م إلى 1900م:.....71
- 2- من 1900م إلى 1954م:.....74
- 3- أسس الإصلاح العقدي:.....83
- 4-أثر الإصلاح العقدي على المجتمع الجزائري:.....85
- المطلب الثاني: جهود علماء الجزائر في الرد على الطرق الصوفية المنحرفة.....86
- 1- مفهوم التصوف:.....86

- 2- حال الطرق قبل الاحتلال: 87
- 3- حال الطرق الصوفية بعد الاحتلال: 88
- 4- جهود علماء الإصلاح في مجابهة الطرق الصوفية المنحرفة: 93
- المبحث الثاني: غرس القيم وتهذيب الأخلاق 103
- المطلب الأول: ماهية الأخلاق وأهميتها 103
- 1- ماهية الخلق: 103
- 2- أهمية الأخلاق في حياة البشر: 103
- 3- الاحتلال والأخلاق: 104
- المطلب الثاني: واقع الأمة الجزائرية الأخلاقي: 106
- 1- الفترة ما بين 1830 - 1900 م 106
- 2- الفترة ما بين 1900 و 1954 م 109
- المبحث الثالث: تعليم الفقه و تصحيحه والتصدي للفتاوى 114
- المطلب الأول: خدمة الفقه وتصحيحه 114
- 1- وضع الفقه الإسلامي قبل الاحتلال: 114
- 2- السياسة الفرنسية نحو الفقه الإسلامي 115
- 3- جهود العلماء في خدمة الفقه من 1830 إلى 1954 116
- أ- بعض سمات الفقه الإصلاحي 121
- ب- آثارهم الفقهية 125
- ج- أثر المرجعية الفقهية على الأمة الجزائرية 129
- المطلب الثاني: خدمة الفتوى: 130
- تمهيد 130
- 1- المفتون الرسميون 132
- 2- المفتون الأحرار 140

- 3- جمعية علماء المسلمين الجزائريين والفتوى.....145
- 4- إسهامات المفتين الجزائريين.....150
- المبحث الرابع: محاربة التنصير.....152
- المطلب الأول: ماهية التنصير 152
- المطلب الثاني: سياسة فرنسا التنصيرية في الجزائر: 153
- 1- الشخصيات والهيئات:.....156
- المطلب الثالث: جهود العلماء في الرد على التنصير:.....158
- الفصل الثاني: جهود علماء الجزائر في الإصلاح الاجتماعي : 1830-**
- 1954م.....171**
- المبحث الأول: الحفاظ على الهوية الوطنية 172
- تمهيد:.....172
- المطلب الأول: الهوية الوطنية والسياسة الفرنسية.....174
- 1- تعريف الهوية 174
- 2- أهمية الوعي بالهوية 174
- 3- أهم مقومات الهوية 175
- 4- سياسة فرنسا وأهدافها نحو الشخصية الجزائرية.....175
- المطلب الثاني: الحفاظ على الهوية من خلال الرد على الاندماج والتجنيس والمحافظة على التاريخ 178
- 1- الجهود العامة.....179
- 2- الإدماج.....179
- 3- التجنيس.....190
- 4- التاريخ.....195
- المبحث الثاني: إحياء التعليم والحفاظ على اللغة العربية.....203

- المطلب الأول: إحياء التعليم.....203
- 1- واقع التعليم قبل الاحتلال.....203
- 2- التعليم بعد الاحتلال.....204
- 3- أهداف سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر.....207
- 4- جهود العلماء في إحياء التعليم وإصلاحه.....210
- أ- خلال القرن التاسع عشر.....210
- ب- خلال القرن العشرين.....212
- 1- جهود بني ميزاب 215
- 2- المدارس الحرة 216
- 3- جهود جمعية العلماء المسلمين.....217
- الخلاصة.....221
- المطلب الثاني: الحفاظ على اللغة العربية.....223
- المبحث الثالث: معالجة الانحرافات والمشاكل الاجتماعية.....229
- المطلب الأول: الاهتمام بالمرأة 229
- تمهيد.....229
- 1- موقف السياسة الفرنسية من المرأة الجزائرية.....229
- 2- جهود العلماء في إصلاح شأن المرأة.....230
- أ- جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.....233
- ب- إسهاماتهم في تعليم المرأة.....235
- الخلاصة.....237
- المطلب الثاني: الآفات الاجتماعية.....239
- تمهيد: عن واقع الجزائريين مع الآفات الاجتماعية وأسبابها.....239
- 1- جهود العلماء في محاربة الآفات الاجتماعية.....241

244.....	2- جهود الحركة الإصلاحية.
249.....	الخلاصة.
-1830	الفصل الثالث: وسائل الدعوة والإصلاح وآفاقها وتحدياتها:
250.....	1954م.
251.....	المبحث الأول: وسائل الدعوة والإصلاح الاجتماعي.
251.....	المطلب الأول: الوسائل التقليدية:
251.....	الفرع الأول: التعليم
261.....	الفرع الثاني: الكتابة والتأليف:
264.....	الفرع الثالث: الرحلات والزيارات:
267.....	المطلب الثاني: الوسائل المعاصرة:
267.....	الفرع الأول: الصحافة:
276.....	الفرع الثاني: النوادي والجمعيات.
279.....	خلاصة المبحث:
281.....	المبحث الثاني: مآخذ الحركة الدعوية فترة الاحتلال الفرنسي.
281.....	المطلب الأول: التنافس والعداوات:
283.....	المطلب الثاني: الوظيف الفرنسي:
285.....	المطلب الثالث الوسائل التقليدية:
286.....	المطلب الثالث: الطرق الصوفية المنحرفة.
288.....	المطلب الخامس: الدعوة والأفكار الفردية:
290.....	المبحث الثالث: استثمار آثار الدعوة والإصلاح في واقعنا المعاصر.
290.....	تمهيد:
290.....	المطلب الأول: الاهتمام بالثوابت الدينية والوطنية:
291.....	المطلب الثاني: محاربة الأحزاب الداخلية الموالية لأعداء الجزائر:

المطلب الثالث: تحقيق التوافق بين الانتماء الشرعي ومواكبة الحضارة:.....	292
المطلب الرابع: استغلال الوسائل الدعوية المستجدة:.....	293
المطلب الخامس: الزهد في المناصب السياسية:.....	294
المطلب السادس: الاهتمام بالعامل الاقتصادي في سير المشاريع الدعوية:.....	295
المطلب السابع: تفعيل دور العلماء في حلّ مشاكل الأمة:.....	296
الخاتمة:.....	298
الفهارس.....	301
قائمة المصادر والمراجع:.....	302
القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم.....	302
الكتب العامة:.....	302
الدوريات.....	312
المذكرات والرسائل الجامعية:.....	314
الجرائد:.....	316
المواقع الالكترونية:.....	317
فهرس الآيات القرآنية.....	319
فهرس الأحاديث النبوية.....	321
فهرس الأعلام.....	322
فهرس الطرق الصوفية:.....	325
فهرس الموضوعات.....	326